

أُصْدَاءٌ وَظِلَالٌ

(سيرة ذاتية)

شريف، عمرو

أصداء وظلال (سيرة ذاتية)/ د. عمرو شريف. - القاهرة: نيو بوك للنشر والتوزيع/

ط ١ / القاهرة: ٢٠١٦ م.

٤٣٨ ص؛ ١٤ × ٢١ سم

تدمك: ٢-١٥-٦٥١٩-٩٧٧-٩٧٨

رقم الإيداع: ٢٠١٦/٩٧٨٣

١- شريف - عمرو - المذكرات

٢- الأطباء المصريون

٣- الأطباء كمؤلفين

أ- العنوان

٩٢٠

دار النشر: نيو بوك للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: أصداء وظلال (سيرة ذاتية)

الكاتب: د. عمرو شريف

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبع: ٢٠١٦

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



نيو بوك

٦ عبارات الدفاع الوطني - حقائق القبة - القاهرة

ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤

newbooknb@gmail.com

أصداءٌ وظلال

(سيرة ذاتية)

د. عمرو شريف



2016



إهداء

إلى رفيقة العمر...

التي شاركتني مسيرة الرحلة

ولولاها ما حققتُ ما حققت...

شكراً

عمرو شريف

المحتويات

صفحة

الموضوعات

13	 مقدمة.. ملامح الرحلة
	الجزء الأول
	سيرة ومسيرة
	 الفصل الأول: الطفل الصَّلصال
25	(البذور في بورسعيد - هنا القاهرة)
	 الفصل الثاني: صناعة جراح
	(لماذا الطب....؟ - الطالب المُجد - طبيب الامتياز - جراح
39	تحت التمرين - الجراح المؤسوس - الجراحة وعالم الفكر)
	 الفصل الثالث: تحت جبال الهندكوش
	(تغيير الوجهة - في بيشاور - مهتمى الطبية - حياقي في
65	بيشاور - في الأسفار سبع فوائد - حَرْبُ سيئة السمعة!!!)
	 الفصل الرابع: لبيك ربى....
	(الطريق واحد والدواب كثر - المحطة الأخيرة - إعداد
	المسرح - تجربتي مع الإسلام السياسى - مع الفكر السلفى
85	- في رحاب الصوفية - التعقل.. المبتدأ والمنتهى)
	 الفصل الخامس: مُصرُ التى في خاطرى
	(مهد الحضارة - طمسُ الهويّة - المؤامرة - معشوقتي مصر
119	- استيفاءُ الديون - هل أنا متعصب؟!)

- الفصل السادس: أنا والمرأة... والحب
 (الطفل والكأس والكمنجة - المرأة... تَجَلَّى الجمال الإلهي -
 من المرأة إلى الحب - الحب في شرح الشباب - منبع الحب -
 137 النضج النفسى والحب الحقيقى - من العام إلى الخاص)
- الفصل السابع: أنا والآخر
 (شخصية انطوائية - الآخر البشر - الآخر الوجود -
 167 الإعلام)
- الفصل الثامن: المسيح الدجال
 (طبيب نفس الحضارة المادية - كنت ترسًا من تروسها!!
 199 - سائحٌ يَقْظُ)

الجزء الثانى

عالم الفكر

- الفصل التاسع: جعلونى مفكرًا
 (بناء مفكر - مُدَرِّسٌ - أُمى وأبى - أذنى الموسيقى تقودنى
 إلى عالم الفكر.. - الأطباء وعالم الفكر - كيف تُصبح
 243 مفكرًا)
- الفصل العاشر: الثمار - 1: محاولاتٌ أدبيةٌ مُبَكِّرة
 (ثمرات غير فكرية - الثمرات الفكرية الأولى -
 271 إرهاصاتٌ أديبٍ يتدرب على الجراحة)

- الفصل الحادى عشر: الثمار - 2: مشروعى الفكرى
 (مع مؤلفاتى - مآخذات!! - ملامح مشروعى الفكرى -
 تجديد الفكر الدينى - تجديد الفكر العلمى - الديناميكية
 فى فكرى العلمى وفكرى الدينى - منافذ الفكرية - لمن
 هذا المشروع - السير نحو الهدف)
 303
- الفصل الثانى عشر: الثمار - 3: معارضى ضد الأصولية
 (معارضى ضد الإلحاد الأصولى - معارضى ضد الأصولية
 المستعلمة - معارضى ضد الأصولية الدينية - الأصولية
 الدينية والتطور البيولوجى - مدرسة الأصوليين الخلقويين
 - طموحاتى...)
 343
- حصاد الرحلة.. أنا.....
 407

مقدمة

ملامح الرحلة

في أحد أيام العام 2005، كنت جالساً مع فضيلة الدكتور عبد الصبور شاهين (رحمه الله)، حجة علوم اللغة العربية والدين، أقرأ عليه مسودات كتابي «أبي آدم من الطين إلى الإنسان».

في إحدى جلسات القراءة، أخبرت د. عبد الصبور بأنني أكتب كتاباً عن الرحلة الفكرية لأستاذي د. عبد الوهاب المسيري (رحمه الله)، فعلق د. عبد الصبور قائلاً أود أن نقرأ رحلتك أنت بين الجراحة وعالم الفكر، أسأل الله أن يمد في عمري حتى أقرأها.

لم أحمل تعليق د. عبد الصبور محمل الجد، فما كنت أظن أن لدى من التجارب الحياتية والفكرية ما يستحق أن أسجله، وما كنت أرى نفسي إلا أستاذاً للجراحة له بعض اتهامات فكرية.

لماذا....؟

خلال إبحاري في السيرة الذاتية للدكتور عبد الوهاب المسيري (رحمه الله)؛ «رحلتي الفكرية... في البذور والجذور والثمر»، كنت أتأمل أفكار الكتاب بدقة، بعد أن عقدت العزم على أن أبسط للقارئ العربي رحلة د. المسيري الفكرية، وأن أعرضها في هيئة ثمار سهلة ممتعة

لشبابنا، حتى لا يفوته عطاء هذه الرحلة الثرى، الذى يكاد أن يكون بلا نظير.

كتب د. عبد الوهاب المسيرى فى مقدمة كتاب سيرته الذاتية قائلاً:

«ولتكن هذه السيرة دعوة للمفكرين العرب أن يكتبوا سيرهم غير الذاتية غير الموضوعية التى تحتوى على تلخيص لأفكارهم وبذورها وكيفية تشكيلها، ليضعوا خبراتهم تحت تصرف الأجيال القادمة، ومما يجعل المسألة أكثر إلحاحاً تعاظم الفجوة بين الأجيال، مما يؤدى إلى عدم توارث الحكمة والمعرفة، فأخشى ما أخشاه أن تبدأ هذه الأجيال من نقطة الصفر».

نَشَطَّت دعوة د. المسيرى فى خاطرى بعد أن تلقيت استفسارات كثيرة من قرائى حول مراحل «تطورى» الفكرى، التى دفعت أستاذًا للجراحة لأن يستكمل تأليف دسنة من الكتب الفكرية الكبيرة فى العلاقة بين العلم والفلسفة والدين.

وكلما سألنى سائلٌ عن سر اهتمام أستاذ الجراحة بعالم الفكر بهذه الغزارة، أجبتُه بحكاية رواها لى د. المسيرى حول فتى من دمياط (تتبعها بلدة أمى) صادقه فى المرحلة الثانوية، وكان عبقرىً يحمل بذور مفكر متميز، ثم هاجر الفتى إلى كندا ودرس الطب، وتزوج من فتاة كندية، وهَجَرَ عالمَ الفكر، وأصبح «مجرد» أستاذ للجراحة هناك. يعتبر د. المسيرى أن الإنسان إذا توافرت له القدرات ثم هجر عالم الفكر فقد خَسِرَ الكثير وأصبح «مجرد» إنسان عادى، حتى وإن أصبح أستاذًا للجراحة فى كندا. هل كانت الحكاية درسًا آخر يقدمه لى د. المسيرى؟

لا شك فى ذلك....

كيف...؟

كلما أنهيت تأليف كتاب من كتبى الأخيرة، جال بخاطرى أن يكون الكتاب التالى حول سيرتى الذاتية ورحلتى العلمية والعقلية والفكرية، وكنت أقدم قداماً وأوخرُ الأخرى، تهيئاً لثقل المهمة، لكن يبدو أن الأوان قد آن، ولر يعد هناك سبيلاً للتخلص.

جاء الآن دور السؤال؛ كيف أعرض رحلتى العقلية والفكرية التى تتخلل (كأصابع اليدين المتشابكتين) مشوارى الجراحى وحياتى كإنسان. وإذا كنت قد تغلبت على صعوبة اتخاذ قرار عرض المشوار والمسيرة، فقد واجهت صعوبة: وكيف يكون العرض؟

تفكرت فيما قرأت من السَّير الذاتية. كان أول ما قرأت فى صباى سيرة الكاتب الكبير توفيق الحكيم، لقد استخدم الحكيمُ الأسلوب القصصى؛ بدءاً بفترة صباه فى «عودة الروح»، ثم «يوميات نائب فى الأرياف» كوكيل للنيابة، وأخيراً «عصفور من الشرق» كطائر مسافر إلى فرنسا. وينتقل توفيق الحكيم من الأسلوب القصصى إلى أسلوب الحوار مع عصاه «عصا الحكيم» ومع حمارة «حمار الحكيم» لينقل لنا مراحل نضجه وتطوره الفكرى.

كما طالعت فى هذه المرحلة «أيام» طه حسين التى استخدم فيها أيضاً الأسلوب القصصى. «وسندباديات» د. حسين فوزى، و«حياتى» أحمد أمين، و«قصة حياة» إبراهيم المازنى، و«قصة حياتى» لطفى السيد، وغيرها.

بعد هذه المرحلة، طالعت «أنا» و«حياة قلم» العقاد، والسيرة الثلاثية

المتتالية لزنكي نجيب محمود: «قصة نفس» ثم «قصة عقل» ثم «حصاد السنين».

ولا شك أن كتابات د. مصطفى محمود الفكرية والقصصية تعكس بوضوح مراحل تطوره الفكرى، التى استفاد منها الكثيرون من قراء اللغة العربية، وقد استفدت منها فى مختلف مراحل حياتى.

ومن السير الذاتية العالمية عشت مع «اعترافات» جان جاك روسو، التى كانت استهلالاً لأدب السيرة فى الفكر المعاصر.

وحين قاربت الستين، تأثرت تأثراً عميقاً بـ «رحلة د. عبد الوهاب المسيرى الفكرية»، التى يقول فى وصف منهج تدوينها:

«والصفحات التالية هى قصة حياتى أو رحلتى الفكرية كمثقف عربى مصرى، رحلة ترابطت فيها الأفكار (الثمر) بجذورها (حياتى الثقافية بأسرها) وبيذورها (تكوينى فى دمنهور). وهى ليست قصة حياتى الخاصة زوجاً وأباً وابنًا وصديقاً وعدواً، فهى ترصد تحولاتى الفردية فى الفكر والمنهج، كما تؤرخ فى الوقت نفسه لجيلى، أو لقطاع منه، فتحولاتى ليست بأى حال منقطعة الصلة بما يحدث حولى، لذلك فهى (سيرة غير ذاتية)».

«كذلك فإن هذه الرحلة الفكرية (سيرة غير موضوعية) أى لا تقف عند الموضوعات بل تلتقى فيها القضايا الفكرية (العامة) مع أحداث ووقائع محددة فى حياتى الشخصية (الخاص). لذلك حينما طلبت من الرسام كمال بلاطة أن يرسم لى صورة [بورتريه] بمناسبة وصولى سن الأربعين، قال إن من الأفضل رسم أعمالى، فأخذ بعض مؤلفاتى ورسمها، فكان البورتريه الذى رسمه صورة غير ذاتية غير موضوعية».

وقد مثلت رحلة د. عبد الوهاب المسيري الفكرية تحديًا أمامي، فقد أعجبني منهجها وناسبني، وفكرت في أن أتبعه في كتابة سيرتي، لكن آنى لمفكر - مهما علا شأنه - أن يمزج بين الخاص والعام، والذاتي والموضوعي، في حبكة تترك لدى قارئها ما تركته رحلة المسيري في عقلي ونفسي. إن منهج تدوين رحلة المسيري لا يطاله مفكر.

وبينما أقلب مناهج المفكرين في تدوين سيرهم الذاتية لآتخير من بينها ما يناسبني، بزغ في خاطري طيف أخى الفاضل الشيخ د. محمد العوضي، المفكر الكويتي الكبير، وهو يسألني في أثناء زيارتي الأولى له في الكويت: عندما نقول سألتني نفسي، أو سألت نفسي، فمن السائل ومن المسؤول؟ وكان سؤال د. العوضي يلح عليّ كل حين.

وإذا كانت الذات الإنسانية - تبعًا لطرح القرآن الكريم - تتركب من خماسية «الجسد والروح والنفس والعقل والقلب»، وإذا تركنا الجسد (لماديته) والقلب والروح (لغموضهما) فسيتبقى من المنظومة: النفس والعقل، ولا شك أن أحدهما هو السائل والآخر هو المسؤول.

انطلقت في تأمل النفس، فوجدت القرآن الكريم يحدد لها مراتب ثلاث: النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة. وترتقى النفس في هذه المراتب بالعبادات والمجاهدات والتفكير.

وأصدقك القول؛ قارئى الكريم، أن الله عزَّ وجلَّ قد جعل - بفضله ومنه - نصيبى من النفس الأمارة بالسوء ضئيلاً وله الحمد والشكر، كما أننى بلا شك لم أتمتع بسكينة النفس المطمئنة بعد.

وبالفعل، فإن نصيبى الأكبر هو من «النفس اللوامة»، التى تلوم

صاحبها على ما يفعل وتساؤه وتحاسبه وتحاكمه، كما سترى خلال سيرنا معاً في هذه المسيرة.

أدركتُ ذلك....

وتنبهت إلى أن النفس اللوامة تحاسب العقل دائماً على اختياراته...

عندها قررت أن المنهج الأمثل لعرض سيرتي الذاتية ورحلتي العقلية والفكرية هو منهج المساءلة والمحاسبة التي تقوم بها النفس اللوامة للعقل. فمن خلال هذا المنهج لا يتم استعراض الرحلة وحسب، بل ويتم تقييم مراحلها وخطواتها بمنظور الصواب والخطأ.

اسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُمدني بالقدرة والإخلاص والصدق في عرض مراحل الرحلة وخطواتها وما أقطفه من ثمارها، وأن ينتفع بها قارئوها، كما سبق أن انتفعتُ بها.

مصادر الرحلة

وإذا كنت سأعتمد فيما سأعرض من أحداث مسيرتي على ذاكرتي، فسأدعم الذاكرة بثلاث مصادر دقيقة رئيسية؛ الأول هو مجموعة كبيرة من الخطابات كنت أكتبها لزوجتي رفيقة العمر، سواء في فترة الخطوبة أو بعد الزواج، أثناء سفراتي المتكررة خارج مصر، وتحوى هذه الخطابات ذكريات قديمة، وأحداث معاصرة، وأحلام مستقبلية. والمصدر الثاني هو بعض دفاتر المذكرات التي كنت أدون فيها كل حين وآخر أهم ما يمر بي من أحداث. والمصدر الثالث؛ رسائل كتبتها على صفحتي على الفيسبوك لقرائي في الفترة الأخيرة.

اسمح لى قارئى الكريم بأن أنقل لك سطوراً من خطاب كتبتة
لخطيبتى منذ أربعين عاماً أحدثها فيه عن أمر انتويته، خاص بما نتحدث
الآن عنه:

رفيقة العمر...

«أبدأ فى خطابى هذا وخطابى القادمة لك فى تدوين كل ما يخطر فى
ذاكرتى من أحداث ما زالت محتزنة بها عن أيام الطفولة والصبا، وهى
الفترة التى قضيتها فى بورسعيد منذ ميلادى وحتى انتقلنا إلى القاهرة عام
1960.

وإذا سألت لماذا أكتب فى هذه الموضوعات؟ أجبتك؛ لا أدرى على
وجه الدقة، إنها ولا شك محاولة لإثارة ذكريات عن أهم فترات عمر
الإنسان، وقد ترجع هذه الرغبة إلى اتجاهى لدراسة النفس على المستوى
الأكاديمى، وفى الوقت نفسه اتجاهى لفهم نفسى وإصلاح عيوبى. وقد
يكون السبب فى الكتابة هو الاحتفاظ بذكريات غالية جداً، إنها أيام
عشتها، إنها جزء منى، لذلك لا ينبغى أن أتركه للضياع.

ونيتى أن أستمر فى تسجيل ما يمر بى من أحداث حياقي؛ أسجلها
فى خطاباتى لك عند افتراقنا، وأسجلها فى دفاتر طوال أيام وسنوات
صحبتنا.

وإذا تساءلت، لمر اخترت أن أكتب لك أنت (فى خطاباتى ودفاترى)
ذكريات الماضى وأحداث الحاضر وأحلام المستقبل، فالإجابة هى؛ من
سوى رفيقة العمر له الحق فى الاطلاع على عمرى كله، ومن سواها
جدير بأن يحفظ ذكريات أيامى، التى هى جزء من ذاتى...».

بين النفس والعقل

سَعِدَتَ نفسى اللوامة أن ستخرج من مكنمها، وأن سيكون لها ظهور من خلال تدوين هذه السيرة، فقالت فى أول تحرشاتها بى:

أراك - أيها العقل - بعد طول تردد قد شرعت فى تدوين سيرتك الذاتية ورحلتك العقلية والفكرية، هل تظن أنك قد أنجزت فيها شيئاً يستحق أن تعرضه على قرائك وأن تتركه دروساً للأجيال من بعدك؟ أجبتها كاظماً غيظى: أحسبُ ذلك، أليدك اعتراض؟!

قالت اللوامة: أنا لا أنكر أنك قد حققت إنجازاً إنسانياً ومهنيّاً وفكريّاً لا بأس به. فقد أصبحت أستاذاً ورئيساً لأقسام الجراحة بكلية الطب، ومفكراً له اثنا عشر إصداراً كبيراً تشتمل على مشروع فكرى متكامل تعرضه فى الصحف والفضائيات. لا أنكر أن رحلتك تستحق التدوين والتسجيل حتى يستفيد منها الشباب.

تنفستُ الصُّعْدَاءُ أن رَضِيتَ عني التى لا ترضى! لكنها لم تتركنى لفرحتى بل أضافات من فورها: ولكن؛ لا تنس أننى أشاركك إنجازك هذا، فقد كنتُ عوناً لك، ولم أكن عبئاً عليك كباقي النفوس.

لم تنتظر اللوامة حتى أسألهما؛ وكيف ذلك؟ بل أضافت قائلة: أنت لم تجرب أهوال «النفس الأمارة بالسوء»، التى تدفع الإنسان دفْعاً فى طريق وعر شاق لا نهاية له إلا بالموت، طريق مليء بالشهوات التى لا تشبع وبالطموحات التى لا تنتهى، وهى أكبر مداخل الشيطان إلى الذات الإنسانية، والمصيبة أنها تزين للشخص أنه «فى السليم» وأن هكذا ينبغي أن تكون الحياة. وبالتالي ما كانت لتترك لك - أيها العقل - مجالاً لإنجاز أو إبداع.

وأضافت اللوامة: وكذلك «النفس المطمئنة»، ما كانت تُعينك كما
أَعَنَّتْكَ. أدهشني هذا الرأي للوهلة الأولى، فكيف لا يُعين الشعور بالرضا
والسكينة والطمأنينة العقل على الإبداع واختيار الطريق الأصوب؟!
لا شك أنني كنت سأصل إلى الإجابة لو أمهلتني اللوامة قليلاً، لكنها لم
تفعل، بل أردفت قائلة:

لا تتغابي أيها العقل! أنت تعلم جيداً ما يصحب الطمأنينة والسكينة
من هدوء وتراخي، هما أكبر مثبطات العقل. وأضافت: أنت مُطالع
للفكر الصوفي، ولا شك أنك تعلم أن ما يحققونه من عروج نفسي
وروحى يورثهم الزهد في الإنجاز في الدنيا.

ولخصّت نفسي اللوامة مقصدها قائلة: أرايت أنى أنسب النفوس
للعقول الوثابة المنطلقة، أمثلُّ لها الناقد والمصحح للمسار والدافع للإبداع
والحامى من تكرار العثرات والزلات، ولولاى ما حققت ما حققت،
وفوق كل ذلك كنتُ أرضى من حظوظ النفوس بالقليل. باختصار، لقد
كنتُ هبة من الله عَزَّجَلَّ لك، لنستكمل منظومة واحدة تشتمل على
الفعل والتقويم فى آن واحد.

يا الله... ما أشد شكيمة أيتها اللوامة....

لم تكتفى بلومى طيلة حياتى، فالتفتِ إلى النفس الأمانة التى جعلها
الله عَزَّجَلَّ ابتلاءً للبشر، وأيضاً إلى النفس المطمئنة التى هى عطاء إلهى
لأهل الله فى الدنيا، التفتى إليهما بالنقد واللوم، ولم تتركهما وشأنهما.
ومع ذلك، لم تفزعنى شكيمة النفس اللوامة، فقد عايشتها لأكثر من
ستين عاماً، تغالبنى وأغالبتها.

ثم أضافت لوامتى: هل تأملت الآيتين الأوليين من سورة القيامة
في القرآن الكريم ﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ ﴿[القيامة: 1 - 2]، لقد ربط ربنا عزَّجَلَّ في قَسَمِهِ بيني وبين يوم القيامة.
أتعرف لماذا؟

لم تتركني النفس اللوامة لأجيب، بل أردفت: ذلك أنى أسألك وأناقشك
الحساب في الحياة الدنيا، مثلما أن ربنا عزَّجَلَّ سيسألك ويناقشك الحساب
يوم القيامة.

أصدقك القول - قارئى الكريم - لقد كانت نفسى اللوامة بمثابة
الضمير، وكانت خير رفيق، بل كانت دائماً - كما ذَكَرْتُ - دافعى للأمام.
وإذا كنا - بالرغم من المدافعة - على وفاق طوال سنين العمر، فلا
أحسبني أخشى طرح لقطاتٍ من تعاملاتنا على هذه الصفحات، تمثل بناء
هذه السيرة الذاتية ورحلة العقل والفكر.



الجزء الأول

سيرة ومسيرة

الفصل الأول

الطفل الصَّلَصال

قالت لى نفسى اللوامة:

قبل أن نبدأ المساءلة ونتناقش الحساب، هل توافقنى
- أيها العقل - أن فى حياة كل إنسان مرحلة مبكرة،
كان فيها كقطعة من الصَّلَصال، طفل لا عقل له

ولا نفس، تُشكله عوامل التنشئة فى بيته وفى بيئته المحيطة؟

أجبت نفسى اللوامة: لا شك فى ذلك.

قالت اللوامة: هلا حدثتنا عن ملامح هذه المرحلة وانعكاسها على
شخصيتك، حتى تتكون عندى أرضية صلبة عن نشأتك، أسائلك فى
ضوئها.

بدأتُ فى إعطاء خلفية عن نشأتى لنفسى اللوامة، فقلت:

وُلِدْتُ فى مدينة بورسعيد فى التاسع عشر من ديسمبر العام 1950،
لأب قاهرى من الطبقة المتوسطة، تخرج فى كلية التجارة جامعة فؤاد
الأول، وطاف هو وأمى محافظات مصر شاغلاً وظائف مختلفة، حتى
استقرا فى بورسعيد كخبير اقتصادى بوزارة العدل - لمدة عشر سنوات
وُلِدْتُ فى بداياتها.

وكانت أمى سيدةً فاضلةً، وُلِدَت وتربت بمدينة فارسكور بمحافظة دمياط، وكان والدها تاجرًا وموظفًا بحكمة البلدة، أما أمها فكانت من الشريفات الحسينيات. وتربت أمى كفتيات المجتمعات التراحمية التى تجمع بين أخلاقيات ومفاهيم المدن الصغيرة والقرى، والتى تهتم بتعليم بناتها التعليم الابتدائى بالإضافة إلى المهارات المنزلية والأسرية، وأشغال الإبرة وتفصيل الملابس.

وإذا كان أبى هو أكبر أشقائه العديدين وأعلاهم منزلة اجتماعية ومادية، وكانت أمى هى الأخت الوحيدة لأخواتها الذكور الستة، فقد جعل ذلك لى ولأخوى الأكبر منى منزلة متميزة فى عائلة أبى وعائلة أمى. وكانت بورسعيد فى هذه الفترة مدينة كوزموبوليتانية Cosmopolitan، تتلاقى فيها الحضارات والجنسيات المختلفة، سواء من المستوطنين من العاملين فى هيئة قناة السويس وباقى نشاطات المدينة وأسرههم، أو من المارين بها من المسافرين عبر القناة. ولا شك أن هذا النمط الحضارى يصبغ قاطنى المدينة بصفات، أهمها رُقَى المعاملة وسعة الأفق وتعدد المفاهيم وتقبل الآخر.

ومن ثم، يمكن القول إن هناك ثلاثة روافد تربوية شاركت فى نشأتى منذ طفولتى؛ الرافد المدنى القاهرى، المتمثل فى والدى، والذى تم استكمالها بالانتقال للقاهرة للعيش فيها طيلة حياتى وحتى الآن. والرافد التراحمى (القرمَدنى⁽¹⁾)، المتمثل فى والدتى، والذى امتد تأثيره

(1) اصطلاح ربما أكون أنا الذى صككته! وأقصد به مجتمعات المدن الصغيرة المحاطة بالقرى، ويسود فى هذه المجتمعات مزيج من أخلاق التراحم الغالبة فى القرى وأخلاق التعاقد التى تسود المدن الكبيرة.

وتعمق كثيرًا في حياتي من خلال ترددي الدائم على بلدتها فارسكور فيما بعد. وثالثها، الرافد الكوزموبوليتاني، والمتمثل في ميلادي وتربيتي لعشر سنوات في بورسعيد، والذي استكمل تأثيره باطلاعى على الآداب والفلسفات العالمية بمراحلها التاريخية المختلفة.

البذور في بورسعيد

قالت نفسى اللوامة: إذا بدأنا بذكر ياتك عن بورسعيد، البلد المنشأ، فماذا تَبَقَّى في ذاكرتك - أيها العقل - من أحداثها؟
لأستحضر ذكرياتي القديمة، نَقَّبْتُ في رسائلِ التى كتبتها لخطيبتى منذ أربعين عامًا عن تلك المرحلة من عمري، فوقعت يدي على رسالة أقول فيها:

«رفيقة العمر...»

اعتقد أن أقدم ما تجود به الذاكرة يتعلق بمدرسة الحضانة، قد يكون ذلك قبل أن أبلغ الرابعة من عمري.

أذكر أن مريلة الحضانة كانت مربعات صغيرة بيضاء وحمراء، أو زرقاء، وأذكر عندما شَرَعْتُ أُمى في تفصيلها بنفسها، وأذكر أن حذائي وشرابي كانا أبيضًا اللون، وأذكر عندما اشتروا لى سَبْتًا من الخوص لزوم الساندوتشات والكراسة والقلم.

لا أذكر عندما كان أتوبس «حضانة الأندلس» يأخذنى من المنزل، لكنى أذكر عندما كانت مُدَرِّسة الفصل (مس سميرة أو سميحة) تستقبلنا عند باب المدرسة وتُسرع بنا الخُطى في ممراتها إلى الفصل.

كانت المدرّسة ثانياً حب في حياتي بعد أمي، كانت شابة صغيرة، تُسرح شعرها كذيل حصان، وكانت تعلمنا الأناشيد، ولا أنسى نشيد فريري جاكو الذي حفظناه وكنا نرده باللغة الفرنسية. وأذكر يوم أن غابت حبيبتي، تركتني وحدي، يومها بكيت بشدة، وعندما تساءلت المدرسة البديلة عن سبب بكاء عمرو - كان طبيعياً أن أراها فظة قاسية - أخبروها بأنني أحب مدرّستي جداً!

كان ضوء الفصل خافتاً... وكان الفصل يُطل على حديقة صغيرة بوسط الحضانة، وكان يفصله عن الحديقة طريق ضيق مرصوف باللون الأحمر، وكان بالحديقة بعض الأزهار والنباتات المتسلقة.

كثيراً ما حدثوني عن حجرة الفئران... وأنهم يدهنون جسد الطفل بالعسل الأسود حتى تأكله الفئران... ما أقساهم. وعندما عاقبوني يوماً لم يرسلوني إلى هذه الحجرة، واكتفوا بتأجيل مرواحي من الحضانة ساعتين أو ثلاثاً، لا أذكر لماذا.

كنت في هذه الفترة هادئاً منطوياً، لا أخاطب زملائي كثيراً... فقد كانت علاقتي بمدرّستي الحبيبة تغني عن الكثير.

هل بُذرت في نفسي بذور الرومانسية في هذه الفترة؟!

واستطردتُ أقرأ على النفس اللوامة من رسالتي لخطيبتي:

«وخارج إطار الحضانة، تتمحور معظم ذكرياتي البورسعيدية القديمة حول مجرى قناة السويس، الذي كنا نسكن في مقابلته في الطابق الرابع من بناية على الطراز الفرنسي الخشبي القديم الذي كان منتشرًا في حي الأفرنج ببورسعيد.

تدوى في ذاكرتى السمعية الآن صفارة السفينة هيمالايا، التى طرقت
أُذُنِي طفل الرابعة الراقدة فى فراشه بعد انقضاء ساعتين من منتصف الليل،
قفز الطفل وأخواه من فراشهم كعادتهم فى هذه المناسبة، وفتح أكبرهم
«شيش الفراندة»، وتثبت الطفل بسورها الخشبي. شاهدت أبواب محال
الهدايا والأنتيكات وأيضاً الصيارفة تُفتح وواجهاتها تُضاء، وشاهدت
البمبوطية⁽¹⁾ يندفعون بفلايكهم إلى السفينة هيمالايا ليناولوا بالحبال
بعض منتاجاتهم لراكبى السفينة. وبعد قليل سَاحَ ركابُ السفينة فى
جماعات فى شوارع المدينة. وكم كانت فرحة الطفل كبيرة حين صحبه
أحد كبار البمبوطية فى نزهة بحرية فى أحد تردداته على السفن العابرة
للقناة.

وما زالت حتى الآن تكتكات موتور معدية بورسعيد - بورفؤاد
الشهيرة تطرق سمعى كل حين، وأيضاً دقات جرسها قبل التحرك، بل
ما زلت أستم رائحة الجاز المستخدم فى تشغيل محركات المعدية. وكانت
أجرة المعدية جيئةً وذهاباً مليمين للكبار ودون مقابل للصغار، وكم
ركنتها مجاناً وأنا متجه إلى بلاج دانفان (الأطفال) التابع لأسر العاملين
بهيئة القناة، فى رفقة إحدى أسرهم من أصدقاء والدَيَّ.

ومن ذكريات الطفل المرتبطة بالقناة، خروجه مع أسرته للتمشية
على ممشى ديليسبس المطل على ملتقى القناة بالبحر المتوسط، وكان
أهلُه يشترُون له السميط والدُّقة من البائع الذى كان يمازحهم قائلاً إن
السميط جاء ساخناً لتوه على المركب.

(1) البمبوطى هو التاجر الذى يقصد السفن بقاربه ليعرض على الركاب بضاعته، وربما كان
اللفظ مُحَرَّفًا من Man Boat One

واعتماد الطفل أن يستيقظ مع أسرته قبيل فجر يوم شم النسيم ليُشاهد «مراسم اللمبى»، فقد كان الشباب من أهل الشارع يصنعون دُمية بحجم الرجل ترمز للحاكم العسكرى البريطانى اللورد اللمبى ويُدُونها بالجلال من أحد طوابق البيت الحديد الشهير فى بورسعيد - والمجاور لسكنه - فى أتون النار التى أشعلوها فى أقفاص الجريد».

وفى أثناء تنقيسى فى خطاباتى التى أرسلتها لخطيتى، عثرت على هذا الخطاب الذى أتحدث فيه عن ذكريات بورسعيدية أخرى ترجع لما بعد هذه المرحلة العمرية بقليل، جاء فيه:

«أذكر أننى كنت مشتركاً فى المكتبة الأمريكية ببورسعيد، وهى تقع قريباً من بيتنا فى منطقة راقية ولا يزال مبناها قائماً حتى الآن. وكانت المكتبة تهتم بجذب الأطفال؛ فَخَصَّصَتْ أماكنَ لكتبهم المصورة، وكانت تعرض أفلاماً عن «جُحَا» تصاحبها موسيقى «سوق العبيد» لفريد الأطرش، كما تعرفت هناك على «توم آند جيرى» لأول مرة.

وتعلمنا فى المكتبة الأمريكية هواية جمع طوابع البريد وتنسيقها ومبادلتها وترُقُب مظاريف الإصدار الأول. وفيها التقينا بالأطفال والصبية من أعمارنا من مختلف الجنسيات. وخلال انتظارنا لفتح أبواب المكتبة فى فترة ما بعد العصر كنا نلهو على رصيفها، ونصعد سلمها ونهبط من الناحية الأخرى. وعندما تُفَتَّح أبوابُ المكتبة كانت تنبعث منها الرائحة الطيبة لمطهرات الأرض، كنت أعتبرها رائحة النظافة. كما أذكر خروجنا - بعد العرض السينمائى - من باب المكتبة الجانبى.

وكانت توجد أمام المكتبة حديقة، جرت فيها معارك أيام العدوان الثلاثى على بورسعيد، فسميناها حديقة الشهداء، وكنا نلعب فى الحديقة

التي يفصلها عن فندق بورسعيد الأشهر - فندق بالاس - سور من الأشجار العالية.

وفي مساء الخميس، كنتُ أذهب مع أَخَوَيَّ إلى سينما مصر بحى العرب، أو ماجستيك بحى الأفرنج. وما زلت أذكر مشاهدتي لفيلم رُد قلبي (عام 1957)، الذى عَلى فى ذهنى منه اصطلاح «علي ابن الجنابى».

وفي صباح الجمعة، كانت أُمى تُحَمِّمنا بالماء الساخن، الذى كان يغلى فوق وابور الجاز، وما زالت احتفظ فى خاطرى بطقوس تخفيف الماء الساخن بالماء البارد وتصادد البخار فى أثناء هذه العملية. وكانت أُمى تهتم بدعك رُكْبنا جيداً إذا كان عليها بعض البثور والقشور الناتجة من سقوطنا من فوق الدراجة. وإذا كان أحدنا يعانى نوبة برد كانت أُمى تقص ورق الجرائد وتضعه تحت فائلته الداخلية. وبعد أن نخرج من الحمام كنا نجلس فى أَسْرَتنا نستمتع من الراديو إلى برنامج بابا شارو.

ذكرتنى إحدى أقدم الصور فى ألبوم طفولتى بأنى كنت عضواً بفريق الموسيقى فى المدرسة خلال السنة الأولى الابتدائية، فقد كنت أطرق بالصاجين فى مواضع معينة من اللحن الذى كنا نعزفه. ولاشك أن ذلك يتطلب أذنًا موسيقية أثبتت هذه الصورة أن طفلنا يتمتع بها، وأكدها تعلقه أيامها بآلة الماندولين الوترية، وأيضًا تذوقه للموسيقى والغناء فيها بعد...

وأذكر أننا فى أحد أيام مولد النبى ﷺ، خرجنا مع والدينا لمشاهدة المواكب، وجلسنا فى حديقة كازينو الغزل، وكانت الميكروفونات تذيع لحن الموسيقى أحمَد فؤاد حسن «صلوا على نور النبى». وكنا فى أيام الأعياد نجلس فى الحديقة نفسها ونستمع للأطفال يغنون «يامه

القمر غالباب (عام 1957) ونأكل الجيلاتى، أو نجلس فى كازينو جيانولا
ونأكل الكاساتا».

أما صيف الطفل بيورسعيد فكان له شأنٌ أى شأن!

«كان بيت الأسرة الكبير المكون من ست غرف يستقبل أفواجا
من أسر أعمامنا وعماتنا وأخواننا طوال أشهر الصيف، وكان الضيوف
المقيمون لا يَقلُّون فى أى وقت عن العشرين شخصا من الكبار
والصغار، وكان بعضهم ينام تحت ترايزة السفرة، وتشهد على ذلك
صورُهم القديمة. وفى الصباح كان فريق من المصطافين يسبق إلى
البحر بالشماسى والكراسى لاحتلال موقع مناسب، وتبقى أمى وسيدة
أو اثنتان لإعداد طعام الغداء قبل أن يلحقوا بالسابقين.

وكثيراً ما كان الغداء يشتمل على السردين المشوى الممتلىء بالدهن
فى موسم فيضان النيل، والذى كانت أمى تملأ به صاجين أو ثلاثة من
صيجان الكحك وترسله إلى الفرن، وأيضاً الجمبرى والكابوريا التى
كان يتم سلقها فى الحلة النحاسية الكبيرة فوق وابور الجاز».

ولعل من الأحداث ذات الدلالة والتوثيق كانت الهجرة من بورسعيد
أيام العدوان الثلاثى عليها فى أكتوبر العام 1956.

«كاد طفلنا أن يُتم العام السادس من عمره عندما هاجرت الأسرة إلى
فارسكور (محافظة دمياط)، وكان بصحبتنا أصدقاء العمر؛ أسرة الأستاذ
وهذان صديق الوالد التى استضافتها عائلة أمى فى إحدى شققها إكراماً
لوالدى.

كانت سيارتنا آخر السيارات التى عبرت كوبرى الرسوة المار فوق

بحيرة المنزلة خروجًا من بورسعيد، بعدها تم تفجير الكوبرى حتى لا
يسيح المعتدون على بورسعيد إلى الدلتا. لذلك عند عودتنا بعد انتهاء
الحرب عبرنا البحيرة بقوارب الصيادين».

لقد دَعَمَت ذكريات الهجرة إلى فارسكور بذور التراحم في نفس
طفلنا، فقد رأى الأسر يتزاورون يوميًا ويتبادلون المجاملات، كما رأى
بيوتات البلدة يتنافسون في الحفاوة بأسرته ويتناوبون دعوتها للغذاء
تقديرًا لمنزلتهم وتخفيفًا عن أهلنا هناك.

«وقد انعكست أجواء الحرب على البلدة الصغيرة، وذلك في هيئة
إظلام ليلى كامل للشوارع مع لصق الورق الأزرق الداكن على زجاج
النوافذ ليحجب الضوء الخافت المنبعث من الكُلبات ولمبات الجاز داخل
البيوت، كما انعكست هذه الأجواء في الحواجز الطويلة التي بناها
أثرياء البلدة أمام بوابات بيوتهم. وما زالت ذاكرتى تحمل طقوس إشعال
الكُلبات واستبدال الرتاين المحترقة وتوزيعها في غرف بيت خالى الأكبر
(فاضل مجاهد) الذى كنا نُقيم فى ضيافته.

وكان خالى يرسل خادمه إلى محل العصير ليشتري لنا الخروب والتمر
هندي والعرقسوس وعصير القصب، ويصل البراد الألومنيوم الكبير إلى
البيت وقد انكسى بقطرات بخار الماء الباردة بسبب الثلج الذى يطفو
فوق العصير. ولا شك أن هذه المشروبات الوطنية ما زالت المفضلة
عندى حتى الآن.

وترجع أقدم ذكرياتى فى فارسكور إلى سن الرابعة، حين كان جدى
(رحمه الله) يُجلسنى خلف حديد شباك بيته المطل على النيل، ويسقيني
كوب اللبن».

قالت نفسى اللوامة محتجة؛ ما جدوى أن تُشغل قراءك بهذا الكم من تفاصيل طفولتك، والتي لا أرى لها أهمية في تشكيل شخصيتك؟ إنك لو استمرت على هذا النهج في باقى سيرتك الذاتية لاحتجت لعشرة مجلدات لتنتهى منها.

قلت لنفسى اللوامة: إن كل ما ذكرتُ يعرّض طقوسًا ومراسم كانت تميز حياة طفلنا، ولعلها أصَلَّت في نفسه احترام الطقوس والمراسم، حتى شَبَّ صاحبنا على ذلك وشابَّ عليه. وكيف تقولين أن ليس لهذه المواقف أهمية في تشكيل شخصيتنا⁽¹⁾!! ألا تعرفين دور التنشئة في بناء الشخصية!

أطرقت نفسى اللوامة، وتركتنى أسترسل في عرض المواقف المهمة في حياتى والتي أثَّرت في نشأتى.

هنا القاهرة...

كان يومًا فاصلاً في حياة الأسرة وحياة الصبى، ما زلت أذكر يوم ركبنا السيارة والتف حولنا الجيران ومؤذن الزاوية وأصحاب المحال المحيطة يُودِّعوننا؛ سننتقل من بورسعيد إلى القاهرة، إذ تَرَقَّى الوالد من منصب مدير محلات عمر أفندى ببورسعيد إلى عضو بمجلس الإدارة ومدير للمشتريات بالشركة في القاهرة.

انتقلنا إلى القاهرة الصاخبة التى لا يعرف فيها الجارُ جاره، وسَكَنَّا في حى جاردن سيتى الأرستقراطى في شقة واسعة تطل على نيلنا الخالد.

(1) يتكرر في هذه السيرة الذاتية الحديث بالمتنى، وهنا يقصد العقل شخصيته هو والنفس، أو العكس.

وكان الصبى يتمشى على كورنيش النيل، كما كان يعبر كوبرى قصر النيل إلى النادى الأهلى بالجزيرة ليمارس رياضتيّ الباتيناج والسباحة التى تعلمها فى بورسعيد.

فى هذه المرحلة ظهرت بعض سمات شخصية الصبى، فكان كثير التأمل للسفن الشراعية والقوارب فوق سطح النيل، وكم توقف ليملاً عينيه من جمال الزهور فى حديقة الأندلس القابعة فى مدخل الجزيرة، يبدو أن الصبى كان ذواقاً للجمال. كما كان الصبى يسعى جاهداً لإتقان رياضتيه المفضلتين، وهذا يعنى أنه كان منذ صغره مثابراً يصبو إلى الإتقان.

وفى إجازة نهاية الأسبوع، كنت أركب دراجة أخى الأكبر وأطوف بها على أكشاك المشروبات الغازية فى الحى لأجمع غطيان الكازوزة، حتى صرت معروفاً عند أصحابها. وفى البيت كنت أقوم بتسخين الغطيان حتى تنفصل عنها الفلينة الداخلية، ثم أقوم بطرق أطرافها حتى تستوى أقراصاً مستديرة أقوم بتشكيلها فى هيئة مناضد وكراسى وسُفن. وكنت من الزبائن المستديمين عند باعة دود القز والاسكويبدو على باب المدرسة. وكثيراً ما أقارن ألعابنا القائمة على اكتساب المهارات بألعاب أحفادنا القائمة على استعمال التكنولوجيا.

وعندما لمس الأب افتنان ابنه الأصغر بالمهارات اليدوية قام بشراء ميكانو معدنى كبير له فى أولى رحلاته إلى تشيكوسلوفاكيا، وظهرت مهارة الصبى اليدوية فى تركيب قطع الميكانو فى هيئة أوناش وسيارات وسفن وماكينات، فتنبأ أفراد العائلة أنه سيصير مهندساً، ولم تكن تنبؤاتهم بعيدة عن الصواب، فقد صار جراحاً.

وكانت المكتبتان الأمريكية والبريطانية تقعان على مسيرة ثلاث دقائق من المنزل، فاستمر الفتى من خلالهما في ممارسة هوايته جمع الطوابع ومشاهدة أفلام الكارتون الأمريكية، وتعلّم التقيب في المكتبات واستعارة الكتب.

وعلى الجانب الآخر من الحى، وليس بعيد، يقع حى الحلمية الجديدة، وكان الصبى وأخواه يقطعان الطريق (مشياً على الأقدام عبر شارع الشيخ ربحان أو نركب ترامواى 17 جمائز) إلى بيت جدتهم سى زنب هانم المفل على شارع الخلبج (بورسعيد حالياً)، حيث تربى والدهم وحيث تقطن عماته وأعمامه. كان لقاء أسبوعياً دافئاً يجمعهم بعائلة أبيهم كل خميس، وفى هذا اللقاء كان الصبى يستشعر حب الجدة والأعمام والعمات له كامتداد لحبهم واحترامهم لأخيهما الأكبر، إنه نفس الحب الذى كان يستشعره من أخواله فى فارسكور.

بعد ثلاث سنوات من السكنى بجاردن سى انتقلت الأسرة للسكن بشارع قصر النيل فى العمارة الملاصقة لسىنا قصر النيل. لقد فتح هذا الانتقال للفتى نوافذ كثيرة، صار يطل من خلالها على المعرفة فى سر وسهولة فى هذه السن المبكرة. لقد أصبح يسكن فى صرة وسط البلد، تحيطه السينيمات التى كان يرتاد إحداها مرة أسبوعياً على الأقل ليشاهد فىلماً أجنبياً فى وقت لم تكن الفضائيات ولا الإرسال التليفزيونى موجودين، ثم بدأ الإرسال وأصبح يمتد لساعتين فقط. كما كانت أكشاك الكتب والمكتبات وأيضاً دار الكتب المصرية على مسافة فركة كعب من منزله، فكان يمر عليها ليشاهد الكتب والمجلات ويحمل باقتنائها أو استعارتها.

كذلك تَعَلَّمَ الفتى التسكع في شوارع وسط البلد وتناول
السندوتشات والعصائر واللب والسودانى من محالها. وكان يقوم بمعظم
جولاته وحده، لقد كان شخصية انطوائية، وقد تعلم كيف يستثمر ما
تُوفره الانطوائية من وقت.

القارئ الكريم....

لقد نشأ الصبى نشأة سوية في جو من الحب والاحترام بين والديه
وجدوده وأخواله وأعمامه وعماته، كانت نشأته خالية (والحمد
لله) من المصائب والصدمات. وقد شارك في هذه النشأة روافد ثلاثة:
الكوزموبوليتانية والقرمندية والقاهرية. ولا شك أن هذه النشأة قد
أفرزت ساحة نفس وسعة صدر وتقبلاً للآخر، كما تؤكد نظريات علم
النفس الحديثة.

كذلك أفرزت هذه النشأة تعلقاً سويًا بالأب والأم، كرمزين للسلطة
والحنان، فكان طبيعياً أن تكون علاقته بالإله الخالق، الملك القدوس،
الرحمن الرحيم علاقة تَعَلُّقٍ سَوِيٍّ واعتزاز وحب⁽¹⁾.

كذلك أيضاً نشأ صبياً كشخصية عاطفية رومانسية متوازنة،
شخصية تحترم النظام والطقوس، وتحب الفن والموسيقى والجمال، وتحب
القراءة وتُحسن تدبير الوقت.

والحمد لله، أن كان طفلنا الصلصال في أيدٍ أمينة؛ أسرة وعائلة وبيئة

(1) تؤكد هذه المفاهيم نظرية التعلق Attachment Theory ونظرية التقصير الأبوى Defective Father Hypothesis. راجع الفصلين الرابع والخامس من كتابي «الإلحاد
مشكلة نفسية»، نيويورك للنشر والتوزيع، 2016.

أحسنوا تشكيله، وأحسنوا انتقاء بذور الرجولة وغرسها في أرض صالحة، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58].

والحمد لله رب العالمين

الفصل الثاني

صناعة جراح

قالت لى نفسى اللوامة:

لقد كان تخصصك فى الجراحة أكثر المسارات التى
نَعَصْتُ حياتى! لقد أصبح عَلَى أن أراقب عواقب
كل قرار تتخذه تجاه مرضاك وكل خطوة تقوم بها
فى أثناء وبعد إجرائك كل عملية جراحية، خاصة وأننى أطرح دائماً
أسوأ الاحتمالات. فلم أكن لأسمح بأية حال أن يُصاب مريض بأى
ضرر بسببنا⁽¹⁾، لذلك تجددنى أَفْلَقُ وأتوتر كلما رن جرس التليفون ليلاً
خشية أن يكون أحد مرضاك قد أصيب بمضاعفات من جرّاء إحدى
جراحاتك.

قلت لنفسى اللوامة: أوافقك تماماً فى شكواك، لكن هل أنا الذى
أسبب لك هذه المعاناة، أم إنها طبيعتك الوَسْوَاسَة؟ الحقيقة أنك أنتِ
التي تجعلينى أعانى كثيراً. فحتى أُهْدَى وسوسك أضطر لمراجعة قرارى
وخطوات عمليّاتى الجراحية التى أجريتها أكثر من مرة.

اعتبرت أننى قد أفحمت النفس اللوامة، فإذا بها تدفع اتهاّمى باتهام

(1) النفس تتحدث هنا بالمشئى، إشارة إليها وإلى العقل، باعتبارهما جزأين من ذاتٍ
واحدة.

أقوى، كانت محقة فيه. قالت: أنت الذى اخترت هذه المهنة وهذا التخصص، أما كان الأخرى بك وأنت تعلم شخصيتنا الوسوسة أن تتخير مهنة أو تخصصاً أقل إثارة للقلق والتوتر. أسقط فى يدي، لقد أفحمتنى اللوامة.

نعم، أنا العقل الذى اخترت المهنة والتخصص اللذين أجهدانى طيلة حياتى. ولأننى عاهدت نفسى أن ألزم الصدق فى حوارى معها، أقررت لها أنها قد أصابت الحق، فسألتنى بلهجة حازمة، كالقاضى الذى أقر المتهم أمامه بجرمه؛ ولمَ فعلت ذلك؟ وهل ترتّب على اختيارك هذا إضرار بمرضاك؟ أجبت اللوامة قائلاً: إن هذا أمر شرحه يطول، ويحتاج لأن نطرح رحلة صناعتى وتشكيلى كطبيب ثم كجراح من أولها.

لماذا الطب....؟

سألتنى نفسى اللوامة: إذا نظرنا إلى بداية الرحلة، هل نقول إن انبهارك بالبطلو الأبيض و«برستيج» الطبيب منذ الصغر كان وراء التحاقك بكلية الطب؟

أجبتها قائلاً: ترجع ذكرياتى الأولى مع الباطلو الأبيض إلى قبيل سن السادسة فى بورسعيد، وكانت مع طبيب وجراح الفم والأسنان د. يوغلى صديق والدى وصياد السمك الماهر، الذى كان يرسل لبيتنا من حين لآخر بعضاً من صيده، والذى فقد ساقه اليسرى فى إحدى مغامرات الصيد (قد يكون ذلك أمراً حقيقياً وقد يكون من الأساطير التى يرددها بورسعيدية). كان الرجل ودوداً وترك فى نفسى ذكرى طيبة، بخلاف الخبرات مع أطباء الأسنان التى عادة ما تكون مؤلمة.

وكانت تجربتي الثانية مع الأطباء عندما كنت في الصف الأول الثانوى، حين اكتشفت والدتي أنى أعانى قِصر النظر، فذهبتُ إلى طبيب العيون لعمل كشف نظارة، وكانت التجربة محيدة.

ومن ثم، لم تترك تجاربي المبكرة مع الأطباء انطباعات مبهرة تدفعنى للتعلق بمهنة الطب. كذلك لم يرجع التحاقى بالكلية إلى أنها من كليات القمة، كما سأبين لك فيما بعد، إذًا فأُسباني لم تكن أسبابًا نفسية انفعالية.

قالت اللوامة: يبقى أن مدرس العلوم أو الأحياء هو الذى حبيبك فى دراسة البيولوجيا، أجبتها: لا، لا يرجع الفضل إلى مُدرسيّ فى الإقبال على دراسة الطب. بل إن التجربتين الباقيتين فى ذاكرتى عن مدرس البيولوجيا كانتا سلبيتين؛ إحداهما عندما كنت فى الصف الثانى الإعدادى، حين صفع مدرس العلوم صديقى المقرب على خده المتورم فوق أسنانه الملتهبة، وعندما أظهرت استيائى نهرفى هذا المدرس بشدة. وكانت التجربة الثانية حينما كنت فى الصف الأول الثانوى، حين سألنا مدرس الأحياء سؤالاً عن دور الحركة الدودية للأمعاء فى عملية الهضم، ووعد بدرجتين جائزة تضاف إلى درجات امتحان الشهر لمن يجيب عن السؤال، فأجبتة إجابة صحيحة، فقال: لك عندى درجتان. ولما استلمنا شهادات الشهر لم أجد المدرس قد أضاف الدرجتين، فلما ذكّرته، أجابنى: أنا كنت بهزر!! أحمد الله أن هاتين التجربتين السلبيتين، لم تدفعانى لكُره البيولوجيا، رغم أنها ظلتا موجودتين فى ذاكرتى.

قالت اللوامة: إذًا بماذا تفسر إقبالك على دراسة البيولوجيا؟

أجبتها: يبدو أن حبى للبيولوجيا والكيمياء والفيزياء كان

فطرياً. فكما أعطيت حساً جمالياً وذوقاً موسيقياً وحباً للحق والعدل والإنسان، هذه الهبات التي مَنَّمَتها تنشئني، وجعلتني أُقبل على عالم الفكر وأتعلق بالدراسات الإنسانية، فقد أعطيت أيضاً عقلاً تحليلياً متأملاً جعلني أهوى مراقبة الطبيعة بأزهارها وفراشاتها وأن أجمعها واحتفظ بها، وتأمل السماء بنجومها وكواكبها. وكان عقلي أيضاً تجريبياً بفطرته، فكَوَّنت معملاً متواضعاً في غرفتي بالمنزل أُجرى فيه التجارب الكيميائية البسيطة. كذلك كان عقلي تصنيفياً، ظهرت ميوله هذه في الاهتمام بجمع طوابع البريد وأعلام الدول والصور المختلفة.

باختصار، مثلما كان عقلي إنسانياً فقد كان علمياً، وكما شجعني على قراءة الأدب والشعر والعلوم الإنسانية والفلسفة، فقد شجعني على القراءات العلمية منذ تعلمت القراءة، كما جعلني أُقبل بشغف على كتب المواد المدرسية العلمية. لذلك عندما سُئِلت في صباي السؤال التقليدي: «تحب تطلع أيه لما تكبر؟» كانت إجابتي الأولى: فيلسوفاً!! وكانت ثانياً إجابتي - بعد بضع سنوات - عالم فضاء.

ومع اقتراب مرحلة الثانوية العامة، كانت قراءاتي المتنوعة قد رَسَخَتْ في نفسي ثلاثة مفاهيم: حب العلوم (خاصة البيولوجيا)، واحترام الإنسان والرغبة في مساعدة الآخرين، واستحضار معاني الآية الكريمة: ﴿سَرُّهُمْ أَيْدِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾ [فصلت: 53]. ومن خلال هذه الثلاثية ترسخ في قناعتى أن الطب هو مسارى ومستقبلى؛ فدراسة الطب هى أرقى مستويات دراسة البيولوجيا، وممارسة الطب هى الباب الواسع لمساعدة الإنسان، وتأمل

العلوم الطبية تكشف لنا آيات الأنفس، التي تثبت أن الله عزَّ وجلَّ هو الحق. لذلك استشعر الإشفاق على كثير من الطلبة الذين يصلون إلى هذه المرحلة دون أن تتشكل ميولهم لنوع الدراسة الجامعية، ومن ثم يعانون صعوبة كبيرة في الاختيار.

لذلك كان طبيعياً عندما ظهرت نتيجة الثانوية العامة عام 1968 أن أُسجِّل في استمارة رغبات مكتب التنسيق جميع كليات الطب كرغبات أولى متتالية. وقد مكنتى مجموعى (74.4 %) من الالتحاق بكلية طب جامعة عين شمس. ومنذ ذلك الحين، بدأ والدى (رحمه الله) ينادينى بلقب «حكيم»، ليؤصل فى نفسى ما يحمله اللفظ من معان تجمع بين الطب والفلسفة والمفاهيم الإنسانية. وتدور الأيام دورتها لأنادى كلاً من ابْنِيَّ الذَّيْنِ التحقاً بنفس الكلية ونفس الجامعة بلقب «حكيم».

الطالب المُجد

كنا ندرس السنة الأولى من كلية الطب، وهى السنة الإعدادية، فى كلية العلوم، وكان أساتذتها يُدرِّسون لنا علوم الحيوان والنبات والكيمياء والفيزياء. وقد ظهرت مهارتى اليدوية عند تشريحى لديدان الأسكارس والصراصير والصفادع والأرانب. وبالرغم من أن هذه السنة ليست ضرورية لدراسة الطب، وأن قرار إضافتها إلى سنوات الدراسة الطبية كان صائباً، فإننى استفدت منها كثيراً فى مشروعى الفكرى، فقد أصَلَّتْ بعمق فى عقلى تلك العلوم التى درسناها، والتى لم يكن لى غنى عن إتقانها.

وفي العام التالي، انتقلنا إلى كلية الطب بميدان العباسية لندرس العلوم الطبية الأساسية. كان حكيم⁽¹⁾ المستقبل مثلاً لطالب الطب المُجد، فقد كان يدرس المواد المختلفة من مراجعها الكبيرة وليس من الملخصات أو المذكرات أو الدروس الخصوصية. لم يضع الحكيم نُصب عينيه درجات آخر العام، ولا أن يتفوق من أجل التعيين في الجامعة كعضو بهيئة التدريس، لكن كان همه الأول أن يتقن المهنة التي أحبها ورأى فيها حياته المقبلة.

أقبل الحكيم على الدراسة بنهم شديد، فَشَرَّحَ نفسه أكثر من جثة، واشترى من مكافأة التفوق ميكروسكوباً ليدرس به الأنسجة الطبيعية والمريضة دراسة دقيقة، وكان دائم التردد على المكتبة للاطلاع على مختلف المراجع، وأيضاً على متاحف الكلية، ليدرس عيناتها ويشرحها لزملائه.

وعندما انتقل الحكيم إلى المستشفى بعد السنوات الثلاث الأساسية اهتم بدراسة الحالات المرضية بدقة، وكان يطابق بينها وبين وصف الأمراض كما جاء في مراجعها الأصلية. وكان يلتزم بطرق الفحص المثالية التي تمكنه من رصد العلامات المرضية بدقة، حتى وصفه د. سمير أبو زيد أستاذه في الجراحة بأنه «يركّب جهاز سونار في إيدته»، كما أشاد أستاذه في الأمراض الباطنة د. يحيى مهران (رحمه الله) بأنه يجمع بين المدرستين الإنجليزية والأمريكية في فحص المريض. وكلما انتهت دورة دراسة أحد الفروع الطبية كان الحكيم يراجع ملفات

(1) استخدم في هذا الفصل لقب حكيم، الذي أطلقه عَلَيَّ والدي بعد التحاقى بالكلية، تعبيراً عن الاهتمام بالفكر والفلسفة مع دراسة الطب.

المرضى بالمستشفى ليتعرف على الحالات التي لم يدرسها ليقوم بمناظرتها قبل الانتقال إلى الفرع الجديد.

لم يكن هدف الحكيم الأساسي تحصيل الدرجات أو التقديرات بقدر ما كان هدفه إتقان هذه المهنة، فكانت النتيجة التلقائية أن يحقق التفوق، فجاء ترتيبه بين طلبة دفعته البالغة ثمانمائة طالبًا وطالبة الثاني ثم الأول في سنتي البكالوريوس، بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.

وفي أحد دفاتر مذكراتي بتاريخ 27 / 11 / 1974، عثرت على هذه الفقرة التي تشير إلى ارتفاع مستوى العلمى قبيل امتحان الجراحة:

«جلستُ وبعض الطلبة مع أستاذي في الجراحة د. شامل عبد الله (رحمه الله) وبعض نوابه. وكان يسألنا حول جراحات المعدة، وطوال الحوار الذي امتد ساعتين، كان يُثنى على إجاباتي: «إيه دا يا بني... أنت بتقول إيه...؟ إنت بتقرا منين... طب دى عرفتها إزاي...».

وفي إحدى المرات، رد عليه أحد زملائي قائلاً: «آه، إحنا عارفين عمرو، دا زميلنا وكويس قوى»، رد د. شامل عليه قائلاً: «عارفين إيه يا ابني.... دا ممتاز.... دا أحسن من النواب بتوعنا».

كما وجدت في دفتر مذكراتي بعد هذا التاريخ يومين عبارة: «راجعت خلال الأسبوع الماضى موضوعات كذا وكذا من الجراحة، خلال 63 ساعة». لا شك أن هذه الملاحظة تعكس حرصاً كبيراً على الوقت وتنظيماً دقيقاً له.

وكنت أشرح لأصدقائي الدروس الصعبة، وأعطيتهم ملخصاتي، وأذكر أن أحدهم كان سعيداً للغاية عندما جاء معظم امتحان الأمراض الباطنة مطابقاً لهذه الملخصات.

وكان الإقبال على المذاكرة طوال أيام السنة، يخفف عني عبئها أيام الامتحانات، حتى إنني كنت أتوقف عن المذاكرة في ليالي الامتحان، وأخرج مع صديقي صبرى زيدان - الذى كنت أراجع معه دروسنا ثم صار استشارياً لطب الأطفال بالملكة البريطانية - لتناول العشاء في مطعم فاخر، وكان العشاء يُكلّف كلاً منا 100 - 150 قرشاً.

ومن أحد دفاتر المذكرات أيضاً، أنقل هذه الفقرات عن أدائى في امتحان الجراحة في مرحلة البكالوريوس:

«أعجب د. خطاب، أستاذ جراحة العظام (رحمه الله) بإجاباتى كثيراً، وسألنى، أنت جايب الكلام دا منين يا بنى؟ هو لسه فيه طلبه زيك كدا لغاية دلوقت... قوم يا بنى، أنا ها أديلك الفول مارك (الدرجة النهائية).

وعندما انتقلت إلى اللجنة التالية، جاء د. خطاب إلى أستاذها د. محيى الدين صدقى (رحمه الله)، وقال له: أتحدك إنك تَعْلَطُ. كما نادى د. رؤوف جندى (رحمه الله) - رئيس أقسام الجراحة - ليحضر امتحانى، وقال له: اسمع عشان تنبسط».

وعَبَّرت في دفاترى عن غضبى من اللجنة الثالثة لامتحان الجراحة، فقد أعطانى أستاذى د. أحمد البنهاوى، أستاذ جراحة المخ والأعصاب (رحمه الله)، ثلاثاً وعشرين درجة من خمس وعشرين، بالرغم من أننى لم أخطئ في إجابة أى سؤال. وعلمت بعد ذلك أن هذه هى أعلى درجات أستاذنا د. البنهاوى.

أما الموقف الذى ما زال فى ذاكرتى، فقد حدث فى لجنة امتحانى أمام د. عبد الله على، أسطورة الجراحة فى كلية طب القصر العينى ووالد أستاذى فى الجراحة د. شامل عبد الله (رحمه الله):

«حضر د. شامل امتحانى الإكلينيكي أمام والده، ولاحظ سروره من أجوبتي، ثم فوجئ به يعطيني ثلاثين درجة من خمسين!!

صرخ د. شامل، إيه دا يا بويا،

أجابه د. عبد الله على: دا رائع.. دا ممتاز... ويستحق الدرجة!!

قال د. شامل: دا تلميذى وأنا عاوزة نائب معايا، والدرجة دى هاتضيع منه النيابة.

قال د. عبد الله: يعنى عاوزنى أعطيه كام؟

قال د. شامل: أعطيه خمسين يا بويا.

قال والده: عبد الله على ما يعطيش خمسين، لما الطالب ياخذ خمسين أمال أنا آخذ كام؟!

سحب د. شامل القلم من يد والده، وشطب الدرجة، وسجل خمسين من خمسين قائلاً: أنا يا بويا أدّى خمسين».

يعكس هذا الحوار أسلوب تقييم الأجيال التي سبقتنا لطلبتهم، وكيف أن تقييمهم كان قاسياً، يمكن أن يُغيّر من مستقبل الطبيب الناشئ.

لقد كان مستواي (بفضل الله) مرتفعاً للغاية طوال سنوات الكلية، حتى إنني في امتحان ماجستير الجراحة لم احتج لاستذكار معلومات جديدة، إلا الاطلاع على المجلات والأبحاث الجراحية التي لم نكن نهتم بها في مرحلة البكالوريوس.

وأعلنت نتيجة البكالوريوس، وحصد الحكيم ثمار تعبهِ وسهره ليل طوال. وفي اليوم التالي جاء خبر في الصفحة الأولى من جريدة الأخبار

اليومية، بإعلان نتيجة بكالوريوس الطب والجراحة بجامعة عين شمس، وذكر الخبر أن عدد الحاصلين على تقدير الامتياز ثلاثة عشر طالباً، وأنه لأول مرة يكون الطالبان الأول والثاني من غير أبناء أستاذة الطب!! وقد أُرفقت بالخبر صورنا الشخصية.

طبيب الامتياز

انتقل الحكيم إلى سنة الامتياز، كطبيب تحت التمرين، وبدأ يتذوق حلاوة مساعدة الآخرين من خلال الممارسة الطبية، وحرص على التدريب في معظم أقسام المستشفى من أجل أن يتعرف على تخصصاتها عن قرب، حتى يستطيع اختيار مجال تخصصه عن دراية حقيقية. هذا في الوقت الذي كان معظم أطباء الامتياز يعتبرون هذه السنة فرصة للراحة، بعد سنوات الدراسة الشاقة، ويصفونها بأنها «سنة ضياع».

قريب نهاية سنة الامتياز، كان على الحكيم أن يحسم أمره ويختار تخصصه. كان يرى نفسه في إهاب الطبيب الباطني القادر على تشخيص المرض وفك طلاسمه من مجرد الاستماع لتفاصيل شكوى المريض، قبل أن يفحصه وقبل أن ينظر إلى تحليلاته وأشعّاته. إنه منهج استنباطي قريب من شخصية شروك هولمز الشهيرة!! لقد كان الباطني بالنسبة للحكيم هو الطبيب! الطبيب الذي تستقبله البيوتات في أية ساعة من ليل أو نهار لينظر مريضهم ويصف له الدواء الشافي. وضع الحكيم عينه على تخصص أمراض القلب أو الأمراض النفسية والعصبية، بالرغم من أن أساتذتي في المواد الأخرى كانوا يشجعونني على اختيار ما يمارسون هم من تخصصات: الأمراض الباطنة العامة، أمراض طب وجراحة العيون، الأمراض الجلدية.

في خضم هذه المتاهة الاختيارية، التقى الحكيم بأستاذه في الجراحة،
الذي حببها إليه كعلمٍ راق، د. شامل عبد الله (رحمه الله)، الرجل الذي
تسرى الجراحة في عروقه، ودار بينهما الحوار التالي:

= هيه يا عمرو، نويت تتخصص في إيه؟

- غالباً أمراض القلب أو عصبية ونفسية يا أستاذي.

= ليه؟

- أريد تخصصاً أتعامل فيه بشكل مباشر مع المريض، ويقدم له
مساعدة مهمة يمكن أن تنقذ حياته. لذلك لا أريد التخصصات المعملية
والإشعاعية، وأفضل التعامل مع القلب أو المخ.

= أنت فاهم يا عمرو أن الباطنيين يعملوا حاجة للمريض؟!، دكتور
القلب يستنى لما المريض يجيله جالطة في القلب، يقوم يريحه في السرير
شهرين أو ثلاثة ويديله أدوية سيولة لغاية القلب ما يخف لوحده. ودكتور
العصبية يستنى لما المريض يجيله شلل، يقوم بيعته للعلاج الطبيعي. تقريباً
مفيش علاج باطنى فعلى إلا للالتهابات البكتيرية؛ دكاترة الحميات يدوها
مضاد حيوى، وكمان الديدان والطفيليات يدوها المضادات المناسبة وبس.

إحنا دلوقتى يا بنى عايشين في العصر الذهبى للجراحة، وأنت
درست أن جراح القلب أو جراح المخ يُبدّل أو يسلك الشرايين الضيقة
فيمنع حدوث الجلطة. كمان قرحة المعدة صار علاجها جراحياً، وكذلك
التهابات القولون التقرحية،... الطب يا بنى هو الجراحة.

قدرى أن وصلت إلى مفترق الطرق في العصر الذهبى للجراحة، فكان
ذلك عاملاً مرجحاً في اختياري للجراحة كتخصص ومهنة.

أيام الحيرة

أنا الآن في مفترق طرق، إنه الاختيار بين التخصص في فروع الأمراض الباطنة أو التخصص في الجراحة. بعد حديث د. شامل عبد الله (رحمه الله) استوى التوجهان عندي عقلياً، وبقي دور التوجه النفسي لكل من الاتجاهين.

لا شك أن بنائي النفسي أكثر انسجاماً مع الأمراض الباطنة، فأنا أميل للنشاطات العقلية أكثر من الممارسات اليدوية، كذلك أنا شخصية متحفظة مسالمة لا أميل للسلوك العدواني، حتى إنني لم أذبح خروفاً أو فرخة طوال حياتي وحتى الآن. كذلك فأنا شخصية موسوسة تجهدني كثيراً التصرفات الجذرية وأحمل هم عواقبها.

قالت نفسى اللوامة: أدرك ما يدور في خاطرك، لذلك أدهشني أن تختار تخصص الجراحة، بالرغم من تعارض ذلك مع طبيعة شخصيتك، فما تفسير ذلك؟

عادت بي الذاكرة أربعين عاماً للوراء، حين كنت في مواجهة أحد أخطر القرارات في حياتي، وربما أخطرها، وتذكرت الموقف كله حين فكرت فيما طرّخته النفس اللوامة، فأجبتها قائلاً: نعم، لقد كان قراراً مصيرياً، قصدت به «علاج» ما كنت أعتبره جوانب قصور في شخصيتي.

لقد رأيت في ممارسة الجراحة «علاجاً» للميول المحافظة المسالمة، من خلال إكسابى سلوكيات أكثر جرأة ومبادرة. ورأيت في الجراحة أيضاً «علاجاً» للوسوسة عن طريق تعريضى لمواقف مقلقة والتعود على احتماؤها واللامبالاة بما تسببه من توتر.

كذلك رأيت في الجراحة استغلالاً لمهاراتي اليدوية التي كانت ميولي العقلية تكبتها. وإذا كانت هناك مقولة في الأوساط الطبية؛ أن الباطني يعرف الكثير ولا يفعل إلا القليل وأن الجراح يعرف القليل ويفعل الكثير؛ فلا أطرح نموذجاً جديداً، وهو أن الجراح الحقيقي يعرف الكثير ويفعل الكثير.

فقالت اللوامة: وهل نجح اختيارك الجراحة كمهنة وتخصص في «علاج» ما كنت تصبو لعلاج من سلبات شخصيتك؟

أجبتها: نعم... وأضفت، ولكني أدفع ثمنًا لذلك قدرًا كبيرًا من القلق مع كل عملية جراحية أقوم بها. كذلك لم تتبدل سمات شخصيتي تمامًا، بل وصلت إلى موقف وسط يجمع بين الصفات الشخصية التي حرصت على اكتسابها وبين صفات شخصيتي الأساسية. وأضرب لذلك مثالاً يبين ما أقصد: لقد أصبحت - بفضل الله - من أجراً وأمهر جراحى إصابات الطرق والحروب⁽¹⁾، وأبذل أقصى الجهد والخبرة بجرأة مطلقة في التعامل مع المصابين في غرف الطوارئ والعمليات، لكنني ما زلت أتاثر كثيراً لو رأيت مصاباً في موقع الحادث! كما أفى - كما ذكرت - لم أذبح خروفاً أو فرخة في حياتي!! وبالرغم من أن هذه الثنائية قد حلت الموقف بشكل كامل فإنها تكلفني الكثير، كما سأبين لك فيما بعد.

جراح تحت التمرين

مع بداية العام 1976، صرت طبيباً مقيماً للجراحة (نائب الجراحة)

(1) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثالث.

= بلغني أن ترتيبك الأول على دفعتك

- أيوه يا أفندم (قلتها وفي داخلي بعض الزهو)

= طظ، الأولوية دي أنت اللي هاتستفيد منها، أما أنا اللي يهمني رعايتك
لمرضى الدمرداش الغلبانين. لو حطيت المرضى في عنيك ها احطك في
عنيّا، لو أهملتهم هاتأخذ شنطة هدومك وتروّح بيتكم.

بعد أيام، كان يحمل حقيبتين مليتين بالأدوات والمناظير الجراحية
التي يستعملها في عملياته الخاصة، والتي اعتاد أن يُحضرها معه يوم
عملياته بمستشفى الدمرداش ليُفيد بها المرضى، وعندما حاولتُ أن أحمل
عنه إحدى الحقيبتين سحبها بعيداً وقال: يا دكتور، أنا محبش النواب اللي
يشيلوا شنط الأساتذة.

موقفان حدثا بيني وبين أستاذي د. نبيل علوبة (رحمه الله) أستاذ
الجراحة ورئيس الوحدة السادسة التي عُيّنت فيها طبيباً مقيماً للجراحة
(نائب جراحة) بعد أن أنهيت فترة الامتياز.

وبعد انقضاء اثنين وعشرين شهراً من الموقفين السابقين ناداني أستاذي
د. نبيل علوبة، وقال لي: لقد كنت نائباً مثاليّاً، لذلك قررت أن أُعيّنك
معيّداً للجراحة بالجامعة هذا الشهر، قبل حصولك على الماجستير، وهذه
أقل مدة يمكن نظريّاً أن يُعيّن بعدها معيدُ الجراحة، وإذا كان هذا لمر
يحدث من قبل في جامعتنا فإنك تستحق. سأعيّنك بشرط أن تظل قائماً
بمهام النائب حتى تستكمل فترة السنوات الثلاث التي يقضيها بقية
زملائك كأطباء مقيمين.

وفي أثناء فترة تدريبي كجراح، لم أتعلم من أستاذي د. علوبة (وكل

أساتذتي ومن سبقني في القسم) المهارات الجراحية وكيفية اتخاذ القرار الجراحي وكيفية تجهيز المرضى للعمليات ومتابعتهم بعد العملية، لئلا أتعلم منهم ذلك فحسب، لكنني تعلمت من أستاذي أيضًا الأسلوب الإنساني في معاملة المرضى. ودون الدخول في التفاصيل، أضرب مثالًا واحدًا لذلك:

بعد أن ينتهي من تعليم الطلبة كيف يفحصون مريضًا، كان أستاذي (ابن علوبة باشا) ينحني ليسحب شبشب المريض من تحت سرير الكشف ليتمكن المريض الفقير من ارتدائه. كان أستاذي بذلك يعلم طلبته احترام المريض مهما كان فقيرًا ولا يدفع له أجرًا، كما كان يريد أن يشعر المريض بإنسانيته بعد أن تم «استخدامه» لتعليم الطلبة.

ومما تعلمته من أستاذي د. علوبة من أخلاقيات المهنة موقفه من الإعلام. فعندما كان أحد الإعلاميين يتصل به ليجري معه حوارًا إذاعيًا أو تلفزيونيًا، كان أستاذي يعتذر له بأن الطب لا ينبغي أن يُسوّق إعلاميًا، وإن على المريض أن يقصد الطبيب في عيادته أو في المستشفى. وعندما تحجب الإعلامى - ذات مرة - بأنه ينبغي زيادة الثقافة الطبية بين الجماهير، أفحمه أستاذي بأن ذلك لا يحدث في الواقع، بل إن الحالات المرضية تُعرض تلفزيونيًا في البرنامج ويقوم الطبيب بتحديد العلاج لها، أو توجيه المريض إلى عيادته الخاصة!! ولا شك أن هذا الداء قد استفحل بين الأطباء هذه الأيام.

أما الثاني تأثيرًا في شخصيتي كجراح وكأستاذ جامعي فقد كان أستاذي د. محيى الدين صدقي (رحمه الله). تعلمنا منه كيف نُدرّس لتلاميذنا، وكيف تكون العلاقة بين الأستاذ وتلاميذه ومساعديه. ولتأكيد هذا المعنى وَضَعَ د. محيى أحد الخطابات التي أرسلها له أستاذه د. فؤاد يسرى

وهو في إنجلترا في إطار (برواز) وعلقه في مكتب القسم، كان الأستاذ يطمئن على زوجة وطفلي تلميذه ويوجه له بعض النصائح التي ينبغي أن يراعيها في أثناء عمله في إنجلترا.

تعلمنا من د. صدقي صدق الانتماء إلى جامعتنا وكيئتنا وقسمنا ومرضانا. كان أستاذي قبل أن يمر على مرضي القسم المجاني يقوم بالمرور على دورات مياه المرضى ليتأكد من نظافتها. وكانت زوجته الفاضلة تأتي كل حين وآخر لمتابعة احتياجات القسم، وقامت بعد إحدى الزيارات بشراء الستائر لقاعة تدريس الطلبة وأشرفت على تفصيلها وتركيبها بنفسها.

وكان أستاذنا د. صدقي يدعو أعضاء هيئة التدريس بالقسم ومساعدتهم وأسراهم إلى عزبته لقضاء بعض أيام الأعياد، خاصة يوم شم النسيم. وفي أحد الأعوام لم يوجه أستاذي لي الدعوة، فارتبطت بالدي لتناول غداء يوم شم النسيم معهما. بعد هذا الارتباط اتصل أستاذي بي ليدعوني، فاعتذرت له لارتباطي بالدي، فقبل الاعتذار. بعدها بربع ساعة اتصل والدي بي ليخبرني بأن أستاذي د. صدقي قد اتصل به ليتحلل لي من ارتباطي، وأخبره بأنه حريص على أن أكون مع أساتذتي في هذا اليوم، واتفقا على أن أتناول إفطار يوم شم النسيم مع والدي، على أن أكون مع أساتذتي على طعام الغداء. إنه درس يعطيه لي أستاذي في احترام الوالدين.

وقد تلقيت أول درس في أخلاقيات مهنة الطب ومسئولية الأستاذية حينما كنت طالباً في السنة الرابعة في الكلية. كنت أقضي في صحبة والدي جزءاً من إجازة الصيف بمرسى مطروح، وكان يقيم معنا في

الفندق نفسه الأستاذ الدكتور خالد حسنين (باشا) عبد الغفار أستاذ الجراحة الكبير (رحمه الله). وفي أحد الأيام، صدمت إحدى السيارات عربجى كارتة أمام الفندق، بحثت عن أستاذ الجراحة الكبير من أجل أن يساعد المريض، وعلمت أنه يتناول عشاء مع بعض ضيوفه في فندق الليدو الذى يبعد قرابة الكيلومتر عن فندقنا، عدوت مسرعاً إلى الليدو، وجدت د. خالد، وشرحت له الموقف فاستأذن ضيوفه وسار معى إلى موقع الحادث، وعندما وصلنا وجدنا أن سيارة الإسعاف قد وصلت، فقال لى أستاذى، إن المريض يجب أن يُنقل إلى المستشفى، وها قد جاءت سيارة الإسعاف، ولو تدخلنا نحن (دون إمكانيات) لما استطعنا مساعدته، أليس الأفضل أن نتركه لهم؟ أجبت: نعم، تركنى أستاذى وعاد لضيوفه. كيف يكون انطباعى لو قال أستاذى ما قال وهو جالس مع ضيوفه، لا شك أننى كنت سأتهمه بالتراخى فى إنقاذ المريض. لقد تجشم أستاذى المشقة حتى يعلمنى درساً فى أخلاقيات المهنة ومسئولية الأستاذية.

ثم أضفت مخاطباً نفسى اللوامة:

لكن لا تظنى أن التدريب والقدوة وحدهما كافيين لأن يصنعا جراحاً ماهراً أميناً، بل يحتاج الأمر قبل ذلك إلى التربية الفاضلة منذ الصغر وقد تحدثنا عن القدوة، أما المهارات فيحتاج اكتسابها لبذل الجهد والإخلاص. لقد كنت طوال السنوات الثلاثة التى تدرت فيها على مبادئ الجراحة مقيماً بصفة دائمة بسكن المستشفى حتى أكون قريباً من مرضاى، أراعيهم وأتعلم منهم. وكان والداى يأتيان لزيارتى بالمستشفى. وقد سمح لى أستاذى د. علوبة أن أسافر لخطيبتى فى بلدتنا فارسكور يومى الخميس والجمعة الأولين من كل شهر بعد تسليم المرضى لنائب

من قسم آخر - إذ كنت النائب الوحيد بالقسم - على أن يقوم زميلي هذا بالاتصال مباشرة برئيس القسم إذا واجهته أية مشكلة، هكذا علّمونا تحمل المسؤولية.

ومن المواقف الساخرة التى حدثت لى عند سفرى إلى خطيبتى فى إحدى ليالى رمضان، أن كان على سيارات الأقاليم الأجرة البيجو ضغط شديد، وطلب منى أحد السائقين أجرة مضاعفة، فوافقت مضطراً. شاهد هذا الموقف رجلٌ مُسنٌ كان يرغب السفر أيضاً ورفض استغلال السائق لظروف الزحام، فقال لى؛ يا بنى أنت يا إما وارث يا إما خاطب! كان الرجل حكيماً بحق، فأصاب الحقيقة.

ولاستكمال تدريبى كجراح، سافرت لمدة عامين خلال الحرب الأفغانية إلى بيشاور بباكستان، حيث كانت مركز خدمة المهاجرين الأفغان وأيضاً مصابى الحرب. فلا شك أن علاج إصابات الحروب هو أفضل ما يصنع الجراح الماهر. لذلك تقدمت الجراحة بل وتأسست الجراحة الحديثة خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، كما كان الجراحون الأمريكيون الكبار حريصين على المشاركة فى الحرب الكورية وحرب فيتنام.

لذلك كله، أقول دائماً لتلاميذى إن الجراح الماهر تصنعه الممارسة بإخلاص، مع التدرب على أيدى من هم أكثر منه خبرة، وحتى بعد ذلك، وطوال حياتى كنت كثير التردد - صباح مساءً - على المستشفى لرعاية المرضى والتعلم منهم، هكذا تُكتسب المهارة والخبرة.

وبما أننا نتحدث عن المهارة الجراحية، فعندى هنا ملاحظة جانبية. كثيراً ما نسمع أن هذا الجراح «إيده تتلف فى حرير»، واقع الأمر أن

مهارة الجراح ليست في يده، لكن في تدريب المراكز المخية المسؤولة عن توجيه حركة اليدين وعن سرعة ردود الأفعال تجاه الأحداث المفاجئة في أثناء إجراء الجراحة!! إنها مسئولية دماغية في المقام الأول.

أما الصدق والأمانة، فدور القدوة فيها كدور الماء الذي يروى البذور في الأرض الخصبة، هذه البذور هي التربة والتشئة في منبت طيب على أيدي والدين فضلاء، فإذا توافرت البذرة الصالحة نشأ الإنسان الصادق الأمين. إن مهنة الطب - أيتها اللوامة - لا تزرع فينا الصدق والأمانة والأخلاق وباقي القيم الفاضلة كما يظن أغلب الناس، إن هذه الفضائل تزرعها التربية، فيتحلى بها الإنسان، سواء عمل كطبيب أو في أية مهنة أخرى.

بل للأسف؛ إن الطب وخاصة الجراحة، مجال واسع للدجل والنصب، فالمرضى يسعى للشفاء بأي ثمن، ودرايته بما يفعل الجراح معدومة أو قليلة. وقد رأيت بالفعل جراحين يُجرون جراحات لمرضى هم ليسوا في حاجة إليها وذلك ليحصلوا على المال!! وما زلت أذكر هذا الطبيب الجديد، الذى التحق بقسمى بمستشفى الدمرداش، وكنت أجلس معه الساعات الطوال أعلمه كيف يراعى مرضاه بصدق وأمانة، وكان يهز رأسه موافقاً، لكن يبدو أن كلامى وممارستى معه لم تُثمر أى خير، يبدو أننى كنت أنفخ في قربة مثقوبة. لقد كانت البذرة عليلة والتربة متصحرة! لقد أصبح هذا الطبيب فيها بعد جراحاً مستغلاً لمرضاه أسوأ استغلال.

وفي المقابل، فإن إحدى مشكلاتى كانت - وما زالت - أننى أتفاعل مع مرضاى على المستوى الإنسانى إلى حد بعيد. وإذا كان لهذه المشاعر

جوانبها الإيجابية؛ مثل أنني إذا وجدت أن مريضاً يمكن أن يجد فرصة أفضل في العلاج مع طبيب آخر حولته إليه، فإن له أيضاً جوانبه السلبية؛ مثل أن تكون دائم القلق - إلى درجة مجهدة - على المريض. لذلك أجتهد كثيراً في عدم التفاعل مع الجوانب الاجتماعية والإنسانية في حياة مرضاي، حتى لا يؤثر تعاطفى معهم على سلامة قراراتى وممارساتى الجراحية تجاههم.

وبطبيعة الحال، لا يقف عمل الجراح في الجامعة عند علاج المرضى وإجراء العمليات الجراحية، ولكن هناك دور تعليمى عليه أن يقوم به، من تدريس الجراحة لطلبة مرحلة البكالوريوس، وتعليم الأطباء الجدد فن الجراحة، والإشراف على الأبحاث والرسائل الجامعية.

وبفضل من الله، فإن لى طريقة مميّزة في تدريس الجراحة، يعتبرها البعض مدرسة قائمة بذاتها، أمزج فيها بين الجراحة والعلوم الطبية الأساسية وأيضاً الأخلاق والدين والتاريخ، ويميزها حب هذه المهنة والإخلاص لمرضاهها. لذلك كان أستاذى د. علوبة (رحمه الله) يحرص على أن أكون أول من يُدرّس للطلبة الجدد في القسم، حتى أنقل إليهم حب مادة الجراحة. كما خَصَّصَت لى الكلية محاضرة بعنوان «مهنة الطب»، أقوم بإلقائها كل عام (حتى الآن) على الطلبة الجدد بالكلية، حتى أعرفهم بهذه المهنة وقديستها وشرفها.

علمنى أساتذتى الكثير، علمونى الطب والجراحة كما علمونى أخلاق المهنة وآدابها، فلم يكن غريباً أن يكون ترتيبى الأول فى امتحانى الماجستير ثم الدكتوراه، وأن يتم تعيينى مدرساً للجراحة العامة عام 1981، وهى أقصر مدة بعد التخرج مسموح بها. ثم تدرجت فى السلك

الجامعى، حتى أصبحت أستاذًا للجراحة العامة عام 1991 ثم رئيسًا لأحد أقسام الجراحة عام 2004، ثم رئيسًا لأقسام الجراحة العامة. وخرجت إلى المعاش لأصبح أستاذًا متفرغًا للجراحة، وعضوًا مُختارًا بمجلس الكلية منذ عام 2011 وحتى الآن. وخلال هذه الفترة، سافرت للعمل بالسعودية مرتين، وإلى باكستان للمساعدة في علاج المهاجرين والمصابين في الحرب الأفغانية.

ويعتبر المحيطون بي في الوسط الجامعى أننى خلال هذه الفترة قمت بعملى كجراح وكعضو هيئة تدريس خير قيام، حتى إننى اخترت مدرّسًا مثاليًا على مستوى جامعة عين شمس عام 1984، وطبيبًا مثاليًا على مستوى الجمهورية عام 1988.

هكذا صنع الله عزَّجَلَّ من هذا الشخص جراحًا، يعتبره أساتذته وزملاؤه وتلاميذه ومرضاه جراحًا ماهرًا وأستاذًا جامعيًا متميزًا.

الجراح المُوسَّس

قالت النفس اللوامة: سألتك؛ لماذا اخترت الجراحة كمهنة وتخصص بالرغم من أننا شخصية مُوسَّسة، وإذا كان قد ترتب على اختيارك هذا إضرارًا بمرضاك؟ وقد أجبتنى فيما سبق عن الجزء الأول من السؤال، وهو لماذا...؟ ويبقى أن تجيبني عن الجزء الثانى.

أجبت اللوامة قائلاً: تتميز الشخصية المُوسَّسة بالرغبة فى الإتقان والكمال والانضباط فى كل عمل تقوم به، وتقوم دائماً بالالتزام بنظام العمل وقواعده والالتزام فى المواعيد. لذلك أرى أن المريض الذى يوفقه الله عزَّجَلَّ لجراح موسَّس هو مريض محظوظ للغاية! وذلك لعدة

أسباب. أولها؛ أن هذا الجراح لا يُقحم نفسه (كما يفعل بعض الجراحين) فيما يفوق قدراته، بل لا يُقدِّم على إجراء جراحة يعلم أن هناك من يقوم بها بشكل أفضل منه، خاصة وقد صارت الجراحات تنقسم إلى تخصصات داخل التخصصات؛ فداخل الجراحة العامة تجدين المتخصصين في الجهاز الهضمي، وداخل هذا التخصص تجددين المتخصصين في جراحات الكبد والمعدة والمرى والقولون وجراحات السمنة، وهكذا. وثاني الأسباب، أن الجراح الموسوس لا يُقدم على الجراحة إلا إذا تَرَجَّح له استفادة المريض منها، وأن حالة المريض ستكون - بإذن الله - بعد العملية أفضل منها قبل العملية.

وإذا كان المريض يستفيد من العاملين السابقين في مرحلة ما قبل العملية الجراحية، فإنه يستفيد - ربما بشكل أكبر - من وسوسة الجراح في أثناء إجراء الجراحة. فهذا الجراح يعيد تقييم خطوات العملية بشكل أكثر من المعتاد؛ فهو مثلاً يعيد قياساته مراراً في أثناء التشريح وقبل قطع الأنسجة، ويعيد اختبار إحكام التوصيلات الجراحية، ويعيد عَدُّ فوط البطن قبل إغلاقها، ويعيد...، ويعيد... أكثر من المعتاد، وفي هذا أمان أكبر للمريض. أما بعد الجراحة، يكون هذا الجراح أكثر متابعة لمريضه من المعتاد ولما يَحْدُ عليه من تغيرات، ومن ثم يكون أكثر قدرة على التشخيص المبكر لما قد يحدث للمريض من مضاعفات، وبالتالي يتدخل في الوقت المناسب لعلاجها.

إنها جوانب عديدة يستفيد منها المريض بسبب تحرى الجراح الموسوس الدقة أكثر من المعتاد. وفي المقابل، يدفع الجراح ثمن هذه الفائدة قلقاً وتوتراً وإرهاقاً عصبياً وجسدياً، وانتقاصاً من سنوات عمره الجراحى.

فكما يقول أستاذنا د. أحمد عكاشة دائماً؛ إن الإنسان الذى يبغى الإتقان والكمال فى مجتمع مُتَسَيِّب يعانى القلق والتوتر طوال حياته.

قالت النفس اللوامة؛ لقد حَمَلْتَنَا بقرار التخصص فى الجراحة الذى اتخذته منذ أربعين عاماً عبئاً كبيراً. أرايت لو عادت السنون -أيها العقل- أكنت متخذاً القرار نفسه؟

قلت لنفسي اللوامة؛ لا أملك إجابة مباشرة عن هذا السؤال الجوهري، وبدلاً من ذلك أطرح مقدماتٍ ثلاثاً، وأترك لك الخروج بالإجابة. المقدمة الأولى، حديث رسول الله ﷺ: «لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع». وقد تعلمت من مهنتي هذه دروساً لا أدري إن كنت سأتعلمها من مهن أخرى أم لا.

والمقدمة الثانية؛ هى إجابتي عندما يسألني البعض؛ لماذا لم يتخصص محمد ابنك (الذى تخصص فى الطب النفسى) فى الجراحة مُتَبِعاً لطريقك، كنت أجيب: السؤال الأصوب هو: لماذا لم أخصص أنا فى الطب النفسى مثل محمد؟! أقصد بذلك أن شخصيتي ربما كانت أقرب للطبيب النفسانى منها للجراح، كما ذكرت فى سردى لطريقى إلى مهنة الجراحة.

والمقدمة الثالثة؛ هى تعليق لمحمد ابني على كتاباتي؛ فقد قال لى أكثر من مرة: لا تظن يا والدى أن تخصصك فى الطب النفسى كان سيخدم مشروعي الفكرى بشكلٍ أكبر. إن معظم أساتذة الطب النفسى لم يَحْمِلْهُمْ تَخْصُّصُهُمْ إلى عالم الفكر، إن اهتمامهم يَنْصَبُّ عادة على تشخيص مشاكل مرضاهم وعلاجهم، وقليل منهم يدخلون عالم الفكر بدافع من تخصصهم فى النفس الإنسانية ومشكلاتها مثلما فعلت أنت.

أصدقك القول - أيتها النفس - أني بعد تأمل هذه المقدمات الثلاث لا أملك إجابة واضحة لسؤالك؛ لو عادت الأيام أربعين سنة للوراء، هل كنت سأختار التخصص في الجراحة مرة أخرى؟

الجراحة وعالم الفكر

قالت اللوامة؛ سؤال أخير أختم به تساؤلاتي حول مهنتك كجراح. ذكرت أن تخصصك كجراح خدم مشروعك الفكري، فكيف ذلك؟ أجبتها: نعم لقد خدمت مهنتي كجراح مشروعى الفكرى، وذلك من خلال عدة آليات:

أولاً: مكنتنى الجراحة من أن أقرب من إدراك حقيقة الإنسان، بعد أن تعاملت معه في مختلف حالاته النفسية والجسدية؛ بين يأس وأمل، وقوة وضعف، وحياة وموت، سواء للمرضى أو لذويهم، كما إننى أتعامل مع الإنسان في أضعف حالاته.

ثانياً: أطلعتنى الجراحة على قدر هائل من إبداع الله عزَّجَلَّ في الخلق، وعلى دقة توازن أجهزة جسمه الدقيقة، حتى صرت من خلال الجراحة أدرك صدق قول الحق عزَّجَلَّ: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾ [فصلت: 53].

ثالثاً: وفرت لى مهنة الجراحة دخلاً مناسباً مكننى من أن أنفق على مشروعى الفكرى.

رابعاً: أعطتني مهنتي كأستاذ جامعي وك رئيس أسبق لأقسام الجراحة بكلية الطب بجامعة عين شمس مصداقية كبيرة عند قرائى.

وختمت حديثي للنفس اللوامة عن تشكيلي وصنعي كجراح قائلاً: لما

كنتُ من المعجبين كثيراً بالجمال والفن، كنت أتمنى أن يهبني الله عزَّ وجلَّ
موهبة فنية، كالنحت أو الرسم أو عزف الموسيقى، لكن الخالق الوهاب
قَدَّرَ لي توجهاً فنياً آخر، لقد يَسَّرَ لي مهنة تجتمع فيها القدرة العقلية مع
المهارة اليدوية، وبذلك صارت الجراحة قدرى ومهنتى وهوايتى وفنى
الذى أمارسه.

تحت جبال الهندكوش

قالت لى نفسى اللوامة:

من تصرفاتك التى تدهشنى ما قمتَ به عام 1987م. فى هذا العام كنتَ شديدَ الحماس للسفر إلى بريطانيا لتتعلم جراحات منظار البطن الوليدة. وبدأت بالفعل فى إجراءات السفر، ثم إذا بك تُغَيِّر اتجاهك من الغرب إلى الشرق، وتسافر إلى باكستان للمساهمة فى علاج وإسعاف المرضى والمصابين من المهاجرين الأفغان، لماذا فعلت ذلك؟!

ألست رجلاً أكاديمياً عليك أن تَطَّلِع على الجديد فى الطب وأن تتعلم أحدث تقنيات الجراحة لتعلمها لتلاميذك فى الجامعة، لماذا انحرفت عن مساركَ الذى كان ينبغى أن تلتزم به طوال حياتك؟ وما دوافعك لذلك؟

تغيير الوجهة

قلت للوامة: فى هذه الفترة (1986)، كنت أستاذًا مساعدًا للجراحة، وفى هذا العام قرأت أن بروفييسور قُشيرى أستاذ الجراحة بكلية الطب فى داندى بأيرلندا قد تمكن من استئصال المرارة باستخدام منظار البطن، وأنه قد ابتكر الآلات الجراحية اللازمة لذلك، كما وصف تقنية إجراء

الجراحة. تواصلت مع د. قشيري واتفقنا على أن أسافر إليه لمدة عام لتعلم التقنية الجديدة وأيضًا بعض جراحات الجهاز الهضمي الأخرى. وبالفعل تم حجز مكان لى فى الجامعة هناك وأيضًا فى سكن الجامعة للإقامة، وبدأت إجراءات الحصول على تأشيرة السفر.

خلال هذه الفترة، وفى أحد اجتماعات مجلس قسم الجراحة بالكلية، أخبرنا رئيس القسم بدعوة رئيس الجامعة للجراحين - بناء على طلب نقابة الأطباء - للتطوع بالسفر إلى بيشاور بباكستان للمساعدة فى إغاثة اللاجئين الأفغان الذين تشرّدوا من بلادهم عقب اشتعال الحرب الأفغانية ضد الغزو الروسى للبلاد. كما أعلن رئيس القسم أن الجامعة ستعتبر فترة السفر مهمة علمية يتقاضى عضو هيئة التدريس خلالها راتبه، كما أن نقابة الأطباء ستتحمل نفقات السفر والإقامة فى بيشاور مع مكافأة شهرية رمزية لتغطية مصاريف الطبيب هناك.

وفى الوقت نفسه، كانت نقابة الأطباء تعقد الندوات وتعرض الأفلام التى تبين بوضوح سوء الوضع الطبى فى بيشاور ومدى الحاجة إلى جراحين مهرة متحمسين لهذه المهمة الإنسانية والدينية. حتى إن أحد القادة الأفغان أخبرنا فى إحدى الندوات بأن جميع الحالات الحرجة، سواء من المرضى أو المصابين لا يمكن إنقاذها، كما أن الحالات الأقل خطورة يناظرها أطباء غير متخصصين فى الجراحة أو ممرضين، ويستخدمون غالبًا خيوط حياكة الملابس بدلًا من الخيوط الجراحية لرتق الجروح.

عقب هذه الندوة أخذت القرار بتغيير اتجاهى، وقررت أن أنطوع لهذا العمل الإنسانى، فتعلّم جراحات منظار البطن يمكن تأجيله لمرحلة لاحقة، أما هذا الواجب الإنسانى والدينى والطبى فقد أصبح يمثل مسؤولية

أخلاقية لا ينبغي التأخر عنها قدر المستطاع. وفي فترة قصيرة، أنهيت إجراءات الإجازة في الجامعة، كما أنهيت إجراءات السفر عن طريق نقابة الأطباء. وفي صباح التاسع والعشرين من يناير العام 1987، كنت محلقاً في السماء متجهاً إلى كراتشي، ومنها إلى بيشاور، بعد أن تركت عائلتي في مصر في رعاية الله، وعلى وعد بأن نلتقى في القاهرة بعد ثلاثة أشهر.

فى بيشاور

قضيت أيامى الأولى فى بيشاور متقمصاً دور المستكشف الذى ذهب إلى البقاع النائية لعلاج قاطنيها البدائيين. لم يكن هذا الوصف يبعد كثيراً عن الواقع؛ فمقاطعة بيشاور كانت مجتمعاً شديد التباين، ففيه التجار والرأسماليين الأثرياء، وفيه العمال والفلاحين شبه المعدمين. ويحيا هؤلاء وهؤلاء فى المدينة التى تستضيف قُرابة الأربعين هيئة عالمية، جاء رجالها ونساؤها من مختلف أنحاء العالم للمشاركة فى إغاثة منكوبى الحرب الأفغانية. والعنصر الأخير والأكبر فى «جكسو» المجتمع البيشاورى كان يمثل قُرابة خمسة ملايين لاجئ ومهاجر أفغانى جاءوا من جنوب ووسط أفغانستان، وتوزعوا فى العديد من المخيمات حول المدينة، يقتاتون من التبرعات والمعونات والصدقات ويشربون مياهاً اختلطت بمياه الصرف الصحى، فما أدراك بمستوى ما يُقدم لهم من خدمات طبية وتعليمية واجتماعية.

مهمتى الطبية

منذ قررت السفر إلى بيشاور ركَّزتُ فى القراءات الجراحية حول إصابات الحروب وجراحات المناطق المتوتنة والنائية وجراحات

الإمكانيات المتواضعة. كما راجعت كيفية تقديم الخدمة الجراحية لإسعاف مصابي الحروب، وكيف يتم استقبال هؤلاء في نقاط الإسعاف المتقدمة ثم تحويلهم إلى مستشفيات الإخلاء المركزية.

كانت الخدمة الطبية التي تُقدمها فرق العمل التابعة لنقابة الأطباء المصرية تمثل أرقى مستوى في المنطقة. وكانت النقابة تقدم خدماتها الطبية من خلال مستشفين كبيرين في بيشاور، أحدهما للنساء ويتبع الهلال الأحمر الكويتي، والآخر للرجال ويتبع الهيئة الكندية للإغاثة الإنسانية. وكانت النقابة تؤدي خدماتها أيضًا من خلال مستشفى مركزي ثالث يوجد في مدينة كويتا في شمال البلاد، يخدم اللاجئين المهاجرين من شمال أفغانستان.

كانت هذه المستشفيات تخدم مرضى المخيمات في فترات الهدوء العسكري النسبي داخل الأرض الأفغانية، أما خلال اشتعال العمليات العسكرية فكانت المستشفيات تتفرغ لإنقاذ جرحى ومصابي المعارك. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، أنشئ داخل الأراضي الأفغانية عددٌ من المستشفيات الصغيرة ونقاط الإسعاف لاستقبال هؤلاء الضحايا وتقديم الإسعافات الأولية لهم، ثم نقلهم بسيارات الإسعاف والأتوبيسات والميكروباصات وعربات النقل وسيارات الركاب، أو على ظهور البغال، إلى المستشفيات المركزية، حيث توجد الإمكانيات الأعلى لاستكمال علاج المصابين.

وبعد أيام من وصولي إلى بيشاور، تشكّل لدىّ تصوّرٌ عما ينبغي عليّ عمله في هذه المهمة. رأيت أنه لا ينبغي أن أكتفى بإجراء بعض العمليات الجراحية ثم العودة إلى مصر، مثلما كان يفعل معظم الجراحين الذين سبقوني إلى هذه المستشفيات. رأيت أن الأولى أن أشارك في بناء منظومة

تكفل استمرار العمل الطبي والجراحي على مستوى عالٍ بعد رجوعى إلى مصر، وأيضاً بعد انتهاء الحرب الأفغانية وعودة المهاجرين إلى وطنهم، وبالفعل كان المسؤولون عن العمل الخدمى هناك يضعون فى الاعتبار إعادة بناء المجتمع الأفغانى بعد الحرب.

وكانت أفضل المساهمات لتحقيق ذلك أن أقوم بتدريب عدد من الأطباء الأفغان جراحياً. لذلك قررنا أن يخدم هؤلاء الأطباء فى الوحدات الطبية المتقدمة لفترة يعودون بعدها إلى المستشفيات المركزية ليتعلموا الجراحات الكبرى على أيدي الاستشاريين فى مختلف التخصصات، ثم يعود هؤلاء للمستشفيات المتقدمة ليأتى غيرهم، وهكذا. ولتدريب جيل من الجراحين، كنت - أيضاً - أقوم بإلقاء محاضرة يومية قبل بدء العمل عن إسعاف مختلف الإصابات وإجراء العمليات الجراحية التى يحتاج إليها المصابون، وقد قمت بعمل ملخصات لهذه المحاضرات تم تداولها فى المستشفيات المستولة عن إسعاف المصابين حتى انتهت الحرب. كذلك كنت أزور المستشفيات الأفغانية العاملة فى بيشاور وما حولها لتدريب جراحىها على ما لا يعرفونه من الجراحات.

وكانت مستشفياتنا محطة استقبال للعديد من الشباب الذين اختاروا أن يقضوا إجازاتهم السنوية فى بيشاور، فكانوا يأتون من أمريكا وأوروبا والدول العربية لخدمة القضية الأفغانية. وكان بعض الشباب المتحمس يترك دراسته وعمله فى بلده، معتبراً أن خدمة هذه القضية فرصة للجهاد فى خدمة الإسلام. وكان لى موقف خاص من هؤلاء، فقد كنت أقنعهم بالعودة لأعمالهم ودراساتهم، خاصة بعد أن زاد عددهم وصاروا عبئاً على العاملين الحقيقيين لخدمة القضية.

إن قناعتى بأن الصراع من أجل الإسلام صراع حضارى، وذلك يتطلب أن يستكمل الطالب دراسته الطبية أو الهندسية أو غيرها. تبنيت ذلك الموقف بقوة بعد أن رأيت بعض طلبة الطب يتركون دراستهم ويأتون إلى بيشاور ليعملوا فى التمريض. كنت أؤكد لهؤلاء أن قضايا الإسلام لن تنتهى بانتهاء الحرب الأفغانية، ومن ثم فاستكمالهم دراسة الطب ثم خدمتهم الإسلام كأطباء أفضل ألف مرة من الانقطاع عن الدراسة وخدمة الإسلام كمرضى.

عطاء بلا حدود

من الشخصيات المصرية التى ساعدت كثيرًا على تقديم الخدمة الطبية للمهاجرين والمصابين الأفغان كان أستاذنا د. أحمد البنهاوى (رحمه الله) أستاذ ورئيس قسم جراحة المخ والأعصاب بكلية الطب بجامعة عين شمس، ثم عميد الكلية، ثم رئيس جامعتها.

فمنذ بداية الحرب الأفغانية، كان د. البنهاوى يتردد على بيشاور لإجراء جراحات المخ والأعصاب للمرضى والمصابين الأفغان، كما أنشأ قسمًا لهذه الجراحات بمستشفى الهلال الأحمر الكويتى، ولضمان استمرار وجود الاستشاريين أسس د. البنهاوى منظومة يقوم من خلالها بإرسال جراحى المخ والأعصاب من الجامعة بصفة دورية لهذا المستشفى. وفى أثناء إحدى زيارته لبيشاور، قام د. البنهاوى بتصميم نقالة توضع على ظهور البغال لنقل المصابين عبر الجبال الوعرة التى لا تستطيع السيارات الوصول إليها. كما استأجر د. البنهاوى على نفقته الخاصة فيلا كبيرة ليقيم فيها الأطباء القادمون من مصر لخدمة القضية، وأصبحنا نطلق على هذه الفيلا اسم «بيت العز»، فقد كان يستضيف القادمين لمدة ثلاثة

أيام، يقوم الطبيب بعدها بدفع نفقات الطعام وغسيل الملابس فقط طوال فترة إقامته.

وقد استمر عطاء د. البنهاوى للقضية الأفغانية حتى بعد وفاته؛ ففي أثناء رئاسته للجامعة اتخذ قراراً باعتبار فترة سفر المتطوعين لخدمة هذه القضية «مهمة علمية» جامعية، تكفل لعضو هيئة التدريس الحصول على الإجازة مع الاستمرار في صرف راتبه الجامعي.

حياتي في بيشاور

قالت نفسى اللوامة: حدثتنا عن الجانب العملي في تجربتك الأفغانية، فماذا عن الجانب الإنساني والشخصي؟

قلت للوامة: كانت النية عند سفري أن أبقى في بيشاور لمدة ثلاثة أشهر، لا أصحب خلالها أسرتي، لما يُحْفُ بالحياة في هذه الظروف من مخاطر. وليلة وصولي إلى بيشاور طمأنني الأطباء في بيت العز أن الحياة في المدينة آمنة وأن عدداً من الأطباء استقدموا أسرهم للإقامة معهم. ليلتها اتصلت بزوجتي وطلبت منها أن تُجهز نفسها للحضور مع ابننا محمد وابتنتنا إسراء إلى بيشاور. ولحسن الحظ أن خلت شقة في بناية أورا كازى بلازا التي يقطن معظم شققها أسرٌ عربية، مما يكفل لنا جيرة آمنة في بلاد الغربة.

استقبلت زوجتي ومحمد وإسراء بمطار بيشاور، وفي طريقنا إلى الشقة التي استأجرتها وفرشتها كنت أصف لها طرقات ومباني المدينة، وكيف أن كثرة القيلات والمنازل المنخفضة يرجع إلى وقوع بيشاور في حزام الزلازل العالمي، ضمت ماجدة طفليها إليها وقالت: كمان! مش

كفاية الحرب ومخيمات اللاجئين المحيطة بالمدينة والأمراض المتوطنة والأوبئة!! كمان زلازل!

وما أن دخلنا الشقة، ووضعتُ ابني النائم على المرتبة الرقيقة فوق أرض غرفة النوم وخلعت جاكنتي وغطيته بها حتى انفجرت زوجتي في البكاء، لقد أَشْفَقْتُ على طفلينا من هذا النمط من الحياة، ورمقتني بنظرة عاتبة.

لر تمض أيامٌ حتى اعتادت ماجدة الحياة في هذه الشقة، لر تعد تبالي بأن غرفها الثلاث والمطبخ والحمام تفصلهم ساحة مفتوحة إلى السماء، ليس لها سقف. كانت سعيدة بالفرش القليل الذي جَهَّزَتْ به الشقة؛ مرتبتان رقيقتان كالألحفة لغرفة النوم، وبضع مراتب مماثلة لغرفة المعيشة والاستقبال، ومنضدة أَسْمِنَها مكتبًا لثُدا كر زوجتي عليها لمحمد دروسه. كذلك تأقلمنا على السحالي والثعابين الصغيرة التي كانت تجرى في الشقة هنا وهناك، بل حمدنا الله على هذه الكائنات الأليفة بعد أن أخبرنا أصدقائنا من ساكني القيلات عن العقارب التي تتسلل من فناء القيلا الصحراوي إلى الداخل، وكيف أن أطفال أحدهم صمموا على اللعب بها!

وكانت زوجتي تتمتع بموهبة إطلاق الأسماء على المسميات، وهذه نعمة كبيرة بالرغم من أنها سببت لها مشكلة بسيطة. فعندما أطلقت ماجدة على الغرفة الثالثة الخاوية اسم غرفة السفرة لأنها تحتوى على بعض خزين البيت، اتهمتها جارائها المسلمات المتعصبات بأنها «كاذبة»! فليس في الغرفة أثاث حجرة السفرة المعتاد!

وكنا أحيانًا نسافر في إجازة نهاية الأسبوع مع أُسر بعض من أحببنا

من زملائنا إلى إسلام آباد ولاهور للتسوق وإلى مرتفعات ميرى ووادى
سوات للسياحة.

فى الأسفار سبع فوائد

قالت النفس اللوامة: دعنا الآن نتأمل ما حَصَلْنَا من فوائد من
تجربتك مع القضية الأفغانية. فكما يقولون فى الأسفار سبع فوائد؛ فهل
حققت بالفعل من الفائدة ما يُعوّض المشاق التى تحملتها والتضحيات
التي قدمتها؟

أجبت اللوامة قائلاً: لقد كان لهذه الرحلة عائدٌ كبير للغاية، على
المستويات العلمية والعملية والإنسانية والفكرية والشخصية، حتى
إننى أعتبرها من أهم محطات حياتى.

وكلما جاء ذكر هذه الفترة من حياتنا، وحتى الآن، تؤكد زوجتى
أنها كانت أسعد فترة فى حياتها. فبالرغم من المشكلات الصغيرة، قَرَّبَتْنَا
هذه الفترة من بعضنا البعض، وعَلَّمَتْنَا الاعتماد على النفس والحياة بأبسط
الإمكانات، وعَلَّمَتْنَا الحياة من أجل الآخرين، كما حفظنا الكثير من
سُور القرآن الكريم. وكان طفلانا سعيدين يلعبان مع أبناء الجيران، وكنا
نخرج للنزهة فى حديقة حياة أباد وحديقة جامعة خير، وكنا نتسوق
من سوق خير ونستخدم الريكشا فى الانتقال، وكانت تلك خبرة جديدة
علينا إذ لم يكن التوك توك قد دخل مصر بعد.

الفوائد الجراحية

أما على المستويين العلمى والعملى، فقد تدرت جيداً على جراحات

الحروب، التي تتطلب أن يتعامل الجراح في وقت واحد مع عدد كبير من المصابين، وأن يتقن كل أنواع الجراحات، من قمة رأس المصاب حتى أخمص قدميه. كذلك اكتسبت خبرة كبيرة في جراحات الأمراض المتوطنة، خاصة جراحات الدرن المتوطن والمتنشر بشدة في بلاد الهند والسند.

وقد حدث بعد عودتي إلى مصر بأشهر أن اشتد أوار الحرب الأفغانية مرة أخرى، وزادت الإصابات إلى حد كبير، فاتصل المسؤولون عن الخدمات الطبية هناك بنقابة الأطباء يطلبون سفرى إلى بيشاور للمساعدة في إنقاذ المصابين. وأشارت الرسالة إلى أن الجراحين الموجودين هناك قادرون على التعامل مع الإصابات المعتادة، لذلك يريدوننى أنا بصفة شخصية لما اكتسبته من خبرة استثنائية للتعامل مع الكوارث الكبيرة، وأكدوا عدم قبولهم لبديل غيرى. واتصلت بنقابة ونقلت لى الصورة، وبالفعل سافرت إلى هناك مرة ثانية مكثت فيها مدة ثلاثة أشهر، كان من بينها شهر رمضان الساخن، كما وصفوه في الساحة الأفغانية.

وبعد عودتي لمصر، نشرتُ بحثًا مهمًا في أكبر المجلات الأمريكية لجراحات الأوعية الدموية، وكان عنوان البحث «خبرتى في جراحات إصابات الأوعية الدموية في أثناء الحرب الأفغانية» وقد قبلت المجلة البحث فور إرساله، فقد كان البحث الأول الذى يُنشر دوليًا حول هذه الإصابات في هذه الحرب، وكان هو البحث الأهم الذى حصلت به فيما بعد على درجة «أستاذ» فى الجراحة العامة. والبحث الثانى الذى حصلت به على الدرجة، كان بحثًا نُشرته المجلة البريطانية للجراحة، وكان يدور حول تقنيات جراحية جديدة لعلاج حالات تدرن الأمعاء، وكانت مادة هذا البحث من مرضاى من المهاجرين الأفغان.

دروس من الفرق الإسلامية

وأضفتُ قائلاً للوامة: وعلى المستوى الفكرى والإنسانى، كانت أهم فائدة حصَّلتُها هى احتكاكى بأنماط واتجاهات مختلفة من البشر. بداية من فقراء الأفغان والباكستانيين إلى كبار الرأسماليين وأثرياء الحرب، وكلا الفريقين ينتمى إلى حضارة مختلفة عن حضارتى.

والثقيتُ أيضاً بمجموعة من الشباب المخلص الذى ضحى بالكثير من وقته وجهده لخدمة قضية يؤمن بها. وفى المقابل، الثقيت بنماذج من الشباب الذى استغل القضية ليحقق منافع شخصية بطرق غير مشروعة؛ كهذا الطبيب الذى كان يجمع تبرعات باسم الجهاد الإسلامى، وأوهم المتبرعين أنه أسس بتبرعاتهم مستشفى لخدمة المصابين الأفغان، وعندما جاء بعض المتبرعين لزيارة المستشفى، توسل إلينا هذا الطبيب أن يُحضرهم إلى أحد مستشفياتنا باعتباره المستشفى الذى أنشأه بتبرعاتهم!!

كما الثقيتُ فى بيشاور بنماذج من شباب الإخوان المسلمين، منهم من كان مخلصاً بحق لدينه وللقضية التى اغترب من أجلها، ومنهم من كان فهمه الدينى والإنسانى قاصراً للغاية. أما السمة المشتركة بين هؤلاء وهؤلاء فكانت الطاعة المطلقة لمن يسبقه فى المنزلة التنظيمية، كما كانت منزلة القيادات تتحدد تبعاً للفترة التى قضاها كلٌ منهم فى السجون، ويسمون السجن «مدرسة يوسف» نسبة إلى نبي الله الذى قضى تسع سنوات فى سجن عزيز مصر. وللأسف كان انتهاء هؤلاء الحركى مبرراً للتغاضى عن أخطاء بعضهم، تلك الأخطاء التى سببت مشكلات كثيرة فى منظومة العمل وأيضاً لبعض المرضى فى بيشاور.

وذات يوم، طُلب مني أن أُلقي كلمة في المسجد بين ركعات التراويح في شهر رمضان، ركزت في كلمتي على أهمية الأخذ بالأسباب، وذكرت أن التقصير في ذلك هو الذي تسبب فيما آل إليه حال الإسلام والمسلمين من ضعف. فوجئت بعد الكلمة (على غير المعتاد في درس التراويح) بأحد قيادات الإخوان الوسطى يُعلق على كلمتي بأن هذا الطرح يخالف حسن التوكل على الله! وأضاف أن الالتفاف حول القادة الإسلاميين والسمع والطاعة لهم هو الطريق لنصرة الإسلام، اقتداء بسلوك الصحابة تجاه الرسول الكريم ﷺ!!! أدركتُ من فوري الرسالة التي كان المطلوب إيصالها للمُصلين.

وربما كان أهم فريق تعرفت عليه وتعاملت معه هو السلفيين المُسيّسين. لم تكن خبرتي في التعامل مع السلفيين تتجاوز ما كنا نراه من ممارسات جماعة الأمر بالمعروف في المملكة السعودية. أما ما رأيناه منهم في بيشاور فكان شيئاً آخر. فإذا كان بعض هؤلاء رقيقى القلوب يجتهدون في المحافظة على ظاهر العبادات قَدْر فهمهم، فقد كان الكثيرون منهم هناك غلاظاً لا يفهمون من الدين إلا قشوره. لقد وصل الأمر بأحد كبرائهم أنه كان يهجم على ييوت الناس من العرب والباكستانيين مع فريق من أتباعه إذا سمعوا عن أصحابها ما لا يعجبهم، وقد حدث أن هاجموا شقة مدير العقار الذي نقيم فيه لأنهم رأوه يدخل شقته مع فتاة، ثم اكتشفوا فيما بعد أنها أخته.

كذلك كان أحد كبار السلفيين (قضى تسع سنوات في السجن لانتماؤه أيضاً إلى الإخوان ومنزلته القيادية فيهم)، يُوقظ سكان العمارة لصلاة الفجر بالطرق على أبواب الشقق بعنف، مما كان يُفزع أطفالنا

النائمين. وقد خجل من كان على علاقة قوية به من أصدقائنا من التحدث إليه لإقناعه بالتخلي بالرفق، فقد كانت منزلته بينهم عالية، بقدر السجن لتسع سنوات.

وأذكر حواراً ساخناً دار بيني وبين هذا الشيخ عقب عودتي من اليابان، التي سافرت إليها لتجهيز مستشفى جديد تابع للهِلال الأحمر الكويتي. طلب مني الشيخ في أحد مجالسنا أن أروى للحضور تجربتي في زيارة اليابان، أشدت بالشعب الياباني وبحرصه على العمل وما وصلوا إليه من تقدم، فعاتبني الشيخ! قائلاً: لا تُفسد عقائد إخوانك، لقد انبهرت بالكفار، كنت أحسبك ستعود وفي يدك مجموعة منهم قد أسلموا. فقلت له مؤنباً: إحمد ربنا إني عدت مسلماً، يا شيخ لقد فتنتم الناس في دينهم، ولا أدري تماماً ما تريدونه منهم، يبدو أنكم لا تريدون إلا أن يصبخوا كالأنعام تسوقونهم كيف تشاءون. وتركتُ المجلس وانصرفت، وخف تعاملي مع هذا الشيخ الذي لا يعرف كيف يتعامل مع «الآخر» ويتعلم منه وإن اختلف معه.

وللأسف كانت بعض زوجات السلفيين المسييين دائماً الاغتياب لمن لا تشاركهن التوجه! فكن يهاجمنا إذ كنا نتزاور أزواجاً وزوجات كما اعتدنا في بلادنا، بالرغم من أن ذلك كان في إطار الأعراف والتقاليد العربية والإسلامية، فقد كان للرجال مكانهم وللنساء مكانهن. لم يهدأ الاغتياب إلا بعد أن عاتب أحد السلفيين الفضلاء زوجته على ذلك عتاباً شديداً، وقال لها: لقد قدمنا نحن الفلسطينيين إلى بيشاور لخدمة القضية الأفغانية بعد أن ضاقت بنا الأرض. أما هؤلاء (يقصدني وبعض أصدقائي) فلمهم حياتهم الاجتماعية الثرية في مصر وللرجال أعمالهم في الجامعات،

وما تركوا كل ذلك إلا اقتناعاً برسالة يقومون بها، ولو كانوا ييغون ما تنكرونه عليهم لبقوا في بلادهم مُكْرَمِينَ مُعَزَّزِينَ، لا تنالهم أَلْسُنُكَ. دارت المرأة على صويحباتها تأمرهن ألا يخوضوا فينا، ودارت على زوجاتنا معذرة لهن اعتذاراً شديداً.

أما أخطر ما اقترفه السلفيون المسيسون فكان صدامهم العقائدي مع الأفغان. ففي بداية الحرب الأفغانية، سافر بعض العرب السلفيين إلى هناك لمعاونة الأفغان، وقتها نظر الأفغان إليهم نظرة إعزاز وتقدير عميقة، وكانوا يعتبرون أن «العرب» أحفاد رسول الله ﷺ قد أتوا إليهم ليدعموهم في جهادهم ضد الروس الشيوعيين. بالتدريج، بدأت العلاقة تتبدل؛ فالشعب الأفغاني تَغَلَّبَ عليه النزاعة الصوفية، وتكثر في بلادهم أضرحة الأولياء، ويكثر من زيارتها والتبرك بها، اعتبر السلفيون أن جهاد هذا الشرك أَوْجَبَ عليهم من المساعدة في الجهاد ضد الروس، فأقبلوا على هدم الأضرحة وتسويتها بالأرض، مما أثار حفيظة الأفغانين وكرهوا العرب، وأصبحوا إذا أرادوا أن ينتقصوا من أحد، أو يُقَلِّبُوا عليه الناس يصفونه بأنه وهاي! هكذا تسبب السلفيون المُسَيِّسون في بث الفرقة بين فرق المسلمين وفصائلهم، في ظروف كنا فيها في أَمَس الحاجة لتوحيد الكلمة والجهد.

ولعل أهم الدروس التي استوعبتها خلال تعاملي مع الإخوان ومع السلفيين، هو خطورة أن يعتبر فريق معين أنهم هم وحدهم الفاهمون عن الله عَزَّوَجَلَّ والجديرون بأن يتفردوا بالحديث باسمه، ومن ثم فإنهم هم جماعة المسلمين، وأن الآخرين ليسوا من الفرقة الناجية!، لقد أدركت

وقتها خطورة الفكر الأصولي⁽¹⁾ بصفة عامة، كما توجست خيفة على الأمة من خطورة الفكر الأصولي السلفي والفكر الأصولي الإخواني. وقد آلت الأمور حديثاً بالفعل إلى أسوأ مما تخوّفت منه.

كذلك أدركت خطورة تسييس الإسلام، بدعوى أنه شامل لكل جوانب الحياة، وهذه مقولة حق يُراد بها باطل. فكون الإسلام شاملاً لكل جوانب الحياة لا يعنى أن يعتبر فريق مُعَيَّن أن طرحه السياسى للإسلام هو مراد الله عَزَّوَجَلَّ، فهناك العديد من الأفهام لنظرة الإسلام للسياسة، حتى إن كُلاً من الخلفاء الراشدين الخمسة قد تولى الخلافة بأسلوب يختلف عن الآخر، وقد ارتضت الأمة وعلمائها ذلك دون اعتراض. لقد أصبحت قناعتي أن الديكتاتورية الدينية أخطر على الأمة والدين من الديكتاتورية السياسية.

تجربة أنضجتني

وعلى المستوى الشخصي، استفدت كثيراً من رحلتى إلى بيشاور. فلا شك أن عملي في الجامعة كان له بعض السلبيات! فقد كان هناك دائماً من يعلونى خبرة في الجراحة، وبالرغم من قيمة ذلك التعليمية والإنسانية الكبيرة، إذ نتعلم دائماً ممن يفوقونا خبرة، وبالرغم من أن هناك دائماً فرصة أكبر لإنقاذ المريض من المضاعفات التى يمكن أن تسببها الجراحة، فإن لذلك جانباً سلبياً، هو تأخر استكمال النضج الجراحى وتأخر اكتمال ثقة الجراح بل والإنسان بنفسه. أما فى بيشاور، فقد كنت كبير الجراحين طوال فترة تواجدى، بالرغم من حداثة سنى نسبياً، مما أكسبني ثقة كبيرة

(1) لنا حديث مُفَصَّل عن الفكر الأصولي فى الفصل الثانى عشر.

في النفس كجراح وكإنسان، باعتباري صاحب الكلمة الأخيرة في عدد من المستشفيات، سواء في الجانب العلمى أو الإدارى، باعتباري كنت أيضًا المدير الطبى لها.

أما السلبية الثانية للعمل بالجامعة في مصر، على المستوى النفسى، فهي كثرة عدد أعضاء هيئة التدريس، مما قد يُشعر الشخص بأنه عمالة زائدة؛ فدائمًا هناك آخر جاهزٌ تمامًا للقيام بدورك. وقد أعانى عملى في بيشاور على تجاوز هذه السلبية أيضًا، فقد كانت هناك حاجة شديدة لكل دقيقة من وقتى، مما عزز ثقتى بنفسى، كما استفز مهاراتى في حسن تدبير الوقت، وهى مهارات أحسبني استفدت منها كثيرًا طوال حياتى.

قالت نفسى اللوامة: أفهم مما ذكرت أنك كنت مختلفًا مع التيارين، الإخوانى والسلفى، وبالرغم من أنهما كانا التيارين الأقوى بين العرب في بيشاور، فقد طالت إقامتك التى كان مفروضًا أن تقتصر على ثلاثة أشهر إلى قرابة العامين. فما السر في ذلك؟

قلت للوامة: يرجع ذلك إلى عوامل من جانبى وعوامل من جانب المشرفين على العمل الطبى من هذين التيارين. لقد كان للفوائد التى حصَّلتُها على جميع المستويات (العلمية والعملية والإنسانية والفكرية والشخصية) دور كبير في إقناعى بالاستجابة لطلب المسؤولين عن العمل الطبى المتكرر بأن أبقى في بيشاور لفترة أطول، فقد كان هؤلاء يدركون مقدار استفادة المرضى والمستشفيات والأطباء المتدربين من وجودى هناك، حتى إنهم عَرَضُوا عَلَيَّ أن أهاجر وعائلتى إلى باكستان وأن يكفلوا لنا (من خلال اتصالاتهم) الحصول على الجنسية الباكستانية!!!

حَرْبُ سَيِّئَةِ السَّمْعَةِ!!!

قالت لى نفسى اللوامة: بعد عودتك من بيشاور، بَلَقْتُكَ أخبار الصراع على السلطة بين الفصائل الأفغانية عقب انسحاب الروس من هناك، وعرفت دور المخابرات الأمريكية في دعم الأفغان ضد الروس، كما سمعت عن التضيق الأمني على «العائدين من أفغانستان»، بعد ما ارتكبه بعض هؤلاء من مصائب وجرائم وخيانة لبلادهم. باختصار؛ لقد أصبحت الحرب الأفغانية «سيئة السمعة»، ألمر يشعرك ذلك بالندم أن ضحيت برحلتك العلمية إلى بريطانيا لتذهب إلى بيشاور؟ ألا يشعرك ذلك بالندم لأنك انفقت قرابة العامين من عمرك لخدمة هذه القضية؟

قلت للوامة: قناعتي أن الإنسان يُحَصِّلُ أجر ما يفعله ابتغاء لوجه الله عَزَّجَلَّ ومرضاته مهما كانت النتائج، وهذا مصداق قول رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»⁽¹⁾. وقياسًا على ذلك، فقد خدمنا خلال فترة عملنا في بيشاور وخدم تلاميذنا هناك بعد عودتنا عشرات الآلاف من المرضى والمصابين، ونسأل الله عَزَّجَلَّ أن يؤجرنا على ذلك، سواء كانت هذه الحرب حسنة السمعة أو سيئة السمعة، وسواء تصارع الرفقاء أم تصادقوا، وسواء كان للمخابرات الأمريكية دور أم لا. ومن ثم، لا أرى مبررًا للندم، بل أعتبر أن ما فعلناه مدعاة للفخر، ولولا خشيتنا من أن يُجَبِّطَ عملنا لباهينا به بين الناس. باختصار، لقد اقتنعنا بقضية، وبذلنا من أجلها الجهد الذى عاد على المسلمين بالنفع الكبير.

أما ضياع الوقت؛ فلا أحسبنا قد أضعنا وقتًا، فقد استفدنا في جميع

(1) حديث متفق عليه.

المجالات أكثر مما كنا سنُحَصِّلُه لو بقينا في مصر أو ذهبنا لأيرلندا أضعافاً مضاعفة. فعقب عودتي لمصر، سافرتُ وحصلتُ على دبلومة في جراحات منظار البطن على يدي الأب الروحي لهذه التقنية، أستاذ جراحة المناظير الألماني كيرت زم Kert Semm، وبذلك كنت من أوائل مَنْ مارس هذه التقنية في مصر وعَلَّمَهَا لتلاميذه، وبذلك عَوَّضْتُ ما فاتني من تعلم هذه التقنية بجامعة داندی بأيرلندا. هذا بالإضافة إلى ما ذكرته من فوائد جَمَّة استفدتها هناك في جميع المجالات.

وبالإضافة لذلك، يَسَّرَ الله عَزَّجَلَّ لي - بعد عودتي بأشهر قليلة - السفر للعمل بالمدينة المنورة، وبقيت هناك قرابة الخمس سنوات، تمتعت فيها بمجاورة رسوله الكريم ﷺ والحج ثلاث مرات والقيام بالعديد من العمرات، هذا بالإضافة إلى الفائدة المادية التي حققتها. وأسأل الله عَزَّجَلَّ إن كان قد عَجَّلَ لي الأجر في الدنيا على عملي التطوعي في بيشاور ألا يكون ذلك انتقاصاً من أجرى في الآخرة.

أما بخصوص ما يقترفه البعض من جرائم وخيانة في حق بلادهم، وما استتبع ذلك من تضيق على من يسمونهم «العائدون من أفغانستان»، فلا شك أن أعداداً ممن سافروا لخدمة القضية قد تدربت على السلاح هناك، كما تم عمل غسيل مخ لهم بخصوص مفهوم الجهاد الإسلامي، وكنا نرى بعضاً من هؤلاء يجولون جيئةً وذهاباً متباهين بأسلحتهم في طرقات بيشاور، ولا أشك أن بعضهم نذر حياته بعد ذلك لتقويض نظم الحكم في بلادهم، سواء عن قناعة دينية أو تم شرائهم كعملاء لمخططات تخريبية في المنطقة.

ولكن لا شك أن هناك من سافر خدمةً للمسلمين وللإنسانية، ووفاءً

بَقَسَمَ أَقْسَمَهُ عِنْدَ بَدَايَةِ مَزَاوَلَتِهِ لِلْمِهْنَةِ بِأَنْ يَمِدَّ يَدَ الْعَوْنِ الطَّبِيِّ لِكُلِّ
مُحْتَاجٍ، دُونَ النَّظَرِ لِنَجْسٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ دِينٍ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَحْسِبَنَا
مِنْ هَؤُلَاءِ.

أَمَّا بِخُصُوصِ التَّضْيِيقِ الْأَمْنِيِّ، فَهَذِهِ فُرْصَةٌ لِأَسْجَلٍ فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ
شَهَادَةً لِلتَّارِيخِ. لَقَدْ أَوْفَدَتِ جَامِعَةُ عَيْنِ شَمْسٍ لِهَذِهِ الْمِهْمَةِ الْعَشْرَاتِ
مِنْ أَعْضَاءِ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ مِنْ أَطْبَائِهَا، وَقَدْ التَّقَيْتِ بِالْعَدِيدِ مِنْهُمْ هُنَاكَ،
وَمَا زَالَتْ تَرْبُطُنَا الصَّدَاقَةُ وَالزَّمَالَةُ الْجَامِعِيَّةُ حَتَّى الْيَوْمِ. لَمْ يَصِلْ إِلَى عِلْمِي
أَنْ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ صُيِّقَ عَلَيْهِ فِي عَمَلِهِ أَوْ بَيْتِهِ أَوْ رِزْقِهِ، إِلَّا حَالَاتٌ
قَلِيلَةٌ تَمَسَاءَ لَتِهَا وَمَحَا كَمَتَهَا لِأُمُورٍ أُخْرَى نُسِبَتْ إِلَيْهِمْ فِيمَا بَعْدَ.

وَلَنْ أَذْهَبَ بَعِيدًا، فَأَنَا أَحَدُ هَؤُلَاءِ، وَقَدْ مَكَّثْتُ فِي بِيْشَاوَرٍ لِفَتْرَةٍ أَطْوَلِ
مِنْ أَيِّ مَنْ الْمَوْفِدِينَ مِنَ الْجَامِعَةِ إِلَى هُنَاكَ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ أُسْأَلْ
أَمْنِيًّا فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ عَنْ فِتْرَةٍ وَجُودِي هُنَاكَ أَوْ عَنْ أَيِّ نَشَاطٍ
مَارَسْتَهُ. كَمَا إِنِّي حَصَلْتُ عَلَى تَرْقِيَّتِي أَسْتَاذًا لِلْجِرَاحَةِ، ثُمَّ رَئِيسًا لِأَقْسَامِ
الْجِرَاحَةِ بِالْكَلِيَّةِ، وَهِيَ تَرْقِيَّاتٌ تَحْتَاجُ لِتَقَارِيرِ أَمْنِيَّةٍ، دُونَ أَيِّ تَحْفِظٍ أَوْ
تَعْوِيقٍ. لِذَلِكَ كُنْتُ أَنْدَهْشُ عِنْدَمَا نَصَحْنِي بَعْضُ أَصْدِقَائِي بِعَدَمِ ذِكْرِ
رَحَلَتِي إِلَى بِيْشَاوَرٍ فِي سِيرَتِي الذَّاتِيَّةِ خَشِيَّةَ التَّضْيِيقِ الْأَمْنِيِّ عَلَيَّ!!

هَذِهِ شَهَادَةٌ آثَرَتْ أَنْ أَتْرَكَهَا لِشَبَابِنَا قَبْلَ الرِّحِيلِ...

وَأَخْتَمُ زِيَارَتِي إِلَى مَا تَحْتَ جِبَالِ الْهِنْدُكُوشِ، بِذِكْرِ يَوْمٍ خَرَجْنَا فِيهِ
لِلتَّفَتِيشِ عَلَى بَعْضِ نَقَاطِنَا الطَّبِيَّةِ فَوْقَ تِلْكَ الْجِبَالِ...

كَانَتْ سَيَارَةُ الْإِسْعَافِ تَسِيرُ بِهِمَّةٍ وَتَقْطَعُ الطَّرِيقَ الْمُنْتَوَى لِأَعْلَى
كَالْأَفْعَى، وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ قَارَبَتْ عَلَى الشَّرُوقِ وَظَهَرَتْ بِشَائِرِ أَنْوَارِهَا

من خلف قمم الجبال الشاخنة، وكانت بيوت القرى المحيطة ببيشاور
تتصاغر تحت أنظارنا كلما ارتفعنا.

عندها طرق أسماعى لحنٌ محبوبٌ إلى قلبي، إنها موسيقى محمد عبد
الوهاب التى وَشَّى بها كلمات نزار قباني، وجدت نفسى أشدو مع الأغنية؛
أيظن... أنى لُعبَةٌ فى يديه... أنا لا أفكر فى الرجوع إليه...

وأخذت أردد كلمات الأغنية مع اللحن بانفعال صادق، حتى أتيت
عليها حتى آخرها...

عندها أفقت، وتنبهت أن الأغنية لم تكن صادرة من جهاز من
الأجهزة، بل كانت صادرة من داخلى...

لا أدري حتى اليوم، لماذا كانت «أيظن» هى أنيسى مع إشراق شمس
هذا اليوم فوق جبال الهندكوش...

ربما كان الحنين إلى الوطن، وما تحمله هذه الأغنية من ذكريات فيه.

الفصل الرابع

لبيك ربي...

قالت نفسى اللوامة معاتبة:

احترتُ كثيراً في توجهاتك الدينية، حتى صرتُ لا أدري كيف أصنّفك؛ إنني حتى الآن لا أعرف لك مذهباً فقهياً، ولا أعرف إلى أى مدرسة في العقيدة ولا

في الفكر الإسلامى تنتمى.

فتارة كان مشايخ الوهابية في السعودية يمتدحونك، ويُخلون لك منبر مسجد المستشفى في الباحة لثُلّقى من فوقه خطبة الجمعة!

وتارة أخرى كنت تتردد على مجالس الصوفية وتعشى حضراتهم وتقرأ أشعارهم وتُقبل أيدى مشايخهم، وتعقد في بيتك مجلساً صوفياً أسبوعياً، يستمر عشرين عاماً قبل أن يتوقف!

وفي السنوات الأخيرة تتبنى في كتاباتك توجهات عقلانية واضحة، تُنزل فيها العقل والعلم منزلة عالية، تُفوق فيها أحياناً المعتزلة أصحاب المدرسة العقلانية في الفكر الإسلامى!

لقد احترتُ واحترار فيك قِراءوك... ما هى توجهاتك الإسلامية، حتى يمكن أن أقول إن هذا هو طريقك إلى الله؟

الطريق واحد والدواب كُثر

أجبت نفسى اللوامة قائلاً: أعجبنى قولك: «طريقك» إلى الله، فبالرغم من أن بناء الإسلام هو منهج واحد، يقوم على القرآن الكريم والسنة النبوية، وعلينا تعلمهما والعمل بهما، فلكل منا بالفعل طريقه إلى الله، لذلك قال سادتنا الصوفية «عدد الطرائق بعدد الخلائق» ويمكنك تشبيه الطرق إلى الله بأنصاف أقطار الدائرة التى تمتد من محيطها إلى مركزها، وفى تشبيها هذا يتراس البشرُ جميعاً على محيط الدائرة، ويقصدون الله عَزَّجَلَّ فى مركزها. وأنتِ تعلمين أن عدد أنصاف أقطار الدائرة لا نهائى، وبالمثل، فالطرق إلى الله لا نهائية.

ويرجع ذلك إلى أن الله عَزَّجَلَّ هو «الواسع» الذى لا تحُدُّه التصورات والأفهام، كما أن العقول والنفوس البشرية متباينة لا تشبه إحداها الأخرى. ولاختلاف القاصد وسعة المقصود كان بديهيّاً أن تتعدد الطرق إلى الله إلى ما لا نهاية، وفى الوقت نفسه فهو تعددٌ فى إطار صراط مستقيم واحد.

قاطعتنى اللوامة قائلة: كيف... ألم يبلغك حديث رسول الله ﷺ أن هناك فرقة واحدة ناجية من بين نيف وسبعين فرقة⁽¹⁾، فكيف تقول بتعدد الطرائق إلى ما لا نهاية، وكيف يكون التعدد اللانهائى فى إطار صراط واحد؟!

أجبتها قائلاً: إنه تعدد لا نهائى داخل هذه الفرقة الناجية الواحدة. فمثلاً إذا قلت إنه ينبغى قطع الطريق إلى العاصمة بالسيارة وليس بأية

(1) «تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة» حديث معاوية بن أبى سفيان رواه الترمذى وصححه الألبانى.

وسيلة أخرى، فهذا لا يمنع أن هناك العديد من أنواع السيارات ومن موديلاتها، وكلها تحقق الوصول.

والفرقة الناجية هي الملتزمة بالكتاب والسنة، وهذا الالتزام يختلف تبعاً لفهم كل منا للنصوص المقدسة. لذلك يخبرنا القرآن الكريم بأن من آياته ما هو مُحْكَم لا يحتمل إلا معنى واحداً، مثل أن لا إله إلا الله وأنه رحمن رحيم، ومنها ما هو متشابه يحتمل العديد من المعاني، وبناء على فهم كل منا تكون تفاصيل عقيدته ويكون سلوكه! من هنا جاء تعدد الطرق إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

إن أكبر مشكلات المسلمين أن تظن كل مدرسة منهم أنها الفرقة الناجية، وأن الآخرين في النار، وقد يصل الأمر إلى أن يُكفَّر بعضهم بعضاً. إن محاولة قولبة المسلمين في مذهب أو مدرسة أو ضرب واحد، يتبنى فهماً واحداً ويخدم اتجاهاً معيناً هو من أكبر وأخطر العلل التي أصابتنا.

وانطلاقاً من هذا الفهم عشت حياتي كلها في ضوء حديث رسول الله ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن، أُنِّي وجدها فهو أولى بها»⁽¹⁾. لذلك أسعى دائماً وراء «الحكمة» عند كل المدارس الإسلامية وغير الإسلامية، وفي هذا السعى كنت ألتزم بمقولة سقراط الشهيرة: «أن أتبع الدليل إلى حيث يقودني». وقد قادني ذلك إلى تبني توجهات مختلفة في المراحل المختلفة من حياتي، حتى شبّهني أحدهم في ذلك ببرتراند رسل الذي كان يتبنى مدرسة فلسفية كل بضع سنين، لذلك إذا سألت الدارسين لرسل: ما هي فلسفته؟ أجابوك: متى؟!

(1) رواه الترمذی وابن ماجه من حديث أبي هريرة، صَعَفَهُ كثيرون، وهو صحيح المعنى.

وأذكر أننى فى «مجلس الأحد» الصوفى، الذى ظل ىنعقد فى بيتى أسبوعياً طوال عشرين عاماً، كنت أنتقل بين المدارس الصوفية كل فترة، حتى شكى بعض الحضور وقالوا؛ لقد أجهدتنا؛ منذ عامين كنت تتبنى كذا وتستشهد عليه، وهذا العام تتبنى رأياً آخر وتستشهد عليه، ليتك تستقر على توجه واحد. أجبتهم قائلاً؛ أكون خادعاً مخادعاً لو تَغَيَّرت قناعاتى وظللت متمسكاً فى المجلس بما هجرته حتى لا يُقال إننى أبدل آرائى كثيراً، وحتى لا يقول البعض ليته لا يتكلم إلا بعد أن يصل إلى قناعة نهائية حتى لا يبلبل أفكار سامعيه!. وأضفت قائلاً: إن الشخص لا يصل إلى قناعة نهائية إلا عند الموت! فعندها لن يكون هناك سبيل لتغيير الرأى.

المحطة الأخيرة

قالت النفس اللوامة: لقد تقدم بنا العمر، حتى قاربنا نهاية المطاف، وإذا كنتُ أسألك فى كل يوم بل وكل لحظة من حياتك، فإن لمساءلتى الآن معنى آخر، إننى أُعينك على أن تراجع مشوارك الحياتى والفكرى، عسى أن تنتبه إلى ما يمكن تصحيحه من أخطاء قبل فوات الأوان، فنحقق النجاة لكلينا⁽¹⁾. فإذا سألتك ونحن فى الشوط الأخير من المشوار؛ أين أستقر بك الركب؟ وأى المدارس وأى المذاهب اخترت أن تنبىخ بها رواحلك؟

قلت للأنمتى: سواء كان هذا الشوط هو الأخير أم ما زال فى العمر متسع لأشواط أخرى، فإنك لن تجدى رواحلى فى فناء أى مذهب أو

(1) نقصد هنا النفس والعقل.

مدرسة مما اشتهر بين الناس. ستجديني قد أرسلتُ إحدى ناقتي إلى ساحة هذه الدار، وأخرى إلى بستانٍ في مكان آخر، وثالثة ائتمنت عليها أحد الأشرافِ الأكرمين، ورابعة....

وإذا أردتِ اصطلاحًا جامعًا لتوجهاتي الحالية فستجديني تدور حول مفهوم من كلمة واحدة، «التعقل». وليس هذا خروجًا عن حقيقة الإسلام، بل هو عين حقيقته، ألم يأمُرنا الله عَزَّجَلَّ في قرآنه الكريم بإعمال العقل قرابة الخمسين مرّة.

لا شك أن هذا ليس موضع الحديث بتفصيل عن منزلة العقل في الإسلام، لكنني أوجز الأمر بأن الله عَزَّجَلَّ عندما أراد أن يخاطب كائنًا ويكلفه ويحاسبه ويجازيه، خلق العقل ووهبه للإنسان فكان أهلاً لذلك. ويأتى بعد ذلك أقوام يستخفُّون بالعقل وينتقصون من شأنه، لقد مَزَّق هؤلاء الصراط المستقيم إلى الله، بعد أن فقدوا الحكمة، ووقعوا في ظلماء الجهل والتخبط.

لذلك فإنني أرفض تمامًا، بل وأتعجب، من تقسيم الفكر الإسلامى إلى مدرستين؛ مدرسة العقل ومدرسة النقل!! إن ذلك يعنى -زورًا- أن على مريدى مدرسة العقل ألا يلجأوا إلى المنقول، وعلى رأسه القرآن والسنة! وأن على مريدى مدرسة النقل ألا يستخدموا عقولهم، أو بالأكثر، يقصرون دورها على فهم المنقول، ما هذا السُخف وهذا التخبط!

لذلك في نهاية المشوار، وضعتُ العقل حيث أراد الله عَزَّجَلَّ، فكان هو الحادى لرواحلى إلى حيث طابت ثمار الفكر الإسلامى. لقد تعلم عقلى كيف يقرأ، يقرأ كتاب الله المسطور، فيأخذ عن القرآن الكريم وصحيح السنة وصحيح أفهام الأئمة الكبار، ويقرأ كتاب الله المنظور

فِيحَصِّلْ بِالْعِلْمِ آيَاتَ الْآفَاقِ وَالْأَنْفُسِ الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الْحَقُّ.

لذلك تجدني في كتاباتي، التي زادها الأول العلم، أستشهد تارة بأقوال وأشعار لأئمة الصوفية، وتارة بأئمة السلف، وتارة بمشايخ المعتزلة، وتارة... وإذا كان الكثيرون قد اقتصروا بمنهجى هذا، فقد أدى ذلك المنهج أيضاً إلى أن أبغضني الكثيرون.

إعداد المسرح

قالت النفس اللوامة: قبل أن نجول بين مراحل رحلتك الدينية المختلفة، هلا أخبرتنا كيف تَشَكَّلَ منهجك الديني هذا؟

أجبت اللوامة قائلاً: نشأت في عائلة مسلمة معتدلة، تحرص على القيام بالعبادات والاهتمام بالمواسم الدينية، وكنت في شهر رمضان أختم القرآن الكريم في صلاة القيام، وكنت أفرح بالفوانيس والإمساكيات، وبالعاشورة وحلوى المولد النبوى.

وفي المرحلة الإعدادية والثانوية، اقتربت من الدين اقتراباً أحسبه (الآن) متوازناً، فقد نظرت إلى الدين من منظور الفكر، فقرأت عبقريات العقاد، وعلى هامش السيرة لطف حسين، وفجر وضحي وظهر الإسلام لأحمد أمين. وفي الوقت نفسه تأثرت بالجانب الشعورى والعاطفى فى الدين، فكنت أهفو إلى الاستماع إلى تجويد القرآن الكريم بصوت الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد الباسط عبد الصمد (رحمهما الله)، كما كان يطربنى الشعر والغناء والإنشاد الدينى لما فيهم من شجن وإيقاع. وفي هذه المرحلة أيضاً، اطلعت على الفقه الإسلامى. وكمعظم

المصريين لم أتعلم مذهباً فقهياً معيناً، بل كانت قراءاتي من ثلاثة مصادر تطرح آراء كافة المذاهب: فقه السنة للشيخ السيد سابق، والفقه على المذاهب الأربعة، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد. ولا شك أن هذا التناول علّمني قبول التعدد في الآراء وعدم التعصب لرأى واحد. وقد انتهجت المنهج نفسه في دراسة تفسير آيات القرآن الكريم، فإن كنت وقتها ألقاً في الغالب إلى تفسير ابن كثير فقد كنت أطلع أيضاً في تفسيرات الطبري والقرطبي والرازي.

وخلال السنة التي قضيتها مجنّداً في مستشفى كوبري القبة العسكري، عقب حصولي على ماجستير الجراحة، بدأ اطلاعي على التصوف، بعد أن وقع في يدي كتاب «لطائف المنن، في مناقب أبي العباس وشيخه أبي الحسن» لابن عطاء الله السكندري، وأتبعته بقراءة الحِكم العطائية، ثم انتقلت من هذا التوجه الصوفي السني إلى التصوف الفلسفي فقرأت دراسات مستفيضة عن ابن عربي والجيلي وابن سبعين.

تجربتي مع الإسلام السياسي

وبعد حصولي على الدكتوراه في الجراحة العامة، سافرت إلى المملكة السعودية (عام 1982) للعمل بمستشفى الملك فهد بالباحة لمدة عامين، وقد أثمرت هذه الفترة عدة تغيرات أثرت في توجهي الديني وقتها وفيما بعد.

ففي هذه الفترة، زاد إقبالى على الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم بصوت الشيخ محمد صديق المنشاوي (رحمه الله)، فقد كانت قراءة الشيخ هي الأقدر - بالنسبة لي - بين الأصوات المختلفة على نقل ما تحمل

الآيات الكريمة من معاني ومشاعر، وهو ما أكسبني الحرص على التفكير في معاني ما أسمع، وكانت هذه هي البداية الحقيقية للتأمل في آيات كتاب الله المسطور، لقد كانت هذه هي بدايتي الحقيقية للتواصل المباشر مع النبع الصافي للإسلام؛ مع القرآن الكريم...

دفعني هذه البداية إلى البحث عن تفسير للقرآن، يتعامل بشكل مباشر مع النص المقدس، دون الاعتماد على التفسيرات التراثية، وذلك حتى أدمج توجهي الجديد في التفكير في آيات القرآن الكريم. دلني أحد الشباب السعودي في الباحة على تفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب، أقبلت على الظلال ودرست منه المجلدين الأخيرين اللذين يحتويان على تفسير الأجزاء الأحد عشر الأخيرة من القرآن الكريم.

قاطعتني اللوامة قائلة: أعلم أنك قد عشت مع «في ظلال القرآن» وأيضًا مع بعض كتب سيد قطب الأخرى فترة، فكيف أراك الآن تتبنى موقفًا معارضًا بشدة لمنهج الإخوان بالرغم من أن عددًا من قياداتهم الوسطى من أصدقائك؟

قلت للوامة: لقد كان لقائي بالظلال لقاءً ثريًا، دفعني للاطلاع على عدد من كتابات سيد قطب الأخرى، وقد خرجت من هذا اللقاء القطبي بدرسين:

الدرس الأول؛ تلقيته من الظلال، فقد صرت استشعر ما ينبغي أن يستشعره كل مسلم، وهو أن هذا القرآن قد أنزل عليه، وأن ربي يخاطب كل إنسان بآيات كتابه الكريم.

صرت أستشعر الفرق بين كلام البشر وكلام رب البشر.

صرت أدرك المقاصد العامة للسور القرآنية الكريمة.
صرت أشعر بسموى وتميزى كإنسان، سَخَّرَ اللهُ الكونَ كله من أجله.
ببساطة، تغيرت نظرتى إلى القرآن الكريم بعد أن قرأت فى الظلال.
الدرس الثانى، تلقيته من كتابات سيد قطب الأخرى؛ مثل معالم فى
الطريق، هذا الدين، نحو مجتمع إسلامى، المستقبل لهذا الدين.
لقد ألفت بى هذه الكتابات لسيد قطب فى حيرة، ماذا يريد الرجل أن
يقول؟! تفكرت فى دهشة:

ليس هذا هو الإله الرحمن الرحيم الذى تشرفت بالعبودية له.
ليس هذا هو المجتمع المسلم المتسامح الذى أحلم أن أعيش فيه.
ليس هذا هو الإسلام عالمى التوجه الذى أعرفه.
سألت أحد أصدقائى المتعمقين فى هذا الفكر قائلاً: إن الفكر الذى
قرأته فى كتب سيد قطب ليس هو الذى قرأته فى الظلال، فكيف ذلك؟
بعد نقاش، تشكلت الإجابة الدقيقة؛ لقد درست فقط الجزأين
الأخيرين من الظلال، الخاصين (فى معظمها) بالسور المكية التى تضع
الإنسان فى لقاء مباشر مع ربه. أما الأجزاء الأولى فقد وضع فيها سيد
قطب المفاهيم التى وضعها فى كتاباته الأخرى ذات التوجه السياسى.
دفعنى ذلك لأن أطرق أبواب الفكر الإسلامى السياسى والتربوى،
فقرأت لمحمد قطب ويحيى يكن وسعيد حوى، وأيضاً أبو الأعلى المودودى
وأبو الحسن الندوى. لقد وجدت هؤلاء يحدثوننا فى بعض المواضع عن
رب غير ربنا ودين غير ديننا ومجتمع غير مجتمعنا، بل وإنسان غيرى!!

لقد عَجَزَت معظم الكتابات التى قرأتها عن تطبيق الإسلام على مجتمعاتنا، واستسهلت أن تسجن الحضارة فى إطار الحياة العربية البدوية فى القرن السادس الميلادى. وبدلاً من أن يكون الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان طالبوا البشر بأن يعودوا أدراجهم إلى عصر التنزل، ومن تَأَبَّى على ذلك الطلب المعجز كان نصيبه التكفير أو التفسيق ووصف مجتمعه بالجاهلية.

تجارب شخصية

لقد أيد اطلاعى على فكر الإسلام السياسى فى هذه المرحلة تجربتى الشخصية مع شباب هذا التيار فى الجامعة فى مصر. لقد حاولوا كثيراً أن يضمنوا إلى تيارهم، لمرأى أشعر بالارتياح لما يعرضونه، لمرأى أذكر تماماً لماذا. وبعد عودتى من السعودية إلى الجامعة، استمرت محاولاتهم، واستمر رفضى، لكنى كنت هذه المرة على بينة أكبر كثيراً.

وقد حدثت فى أثناء عملى فى الجامعة - بعد عودتى من السعودية - عدة مواقف بينت لى مدى الجمود والتبعية التى يربى عليها رجال الإسلام السياسى كوادهم وشبابهم، فبدلاً من أن يُربوهم على حرية الفكر والقدرة على الإبداع والقيادة فإنهم يربوهم على الانقياد والطاعة العمياء. ربما تكون هذه أكبر سوءات الإسلام السياسى وأكبر إساءاته فى حق الإسلام وفى حق الأوطان؛ أن حَوَّل الكثير من عقول مصر النابهة إلى أتباع لا رأى لهم، وقولهم فى قالب واحد لا شخصية له.

وسأذكرُ أيتها اللوامة بأربعة مواقف مرَّت بنا، تبين منهج الإسلام السياسى فى تربية كوادره:

كنت أعطى دروسًا تطوعية للطلبة في الجراحة في أحد المساجد المجاورة لكلية الطب، وبعد بدايتنا بأيام جاءني أحد الطلبة النشطاء سياسيًا وقال لى: ياريت يا د. عمرو تجعل الأولاد يجلسوا في الصفوف الأمامية والبنات في الصفوف الخلفية. قلت له: إن البنات يجلسن في نصف القاعة الأيسر والأولاد في النصف الأيمن كما تفعلون في قاعات المحاضرات في الكلية، فما المشكلة؟

أجابني: هذه هي التعليمات التي عندى.

قلت: يا فتى، عندما أدخل إلى محاضرتى أو درسى ليس لكائن من كان أن يحدد لى كيف يكون النظام، فأنا صاحب الكلمة الوحيد في هذا المكان.

قال: أنا آسف يا دكتور ليس مسموحًا لى بأن أناقش حضرتك! ولا أستطيع أن أحضر الدرس طالما لا تتبع النظام! لذلك أستاذك في مغادرة القاعة! وترك الدرس ولم يحضره حتى نهاية العام!

الأكثر إدهاشًا، أن الأستاذ المسئول تنظيميًا عن هؤلاء الطلبة في الكلية اتصل بى هاتفياً قبيل امتحان الطالب لينقل لى خوفه من أن أنتقم منه لموقفه السيئ يوم المسجد!! قلت لزميلى؛ وهل تعرف عنى هذه الوضاعة؟! وعاتبته كيف يستجيب للطالب بنقل هذه الرسالة، وكيف يتصور هو أنى قد أفعل ذلك... اعتذر زميلى عن موقفه...

ثم حدث أن زارنى هذا الفتى بعد عشرين عامًا فى عيادتى، وقال لى: جئت لسيادتك زائرًا، ومعتذرًا... لقد أدركتُ بعد بضع سنوات من تخرجى كم كنت مخطئًا فى موقفى يوم المسجد، علمتنى الأيام إن الإنسان لا ينبغى أن يكون إمعة فى أيدي الآخرين.

حدث الموقف الثاني حين كنتُ رائدًا لأسرة أبو بكر الصديق في الكلية، التي يسيطر عليها الإسلاميون السياسيون. حدث أن زار د. أحمد زويل (قبل حصوله على جائزة نوبل) مصر لإلقاء بعض المحاضرات في الجامعة الأمريكية. طلبت من الطالب الأخ الأكبر للأسرة أن يدعو د. زويل للقاء طُلَّابِي بكليتنا، فقد كنت أعتقد أن طلبة كثيرين سيستفيدون من لقاء مع شخصية مصرية علمية كبيرة مثل د. زويل. وافقني الطالب، ومع مرور الأيام أخذ يماطلني في أمر الدعوة، حتى كاد عالمنا الكبير أن يعود إلى أمريكا. وعندما واجهته بسوء تصرفه تلجلج قائلاً: هل يمكن أن يشارك الأستاذ الدكتور فلان (من جامعة الأزهر) في إدارة الحوار؟ عندما اندهشت من طلبه أخبرني بأن هذا ما لديه من تعليمات!! رفضتُ هذا الطلب المخزى، وألغيت فكرة دعوة د. زويل.

عرفت بعد ذلك أن مسئولى الإسلام السياسى من أساتذة الكلية خشوا أن أوجه الحوار مع د. زويل في حضور الطلبة إلى غير ما يبغون، فجاءت فكرة أن يشارك أحد قياداتهم من خارج الكلية في إدارة الحوار حتى يوجهه حيث شاءوا. بادرت من فوري إلى تقديم استقالتى من ريادة الأسرة الدينية، رافضاً أن أكون ستاراً يمارس البعض من ورائه نشاطاتهم الخفية.

حدث الموقف الثالث عندما وزع اتحاد الطلبة منشوراً في الكلية عنوانه «زميلتى تحجبت»، وكان المنشور حواراً بين طالبة تحجبت وزميلتها غير المحجبة، ويهدف لإقناع الطالبات بالحجاب.

جاءتني بعض طالباتى من المحجبات والسافرات غاضبات، وسألتنى

إحداهن إن كنت قد قرأت المنشور، فلما أجبتها بالنفى ناولتني نسخة منه، وبينما كنت أقرأه قالت أخرى، مُعلّقة على محتوى المنشور؛ لقد حيرنا هؤلاء المتدينون؛ إن لم نتحجب قالوا لم نتحجب كي نلفت أنظار زملائنا ونفوز منهم بعريس، وإن تحجبنا قالوا (كما جاء في المنشور على لسان الطالبة غير المحجبة) تحجبنا لنفوز بعريس!! إن المنشور يُشعر زملاءنا بأن زميلاتهم ما جئن للكلية إلا ليفزن بعريس!!!! هل نحن بهذا الابتذال!

هذأت من روع الطالبات ووعدتهن بأنني سأصرف تجاه هذا الموقف. وبحثتُ عن مصدر المنشور حتى وصلت إلى المسئول الثقافي في اتحاد الطلبة، وكان من شباب التيار الإسلامي، ودار بيننا هذا الحوار:

= يا ابني.... من كتب هذا المنشور؟ ومن سمح بتداوله؟

- يا أستاذي... هل لك تحفظ على المنشور؟

= نعم، المنشور يصور زميلاتكم كأنهن لم يلتحقن بكلية الطب إلا ليفزن بعريس، لذلك أغضبهن المنشور كثيراً.

- يا أستاذي... لقد جاءنا المنشور من كلية الهندسة، وقد لاقى نجاحاً وقبولاً كبيرين في جميع كليات الجامعة، وقد وزعنا منه في كليتنا ثلاثة آلاف نسخة. واسمح لي بأن أُعبر عن اندهاشي، كيف وجدت الطالبات في أنفسهن الجرأة حتى يحدثنك في هذا الموضوع!

= هل توزيع آلاف النسخ دليل على نجاح المنشور؟! حسبتك ستقول بعنّا منه ثلاثة آلاف نسخة. إن التوزيع أمرٌ يسير، يمكنك أن توزع مئات الآلاف. ثم سألته: هل تعرف يا ابني (وأنت مسئول النشاط الثقافي) كيف تحكم على قبول ونجاح منشور وزعته؟ لم يُجر الطالبُ جواباً.

وأضفت: نعم، لقد وجدت الطالبات الجرأة ليحدثنني في ذلك باعتباري أستاذهن، وإن كنت لا تعلم الطبيعة النفسية للفتيات، فكيف تتصدى لدعوتهن! وتركت الفتى وانصرفت.

كان الموقف الرابع، عندما وجدت أن عدد الطالبات المحجبات في درسى الإكلينيكي بالمستشفى يتناقص بالرغم من سمعتي المتميزة في التدريس، سألت الحاضرات عن سبب انقطاع زميلاتهن، فأخذن ينظرن لبعضهن. وبعد الدرس جاءني إحداهن وقالت، يا د. عمرو... لقد شكّت إحدى الطالبات للمسئول عنها تنظيمياً في الكلية أنك تتطرق في تدريسيك لمشكلات شبابية ومجتمعية وتبني لها حلولاً معاصرة لم تعجب بعض المتدنيات في الدرس، فجاءت التعليمات بأن ننقطع عن درسيك، فاستجاب بعضنا ورفض بعضنا هذه التعليمات.

هذا هو الجو والأسلوب الذي كان يتم به تربية شباب كلية الطب من المتدنين.

طَفَتْ هذه المواقف في الذاكرة أيامَ تَعَثَّرَتْ تجربةُ الإسلام السياسي في الحكم في مصر بعد أحداث الخامس والعشرين من يناير. ولا شك أن هذا الأسلوب في التربية وفي قولبة الكوادر على السمع والطاعة كان أحد أسباب فشل هذه التجربة، هذا الفشل الذي دفع ويدفع الإسلام والأمة ثمنه غالباً...

مع الفكر السلفي

قالت النفس اللوامة: إذا انتقلنا من موقفك من الإسلام السياسي إلى جوانب أخرى من الفكر الديني، أجد عندك تناقضاً بين مرحلتين؛ في

إحداهما تبنت الفكر السلفى أثناء وجودك في مدينة الباحة بالسعودية ،
وبعدها تبنت الفكر الصوفي المناقض خلال وجودك في المدينة المنورة. وقد
أدهش ذلك بعض قرائك، إذ يجدون في كتاباتك بصمات لكلتا المرحلتين،
فما تفسيرك لذلك التعارض؟

قلت للوامة: في أثناء زيارتي الأولى للسعودية، وبعدها لعدة سنوات،
لرأى في الفكر السلفى، ولم أتعرض لمحاولات سلفية لإقناعي بتبني
هذا الفكر. ومع ذلك وجدتني أتبنى بعض الأفكار والسلوكيات التي تميز
الفكر السلفى!!

لقد كنت - مثلاً - أعارض من فوق منبر مسجد المستشفى في مدينة
الباحة أن يقول الشخص إنه ذاهب لزيارة الرسول الكريم ﷺ، وأؤكد
أنه ينبغي لمن يذهب للمدينة المنورة أن يجعل نيته شد الرحال إلى المسجد
النبوي وليس زيارة الرسول ﷺ. لرأى هذا المفهوم في كتاب، ولم
أسمعه من أحد، لكن ربما كان اجتهاداً مارسته بعد اطلاعي على كتب
الإسلام السياسي، وربما تأثرت في هذا التوجه بالجو السائد في المملكة
السعودية، حيث ينعكس الفكر السلفى في كل مكان حوله.

لذلك لرأى أن يكون غريباً بعد عودتي لمصر أن أبادر بالتخلص من تسجيلات
الغناء ومن الروايات الموجودة في مكتبتى!! لرأى الأمر توجهاً سلفياً
حقيقياً منطلقاً من قناعات فكرية دينية، لذلك لرأى تمض بضعة أشهر
حتى أعدت تكوين مكتبتى الروائية والغنائية!! ولم تمض سنوات حتى
تبنت الفكر الصوفي المقابل للفكر السلفى لسنوات طويلة.

ولكن ينبغي أن أذكر أنه كانت لي فيما بعد إطلاقات على الفكر
السلفى، وذلك في مرحلتين من حياتي. المرحلة الأولى، عندما بدأت

المآخذات على الصوفية تراكم في ذهني، وصرت في حيرة بين النظرية والتطبيق. فقد كنت متمسكاً بالمفاهيم الصوفية الأصيلة التي تتطابق مع «مقام الإحسان» الذي أصبو إليه، وفي الوقت نفسه هالتي وأفزعني مفاهيم التصوف الفلسفي، كما تراكمت عندي أيضاً مآخذ عديدة على أسلوب التطبيق في التصوف السني.⁽¹⁾

وقتها بحثت باهتمام عن المعادلة التي تخرجني من هذا التعارض؛ حرصى على الجانب الإيجابي في التصوف ورفضى للجانب السلبي. وجدت ضالتي في جانب من فكر إمامي السلفية الكبيرين؛ وجدت الحل فيما أطلق عليه «الفكر الصوفي عند الإمام ابن تيمية»، وهو جانب غلبت عليه - حتى كادت أن تطمسه - رغبة تلاميذه في التركيز على الجوانب الأخرى من فكر الإمام.

كما وجدت ضالتي - وبشكل أكبر - في فكر تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، خاصة في كتابه الصوفي؛ «مدارج السالكين»، الذي استفدت منه كثيراً. ولا شك أن ابن القيم شخصية حيرت الصوفيين والسلفيين، فهو يحل المعادلة بامتياز؛ وهي الجمع بين الفكر الصوفي والفكر السلفي، حتى صار حجةً عند الفريقين. لكن مشكلتنا أن أنصار كلٍّ من الطرفين لا يقبلون أن يتزحزحوا عن موقفهم الرافض للآخر قيداً أملاً.

أما اقترابي الثاني من الفكر السلفي فقد كان في مرحلة متأخرة. ففي مرحلتي العقلية الحالية كان من يتبنون العقيدة الأشعرية كثيرى الصدام معي، ومحور صدامنا هو قضية «فاعلية الأسباب».

(1) هذا أمر سنُفصِّله بعد قليل عند الحديث عن المرحلة الصوفية في رحلتي إلى الله.

لقد ظن الأشاعرة أن تنزيه الله عَزَّجَلَّ وتأكيد القدرة الإلهية يتطلب الإسراف في تأكيد عجز الذات الإنسانية وعفوية الطبيعة، فكتبوا رؤية تدميرية للعالم. لقد نفوا أية علاقة بين الأسباب والنتائج⁽¹⁾، ورأوا أن القول بالأسباب يتعارض مع طلاقة قدرة وافعال الخالق، ومن ثم اعتبروا القول بالسببية شرك! فضلاً عن اعتقادهم أن القول بالسببية يمثل خطراً على فكرة المعجزة التي تخرق الأسباب.

ومن أجل نفى قوى وقوانين الطبيعة كأسباب مؤثرة، وضع الأشاعرة «نظرية الاقتران والعادة»، التي ترى أننا نفسر تنابع حدثين (كتسخين الماء والغليان) باعتباره علاقة الأسباب بالنتائج بينما هو في الحقيقة مجرد اقتران، أى لا علاقة سببية بين التسخين والغليان، وأنا نحن الذين تصورنا هذه العلاقة⁽²⁾! بهذا الطرح الأشعري، لم يعد هناك قانون ولا نظام في الطبيعة، وبهذا غلّت يد العقل تماماً، وكان ذلك إيذاناً بلبيل عجز العقل الإسلامى، فاستحق الأمر أن يُطلق الفلاسفة على هذه النظرية اصطلاح «كارثة الأشاعرة»⁽³⁾.

-
- (1) بلغة علم الكلام: نفوا أى رابط على سببى بين الأحداث = نفوا العلية أو السببية.
- (2) لذلك صرنا نقرأ في كتب الأشاعرة أن السكين لا تقطع ولكن القطع يحدث عند حد السكين، وأن النار لا تحرق لكن الحرق يحدث عند النار. ولم يقدم لنا الأشاعرة تفسيراً مقنعاً لِمَ أمر الله عَزَّجَلَّ النار أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، ألا يعنى ذلك أن الحق عَزَّجَلَّ لو تركها دون أمر لأحرقت! أى أن الإحراق من خصائص النار.
- (3) من المثير للدهشة أن ديفيد هيوم (أكبر فلاسفة الإلحاد في القرن الثامن عشر) يقول أيضاً بعدم فاعلية الأسباب ويوافق على مفهوم الاقتران والعادة، وذلك ليثبت عشوائية الوجود وعدم خضوعه للقوانين ليدعم مفاهيمه الإلحادية. معنى ذلك أن الأشاعرة يتفقون معه في النظر إلى الأسباب وإن كان يختلف معهم في الهدف!

وفي المقابل، تبني المعتزلة⁽¹⁾ «مذهب الطبايع» الذي يقول بأن الله عَزَّجَلَّ قد مَيَّرَ كل شيء بطبيعة ثابتة يحدث الفعل بمقتضاها، كالحرق للنار والرّى والإغراق للماء⁽²⁾. وقد سُميت المقابلة بين مذهب الطبايع ونظرية الاقتران والعادة بـ «دراما المعتزلة والأشاعرة». ومن الأشاعرة، يقول بمذهب الطبايع الإمام أبو حامد الغزالي (في أحد رأيين له)، كما يمد ابن خلدون (الأشعري) مذهب الطبايع من عالم الطبيعة إلى عالم العمران والإنسان، فيرى أن المجتمعات البشرية تخضع في حركتها لقوانين اجتماعية، وبخلاف الغزالي وابن خلدون نجد الأشاعرة جميعاً ينهالون بنقد عنيف على مذهب الطبايع ويَصْمُونُ القائلين به بالشرك!.

كذلك تَبَيَّنَ الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مذهب الطبايع، وعرضاه عرضاً عميقاً، من هنا جاء اطلاعي على هذه الجزئية في الفكر السلفي، الذي أرى أنه قد أنصف الطبيعة وأنصف العقل في هذا الموقف.

فى رحاب الصوفية

قالت نفسى اللوامة: حسناً، هذا بخصوص المرحلة السلفية القصيرة فى حياتك، فماذا عن بداية وتطور المرحلة الصوفية الطويلة؟ أجبت نفسى اللوامة قائلاً: عملتُ فى المدينة المنورة (فى الفترة من عام

(1) أصحاب المدرسة العقلية فى الإسلام.

(2) لقد وضع المعتزلة بذلك فرقاً جوهرياً بين عالم الطبيعة الحتمى وعالم الإنسان الحر المختار، ولم يَسْقُطُوا فى هوة نفى الحرية الإنسانية بناء على حتمية قوانين الطبيعة كما فعل فلاسفة أوروبا.

1989 - 1994) في أكبر مستشفياتها الخاصة كرئيس لقسم الجراحة، وكان بالمستشفى تجمع صوفي من الأطباء والموظفين العاملين بها، وكان أعلمهم بالصوفية وأسبقهم في الطريق أحد الأطباء الاستشاريين الفضلاء، ولنطلق عليه كنية «الجنيّد» إمام الصوفية الأكبر تيمناً وتبرّكاً.

ومنذ التحقت بالمستشفى كان د. الجنيّد يوجّه إلىّ الدعوة كلّ أسبوع أو أسبوعين لحضور إحدى الحضرات أو الجلسات الصوفية في بيت من بيوتات السادة الأشراف في المدينة المنورة، كما كان يدعوني لحضور مجلس صوفي أسبوعي يُعقد في منزله، وكنت دائم الاعتذار له. فما كنت أتصور أن ألتحق بهذا الاتجاه الديني الفكري.

وذات يوم، ذهبتُ للدكتور الجنيّد في عيادته بالمستشفى، وأخبرته بأنّي في الليلة السابقة «رأيت في المنام الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد (وهو الشيخ الذي تتلمذ عليه مجموعة المستشفى ويسافرون لمجالسته بمدينة جدّة يوم الجمعة من كلّ أسبوع) ولرأى قد رأيت من قبل. كان الحبيب أحمد (في الرؤيا) يتوسط مجلسه الذي يشبه مجالس الحكماء، واستدعاني لأقرب منه، أراي الحبيب مسبحاً من 99 حبة، تتحول في يديه إلى حبة واحدة كبيرة، ثم تتحول إلى عروسة، وهكذا يتكرر الأمر. أنقذني الحبيب من حلاق يقف في مولد مزدحم يريد أن يخلق رأسى بموسى يُخفيه، أعطاني الحبيب أحمد موسى آخر خاص به، وقال لي لا بأس من أن تسمح له بأن يخلق رأسك، بشرط أن يستخدم هذا الموسى. بعدها وجدت نفسي محاصراً بكلاب سوداء تريد أن تفتك بي، أرسل الحبيب لي طائرة مروحية رفعتني إلى السماء فأنقذتني من الكلاب، بعدها هبطت بميدان التحرير الذي امتلأ زهوّاً». أخبرني د. الجنيّد أنه

قد آن الآوان لألتقى بالحبيب أحمد، وطلب منى أن أدون الرؤيا حتى أقرأها عليه.

في يوم الجمعة التالى، كنا في منزل الحبيب أحمد في جِدَّة، ودخل علينا الشيخ الوقور الذى رأيته في الرؤيا. وبعد صلاة الجمعة قرأت على الحبيب أحمد وباقي الحضور الرؤيا، علّق الحضور تعليقات تدور حول أن الله عزَّوجلَّ قد اختارنى مُريدًا لهذا الشيخ، وأننى فى هذا الطريق سأجد التحرر والنجاة والنعيم. كما وقر فى قلبى وقتها أن المسبحة ذات التسع والتسعين حبة ترمز إلى أسماء الله الحسنى، التى تعود إلى ذات واحدة (الحبة الواحدة الكبيرة)، وأن العروسة ترمز إلى الوجود المادى، الذى هو تجلى الربوبية فى عالم الشهادة. لقد كان هذا هو الدرس الصوفى الأول الذى تلقيته من شيخى الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد.

طريقة أصحاب اليمين

علمت بعد ذلك، أن الحبيب أحمد من ذرية الإمام عبد الله بن علوى الحداد الحضرمى الشافعى، من مجددى القرن الحادى عشر الهجرى. ويُطلق لقبُ «الحبيب» فى حضرموت على كبار أهل البيت الكرام، فالإمام عبد الله الحداد من ذرية الإمام علىّ العريض أخو الإمام جعفر الصادق الذى يتخذه الشيعة إمامًا لهم. ويُعتَبَر هذا الفرع من آل بيت النبوة من أكثر السادة الأشراف فى العالم ثبوتًا للنسب الشريف.

وتُعرف طريقة الإمام الحداد بطريقة «أصحاب اليمين»، وهى طريقة شاذلية غزالية، وللإمام الحداد أحد عشر كتابًا وعددٌ من الرسائل

وديوان للشعر الصوفي، وتُعتبر كتابات الإمام الحداد تلخيص وتبسيط لمنهج الإمام الغزالي كما طرحه في سفره العظيم «إحياء علوم الدين».

لر تكن طريقة أصحاب اليمين كمعظم الطرق الصوفية، التي يبايع فيها المريد شيخه ولا يأخذ علمه عن شيخ آخر، والتي تشترط أن يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل، فيبايعه على السمع والطاعة المطلقين حتى إن كان في معصية من المعاصي أو كبيرة من الكبائر. وتُعتبر فتوحات ومكاشفات الشيخ تشريةً لأتباعه واجب الاتباع. وبعد وفاة الشيخ الصوفي يرث ابنه أو تلميذ آخر سرّه وطريقته ومريديه. وكما كنت أرفض الولاء والطاعة المطلقة التي يُلزم بها قادة الإسلام السياسي أتباعهم، كان بديهيًا أن أرفض خضوع المريدين وانقيادهم لمشايخهم في الطريق الصوفي، خاصة أنني لر أكن أجدهذا الخضوع أصلًا في القرآن والسنة.

وكنت أعرف أن من الطرق الصوفية ما هو شديد الالتزام بالقرآن والسنة، وخال من كل دخيل أدخل على الإسلام باسم التصوف، وكنت شديد الشوق إلى هذا الطريق، وقد وجدت في طريقة أصحاب اليمين ضالتي. فالطريقة بحق لا تعدو إلا أن تكون «مقام الإحسان»، الذي يدور حول أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لر تكن تراه فإنه يراك.

لر يكن مطلوبًا من مُريد طريقة أصحاب اليمين بيعة للشيخ على السمع والطاعة المطلقين، ولر يكن الحبيب أحمد يروي لنا فتوحات أو مكاشفات، بل عندما كنا نسأله في تفسير آية من القرآن الكريم كان يطلب من أحفاده أن يقرأوا علينا ما ورد حولها في كتب التفسير المختلفة. وكانت القاعدة أن من دخل في هذه الطريقة فقد دخل في جميع الطرائق، يتعلم منها ومن مشايخها، بل لقد كان في طريقة أصحاب

اليمين عددٌ من المشايخ، نعتبرهم كلهم شيوخنا الذين نتعلم منهم. كما كانت أورداد الطريقة التي أخذناها عن شيخنا لا تخرج عن أذكار من القرآن الكريم، وأورداد وأذكار الرسول الكريم ﷺ، حتى إن شروح هذه الأورداد ترجع بكل جملة منها إلى أصلها الشرعى.

وعندما توفي شيخنا (رحمه الله)، سألنا أبناءه الأفاضل عمن آلت إليه مشيخة الطريقة، فأخبرونا بأن أباهم (رحمه الله) لم يترك لهم عهداً ولم يعط أحداً منهم سر المشيخة أو الولاية (كعادة الصوفية)، وأن المطلوب منا هو الالتزام بالكتاب والسنة كما فهمناهما مع الحبيب أحمد وعن علماء الإسلام الكبار. وطلب منا أبناء الحبيب أحمد أن نحافظ على تواصلنا معهم من باب محبة آل ود شيخنا.

انتظمتُ في مجالس الحبيب في جِدَّة وفي مجلس د. الجُنيد في المدينة، وقمت بمطالعة كتابات الإمام الحداد وديوانه. كما انتظمت في حضور المجالس والحضرات الصوفية التي تُعقد في المدينة المنورة ومكة المكرمة وجِدَّة. وكانت مجالس وحضرات الطريقة تلتزم بأورادها وأذكارها الشرعية وبقصائد الإمام الحداد، وكنا نُرفه عن أنفسنا بالإنشاد الحضرمي والحجازي والشامي. وقد كان لهذه الحضرات وما فيها من ذكر وإنشاد صوفي تأثير كبير في إقبالى على طريق الصوفية وطريقة أصحاب اليمين بالتحديد، ولا شك أن هذا يرجع إلى أذنى الموسيقى وعقلى الذى يهوى الإيقاع الشجى والمعانى السامية. ألم أقل لك أيتها اللوامة أن الطرائق إلى الله تتعدد بعدد الخلائق.

وكانت لى جلسات طويلة مع د. الجنيد، لعل أطولها الوقت الذى كنا نقضيه معاً فى السيارة فى الرحلات شبه الأسبوعية بين المدينة وجِدَّة ذهاباً

وإياباً لزيارة شيخنا. وكنا في صحبتنا هذه نتناقش في كل شيء خاص بالتصوف؛ أصوله وأفكاره ومبادئه، مناهج الطرق المختلفة، التصوف في الديانات الأخرى، نظرة علم النفس إلى التصوف،.... وقد كان د. الجنيد متمكناً تماماً من صياغة هذه الموضوعات بالأسلوب العقلاني الذي يلائمني، وقناعتى أنه لولا أنى أتيت التصوف من باب د. الجنيد لما كان لى ولوج إلى هذا الطريق.

وفي هذه الفترة، اطلعتُ على العديد من أمهات كتب التصوف، كلطائف الإشارات للإمام القشيري، وشرح الحكم العطائية لابن عجيبة الحسني، والإبريز لعبد العزيز الدباغ، والطبقات الكبرى للشعراني، وكشف المحجوب للهجویری، وغيرها. ومن الكتب المعاصرة، أقبلت على كتب د. عبد الحليم محمود (شيخ الجامع الأزهر الأسبق) حول التصوف وأئمته. كما استمتعت بإنشاد الشيخ يسن التهامي لقصائد ابن الفارض وعبد الكريم الجيلي والحلاج، مع الانتباه لما فيها من مفاهيم وحدة الوجود التي يخالفها التصوف السني.

باختصار، كان التصوف الذي عرفته في أرض الحجاز تصوفاً شرعياً سنياً، أسهم فيه العلم بالطريق مع الفن السامي الشجي.

في عام 1994، عدت إلى القاهرة، التي سبقني إليها - وأيضاً لحقني فيها - مجموعة من تعلقوا بطريقة الإمام الحداد. وحتى نحافظ على ما حصّلناه من آداب وعلوم الطريق خصصنا لنا مجلساً أسبوعياً يُعقد في بيتي، وأطلقنا عليه «مجلس الأحد»، وكنا نجتمع بعد أن ينتهي الأطباء - وهم يمثلون أغلبية الحاضرين - من عياداتهم ليلاً، كما نجحنا في أن نضم إلى المجلس بعض أصدقائنا القاهريين.

كنا نفتتح المجلس بالأوراد المعروفة بـ «راتب الإمام الحداد»، ثم نتدارس شيئاً من كتب الإمام الحداد أو أحياء علوم الدين للإمام الغزالي. وفي المناسبات الدينية (كالمولد النبوي ورأس السنة الهجرية ومولد الإمام الحداد وذكرى وفاة الحبيب أحمد مشهور) كنا نقيم حضرة صوفية في بيت أحد أعضاء مجلس الأحد. واستمر المجلس قرابة العشرين عاماً، وفي سنواته الأخيرة قل عدد الحضور حتى اقتصر على شخصين أو ثلاثة لانشغال أعضائه بشئون دنياهم، ثم توقف المجلس بعد أحداث الخامس والعشرين من يناير عام 2011.

مع التصوف الفلسفي

قالت اللوامة: وماذا عن مرحلة «التصوف الفلسفي» في حياتك؟ أجبتها: بعد عودتي من المدينة المنورة إلى القاهرة عام 1994 قررت أن أتردد على مدينتي فارسكور كل أسبوعين، لأقوم بمناظرة بعض الحالات المرضية وإجراء العمليات الجراحية لها. وقد التزمت بهذا النظام قرابة العشرين عاماً، ثم توقفت عن هذه الزيارات مع أحداث الخامس والعشرين من يناير، بعد أن صار السفر يمثّل مشقة ومخاطرة.

وفي إحدى زياراتي الأولى لفارسكور، علمتُ أن شيخاً صوفياً كبيراً، ولنطلق عليه «شيخ الجمالية»، يسكن في قرية الجمالية التابعة لمدينة الإسكندرية الجديدة بالدقهلية، والتي تبعد بالسيارة قرابة الساعة من فارسكور. قمت بزيارة الشيخ وجالسته وانبهرت به، وكان الشيخ ينتمي إلى مدرسة الشيخ محيي الدين بن عربي، وربما كان من أعلم أهل الأرض بفكر ابن عربي. التزمت في زيارتي لفارسكور - مع مجموعة من أصدقائي

هناك - بالتردد على الشيخ، فكنا ننتهي من إجراء العمليات الجراحية بمدينة دمياط قرب منتصف الليل، ثم نقطع الطريق إلى قرية الجمالية لنلحق بالمجلس الصوفي الذي يستمر حتى الفجر.

كان المجلس يقوم على القراءة من سفر «الفتوحات المكية» وكتاب «فصوص الحكم» لابن عربي، مع بعض الإنشاد من قصائد سلطان العاشقين ابن الفارض. وانضم إلى المجلس بعد ذلك خالي د. سامي مجاهد (رحمه الله) الذي كان رافداً ينقل إلينا فكر الشيخ عبد الكريم الجيلي، الذي كان يطالعه باستمرار ويحبه كثيراً. هكذا وجدت نفسي متلمذاً على مدرسة جديدة من التصوف، وهي التصوف الفلسفي، وقوامها فكر ابن عربي والجيلي وابن الفارض.

منذ البداية، كنت ألقى ترحيباً كبيراً من الشيخ، وكان الحضور يؤثرونني بالمكان المواجه له، وكان الشيخ يخصني بالشهي من طعام العشاء، وإذا أمطر الجو بشدة واستحالت مغادرة البيت عند الفجر كان يخصني بأفضل أماكن النوم وبالجديد من الفُرُش. ولِئلا، أُلستُ أستاذ الجراحة القادم من القاهرة لأنظر المرضى وأجرى العمليات الجراحية، لقد اعتبروني على قدر من التميز بين أطباء وموظفي وفلاحي المنطقة، الذين اعتادوا أن يَعْشُوا المجلس.

وفي مولد الإمام الحسين بالقاهرة، كنت وبعض أفراد مجلس الأحد نزور شيخ الجمالية في مقر خدمته في ساحة المولد، وكنا نستضيفه في بيتي لحضور أحد مجالسنا. هكذا توطدت العلاقة - والمنزلة - بيني وبين شيخ التصوف الفلسفي شيخ الجمالية الذي يختلف كثيراً عن شيخى الحبيب أحمد مشهور الحداد (رحمه الله).

وفي بداية حضوري لمجالس شيخ الجمالية كنت منكراً للكثير مما يُقرأ علينا من كتابات ابن عربي وأيضاً لشرح الشيخ عليها، ومن ثم كنت كثير التحفظ والاعتراض. عندما لاحظ الشيخ ذلك قال لي: أنت تعترض لأن المفاهيم غامضة عليك، ستفهمها في القريب، فيتوقف اعتراضك. وبالفعل توقف اعتراضى بعد حين، ليس لأنى اقتنعت بما أسمع، ولكن لأننى اعتدتُ الاستماع لما يُقال، فتوقف الاستغراب!!

واستمرت سنوات العسل بينى وبين الشيخ، وبينى وبين التصوف الفلسفى، وعندما قاربَت الصُحبة تمام الخمس سنوات، عاد إلى التملُّم وعدت إلى الاعتراض. يبدو أن عقلى قد اعترته صحوّة، فأعاد تقييم ما يُعرض عليه من مفاهيم وحدة الوجود والحقيّة المحمدية والإنسان الكامل وخاتم الأولياء والأقطاب والأبدال وديوان الأولياء... عجز عقلى عن الوصول إلى أصل شرعى لهذه المفاهيم، فبدأ فى الإنكار، استشعر شيخ الجمالية ذلك، فبادلنى الاعتراض والإنكار بالحفاء.

وفي ليلة مشهورة، بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبى، فقلت للشيخ - أمام الحضور - معترضاً على فقرة قرأت من الفتوحات المكية: يا شيخ كيف يقول ابن عربى أن رسول الله ﷺ قد سمع فى رحلة المعراج - فى مقام قاب قوسين - صوتاً يقول له: يا محمد، قف مكانك، إن ربك يصلى إليك كالقبلة!! - أيجعل ربي عبده ورسوله قبلته!!

يبدو أن الأمر تجاوز قُدرة الشيخ على احتمالى، فانفعل قائلاً: لِمَ تُنْغِص علينا مجلسنا، مَنْ أنت حتى تعترض على فتوحات ابن عربى، لقد كاشفه الله بهذا. وأضاف: أنت تدعى إنك على طريقة الغزالى التى تقوم على المجاهدة، مالك ترتدى حُللاً أنيقة، الأولى بك أن ترتدى المُقَطَّع والمُرَقَّع

حتى تجاهد نفسك قبل أن تنتسب إلى طريق القوم. ثم أضاف الشيخ: ومَنْ أنت حتى تعترض على أقطاب الزمان، إن كلامهم له أهله ولا ينبغي أن يقرأه إلا خاصة الخاصة. كانت هذه هي الحجج البالية التي يطرحها شيوخ التصوف إذا عجزوا عن تنفيذ الاعتراضات على كلامهم. أدركت أنى غير مرغوب في وجودي، صحتني رفيقاي، وخرجنا إلى غير رجعة، وكان ذلك آخر عهدي بالشيخ.

توقفت قليلاً لألتقط أنفاسي، فقطعت اللوامة الصمت وقالت: هل عرضت هذا الموقف على أحدٍ من الثقات؟

أجبتها قائلاً: بعد هذا الموقف بأشهر، جمعني المجلس بالشيخ الدكتور على جمعة (مفتي الديار المصرية الأسبق والمشهور بتصوفه) في رواق الأتراك بالأزهر الشريف، حيث اعتدت أن أتردد على درسه في الصباح الباكر قبل ذهابي لمحاضراتي وعملياتي بالجامعة.

نقلت للشيخ ما جاء في الفتوحات المكية من أن ربي عزَّجَلَّ يصلي متخذاً من عبده ورسوله قبلته!! وسألته: هل هذا مقبول شرعاً؟... فَسَّرَ لي الشيخ ما نقلته تفسيراً شرعياً لا غبار عليه، فسألته، ولم لا يطرح ابن عربي الأمر بالوضوح الذي تقول، لماذا هذا العرض المُلغز الذي يُلبس الأمر كثيراً؟

أجابني الشيخ: لقد كُوشف ابن عربي بهذا فنقل لنا مكاشفاته.

قلت له: لقد علمتمونا في طريق الصوفية أن الأولياء يُخفون مكاشفاتهم وفتوحاتهم، ولا يذيعونها، بل إن بعضهم يستحي من إعلانها حتى لا يُفتن بين أقرانه بعلو منزلته... قال الشيخ: لقد أمر ابن عربي بذلك.

قلت: أأمر بأن يطرح علينا ما يبلبل العقيدة، ويتجاوز في قوله في نبينا ما يقول النصراني بشأن المسيح عيسى ابن مريم؟! وأضفت: كيف نقبل أن نُعطى ثقتنا المطلقة لأفراد يعرضون علينا ما يُحِلُّ بالعقيدة، ونطالب المسلمين باتباعهم بدعوى أن ما يقولون فوق مستوى أفهامنا؟!

قال الشيخ د. علي جمعة؛ أَلَمْ تَقْرَأْ مَا أَفْتَحَ بِهِ ابْنُ عَرَبِي كِتَابَهُ فَصُوصَ الْحَكَمِ، مِنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَلْقَى إِلَيْهِ الْكِتَابَ لِيُنْشِرَهُ بَيْنَ النَّاسِ لِيُكْمَلَ بِهِ عَقِيدَةُ الْخَوَاصِّ؟ ... كُنْتَ قَدْ قَرَأْتَ ذَلِكَ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ، فَقُلْتَ لِلشَّيْخِ: وَهَلْ انْتَهَرْتَ عَقِيدَةَ الْإِسْلَامِ خَمْسَةَ قُرُونٍ حَتَّى أَتَى ابْنُ عَرَبِي فَاسْتَكْمَلَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى يَدَيْهِ؟! أَلَمْ يُخْبِرْنَا الْحَقُّ عَزَّوَجَلَّ: ﴿.. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..﴾ [المائدة: 3] فَغَشِيَ الصَّمْتُ الْمَجْلِسَ...

سألتني اللوامة: بالرغم مما ذكرت من اعتراضات على التصوف الفلسفي، فإن له مريديه وأتباعه من الصفوة الفكرية في المجتمع، كما أن الطريقة الأكبرية التي تُنسب إلى ابن عربي لها أتباع كثر في العالم الغربي، خاصة في فرنسا، فكيف تُفسر ذلك؟

أجبت اللوامة قائلاً: أرى أن ذلك يرجع - في المقام الأول - إلى ما يطرحه التصوف الفلسفي من مفاهيم. فمفاهيم مثل وحدة الوجود والإنسان الكامل والفناء والحلول والاتحاد لها بريقها وجاذبيتها لدى أصحاب العقول الفلسفية. إن الشيطان عندما يُوسوس لهؤلاء لا يأتيهم من باب الإغراء بالمعاصي والذنوب المعتادة، فلا شك أنهم سينتبهون إليها، لكنه يأتيهم من قبل عقولهم، فيغريهم بمفاهيم براقية، يظنون أنها من نصيب الصفوة الفكرية وخواص الخواص في طريق الله، بينما فيها الضلال والهلاك.

أين أنا من التصوف الآن

قالت اللوامة: هل نستطيع أن نقول إنك أصبحت رافضاً للتصوف كله؟ وإن قبلت بعضه، فأين تقف الآن؟

قلت: منذ «موقعة الجمالية» مع الشيخ اتخذتُ موقفاً رافضاً تماماً للكثير من المفاهيم المحورية في «التصوف الفلسفي»، وحتى لا أقع في تكذيب القوم، ارتحت إلى ما يتردد من أن الكثير مما جاء في كتبهم محمول ومدسوس عليهم، خاصة كتابات ابن عربي.

وفي الفترة التالية، أدركت ما يعتور ممارسات «التصوف السني» من سوءات؛ أدركت كيف يُنزلون مشايخهم والأولياء منزلة تفوق منزلة رسولنا الكريم ﷺ، وكيف يقولون في منزلة الرسول من الله عزَّ وجلَّ ما لم يقله النصارى في المسيح عيسى ابن مريم، بل يقولون ما يفوقه هؤلاء بمراحل. ولعل أكبر سقطات هذا الاتجاه والتي يتفق جميعهم فيها أنهم يجعلون الشيخ واسطة بين المريد وربه، تماماً كرجل الدين في المسيحية، ويقولونها علانية؛ كيف تدخل على الله عزَّ وجلَّ بذنوبك ومعاصيك، لا بد من واسطة الشيخ!! وكان ربي عزَّ وجلَّ لم يقل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾ [البقرة: 186].

وقد لمس أعضاء مجلس الأحد مراحل التطور في موقفى الصوفى. فقد أسسنا المجلس ليكون مجلساً صوفياً سُنيّاً، نقرأ فيه كتب الإمام الحداد التى هى تبسيط لِسفر إحياء علوم الدين للإمام الغزالى. وفى مرحلة لاحقة أخذت أطرَح عليهم مفاهيم التصوف الفلسفى بحماس، وبعد بضع سنوات أخذت أُنكر لهذه المفاهيم وعُدْتُ إلى الطرح الغزالى.

لذلك قال لى أحد أعضاء المجلس ذات مرة؛ يا دكتور عمرو، لقد أجهدتنا؛ تطرح مفاهيم ثم تنكرها، ثم تطرحها، وفي كل الحالات تستدل عليها باقتناع تام، ليتك تستقر على حال. حينها أجبتة؛ أننى أطرح فى كل مجلس قناعاتى الآنية، ولا يمكن أن أبذل قناعاتى وأتمسك بطرح قديم خشية أن يقال؛ ما للرجل لا يستقر على حال، لو فعلتها لكنت مخادعاً غشاشاً يبتغى إرضاء الحضور ولا يبتغى رضا الله عزَّوجلَّ.

واللافت والمدهش، إننى فى تعاملى مع التصوف فى مراحل المختلفة كنتُ أُحَكِّمُ العقل فى كل مفهوم من مفاهيمه، ولا أقبل منها إلا ما يقبله العقل، وإذا أبى العقلُ مفهوماً بعد فترة من الركون إليه، تركته وارتحلت عنه!! لذلك أصف مرحلة تصوفى بأننى كنتُ أتبنى «تصوفاً عقلاًنياً»!!... إن من يعرف التصوف ويدرك أنه تسليمٌ مطلق يدرك تماماً أن كَلِمَتَيَّ «تصوفٌ عقلاًنى» لا تجتمعان عند أهل الطريق، إذ يشترطون أن تكون بين يدى شيخك كالميت بين يدى الغاسل، فكيف تكون مَيِّتاً يُحَكِّمُ عقله!!

لذلك كله، لمر أعد منذ سنوات أبالى بالأسماء والأوصاف: صوفى، متصوف.. وصرت أهتم بالمسميات، أهتم بمقام الإحسان، الذى ينبغى أن يسعى إليه كل مسلم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

والذى أستطيع أن أوكدك كذلك، إننى طوال رحلتى السابقة مع القراءة (سواء الدينية أو غير الدينية)، كنت أمارسها بأسلوبٍ متأملٍ ناقدٍ وليس بأسلوب مستوعب فحسب. وما أوكدك، إننى فى قراءاتى وتواصلى مع المفكرين والشيوخ لمر أكن تابِعاً، حتى فى خِصَمِ تجربتى الصوفية التى تشترط أن يكون المريد بين يدى شيخه كالميت بين يدى الغاسل.

لم أستطع أن أكون هكذا، أحسبني قد حافظت على الأمانة التي
استأمنني ربي عزَّجَلَّ عليها؛ العقل...

التعقل.. المبتدأ والمنتهى

قالت نفسى اللوامة: بينت لى عبر هذه الرحلة أنك قد لبيت نداء ربك
بمناهج شَتَّى؛ اللاتحديد، رفض الإسلام السياسى، الميل السلفى، الطريق
الصوفى، وها أنت فى هذه المرحلة تلبيه بالتعقل، فهل نختم حوارنا حول
هذه التلبية بوقفه معك أيها العقل! وقفة مع التعقل كمحطة أخيرة فى
رحلتك إلى الله عزَّجَلَّ.

قلت للوامة: ذكرت لك أننى فى كل مراحل الطريق إلى الله، وفى
تقلبى من منهج لآخر، كان العقل هو حادى الركب. ومن ثم، إذا
كانت المحطة الأخيرة هى التعقل، فالتعقل أيضًا هو الخلفية التى تنقَلْتُ
خلالها من منهج لمنهج. لذلك فإن رحلتى مع التعقل لا يمكن اختصارها
فى صفحات قليلة، فهو تلبية أيام العمر وشهوره وسنواته، وهى آخر
المشوار. لذلك سُنفرِد لتلبية العقل حديثًا طويلًا مفصلاً⁽¹⁾، فهو رحلتى
الفكرية كلها.

سألتنى النفس اللوامة: حتى نتحاور بالتفصيل حول مرحلة «التعقل»،
هل يُمكننا القول إنك وجدت فى محطة العقل اليقين والطمأنينة والسكينة،
أم أن العقل لم يُشبع ذاتك الإنسانية؟

أجبت اللوامة قائلًا: أما بخصوص اليقين والطمأنينة فقد وجدتهما

(1) المقصود هنا الجزء الثانى من الكتاب.

في محطة التعقل، إذ يبدو أن بنيتي تقتنع تمامًا بحجج العقل، أما السكينة والإشباع فأمر آخر!

نَظَرْتُ إِلَى اللوامة مندهشة، فأضفتُ قائلاً: أَصْدُقُكَ القول؛ لقد كنت في مرحلتى الصوفية أكثر سكينةً وإشباعاً من حالى فى ظل يقين وطمأنينة التعقل!

فبالرغم من انشغالى طول ليلى ونهارى بالتفكير فى ربى عَزَّوَجَلَّ، وبتجميع الأدلة العقلية والعلمية على الوجود الإلهى ووحدانيته وأسمائه وصفاته، وبتدوينها فى كتبى ونقلها للمؤمنين والملاحدة على السواء؛ من خلال الندوات والمناظرات ووسائل التواصل الإلكترونية، بالرغم من هذا الانشغال شبه الكامل فىنى لا أنكر أنى أحياناً أجد فى القلب جَفَوةً، وأجد فراغاً لا تملؤه استدلالاتُ العقل وعطاؤه. كم صرت أشتاق لمجالسة الصالحين من أهل الله، وحضور جلسات الذكر، والاستماع إلى الإنشاد الصوفى الذى يُرقق القلب... لا شك أنك أيتها النفس تشتاقين لذلك أكثر منى.

لقد تنبهت - والحمد لله - إلى أهمية إشباع عناصر ذاتى كلها، ذلك إذا أردتُ لسفينتى ألا تبهر فيما تبقى من رحلتنا وقد مال جانبها؛ حَقَّقْتُ يقين وطمأنينة العقل وجاع منها الروح والنفس والقلب... فبالرغم مما حققه التعقل من يقين وطمأنينة فإن لذة «الشعور» بالقرب «واستحضار» الوجود الإلهى لا تعادلها لذة.

لقد تنبهت لسقطتى؛ لقد اعتبرت أن يقين العقل قادر على إشباع كل عناصر ذاتى الإنسانية. لقد أثبت لى الفراغُ القلبى أن الإنسان ليس جسداً وعقلاً فحسب، لقد تيقَّنت بالذوق (الذى هو حق اليقين) أنه إذا

كان التعقل والتفكير يُشبعان العقل، فلذا في الإنسانية عناصرها الأخرى التي تحتاج لغذاء آخر. لن أفصل لك عقلياً أموراً ذوقية أنت تعرفينها، يكفيني أن استشهد لك بيتين للسهروردي المقتول:

أَبَدًا نَحْنُ إِلَيْكُمْ الْأَرْوَاحُ وَوَصَالُكُمْ رِيحَانُهَا وَالرَّاحُ
وَقُلُوبُ أَهْلِ وَدَادِكُمْ تَشْتَاقِكُمْ وَإِلَى لَذِيذِ لِقَائِكُمْ تَرْتَاحُ

تَنَهَّدَتْ نَفْسِي اللَّوَامَةُ وَخَتَمَتْ مَسَاءَ لَاتِهَا حَوْلَ رِحْلَتِي الدِّينِيَّةِ، وَقَالَتْ:
وَصَلْتُ بِنَا الْآنَ إِلَى الْمَرْفَأِ، حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ سَفِينَتُنَا بَعْدَ تَلَاظِمٍ فِي الْبَحَارِ...
وَصَلْتُ بِنَا إِلَيْكَ !! إِلَى الْعَقْلِ الْمُنْصَفِ. لَا تَحْسَبْ أَنِّي - أَيُّهَا الْعَقْلُ - عِنْدَمَا
أَسْأَلُكَ الْحِسَابَ أَتَنْكَرُ لِدَوْرِكَ وَفَضْلِكَ. وَأَضَافَتْ: إِنْ نَفُوسَ الْآخَرِينَ
تَعَاتَبْنِي !! فَقَدْ اعْتَادَتْ أَنْ تَتَلَاعَبَ بِالْعُقُولِ !! حَتَّى تُخْرِجَ أَصْحَابَهَا عَنْ
حِلْمِهِمْ، أَمَا أَنْتَ فَقَدْ رَزَقَكَ اللَّهُ نَفْسًا طَيِّعَةً! تَقْتَنِعُ بِأَدَلَّةِ الْعُقُولِ، وَأَسْأَلُ
اللَّهَ أَنْ تَتِمَّ رِحْلَتُنَا مَعًا وَنَحْنُ فِي وِثَامٍ، وَأَنْ نُنْتَمِيَ فِي حَسَنِ خَاتِمَةٍ.

مصر التي في خاطري

قالت نفسى اللوامة:

تصفُ نفسك دائماً بأنك «مصرى حتى النخاع» وأن
«ماء النيل يجرى في شرايينك وعروقك»، ولا شك أن
ذلك أمرٌ محمود. لكنى أراك كثير الفخر بأن الضمير

الإنسانى والحضارة الإنسانية قد وُلدا في أرض مصر، ألا ترى أن وقت
طرح هذه المفاهيم قد وُلَّى، وأن التباهى بالماضى أصبح أفيونُ المتخلفين،
الذين فشِلوا في امتحان الحاضر فاستظلوا بالماضى من شمس التخلف
الحارقة؟

قلت لنفسى اللوامة: وهل رأيتنى قَصَّرتُ في واجبى تجاه الحاضر
والمستقبل، سواء في حق نفسى أو حق الآخرين؟
أجابتنى: في الحقيقة، لا.

قلت: ألا يدعوك ذلك للبحث عن تفسير آخر لاعتزازى بالماضى غير
المباهاة؟

قالت: وما هو؟

مهدُ الحضارة

قلت مجيئاً النفس اللوامة: أُجيبك من خلال مقدمتي لترجمة كتاب «الطب المصرى القديم» من تأليف عالمِ المصريات الشهير وأستاذ التخدير البريطانى «جون ن»، والذي ترجمته إلى اللغة العربية⁽¹⁾، قلت فى بداية التقديم:

«وَقَفَ الخَلْقُ يَنْظُرُونَ جَمِيعًا كيف أبنى قواعدَ المجدِ وحدى
وبناةُ الأهرامِ فى سالفِ الدهر كَفَوْنى الكلامَ عندَ التحدى
أنا تاجُ العُلا فى مَفَرِّقِ الدهر ودُرَّائِهِ فرائدُ عِقدى
إن مجدى فى الأولياتِ عريقٌ من له مثل أولياتى ومجدى

هل هذه ترانيمُ شاعرٍ عظيم، عاشقٍ لوطنه وتاريخه⁽²⁾...؟ ترانيم تحمل من المبالغة ما يحملُ الشَّعرُ وما يسيطر على العشاق.

أم إنها إقرارٌ بحقيقة اتفق عليها المؤرخون والدارسون؟

وحتى لو كانت حقيقة... ألا يعنى التغنى بها نوعاً من الحنين للماضى (نُستالْجيا Nostalgia)...

وهل ذِكرُنا للماضى نوعٌ من السلوى، نُعوِّضُ به ما نحن فيه من حاضر متخلف، لا يُقارَنُ بما مضى، ولا يبشر بمستقبل نستعيد فيه أمجادنا...؟

(1) الترجمة بالاشتراك مع د. عادل وديع فلسطين.

(2) الأبيات لشاعر النيل حافظ إبراهيم من قصيدة بعنوان: «مصر تتحدث عن نفسها»، وتغنت بها كوكب الشرق أم كلثوم.

أليس هذا التذكّر والتغنى «خَمَرًا» يُعَيِّننا عن مرارات الحاضر،
و«خِمَارًا» نُسَدِّله على واقعنا ومستقبلنا...؟

وهل كل استحضار للماضى «خَمَرٌ» و«خِمَارٌ»...؟

هل يستطيع «ماضٍ كماضينا» أن يُسهم فى بزوغ مستقبل مشرق من
بين غياهب «حاضرٍ كحاضرنا»...؟

إن تأمل الماضى ليس دائمًا «خَمَرًا» و«خِمَارًا»...

إذا كان هيرودوت يرى أن «مصرُ هبة النيل»... فأنا أرى أن «مصرُ
هبة المصريين»...

نحن أبناءُ الماضى، والماضى نفسه ابن... إنه ابن لإنسان «خط»
التاريخ بيده، بمدادٍ من عَرَقِهِ ودمه... أو قل «نحت» واقعه بأظافر بللها
العَرَقُ والدم...

إذا كان الماضى هو تاريخُ الأمة... ويعكس شخصية الأمة... فإنه
يعكس سمات أبناء هذه الأمة... تلك السمات التى تُشكّل قدراته التى
يتعامل بها مع زمانه...

إن الشعب الذى تَفَجَّرت على يديه مفاهيمُ «الحق» و«الحرية»
و«الجمال»، الشعب الذى وُلِدَ على يديه «الضمير»، هو الشعب الذى
خَطَّ صفحات التاريخ المصرى القديم... إنه نفس الشعب الذى ظل
يحيا على نفس البقعة من الأرض، ويتنفس تحت نفس السماء، طوال
سبعة آلاف سنة، أو يزيد...

إن للحضارات دورات...؛ ميلادٌ وطفولة...، ثم فتوةٌ وقوة...، ثم رجولةٌ
وحكمة...، ثم هَرَمٌ وأُفول يعقبه موت... أو أُفول يعقبه بعثٌ جديد...

إن التاريخ يبين لنا فى أى المسارين سارت الحضارة المصرية... يرى المتأمل للتاريخ المصرى القديم بدايةً مخاضه فى عصر ما قبل الأسرات... ثم نموه خلال المملكة القديمة... ثم ضعفًا وأفولًا ساد عصرُ الاضمحلال الأول... ثم تُنفِضُ الأُمّةُ عن كاهلها الضعفَ لتبزغ المملكةُ الوسطى... ثم يعقبها عصرُ الاضمحلال الثانى... ثم تسطع المملكةُ الحديثة... ثم تُوهن هجمات النوبيين والليبيين والفرس من عَصْدِ الأُمّة... حتى جاء الغزو اليونانى - الرومانى، الذى مثّل ظاهرة نادرة فى تاريخ البشرية... فيها يتشح الغازى بوشاح حضارة غريمه... فيتأثر به، ويتبع ديانته، وينطق بلغته... لقد عصفت المصريةُ بخيلاء اليونان والرومان... حتى إذا دخلت المسيحية مصر، فقد تَمَصَّرت المسيحية، ولم تتمسحُ مصر...

أما دخول الإسلام مصر، فقد تَمَخَّض عن نسيح فريد، ساهم فى خيوطه كلُّ من الدين الإسلامى والحضارة المصرية، نسيجٌ ما زال قائمًا حتى الآن... فالإسلامُ فوق هذه الأرض احتفظ بجوهره... وتخلّى عما حمّله المسلمون معهم من جزيرة العرب من عادات البداوة... لقد قابل الإسلامُ فى مصر ضميرًا مطابقًا لتعاليمه، ضميرًا وُلد هنا، وترعرع هنا، قبل أن تنتشر ثمراته فى العالم أجمع... وفى المقابل، فإن المتأمل لمصر بعد دخول الإسلام، يدرك أنها لم تعد مصر الفرعونية، ولا شىء قريب منها.

إن مُعلّمنا، «التاريخ»، يخبرنا - فيما عَرَضَتْ من تاريخ مصر - أن المِحَن والنكبات - إذا صحت العزائم - يمكن أن تنفرج عن فجر وضاء، ينبلج فيه نور الحضارة.

والتاريخ الإسلامى، يحمل لنا نفس الرسالة.. فالمطالع لما أصاب بغداد من دمار على يد المغول ما كان يتصور أن تقوم للمسلمين أو لدين الإسلام قائمةٌ بعدها. كذلك فالمطالع لحال المصريين خلال فترات حكم المماليك والعثمانيين، يراها ليالى حَالِكَة الظلام، طويلةً ثقيلة، حتى إن الناس فى بعض المجاعات أكلوا لحوم الكلاب والقطط النافقة، وما كان يُتصور أيضًا أن تخرج من هذا الركام مصرُ الفتية فى عصر محمد على.

هذا، وقد عاصر جيلنا نكبة حرب 1967، حين كاد اليأس أن يُردينا، وبدا النصر واستعادة الكرامة أبعدُ من أن نفكر فيه، ناهيك عن أن تناله أيدينا. ثم كان أن تذوقنا العزة وشربنا منها حتى الامتلاء بعد انقضاء ست سنوات فقط. وبعد أن كان العدو الغادر يعايرنا بحرب الأيام الستة (فى عام 1967) صرنا نفاخر بانتصارنا عليه فى حرب الساعات الست فى عام 1973، تلك الحرب التى خاضتها مصر لتحرير أرضها رغمًا عن إرادة القوتين العظمتين فى ذلك الوقت؛ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

من أجل ذلك كله، عندما زار الفيلسوف اليونانى الكبير أفلاطون مصر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، عبّر عن انبهاره بما شاهده بقوله:

«نحن الإغريق نقف كالأقزام إذا ما قُورِنّا بالحضارة المصرية».

وتحدث «جون نين» فى كتابه «الطب المصرى القديم» عن دور العنصر البشرى فى بناء حضارة المصريين بقوله:

«لقد امتلك المصريون أهم أسباب التقدم، وهو نظام الإدارة المُحكَم وموهبة الاختراع، بجانب مهاراتهم التقنية التطبيقية.. إن الشعب الذى استطاع أن يبنى الأهرامات فى الألفية الثالثة قبل الميلاد، جديرٌ بأن تكون له الريادة فى عالم الطب».

وقد لَخَّصَ العالمُ الفذد. جمال حمدان سر عبقرية الحضارة المصرية فى كتابه «شخصية مصر» بقوله:

«إن نكاح الإنسان المصرى وطبيعة مصر (أرضها ونيلها) هو الذى أنجب هذه الحضارة، التى تَمَثَّلَتْ فى العديد من الإنجازات (غير المسبوقه):

أولها... الضمير.

وثانيها.. الدين.

وثالثها.. الهندسة والفن.

ورابعها.. الطب والتحنيط.

وخامسها.. الفتوحات».

ألم يصف الرسول الكريم ﷺ رجال مصر بأنهم «خير أجناد الأرض».

كُتبت الفقرات السابقة - أيتها النفس - كمدخل لمقدمة الكتاب، وكان هدفى أن أُبَيِّنَ لشباب هذه الأمة أصالة معدنه، وأنه قادرٌ على بناء مستقبله، إذا نزع عنه ثياب اليأس والإحباط، فى حاضرٍ صارت فيه أُمَّتُنَا كمرىضٍ يحتَضِرُ ليس له مُداو، أو كقشةٍ فى إعصارٍ يتفنن الخونة والانتهازيون فى الاستفادة من كل تَرْنُحٍ له، لقد أكلوا كل ما استطاعوا

من اللحم، وامتصوا كل ما استطاعوا الدم، ولم يتركوا إلا ما استعصى على أسنانهم ومخالبهم.

إن حديثي عن عشقي لمصر وتاريخها ليس حنيناً إلى الماضي، لكنه دفعة للأمام، إذ أن من لا ماضٍ له لا مستقبل له.

قالت اللوامة: حسناً، لقد فهمت، ولكن ألا ترى أن دولاً عديدة وأيضاً دويلات صغيرة تتبنى نفس الأسلوب، فتتباهى بماضيها وبعظم دورها في الحضارة الإنسانية، بالرغم من أنها لم تُسهم بدورٍ في بناء مجتمعاتها نفسها؟!!

قلت للوامة: لا شك في ذلك، وهذه ليست سلبية كما تظنين، فمن واجب كل أمة أن تُعطى شَعْبها جرعةً من الثقة بالنفس تُعينه على بناء دولته. أما مصر فهي مُهدُ الإنسانية والحضارة بحق، ومن ثم ينبغي بيان ذلك لأبنائنا وأحفادنا والبشرية جمعاء، ولا نحتاج في ذلك إلى لوى الحقائق أو المبالغة، كل ما نحتاج إليه هو قراءة علوم الأنثروبولوجيا والتاريخ قراءة أمانة تُطلعنا على الحقيقة.

طمسُ الهوية

قالت نفسي اللوامة: حسناً... لقد استوعبت دروسَ الماضي، لكن، كلنا ندرك الحاضر وما آل إليه الحال في بلدنا، كما ندرك ما آل إليه الحال في العالم، بعد أن أصبح قريةً صغيرة تلاشت فيه القوميات والخصوصيات الحضارية أو كادت، فهل ترى فائدة من محاولات بعث الماضي والترويج للهوية؟

قلت للوامة: إن ما تقولينه يخدم بشكل مباشر الدعاوى التي يُروِّجها

أعداؤنا اليوم، مستخدمين شعارات رنانة مثل «ما بعد الحداثة» و«النظام العالمى الجديد». إن هذه الشعارات لا تعنى إلا القضاء على خصوصية الحضارات وتحويل العالم بالفعل إلى قرية واحدة يصب عطاؤها كله فى صالح النظام الاقتصادى الرأسمالى والمنهج الفكرى المادى والمنظومة الأخلاقية الإلحادية، وهؤلاء من أعينهم بأصحاب المصالح.

لقد بدأ هذا التَّوجُّه منذ أن غيرت الحضارة المادية من إستراتيجيتها، وبدلاً من أن تعتمد على الاحتلال العسكرى فقد لجأت إلى منظومة أقل كلفة وأكثر فائدة، لقد لجأت هذه الحضارة إلى اختزال الإنسان (حتى أبنائها) إلى أصوله المادية متجاوزة أى مُكوِّن روحى إنسانى فيه، ثم أعادت تركيبه فى ثلاثية مادية صرفة: منتج فى المصنع، مستهلك فى السوبر ماركت، مستمتع فى دور اللهو⁽¹⁾. وهذه المنظومة الجديدة تعنى بلا شك القضاء على كل الخصوصيات الحضارية لكل شعوب الأرض.

المؤامرة

سألتنى نفسى اللوامة: لكن، ألا ترى أن مفهوم الهوية الذى تصر على الترويج له يتعارض مع الإسلام، ومع عالمية الإنسان؟

أجبت اللوامة قائلاً: يُفزعنى كثيراً أن أقرأ على صفحات الفيسبوك كتابات لكوادر الإسلام السياسى فى مصر يهاجمون فيها بلدَهم، بحجة أن الإسلام لا يعترف بالمواطنة! ومن ثم فـ«طُظ فى مصر»! فعلوا ذلك بعد أن سارت الرياح على غير ما تشتهى سفنهم ورسى السفينة فى ميناء غير مينائهم، بعد أحداث الثلاثين من يونيو.

(1) نناقش ذلك بالتفصيل فى الفصل الثامن.

وفي سبيل تحقيق ذلك، سارع هؤلاء إلى الوقعة بين الشعب وجيشه وشرطته، بُغْيَةً أَنْ تَدْبُ الفتنه في أوصال الوطن فافتقت آخر أوطان المنطقة الذي ما زال على تماسكه. هل نقول إنهم لا يدرون عواقب ذلك، لا، بل إنهم يقصدون تلك العواقب. لذلك لا تتردد قيادات هؤلاء دائماً في الانتقاص من مصر، في كل مناسبة، بل وسبّها.

كذلك أخذ هؤلاء يَرَوِّجُونَ بين شبابنا أن الانتفاء والاعتزاز بالوطن يخالف الدين ويتعارض مع عالمية الإسلام، وأخذوا يستخدمون شعارات ممقوته، فقالوا إن النزعة القومية والوطنية شرك! ألا يدرى هؤلاء أن سيدى رسول الله ﷺ قد باهى بأصله بل وعائلته حين قال: أنا النبی لا کذب أنا ابن عبد المطلب⁽¹⁾. كذلك لم يستشعر جُلُ الفقهاء السياسيين القدامى ذلك الحرج الكاذب، حين قالوا إن الحاكم لا بد أن يكون عربياً، بل وقُرْشِيّاً! بالرغم من إدراكهم أن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

لقد أصاب شيخنا محمد الغزالي (رحمه الله)، حين قال: إن من يسأل أيهما أولى بالاتباع؛ الوطن أم الإسلام، لا يعرف معنى الوطن ولا معنى الإسلام!

لقد حمى الله مصر أن نجّأها مما وقع في البلاد من فتن، حتى لم تبق في المنطقة سفينة للنجاة سواها. لذلك فالمسئولية على مصرنا هائلة، وعلينا أن نتنبه لما يحاك ضدها وضد المنطقة كلها من قوى خارجية ومتآمرين داخليين.

(1) صحيح البخارى، عن أبى إسحاق.

معشوقتي مصر

قالت نفسى اللوامة: هل نقول إن تَعَلَّقَكَ بمصر هو تعلق كل فتى
ثم شاب ثم كهل ببلده، أم أن الأمر قد زاد عن ذلك، وأن مصر ذات
خصوصية أكبر لديك؟

أجبت اللوامة قائلاً: قبل أن أبلغ الرابعة والعشرين من عمري كتبتُ
رسالة إلى خطيبتي، استهللتها بكلمات عن منزلة مصر في قلبي. وبعد
مُضي أكثر من أربعين عامًا ما زال ما تحمله الكلمات من معاني يتردد
داخلي، قلت:

«حبيبتى الغالية مصر...»

صاحبة الفضل، مالكة الروح، حبيبة القلب والعقل...

يا من نشأتُ في تربتك، وجرت مياه نيلكِ الخالدِ في عروقي، ورضعت
في مهدى من حنانك، وفُطمتُ على حبك...

في طفولتي حماني ظلُّ نخيلكِ من شمسك، وبعثت شمسكِ الدفءَ في
أوصالى الدقيقة الهزلية حتى قويت واشتدت.

كم أضاءَ قمرُكِ عقلي، إننى أفكر بوحى من ضوئه الخافت، وأسيرُ
بخطاى على هدى أشعته الحنونة، أخشى أن أبعرها أو أن أجعلها
تضطرب.

هدوء ليلكِ سحرٌ وسُكْرٌ وتسبيح.... سحر للهائمين وسكر للعاشقين
وتسبيحٌ للتائبين.

خلقتُ منك لأجلك، وهبتينى الحياةَ كي أُحبكِ، وأحببتينى كي أعيشُ
فيكِ الحياة.

يقولون إن أَسْمَرَكَ الْغَالِي الْعَظِيمَ، الْخَالِدَ خُلُودَكَ، نَهَرٌ مِنَ الْجَنَّةِ،
وَلَا شَكَّ عِنْدِي فِي ذَلِكَ... وَعِنْدَمَا انْسَابَ مِنَ الْجَنَّةِ صَحْبَهُ بَعْضٌ مِنْ
فِرْدَوْسِهَا... وَهَلْ أَرْضُنَا الْخَضِرَاءَ الطَّاهِرَةَ، طَهَارَةَ الْمَلَائِكَةِ الصَّغِيرِ، يُمْكِنُ
أَنْ تَكُونَ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْجَنَّةِ.

كَيْفَ تُنْبِتُ هَذِهِ التُّرْبَةُ الْبَيْضَاءَ، نَاصِعَةَ الْبَيَاضِ، كُلَّ هَذَا الرِّزْقِ
الْأَخْضَرَ... يَقُولُونَ إِنْ تَرَبَّتْكَ بُنْيَةُ اللَّوْنِ، أَنَا مَا أَرَاهَا إِلَّا بَيْضَاءَ، كُلُّونِ
ثَوْبَ زَفَافٍ حَبِيبَتِي، وَلَكِنْ تُرَبَّتْكَ هِيَ الْأَنْصَعُ وَالْأَرْقُ.

قُرُونٌ وَقُرُونٌ وَأَبْنَاؤُكَ يُزَيِّنُونَ هَذَا الْبَيَاضَ بِدَمِهِمُ الْأَحْمَرَ الْقَانِي،
عَاهِدُوكَ أَنْ يُتِمِّمُوا زِينَتَكَ، لِتَكُونِي أَرْقُ عُرُوسَ وَأَهْبَى عُرُوسَ.

فِي طَوَافِنِهِ بِالْكُونِ، حَلَّقَ عَرِيضُكَ فَوْقَ الْأَرْضِ وَالْبَحَارِ، ثُمَّ اخْتَارَكَ
أَنْتِ، فَرَضَ عَلَيْنَا يَا مَنْ نَشَأُنَا مِنْ تَرَبَّتِكَ أَنْ تَظْلِي دَائِمًا رَاضَةً.

إِذَا كَانَ أَحْمَرُ شَفَاهَكَ الْقَانِي هُوَ أَخْلَدُ الْأَلْوَانِ، فَسَنَبْذِلُهُ لَكَ مِنْ دِمَائِنَا
رَاضِينَ... كَفَانَا سَعَادَةً أَنْ نَرَى ابْتِسَامَتَكَ عِنْدَ لِقَاءِ حَبِيبِكَ الْهَابِطِ مِنَ
السَّمَاءِ.

لِذَلِكَ، لَيْتَكَ، رَفِيقَةُ الْعَمْرِ، تَشَارِكِينِي دَائِمًا الْإِسْتِمَاعَ لِهَذَا الشَّدْوِ،
الَّذِي هُوَ مِنْ أَجْمَلِ مَا سَمِعْتُ فِي حُبِّ مِصْرِنَا:

وَطَنِي وَصَبَايَ وَأَحْلَامِي وَطَنِي وَهَوَايَ وَأَيَّامِي⁽¹⁾
وَرِضَا أُمِّي وَحَنَانُ أَبِي

(1) الأغنية من كلمات أحمد مخيمر ولحن محمود الشريف، غناء نجاة الصغيرة وعبد الرؤوف
إسماعيل. إنتاج عام 1957.

وخطى ولدى عند اللعب	يخطو برجاء بَسَام
هتَفَ التاريخُ به فصحا	ومضى وثبًا ومشى مَرَحًا
حَمَلَتْ يدهُ شَعْلَ النصر	وبدا غُدَّةَ أَمَلِ الدهرِ
يَسْتَقْبِلُ موكِبَه فَرِحًا	وَيُحْيِي مجدَ الأهرامِ
في ظِلِّ النخلِ على الوادى	أصغيتُ لقصة أجدادى
لمعانيها خفقَ القلبُ	وبماضيها طافَ الحبُّ
وشدا للمجدِ مع الشادى	وصحا ليبارك أيامى
بدم الأحرار سأرويه	وبماضى العزم سأبنيه
وأشيده وطنًا نَضْرًا	وأقدمه لابنى حُرًا
فيصونُ حُمَاهُ ويفديه	بإباءٍ فيه وإقدام
وطنى وصباى وأحلامى	وطنى وهوأى وأيامى

ثم استطرد ابن الرابعة والعشرين فى رسالته لخطيبته، ليحدثها عنها؛
مصر وماجدة...

«أُمى...

هى ابنتك، قطعةً من تربتك، عبيرها كعبير زهرة بريّة تُطل على جدولٍ
من جداول مياهلك الجارية... رقتها من أشعة فجرِكَ الحنونة، ابتسامتها من
ابتسامتك عند لقاءك ملائِكَ الطاهر... سوادُ عينيها من سواد نيلك، فيه
السحر والسكر والتسييح... عذوبة حديثها من عذوبة أسمرِكَ الخالد...
حديثٌ ينحنى الدفء والنور كدفءِ شمسك ونور بدرك... سترتدى لى
ثوبًا أبيضًا ناصعًا من نسيج تربتك، لذا أحببتها يا أُمى.

في عروقنا يجري ماء النيل، أرواحنا نفحة من المولى عَزَّجَلَّ، لعلها
حكمة أن يكون بناؤنا من تربة واحدة. وأن يجري في عروقنا دمٌ
واحد.

لذا أحببتها يا أمى... وسأهبها العمر كما أهبك الروح والدم...
أليست هي قطعة منك...

لذلك - رفيقة العمر - لا أرى غَزَلاً بالمحسوب يفوق الغزل المتشرب
بحب مصر، ليتك تشاركينى الاستماع إلى ما أستشعره تجاهكما: ⁽¹⁾

على بلد المحبوب ودينى	زاد وجدى والبعد كاوينى
يا حبيبى أنا قلبى معاك	طول ليلى سهران وياك
تتمنى عينى رؤياك	أشكيلك وأنت تواسينى
يا مسافر على بحر النيل	أنا ليّيه فى مصر خليل
من حُبّه ما بنام الليل	على بلد المحبوب ودينى

إنها بلدى المحبوب وهى بلد المحبوب، ما أجمل أن يلتقيا...».

هكذا رضعنا حب مصر، وفُطمنا عليه، ونحيا به، ونموت من أجله، لذلك
لر يكن غريباً على جيل أن ينتشى لفرحتها ويتجرع آلامها حتى النخاع:

هَزَنَّا انكسارٌ وخزى هزيمة الخامس من يونيو،

طربنا لعزة وفرحة نصر العاشر من رمضان،

عانينا الحيرة والقلق على حاضر مصر ومستقبلها،

تألقنا بآمال أحداث الخامس والعشرين من يناير،

(1) أغنية لأم كلثوم، إنتاج عام 1935، كلمات أحمد رامى وألحان رياض السنباطى.

بنينا أحلامًا على الثلاثين من يونيو.
ولكِ الله دائماً يا مصرنا...

استيضاء الديون

قالت نفسى اللوامة: تعود كتاباتك هذه إلى أربعين سنة مضت، كنتَ وقتها عاشقًا لمصر متيهاً بها. كنتَ في مقتبل الشباب، غلبتك النزعة الرومانسية، فانعكست على نظرتك لوطنك ولزوجة المستقبل. لا شك أنك بمرور السنين قد أدركتَ ما في مصر من سلبيات وما في شعبها من نقائص مثل كل شعوب الدنيا. فهل تغيرتَ نظرتُك وأصبحت أكثر واقعية بعد أن أصبحت أكثر نضجًا؟

قلت للوامة: لا شك أنني قد أصبحت أكثر نضجًا بمرور السنين، لذلك لم يزدني العمرُ إلا حبًّا لمصر وتعلقًا بها.

عندها نظرت اللوامة لى باندهاش، فأردفتُ قائلاً: ما قولك لو كانت أُمنا فقيرة أُمّية مريضة، تعاني عِللاً جسدية ونفسية واجتماعية كثيرة، هل كنا نَعافها أو نتعالى عليها؟! إذا كان أُمنا بالسوء الذى ذكرت، ثم نَجَحْتَ فى أن تربينا حتى وصلنا إلى ما نحن فيه من علم وفكرٍ واستقرار، ألا يزيد ذلك من تقديرنا لها؟

قالت اللوامة: يرى الكثيرون أنه قد توالى على حكم مصر من أفسد أحوالها، وأفسد رجالها ونساءها، حتى شاعت الرشوة والفساد والأنانية والامبالاة والفقر والديون، وهى أدواء نحتاج إلى عقود لإصلاحها، إن كان ثمة أمل فى الإصلاح.

قاطعت المتحاملة قائلًا: إذا تكالب الكثيرون على أمنا، يريدون إهلاكها، فهل ترين ذلك مدعاة للتخلي عنها أم يزيد ذلك من مسؤوليتنا تجاهها.

قالت: أظن أنك ستفحمني؟ دعك من هذه المثاليات النظرية، هل تظن أن محمدًا ابننا⁽¹⁾ يعود إلى مصر بعد أن يُنهي دراساته في الأمراض النفسية في الولايات المتحدة؟ أم أنه سيراعى مصلحته ويبقى هناك؟

أجبت اللوامة قائلاً: لقد سألتني هذا السؤال عن محمد أحد أساتذتي القدامى، فأجبته أنه سيعود بعد استكمال دراساته في الطب النفسي. فسألني ولمَّ يعود؟ أجبته: مثلما عدت أنت منذ خمسين عامًا من إنجلترا بعد أن أنهيت دراساتك. فقال: لقد عدت في وقت كان مجال العمل مفتوحًا أمامي، فقد كان تخصصي نادرًا في مصر. أى أننى عدت بعد أن أدركت أن هناك عطاءً كبيرًا ينتظرني. قلت لأستاذي: لقد تربيت أنا وكذلك محمد على أننا قد حصلنا حقًا منذ بداية مشوارنا الدراسي والمهني.

نظرت اللوامة نظرةً مستفسرة: فأردفت قائلاً: لقد تعلمنا الطب والجراحة في الجامعة على أجساد المرضى المصريين وجثثهم!! دون أدنى مسؤولية جنائية، ودون نفقات تُذكر. أدرين أن من نقصت درجاته في الثانوية العامة عن محمد بمقدار نصف الدرجة، فطرق أبواب الجامعات الخاصة لدراسة الطب، يتكلف في العام الواحد قرابة المائة ألف جنيه مصري.

(1) المقصود بالتثنية هنا النفس والعقل.

أتدريين أيضًا أن محمدًا بعد أن انتهى من دراسة الطب في مصر واجتاز ثلاثة امتحانات أحدها في الولايات المتحدة لمعادلة شهادته بـكالوريوس الطب والجراحة الأمريكي، ليصبح قادرًا على استكمال دراساته التخصصية هناك، أتدريين أنه في هذه السنوات العشر لم يكلفني ما يتكلفه الطالب الأمريكي في العام الواحد للحصول على الشهادة نفسها. لذلك يُنهي هذا الطالب دراسته وعليه ديون دراسية تُقارب النصف مليون دولار، يَظُلُّ يُسدد أقساطها حتى قرب تقاعده.

هل اقتنعتِ بأننا قد حَصَلنا حقوقنا قبل أن نمارس المهنة؟ وأنه قد آن الأوان لنرد بعضًا من الدين. ولا شك عندي في أن محمدًا سيعود إلى مصر لسداد الدين (إن شاء الله)، إلا إذا وجد أنه سيفيد مصر بشكل أكبر لو عمل في مكان آخر خارجها، أو استحال عليه أن يمارس عمليًا ما حصله من علوم.

هل أنا متعصب؟!

قالت النفس اللوامة: أعلم أنك متعصب لمصر، وغير موضوعي فيما يخصها، فلننتقل إلى موضوع آخر تكون فيه أكثر موضوعية.

قلت لها: قبل أن ننتقل إلى موضوع آخر، فلنُصِفْ أمورنا بخصوص مصر أولًا. ماذا تريدين مني حتى أكون موضوعيًا تجاه وطني؟! أتريدين أن أسبِّه وأُسيء إليه بالقول والفعل كما يفعل البعض؟!

كيف تكون موضوعية الإنسان تجاه أمه الضعيفة التي يتكالب عليها الذئاب من خارج البيت والأفاعي داخله. هل الموضوعية أن يشاركهم فُجَرَ الذئاب وخُبَّتْ الأفاعي!!!؟

وإذا كان كمال الموضوعية يكمن في مراعاة الجوانب الإنسانية، فإن الإنسان إذا تجاوز حقوق الأمومة لما صار موضوعياً بالمرة. فإذا سبّتي امرأة في الطريق، من الموضوعية أن أرَدَّ لها الصاع صاعين، أما إذا أساءت إلى أُمِّي، وجب أن أخفِّضَ لها جناحَ الدُّلِّ من الرحمة...

وأضفت: ما أبأسه من حال أن صرنا في حاجة لأن ينبه بعضنا بعضاً بحقوق الوطن! وما دفعنا إلى ذلك إلا أن نشط أصحابُ المصالح في التسفيه من معنى المواطنة تحقيقاً لأهدافهم، إما عن رؤية إسلامية قاصرة، أو عمالةٍ وخيانة.

قالت اللوامة معاندة: ظننت أنك ستحتاجني ببحثٍ مختصر عن «المواطنة»، فإذا بك تطرح طرحاً عاطفياً لا يرقى إلى موضوعيةٍ كنت أنتظرُها.

قلت لها: يدهشني رأيك هذا أيتها النفس التي ينبغي أن تحرکها العواطف! وأكرر ما قلته إن الموضوعية لا تعني إسقاط الجوانب الإنسانية. هل من أجل أن نكون موضوعيين ينبغي أن نتعامل مع أمهاتنا وآبائنا وأبنائنا كما نتعامل مع الآخرين ممن لا نعرفهم؟؟!!

وإذا كان بعض شبابنا يتساءلون: وما هو الوطن؟ ثم يجيبون: أليس وطني حيث أجد ما أحتاجُ إليه؟؟ أجيب هؤلاء؛ لا، ليس هذا هو وطنك، ربما يكون هذا صديقك أو صاحبك أو وليّ. أما وطنك ببساطة شديدة، فهو منشأك ومرعاك ومنتهاك، ولعلّ أجيب هؤلاء بهذا النشيد، الذي يجمع العقل والعاطفة، فتأملِ كلماته:

(1) قصيدة من تلحين وغناء محمد فوزي، تأليف مرسى جميل عزيز، إنتاج 1954.

بلدى أحببتك يا بلدى	حُبًّا في الله وللأبد ⁽¹⁾
فثراك الحر تراب أبي	وسماك يزف صبا ولدى
وطنى والله رعا وطنى	حُرًّا في الأهل وفي السكن
ماض يختال على الزمن	وغد يزدان لبعْد غد
أهواك ضفافا لم تزل	مرعى للحب وللغزل
أهواك ربيعا كالأزل	للعيش الحر وللرغد
أحرارك عين لم تنم	وهتاف الحر بغير فم
فزغ للظلم وللظلم	بلدى يبدى حررت يدى

بلدى أحببتك يا بلدى...

نعم... بلدى أحببتك يا بلدى...

أنا والمرأة... والحب

قالت نفسى اللوامة:

أراك فى نظرتك للمرأة مثاليًا رومانسيًا، حتى إنك إذا
دُعيت للتوسط فى خلاف بين زوجين كثيرًا ما تأخذ
جانب الزوجة، فهل تميل إلى إنصاف النساء لأن

لديك ابنة متزوجة؟! ثم استدركت اللوامة وقالت: لا، إن رومانسييتك
تعود إلى ما قبل ذلك بكثير، فهل يرجع ذلك إلى أنه لم تكن لك أخوات
بنات، فلم تُدرك ما يسببهن من مشكلات وإزعاج، فنزعت عنهن طينية
البشرية كبعض المراهقين العذريين؟!

أجبت النفس اللوامة: ما أشد تجنيك أيتها اللوامة، تُبررين احترامى
للمرأة ودفاعى عنها بأن لى ابنة متزوجة! ثم تتنبهين فترجعين ذلك إلى
عذرية بعض المراهقين! أتظنين أننى مثلك! لا أنتخذ موقفًا إلا إذا كانت
وراءه مصلحة شخصية؟! لا أيتها النفس، إننى - العقل - يمكن أن أتبنى
مواقف لذاتها، بل أسعى بطبيعتى لتقييم كل ما حولى، سواء كان لذلك
مردودٌ شخصى أو لم يكن.

لكنى فى الوقت نفسه لا أنكر أننى قد استفدت كثيرًا من المرأة،
فتأثير المرأة العميق فى حياة كل رجل لا يُنكر، سواء كان تأثيرًا إيجابيًا

أو سلبياً، فهي الأم والمدرّسة والحبيبة والزوجة والابنة وزميلة العمل. لذلك لا نكاد نجد لغة من اللغات تخلو من مثل شعبي يُعبّر عن منزلة المرأة في حياة الرجل، طفلاً ومراهقاً وحبيباً وزوجاً، ألا تقول كل لغات العالم؛ فتش عن المرأة...

وتخصّرنى قصة تعبر عن دور الزوجة العميق في حياة زوجها. في يوم من الأيام، دخل الرئيس الأمريكي أوباما وزوجته مطعماً لتناول العشاء، انزوى صاحبُ المطعم بالسيدة ميشيل أوباما لدقائق يتحدثان، وعندما سأها أوباما عن الرجل قالت، إنه زميل دراسة في الجامعة وأنه كان يحبها، قال أوباما مُتهكماً؛ لو كنت تزوجته لصرت الآن صاحبة هذا المطعم، فأجابته ميشيل بحسم؛ لا، لو كنت تزوجته لصار رئيساً للولايات المتحدة.

قالت النفس اللوامة: لقد أخذتنا إلى قضية بديهية فرعية، وهي منزلة المرأة في حياة الرجل، تلك منزلة لا أنكرها، بل ربما كنت أكثر إدراكاً لها منك. إن قضيتنا الأساسية هي نظرتك المثالية الرومانسية للمرأة، هل أنا على صواب في رأيي هذا، وما تفسرك لذلك؟

أجبت نفسي اللوامة: إن نظرتي للمرأة ليست خيالية كما تظنين، لكنني أصبحت أدرك الكثير عن هذا الكائن الذي شاركني - كأنفاسي - حياتي، إن الأمر ليس غروراً أو انخداعاً، لكنها الحقيقية. لذلك عندما هممتُ بتأليف كتابي «المخ ذكر أم أنثى؟!» كان السؤال الأساس الذي قصّدتنا⁽¹⁾ أن يجيب عنه الكتاب هو:

(1) شاركني في تأليف الكتاب د. نبيل كامل، خبير التنمية البشرية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة السادسة 2015.

«هل متماثلان... أم متشابهان... أم مختلفان متكاملان؟».

وقد احتاج الكتابُ لأن أدرس الكثير من كتب علم النفس التي اهتمت بالموضوع، وأن أفكر في الطرح القرآني حول خفايا النفوس البشرية ذكوراً وإناثاً، وأن أتأمل سلوك كلا الجنسين كما لمسَّته في معاملاتي ومشاهداتي وقراءاتي. وقد خرجت من ذلك بقناعةٍ ملَّخصها أن التمايز العقلي والنفسى والسلوكى بين كل من الذكور والإناث تقف وراءه فروق في بنية المخ التشريحية وفي آلية أدائه لوظائفه.

الطفل والكأس والكمنجة

قالت نفسى اللوامة: إن كنت تزعم أنك أصبحت على دراية بالمرأة، فهلأ وصفتها لى باختصار؟

أجبتها قائلاً: أزعم أنني بعد هذا العمر قد أصبحت على دراية بالنفس البشرية، انعكست في تأليفى لعدة كتب تدور حول هذه النفس، وأزعم أنني على دراية بالكثير من إيجابيات وسلبيات الكائن الآخر الذى يشاركنا الحياة على هذا الكوكب... المرأة.

قد أوافق الرومانسيين في نظرتهم للمرأة باعتبارها «**فيولين** Violin» (الكمنجة) التى تُصدر ألحاناً تبعاً لمهارة العازف. فتُصدر نشازاً مزعجاً إذا كان العازف غشيمًا، ويكون اللحنُ عذباً رقيقاً إذا كان ماهراً يعرف قدراتها ويعرف كيف يتعامل معها.

وشبَّه رومانسئ آخر المرأة بكأس الزواج، إذ يمكن أن تنهل منها رحيقاً حسيّاً وروحياً لا فُدرة لك على الحياة بدونه، لكن إذا انكسر الكأس فلا سبيل لإصلاحه، بل قد يجرحك ويدميك.

وبالنسبة للمرأة، فإن الرجل «طفلٌ كبيرٌ»، توجهه كما توجه الأمٌ صغيرها ليفعل ما تريد، بينما يتوهم أنه يتصرف بإرادته. لذلك أشارك زوجتى رأيها فى أن الزوجة المُحبَّة قادرة - فى معظم الأحيان - على أن تُصلح من حال زوجها، وهو ما عبر عنه المثل الشعبى بـ «ابنك على ما تربيته... وجوزك على ما تعوديه». كما تُحمِّل زوجتى المرأة - فى معظم الأحيان - مسئولية الوصول بسفينة الأسرة إلى بر الأمان عند قيام العواصف الزوجية.

وبالإضافة إلى هذه النظرة الرومانسية، أرى أن المرأة فى الأساس هى «الرفيق». رفيق الطريق، الذى لا يكون فقط وراء كل عظيم بل وبجانب كل إنسان وأحياناً أمامه. فبالإضافة لكونها السَّكنَ والموَدَّةَ والجمالَ والمتعة، فهى بحق «النصف الآخر» الذى تتكامل به النفسُ الإنسانية⁽¹⁾.

والحقيقة المدهشة التى يعرفها دارسو البيولوجيا أن الأنوثة هى الأصل؛ فالأجنة كلها فى بداية نشأتها تحمل السمات الأنثوية؛ فالمخ فى بدايته أنثوى البنية، والأعضاء التناسلية الخارجية أنثوية البنية أيضاً، حتى إذا جاءت هورمونات الذكورة فى الجنين الذكر تغيرت هذه البنية واكتسبت الهيئة الذكورية.

وعندما قدَّس الإنسان البدائى الحيوانات، فقد قدَّس الإناث منها؛ البقرة، الحية، القطة... لما تحمله من معانى الخلق والإيجاد. لذلك فالأنوثة تاجٌ على رأس النساء، وأندهش مما أصاب منزلتها من تدهور، حتى صارت النساء يُطالبن بالمساواة بالرجال!!

(1) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾ [النساء: 1].

قالت نفسى اللوامة: هل ترجع نظرتك المثالية للمرأة إلى رومانسيته، أم إلى أسباب موضوعية أم إلى أسباب تربوية؟

أجبت اللوامة قائلاً: لا شك أن العوامل الثلاثة كان لها دور في ذلك. فلا شك أنى رومانسى، لكنى أنظر إلى المرأة نظرة موضوعية، ذلك بالإضافة إلى أنه قد شارك في تشكيل هذه النظرة أن كل من مررن بي في صغرى من النساء في محيط العائلة كن مثلاً مُشرفاً للمرأة، ابتداء من أمى إلى جدتى وعماتى وزوجات أخوالى، رحمة الله عليهن جميعاً. كذلك ساهمت النظرة العذرية (التي لا أنكرها) في إصباغ قدر من الطهارة والنقاء على من تعاملت معهن من الفتيات، سواء بنات العائلة أو زميلات الدراسة أو العمل. حتى إن الكثيرات منهن تعاملن معى بصدق واحترام واعتبرننى أخاً لهن.

المرأة... تجلّى الجمال الإلهى

قالت لى نفسى اللوامة: أراك دائماً تربط بين ما تمارسه الأم من رحمة تجاه صغارها وبين الرحمة الإلهية، فهل هذه النظرة جزء من نظرتك العامة للمرأة؟!

أجبت نفسى اللوامة قائلاً: منذ بدأت أنظر إلى الوجود باعتباره تجليات الأسماء والصفات الإلهية، وبعد أن أدركت أن الإنسان هو التجلى الأكبر لهذه الأسماء والصفات، احتلت المرأة عندى منزلة أكبر.

فإذا كانت الصفات الإلهية تتمايز إلى صفات جمال وصفات جلال. وإذا كانت صفات الجمال الإلهى منتشرة فى كل دقيقة من دقائق الكون،

حتى أن الفيروس الفتاك يبدو - تحت المجهر الإلكتروني - شديد الجمال والإبهار، فلا شك أن جمال المرأة، في هيئتها وسلوكها وحنانها، هو ذروة هذه التجليات الإلهية الجمالية.

ولا شك أن الأمومة هي ذروة العلاقات الإنسانية التي تتجلى فيها «أخلاق الجمال الإلهي». فإذا بدأنا بتدبير الغذاء؛ ظهرت لنا الرعاية في كل مراحل النشأة الجنينية وما يتبع الولادة. فبويضة الأنثى مُحاطة بما تحتاجه من مواد غذائية، ويستمر حصول الجنين على غذائه عن طريق جدار الرحم ثم عن طريق الحبل السرى. وما أن يُود الصغير حتى يحصل على غذائه بالرضاعة من ثديي أمه. وعندما يعود الصغير من حضائنه أو مدرسته يجد الأم قد أعدت له ما يشتهي من الطعام. كل ذلك عطاء يحصل عليه الجنين ثم الصغير دون تدبير منه ولا من الأم، بل يحصل عليه على حساب بنية جسم الأم وحالتها الغذائية.

ولا تظهر ثلاثية: «العطاء والرزق والإيثار» من خلال عملية التغذية فقط، بل إن ما تقدمه الأم من جهدها ووقتها وسهرها لا يقل، بل يزيد، عما تقدمه في منظومة التغذية. كذلك تُعتبر الأمومة هي المجلى الأكبر لثلاثية «الود والحنان والرحمة»، ومن منا ينكر ذلك. لذلك وصف أحدهم الأم بأنها الحاضنة وقت الحمل، والمُرُضعة عند الجوع، والممرضة عند المرض، والرفيقة عند اللعب، والمدرسة والخادمة والناظبة، وجليسة الأحفاد. سبحان من جعل الجنة تحت أقدامهن.

أى شرف للأم أن خصها الله عزَّ وجلَّ بأن تكون مجلى للكثير من صفات الجمال الإلهي. وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذا المعنى في الحديث:

«... أترون هذه المرأة مُلقية ولدها في النار»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»⁽¹⁾.

وإذا كانت المرأة هي تجلّي الجمال الإلهي، فالرجل هو تجلّي الجلال الإلهي، بما يمثله من سلطة وسطوة وقوة، تلك الصفات التي مكّنت الرجل منذ بداية الحضارات الإنسانية من السيطرة على المجتمعات وتهميش دور المرأة.

وبين صفات الجمال الأثوى وصفات الجلال الذكوري يتربى أبناؤنا متوازنين متعلقين بهذه الصفات جميعها. وإذا اضطربت هذه الصفات أو تلك في عيني الطفل، اضطربت نظرتة للإله، فصار يراه إما جمالاً فقط أو جلالاً فقط. وربما يدفعه اضطراب نموذج الأب أو نموذج الأم إلى إنكار الوجود الإلهي بالكليّة، فيفرز لنا أمساخاً تتبنى الإلحاد. هذا ما يخبرنا به كبار علماء النفس المعاصرين.

وختمتُ حديثي للنفس اللوامة عن الجمال الإلهي قائلاً: ومن تجليات الجمال الإلهي في المرأة، موقف المرأة المصرية من أسرتها، فالكثيرات من النساء المصريات يتحملن مسؤولية الأسرة أكثر من الرجل. فهي الأم والمربية والمعلمة والمرضة والطاهية، وكثيراً ما تكون المشاركة بمرتبها في نفقات البيت. وتصل ذروة عطاء النساء المصريات في «المرأة المعيلة»، التي يعتمد البيت في الإنفاق تماماً على عملها متواضع المنزل، وقد يكون ذلك بعد وفاة زوجها ورفضها الزواج من غيره حتى تقوم بتربية أطفالها، أو يكون في أثناء حياته بعد أن هجر الزوج البيت أو ضاقت به سبل العمل.

(1) رواه عمر بن الخطاب - صحيح البخارى.

الفُجْر متبادل

قالت النفس اللوامة: رويدك، مهلاً، لقد تخطيت المثالية والرومانسية، وكدت تُقَدِّس المرأة!! أَلَمْ تسمع وتقرأ عن ريا وسكينة! وعن الزوجات اللاتي قتلن أزواجهن وقَطَّعن أجسادهم ووضعنها في أكياس القمامة السوداء للتخلص منهم!! أَلَمْ تسمع عن صفحات الجنس في أنت التي أصبحت ملأى بالبغايا حتى نكاد نظن أنه لَمْ يعد هناك من الشريفات إلا أقل القليل!! أَلَمْ تسمع عن شكوى الرجال الدائمة من تسلط النساء، حتى اشتهرت - في خمسينيات القرن العشرين في مصر - شخصيتي رفيعة هانم التي تفترس زوجها السبع أفندي!! أَلَمْ تسمع عن الشكوى المزمنة من الحموات!! أَلَمْ، أَلَمْ، أَلَمْ...

قاطعت اللوامة قائلاً: حُسْبُكَ، أعرف كل ما تقولين، وأكثر. ولكن ذلك الانحراف ليس قاصراً على المرأة. أَلَمْ تنفجر خطايا البشرية بعد أن قتل قابيل أخاه هابيل، وبعدها لَمْ يتوقف الرجال عن القيام بالمجازر وإشعال الحروب التي مات فيها مئات الملايين من البشر!! أَلَمْ يَسعَ الكثيرون من الرجال لتحقيق الجاه والثراء على أشلاء زملائهم في العمل وربما أشقائهم وشقيقاتهم!! أَلَمْ يستبيح الكثير من الذكور ما لا يحل لهم من أعراض النساء تحايلاً أو اغتصاباً!! أَلَمْ يَسْتَحِلُّوا لأنفسهم ما يُحرِّمونه على نساءهم!!

إن ما ذكرتِ أنت وما ذكرتُ أنا ليس إلا السلوك البهيمي لطينية الجسد - بل إننا بحق نظلم البهائم حين نقارن سلوكيات بعض البشر بسلوكياتها، إنها الطينية التي أحيا عمرى مجاهدًا إياها، حتى أرتقى بك

في مراتب النفس، لأصل بك إلى الطمأنينة والرضا، لننعم معاً بالفردوس الأعلى من الجنان⁽¹⁾.

من المرأة إلى الحب

قالت النفس اللوامة: لا تحاول أن تنكر، إن كل ما ذكرته عن المرأة يؤكد أنك لم تر منها إلا الجانب المُرْضِي، أي أنك ذقت عسل النحل ولم تعان لسعته.

قلت للوامة: لا مبرر إطلاقاً للإنكار، فأنا بالفعل لم أتعرض في حياتي للسعات النحل المؤلمة، ولم أَخْبَر منه إلا العسل وأيضاً غذاء الملكات، لكن ذلك لا يمنع أن طنين النحل يُزعجني من حين إلى آخر!!

ولعل أقدم ذكرياتي عن الإعجاب بالمرأة يرجع إلى الخامسة من عمري!، عندما كنت جالساً في أتوبيس الرحلات أختلس النظر إلى الفتاة الجميلة التي تعمل سكرتيرة لوالدي وكانت تجلس خلفي في الأتوبيس. بعدها بعامين، استشعرت الميل والإعجاب بابنة صديق والدي التي كانت في مثل سني. وعندما كنا منتقلين إلى القاهرة في سن التاسعة أحسست بحبي لزميلتي مُهَجَّة في المدرسة الابتدائية وحزنت كثيراً لفراقها.

ألى هذه السن المبكرة يرجع إعجابنا بالجنس الآخر!!

قالت نفسى اللوامة: لا شك أن هذه النظرة الرومانسية للجنس الآخر تُعزز في نفس الشاب تصوراً رومانسياً للحب. وهذا الشاب قد تهواه الفتيات

(1) إشارة إلى قول الحق عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٧) أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّطْمَئِنَّةً (٨) فَأَدْخِلْ فِي عِبْدِي (٩) وَأَدْخِلْ جَنِّي (١٠)﴾ [الفجر 27 - 30].

لكن إذا جَدَّ الجَدُّ بحثن في الزواج عن الأمان النفسى والمادى. وربما كانت هذه إحدى أهم مشكلات شباب جيلنا؛ الحب الرومانسى الذى يصطدم بصخرة الواقع، مشكلة تركت الكثير من الشباب صرعى رومانسياتهم. أما أنت فقد كنت مع رومانسيته عقلانيًا فى تعاملك مع الجنس الآخر، وكما تصفك زوجتك فأنت تحب بعقلك، لذلك - كما ذكرت - لم تذق لسعات النحل، فهل أنت حقًا تحب بعقلك، أم أنك دَعَيْ لا تحب بالمرّة!!

أجبت نفسى اللوامة: ها قد عُدتِ إلى الهجوم والسخرية.

كيف تَدعين أنى لا أعرف الحب بالرغم من إقرارك أن نظرتى للمرأة نظرة رومانسية، وبالرغم من إقرارك من قبل أنى شخصية عاطفية؟! خاب ظنُّك، لقد عرفت رومانسية الحب إلى أقصى مداها، ولكنها - كما تذكر زوجتى - رومانسية عاقلة!! فالحب عندى كالكهرباء؛ يتعامل مع جهازين متناقضين، مدفئة تولد الحرارة (الرومانسية) ومُكيف يولد البرودة (التعقل)!

فمنذ صباى، فهمت واستوعبت وحفظت أبياتًا من الشعر، أحسبها أسهمت فى توجيه منظومتى العاطفية. حفظت عن فارس العرب، عنتره ابن شداد:

ولقد رأيتك والرماح نواهلً منى وييضُ الهندِ تقطرُ من دمي
فوددتُ تقييلَ السيوفِ لأنها لمعت كبارقِ ثغركِ المتبسمِ

من البيتين عرفت مع عنتره رومانسية الحب. وحفظت عنه أيضًا:

أثنى علىّ بما علمتِ فإنني سمحٌ مخالفتى إذا لم أظلمِ
فإذا ظلمتُ فإن ظلمي باسلٌ مرٌّ مذاقته كطعمِ العلقمِ

فتعلمت منه كرامة الفارس الذى لا تُطويه رومانسية الحب، فِيرُدُّ
الظلمَ بظلمٍ أشد. أو على الأقل يزيع همومَ الحب عن قلبه تمامًا، كما قال
أمير الشعراء أحمد شوقي:

سلوا قلبي غداً سَلا وتابا لعل له على الجمالِ عتابا

كنت دائماً قادراً على إقناع قلبي بأنه قد تعلقَ بفتاة صفاتها الجميلة
كذا وكذا، أما وقد ثبت أنها ليست كذلك، فتلك فتاة أخرى غير التى
أحببتها، ومن ثم لا ينبغى الحزن عليها.

قالت نفسى اللوامة: لقد عشتَ فى عالمٍ من نسج خيالك، يُطلق
عليه بلغة العصر «عالم افتراضى»، جعلت المرأة فيه كفتاة أحلام من
فتيات ألف ليلة وليلة، أو كتاج على رأس الوجود. وعندما يطالع الشباب
«الرَّوش» المعاصر على هذه السيرة ستصيبه الدهشة، ولن يدرى عن أى
الكائنات تتحدث. أهؤلاء هن الجنس الآخر الذى يتعامل معه الآن؟! إن
من يتعاملن معه ربما يَكُنُّ أكثر خشونة وسوقية من الذكور! وكم تلقوا
منهن من زُنُبٍ.

لعلك أيها «العقل العَمْرى» أن تكون قد تخلصت من رومانسيته فى
النظر إلى المرأة، بعد أن امتد بك العمر لترى من دونيتها ما قد يفوق دونية
الرجال؟

قلت للوامة: ما زلتِ تدورين حول «طينية الإنسان»، التى هى فى
الذكور كما هى فى الإناث، وقد بينت لك منذ قليل هذا المفهوم.

قالت اللوامة: إذا تركنا رومانسيته فى النظر إلى «المرأة»، فلنتأمل
رومانسيته فى النظر إلى «الحب».

هل تنكر أن هناك فرقًا كبيرًا بين الحب الذى تطرحه وحب الشباب السائد هذه الأيام؟ وإذا أقررت بهذا الفرق، ألا يعنى ذلك خطأ رومانسياتك فى النظر إلى الحب، وأن الحب ليس إلا نشاطاً للغدد والدوائر العصبية، تحركه الميول الجنسية؟

قلت للوامة: لا أنكر أن الحب هذه الأيام يختلف كثيراً عن مفهومى للحب، بل ويختلف عن حب شباب جيلى. وقد جَلَسْتُ مراراً مع شباب وشابات الجيل الحالى وسألتهم: لقد تَرَبَّيْنا على أغنيات وأفلام أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش وما فى مستواها، بينما تربيتم أنتم على «بحبك يا حمار» و«شبيب أحمد»، فهل جيلكم يعرف الحب الذى نعرفه نحن؟ كانت إجابة الغالبية العظمى: «لا»، فالحب هذه الأيام تيك أو اى Take away، يحركه المنظر والمنظرة، كل من الجنسين يحاول أن يثبت شطارته لنفسه ولأقرانه. وربما يرجع ذلك كله إلى التغيرات الجذرية فى النظر إلى الإنسان وإلى المفاهيم الاجتماعية الهابطة التى أصابت مجتمعاتنا فى العقدين أو الثلاثة الأخيرة.

لقد شاعت المفاهيم المادية حتى صارت هى التى تحكم العلاقات، وصار «الى معاه قرش يسوى قرش». كذلك أصاب العقول خواء وتصحر، ولم يعد معظم الشباب يجد ما يعوض به فقره الفكرى إلا تحقيق التميز بين الأقران بأى شكل، حتى ولو كان تعلق الجنس الآخر به. وأيضا أصاب القيم الجفاف، ونبتت عليها الضلالات المتسلقة، فغيبت، وبذلك اختفت قيم الإخلاص والصدق والشفافية و.... وسادت مفاهيم النفعية والفهلوة والمنظرة.

لذلك عندما أسأل الشباب مستنكرًا: هل تستطيعون أن تُحبوا كما كنا نحب...؟! ييجيني معظمهم بحسرة؛ لا...

الحب فى شرح الشباب

قالت نفسى اللوامة: أرى أن ما ذكرتَ عن المرأة وعن الحب، هو رأى يجمع بين الرومانسية والرصانة لرجل توسط العقد السابع من عمره، رأى كَوْنَه بعد أن عَرَكَته الحياة، فهل كان هذا رأيك دائماً خلال رحلتك عبر السنين؟

أجبت اللوامة قائلاً: لن أحدثك عن المرأة والحب نقلاً عن صفحات مذكراتى عندما كنت فى العشرينات، فربما كانت مراهمتى أو رومانسيتى لا تزال الحُكمَ والمتحكم فى عقلى وقلبى. ولن أحدثك عن الحب بمنظار رجل توسط بين الستين والسبعين من العمر، عَرَكَته الحياة، بل سأنقل لك من دفتر مذكراتى الذى يرجع لخمسة وعشرين عاماً مضت عندما كنت فى شرح الرجولة، كتبتُ فيه بعض الفقرات مُعَرِّفاً برويتى للمرأة للحب لمن عساه يطلع على مذكراتى فى يوم من الأيام، قلت:

«إذا كان الرجال يباهون بلوحات فنية يرسمونها أو بموسيقى خالدة يؤلفونها... أو بجراحة مبتكرة يبتدعونها... فإن المرأة تتسامى فوق ذلك كله... فمجال الألوان والأنغام وأنسجة البشر النازفة لا تتناسب مع سمو إبداعاتها... فإبداع المرأة مجاله صنع الرجال وصنع النساء، واستمرار الحياة فوق هذه الأرض».

وفى صفحات أخرى، اقتربتُ من الحب، فقلت مُعَرِّفاً به:

«كثيراً ما تخطر ببالى تعريفات وأوصاف للحب... والتعريف الذى

أحسه الآن هو: الحب هو تلك الطاقة الهائلة التى تجعلك تعمل من أجل الآخرين وتحجب عنك نفسك... وهو تعريف عام يشمل الحب للوجود كله... للإله وللكون وللشعر عامة، والأهل والأصدقاء، فما بالنا عندما يكون هذا الحب هو حب الرجل للمرأة والمرأة للرجل».

«إن غريزة الحب عند المرأة كغريزة الأمومة... هل تحتاج الأم إلى من يعلمها الأمومة؟!... كل ما تحتاج إليه الفتاة هو أن تصبح أمًا... أن تمتلك طفلًا... عندها تتفجر فيها ينباع الأمومة دون تعليم... والحب كذلك... لا تحتاج المرأة إلا إلى الرجل المناسب... عندها تتفجر ينباع الحب فى كل خلية من خلايا جسدها.

وما أسعد الرجل إذا وعى الحقيقة الأزلية؛ أن المرأة المحبة يحركها قلبها... تفكر بقلبها... وتستجيب بقلبها... وتُعطي بقلبها... وحتى عطاء الجسد حين تعطيه فهي تعطيه بقلبها، وحين ترويه فهي تروى قلبها... لذلك فالمرأة تفرح لقلبها إذا امتلأ حبًا وهيامًا وعشقًا وامتلاكًا... لقد جعلها قلبها المحب الأميرة المالكة والجارية المملوكة».

«وإذا كانت الزوجة المحبة تعطى جسدها وتأخذ بجسدها... فهي فى الحقيقة تعطى بقلبها وتأخذ لقلبها... فعندما تعطى جسدها فهي تخاطب عقلها؛ أليس جسد المرأة أعز ما تملك... ها أنا أعطيه لمن يهواه قلبى... أمنحه كرامتى وكبريائى... فيصير هو عزى وكرامتى وكبريائى.. أليس هو من أحب. لذلك عندما تغضب المرأة المحبة... فهي تغضب لقلبها... وليس لذاتها أو كرامتها».

«إن الحب من ابتكار المرأة... ولا يعرف دخائله وخصوصياته وأسراره إلا المرأة... فالمرأة هى المرشد والربان فى بحر الحب... إن

أردت أن تفهم الحب فاسأل المرأة... وإن أردت أن تتعلمه فادعو الله أن تلتقى بالمرأة التي تحبك.. عندها ستتعلم كيف تُحب».

وكرد فعل لموقف معين حدث بين صديق وزوجته، كتبتُ قائلاً:

«بعض النساء لا يملكن القدرة على الاستمتاع بالحب وعلى تعليمه... قد تحب، لكنها لا تعرف كيف ترقى بهذه العاطفة... كالإنسان الذي يأكل، دون تذوق ودون مزاج... كل المتزوجين يمارسون الجنس، وكل زوجين يختلفان عن سواهما من أزواج... كذلك هناك حب يختلف عن حب... هناك امرأة أستاذة تحب بفن وتستقبل الحب بفن... فيكون كل نفس لها بحب، وكل خلجة فيها بحب... إنها امرأة تُشعُّ الحب فيمن حولها وفيما حولها... وهناك امرأة تحب دون طعم ولا رائحة... كالماء في جوف الأرض، ليريفض على سطحها، فلم تُزهر الأرض ولم تُثمر».

«لا شك أن الحب غريزة عند الرجل كما هو عند المرأة، مثلما أن الطعام أيضاً غريزة... وإذا كان الإنسان يحتاج لمن يُعلمه كيف يأكل بالشوكة والسكين، وكيف يمضغ طعامه في أدب، وكيف يتذوق ما أكل، إذا كانت غريزة الطعام تحتاج لتعليم، فمثلها غريزة الحب... وإذا كنت تمتلك أذنًا موسيقية بالفطرة، فذلك لا يعنى أن تصبح عازفًا دون تعلُّم... كذلك غريزة الحب، إن الرجل غشيم، يحب نعم، ولكن كيف يتعامل مع أرق مخلوق في الوجود، قلب المرأة، كيف يُداعب أوتار هذا القلب لتنبعث منه سيمفونية الحب والعطاء، هذا ما يحتاج إلى أن يتعلمه من المرأة».

وفي صفحات أخرى كتبت:

«شاهدتُ أمس فيلمًا روائيًا عن إنجلترا خلال القرن الثامن عشر، حين انتشر وباءُ الطاعون فيها، وحين كان يتم عزل المصابين بالمرض في جزيرة بعيدة، حيث يموتون جميعًا إلا القليلين جدًّا، بسبب المرض الفتاك وبسبب ظروف الحياة الشاقة للغاية في الجزيرة.

وكانت تحب بطل الفيلم الذي أُصيب بالطاعون امرأتان؛ زوجته الأرستقراطية، وهي إنسانة رقيقة للغاية، مهذبة للغاية، وامرأة أخرى سوقية، كانت شخصية قوية وعملية للغاية، وكانت اللوائح تسمح بذهاب مُرافقٍ واحد مع المريض إلى جزيرة العزل ليرعاه.

كان الحوار بين امرأتين من أروع ما شاهدتُ في السينما العالمية. فالزوجة المحبة متمسكة بحقها في صحبة زوجها إلى الجزيرة بالرغم من يقينها بأنها ستصاب بالعدوى، والمرأة الأخرى تقنعها بأنها أرق من أن تتعامل مع الظروف الفظيعة هناك، فبجانب الطاعون، يسيطر قُطَاعُ الطرق والمغتصبون والمستغلون و.... وأنها (المرأة الأخرى) الأقدر على رعايته في تلك الظروف. وفي سبيل إقناعها، قالت للزوجة؛ عندما تتركيني أذهبُ معه فأنت تُضحين في سبيل من تحبين، تضحين بحقك في أن تصحبيه، فلا تكوني أنانية متمسكة بالبقاء معه على حساب مصلحته. وإذا عاد مُعافيًا فأنتِ زوجته وهو لك، وإن لم يعد فتكفيكِ تلك التضحية التي ستعيشين حياتك على ذكراها».

كان فيلمًا رائعًا في رومانسيته وفي واقعيته!!! كيف تظنين - أيها اللوامة - أن الفيلم قد انتهى؟ من التي فرضت رأيها؟

إنها المرأة الأخرى... صممت على مرافقة من تحب إلى الموت... وتنازلت الزوجة عن مرافقة من تحب من أجل حرصها عليه، هذا ببساطة شديدة هو تعريفى للحب...».

ثم أضفت قائلاً للوامة؛ لا تظنى أن الحبَّ الحقيقى لا ينشأ إلا بين الرجل والمرأة. انظرى إلى تلك الرسالة التى كتبها الصحفى الكبير مصطفى أمين وهو فى السجن لتوأمة علي (رحمهما الله)، يقول فيها: «إن ما يحزننى حقاً أن أعلم أنك معى فى السجن بروحك، فأنا لا أريد لروحك أن تُسجن»... الله... ما أروع هذا الحب.

ويحضرنى كيف أُصيب عالمنا الكبير د. أحمد مستجير بنوبة أودت بحياته وهو يشاهد معاناة أطفال لبنان أثناء حربها الأهلية!! لقد كان قلبه (رحمه الله) يسع العالم كله حباً.

وأضفت قائلاً للوامة؛ وأنا أعلم كم تُحِبُّ للبشر جميعاً الخير، ولا تتمنين لأحد منهم الشر، لذلك تمثل الكوارث والحوادث عبئاً كبيراً عليكِ، وأصبحتِ تدفعينى لأن أُغَيِّرَ محطات الإرسال عندما تنقل لنا صوراً لمعاناة البشر.

منبع الحب

صممت نفسى اللوامة طويلاً.... ثم قالت بصوت خفيض: إذا كنتِ بهذه الرومانسية حين كتبتِ مذكراتك وأنتِ فى شرخ الشباب، فلا ينبغي أن أستغرب رومانسيّتك وأنتِ فى غروبه... وأضافت لقد طرح الفيلم نموذجين من حب المرأة للرجل، كلتا المرأتان لمرتبّيات بالموت فى سبيل صحبة من تحب، وقبلها حدثتني عن حب الأمومة التى تعتبرها كبرى

معجزات الحياة ولولاها لانقرضت الكائنات كلها بحق كالديناصورات،
والحياة مليئة بملاحم الحب التي تثير التقدير والإعجاب. تُرى، ما حقيقة
الحب وما سره وما أصله؟

قلت لنفسي اللوامة: لا شك أن الحب سرٌّ غامض، ما أن يبلغ الإنسان
مراهقته حتى يبحث عنه بشغف، ويتخيل أنه قد أصابه عند كل معاملة
مع الجنس الآخر، وإن لم يصبه في الواقع عاش معه في الخيال. وقد وصف
نزار قباني هذه الحال في بيت واحد:

الحُب في الأرض بعضٌ من تخيلنا إن لم نجده عليها لا اخترعناه!

وإذا أصاب الإنسان الحب ذاق مشاعرَ غريبة متناقضة، ما بين نشوة
لا تعادلها نشوة الغرائز كلها، وبين هموم ينوء بها الرجالُ القساة. عندها
تَدُبُّ في كيان المحب شجاعةٌ وهمَّةٌ وقُدرةٌ تُمكنه أن ينجز أمورًا ما كان
يظن أن يقوم بمعشارها. لذلك يدهشني، بل يُثير سخريتي، طرحُ الماديين
أن الحب مثله مثل الأمور المادية، اخترعه الإنسان البدائي لخدمته في
صراعه من أجل البقاء!! لقد فات هؤلاء أن الحب كثيرًا ما يترك ضحايا
صرعى لا تقوم لهم قائمة!!

لا أرى الحب عطاءً إلهياً لخدمنا ويسعدنا ويمتعنا فحسب، بل أرانا
نحن عطاءً الحب! ألم يقل رب العزة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ
دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ [المائدة: 54]. نحن ما خُلِقنا إلا لأن
الله عزَّ وجلَّ أحب ذلك، لذلك فنحن عطاءً الحب. شاء الله عزَّ وجلَّ أن يتجلى
على الإنسان بصفاته الإلهية، فكان من صفات الجمال الإلهي التي لنا منها
نصيب؛ الرحمة، المغفرة، العطاء، اللطف، الحلم، البر، العفو، الكرم، الود،
الحياة، اجتمعت هذه العطايا الإلهية - وغيرها - فكانت الحب.

وإذا كان الحب هو المصدر فالمنتهى هو الحب. ألهم يقل رسولنا الكريم ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»⁽¹⁾. وإذا كانت الرحمة بين الخلاق جزءاً من مئة من رحمة الله، ألا يكون الحب بين الخلاق جزءاً من كثير من حب الله، وقد لخصت المسيحية الأمر في قول موجز من كلمتين: «الله محبة».

لذلك؛ فالحب هو المبتدأ، والحب هو المسار، والحب هو المنتهى. وقد بينت رابعة العدوية كيف أن الحب كله من الله، قبل أن يكون توجهه إلى الله، ما أروع قولها:

أُحِبُّكَ حَبِينِ، حَبِّ الْهَوَى	وَحَبًّا لَأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى	فَشَغَلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	فَكَشَفَكَ لِي الْحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي	وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

وما أروع ما قال السهروردي في الحب، صعوداً من حب المحبوب إلى حب الله عزَّجَلَّ:

أَبَدًا تَحْنُ إِلَيْكُمْ الْأَرْوَاحُ	وَوَصَالُكُمْ رِيحَانُهَا وَالرَّاحُ
وَقُلُوبُ أَهْلِ وَدَادِكُمْ تَشْتَاقُكُمْ	وَالْإِلَى لَذِيذِ لِقَائِكُمْ تَرْتَاخُ
وَارْحَمَةَ لِلْعَاشِقِينَ تَكْلِفُوا	سِرَّ الْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى فَضَّاحُ

وما أروع قول الحلاج:

والله ما طلعت شمسٌ ولا غرُبتْ
إلا وحبُّك مقرونٌ بإنفاسي

(1) رواه مسلم، عن عبادة بن الصامت.

ولا جَلَسْتُ إلى قوم أحدثهم إلا وأنت حديثى بين جُلاسى
ولا ذكُرْتُكَ محزونًا ولا فرحًا إلا وأنت بقلبى بين وسواسى
ولا هَمَمْتُ بشربِ الماء من عطشٍ إلا رأيتُ خيالًا منك في الكاسِ

هذا هو الحب، حقيقته، وسره، وأصله..

إنه هو هو الحب؛ مصدره واحد وحقيقته واحدة...

لذلك أخذ المنشد الصوفي أبيات العشق والشوق التى ناشد بها قيسُ
ابن الملوح ليلاه التى جُنَّ بها، وأنشدها فى ساحة الحب الإلهى:

غريبٌ عن الأوطان ملقى على الثرى أراعى نجومَ الليل سهرانَ باكيًا
عدمْتُ النَّومَ والصَّبْرَ والهنأ وفارقتُ إلْفًا كان منى مُدانيًا
أرى الحبَّ داءً قد تمكَّن في الحشا وليس سواك لى طبييًّا مداويًا

تنهدت نفسى اللوامة وقالت: آه من هذا الحب والشوق، أنت تصف
ما تفهم وما تتصور، وقد أحسنت الوصفَ والتحليل. أما أنا، فأكابُد هذا
الشوق للحبيب منذ أن فارقتُ مصدرى مع نفخة الروح، وما أحتمل
الحياة فى قفصٍ داخل قفصٍ إلا على أمل أن أنطلق من الجسد ومن الدنيا،
لأُحلِّق إلى النبع الصافى الذى منه خَرَجْتُ.

وما أروع ما قالته نفسُ القطب أبو مدين العَوث، معبرة عما يعتمل فى
النفوس والأرواح من شوق إلى نبعها الصافى، يجعلها تَتَنُّ فى محبستها:

أما تنظر إلى الطيرِ المُقَفِّصِ يا فتى إذا ذَكَرَ الأوطانَ حَنَّ إلى المغنى
فَيَفَرِّجُ بالتغريدِ ما بفؤاده فتضطربُ الأعضاء فى الحس والمعنى

ويرقص في الأقفاص شوقاً إلى اللقاء فيهُزُّ أربابَ العقولِ إذا غنى
كذلك أرواحُ المحبين يا فتى تهزها الأشواقُ للعالمِ الأسنى

هل أدركتَ لِمَ أؤرقك وأزعجك لوماً وتأنبياً أيها العقل؛ بُغيةُ ألا
تُعَوِّقني، بل وأن تُعينني في أن أُحقق الارتقاءَ سريعاً إلى منزلة النفس
المطمئنة، حتى أصبحُ جديرة بما وعدني الله عَزَّوَجَلَّ في آياته الكريمة:
﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً (٢٨) فَأَدْخِلْ فِي عَبْدِي
(٢٩) وَأَدْخِلْ جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27 - 30].

قلت للنفس اللوامة: إن كنتِ في شوقٍ للنبع الذي منه خرجت،
فلسْتُ أَقلَّ شوقاً منك. فإن كنتِ نبعٍ من هناك، فأنا مثلك من عطاء
النفخة الإلهية، ثم ازددت تعرفاً لربي بقراءة آيات القرآن التي يخاطبني
بها، وأيضاً قراءة آيات الآفاق والأنفس التي أمرني الله عَزَّوَجَلَّ أن أتأملها
في كل لحظة وكل فعل في حياتي. ومن ثَمَّ فأنتِ وأنا نحيا على أن «الموعد
الله».

أطرقتُ أنا والنفس في خشوع، نُخيم علينا سَكينة حب الله ونستحضر
قُرْبَه... لم أفرق إلا واللوامة تقول؛ لا تظن أنني أهادئك حين تنقلني إلى
ذكريات النبع ونُحْيِي في الأمل في العودة إليه. بل إن هذه الذكريات
تشحذ همتي للوصول بسفينتنا إلى المرتجى.

النضج النفسي والحب الحقيقي

استطردت اللوامة قائلة: لنعد إلى الفيلم الروائي الذي لخصته لي. لقد
ربطت بين الحب والزواج حين نقلت لي صورةً عن تضحية الزوجة

المحبة في الفيلم. فما هو الجانب الرئيس (في رأيك) الذي ينبغي أن يتصف به حب الزواج حتى يكون ناجحاً وحتى يُقَرَّبنا من الله عَزَّجَلَّ بما أن الزواج شطر الدين؟

أجبتها: أحسب أنه «النضج النفسى»، فهو الذى يسمح بـ «الحب الحقيقى» المطلوب لنجاح الحياة الزوجية.

سألتنى اللوامة: ماذا تعنى بالنضج النفسى وماذا تعنى بالحب الحقيقى؟ فما من إنسان إلا وادَّعى أنه ناضجٌ نفسياً وادَّعى أن حبه هو الحب الحقيقى.

قلت لها: أقصد بالنضج النفسى فى مجال الزواج؛ أن يعرف الشخص المعنى الحقيقى لهذه العلاقة، حتى يُعطيها حَقَّها وحتى يكون تصوُّره لما ينتظر منها تصوُّراً واقعياً فلا يُصابُ بالإحباط إن لم تتحقق أحلامه الوردية. ويعنى النضج النفسى أيضاً أن يفهم الإنسان طبيعة الجنس الآخر؛ أولوياته، أسلوب التعامل معه، ما ينتظره كل منهما من الآخر؛ ما يُرضيه، وما يُغضبه...

ومن النضج النفسى ألا يكون الإنسان أنانياً؛ يريد أن تدور الأسرة كلها فى فلك رغباته واحتياجاته، بل عليه أن يعرف أن مثلما له حقوق فعليه واجبات، وعليه أن يُسدِّد التزاماته أولاً قبل أن يُطالب بما له. بل ينبغى أن يتجاوز ذلك ويتحلى بالإيثار، الذى يبدأ بالتسامح مع شريكه إن أخطأ، ويمتد إلى التضحية من أجل أفراد أسرته.

باختصار، النضج النفسى يتطلب أن يدرك كلٌّ من الطرفين أنه يتعامل مع كائن مختلف تماماً، ينبغى أن يبذل الجهد لفهمه والتعرف عليه وإرضائه.

أما «الحب الحقيقي»، فليس كل إعجاب أو تعلق أو انجذاب أو شعور رومانسي تجاه شخص من الجنس الآخر، فهذه المشاعر حتى وإن وقفت وراءها عوامل هورمونية يقولون عنها إن «الحب كيميا»، أو وقف وراءها توافقٌ قلبي مغناطيسي حتى قالوا إن «الحب انجذاب»، أقول إن الكيمياء أو المغناطيسية لا يُقيمان بيتًا. إن ما يُقيم البيت هو الحب الحقيقي الذى يقوم على التوافق الفكرى والشعورى بين الشخصين؛ توافقٌ فى الأولويات وفى النظرة إلى الأشياء والمفاهيم، ويقوم على الاقتناع بالآخر واحترامه، وعلى الرغبة الحقيقية فى العيش معه وإن كلفنا ذلك بعض التضحية، دون الانصهار والتلاشى التام فى الآخر، فهذا التلاشى حالة مَرَضِيَّة متطرفة تصلح لتوليد قصائد من الحب العذرى ولا تصلح لأن تقيم بيتًا.

كذلك فإن الحب من أجل الاستمتاع بلذة الحب ليس حبًا، إنه «ضد الحب»! نعم فهو أنانية؛ أريد إمتاع نفسى. لذلك ما أن يجد هؤلاء أن كلفة الحب تفوق عائده فإنهم يبادرون بالهروب عند أول منعطفٍ فى الطريق.

باختصار، الحب الحقيقى كما أراه، هو ما تصفنى به زوجتى أحيانًا من أننى «أحب بعقلى».

من العام إلى الخاص

قالت النفس اللوامة: ننتقل الآن من العام إلى الخاص، فبعد نظرتك الرومانسية المثالية للمرأة وللحب نقف مع امرأتك أنت وحبك أنت. فأنت لمر تتعلق بامرأة أخرى غير زوجتك، وما تزال مخلصًا لها منذ عرفتھا،

أى قرابة الأربعين عامًا، فهل يرجع ذلك إلى شخصيتك المحافظة التى لا تميل إلى المغامرة، والتى ترضى بما يكفل لها الاستقرار والطمأنينة؟

أجبتها قائلاً: عجبت لك أيتها اللوامة، ما لك تلجئى إلى أسلوب «ودنك منين يا جحا؟»!! زوجان نشأ فى بيئة متشابهة واختار كل منهما الآخر باقتناع، وبَدَلًا جهدًا حتى تيسر لهما الزواج، وعاشا حياتهما سُعداء متفاهمين يُضرب بهما المثل فى الاحترام المتبادل، ورزقهما الله عَزَّجَلَّ المنصب والمال والبنين المُوفِّقين، فهل استمرار حياتهما الزوجية دون عواصف، ودون تمرد من جانب الزوجة أو نَزَقٍ من جانب الزوج يحتاج لتبرير!! وكأن القاعدة هى الانحراف!!

وأضفت قائلاً: إن الأمر ليس معضلة، فنجاح حياتى الزوجية يرجع إلى العامِلين اللذين حدثتُك عنهما؛ النضج النفسى والحب الحقيقى، فقد كانا بمثابة الساقين اللتين سارت بهما حياتى الزوجية إلى الأمان، بفضل الله.

قالت اللوامة: تُلِمح دائماً إلى أن سمات الحب الحقيقى تتوافر فى تجربتك العاطفية ومشاعرك، لن أنازعَكَ هذا الأمر، لكننى أسألك كيف توافرت هذه السمات فى تجربتك؟

أجبت اللوامة قائلاً: تعرفين أن رفيقة حياتى - ماجدة - هى ابنة خالى، الذى كان قدوتى فى عالم الفكر، كما أمدنى بيته ومكتبته ببذور وجذور حياتى الفكرية. وتعرفين أيضاً أن الارتباط بها لاقى اعتراضات لعدم تحبيذ الأهل زواج الأقارب، وأن تجاوز هذه الصعاب تطلب منا جهداً.

وبالرغم مما يحمله زواج الأقارب من احتمالات حدوث مشكلات عائلية أو وراثية فى الأطفال، فإنى أرى له فوائد ومزايا. فإذا ساد الحب

والتقدير بين الأسرتين ساعد ذلك على تجاوز الكثير من المشكلات، سواء بتقديم التيسيرات قبل إتمام الزواج، أو التسامح تجاه الخلافات التي تظهر بعده. لذلك تجديني إذا حدث خلافٌ مع زوجتي عاتبته قائلاً: لولا أنك ابنة خالي الذي هو مثلي الأعلى لكان لى معكِ شأنٌ آخر!!

وإذا عدنا لجذور هذه العلاقة، وجدناها في لقاءات كثيرة في بلدتنا فارسكور مع خالي وعم زوجتي د. سامي (رحمه الله) الأقرب منا سنًا، فكم تناقشنا ثلاثتنا في هذه اللقاءات حول الحب والزواج، وكم استمعنا منه إلى روائع أم كلثوم، كما استمعنا إلى هذه الروائع من مذياع القهوة المجاورة ونحن جالسان في الشرفة ننظر إلى النيل الرقراق وإلى الخضرة الساحرة. يبدو أن هذه العوامل ساعدت في وضع بذور الحب في القلبين المتفتحين للحياة.

ولعل ما كان يجري على مائدة الطعام في بيت الخال من حوارات فكرية وإنسانية وسياسية بين أفراد الأسرة وقت زيارتي في الإجازات قد وضع بذور الاحترام والتقدير المتبادل في عقلينا.

في ظل التربية والنشأة المتوافقة والعاطفة التي غذاها الفن الرومانسي الجميل والاحترام والتقدير المتبادلين وُلد الحب الحقيقي، وتمت الخطبة وعُقد القران.

وأصف الفترة الأخيرة من الارتباط بفترة الخطابات؛ فبعد خطبتنا بدأنا التواصل بالكتابة، التي كانت فرصة ليفهم كلٌ منا الآخر بشكل أكبر وأعمق، وقد كان كلانا صادقًا فيما يكتبه للآخر، فتكوّنت لدى كل منا صورة حقيقية عن شريكه، وما يتوقعه منه، وما يحلم به وكيف نحققه. واستمرت الخطابات حتى بعد الزواج في أوقات السفر، ونشطت

المحادثات التليفونية الممتدة عند اللقاء والاستقرار، تحمل أفكارنا كأن
كلًا منا يفكر بصوت مرتفع.

وليس غريبًا أن تكون زوجتى أول من تنبأ بدخولى عالم الفكر
والتأليف، فكانت كلما قرأت لى خطابًا تعلق بأننى لا بد أن أحترف
الكتابة، وقد تحققت نصفُ نبوءتها، فقد أصبحتُ مفكرًا وكاتبًا، لكنى لا
أعتبر نفسى محترفًا، فأنا لا أتكسب من عالم الفكر، لكننى أنفق عليه!

أما باقى مشوار حياتنا الزوجية فأعتبره نموذجًا طيبًا للتعامل بين
الزوجين، حيث يسود الحب والتفاهم والتسامح والإيثار. فالتقدير
المتبادل من أهم عناصر الحب الحقيقى ومن أهم عوامل نجاح الحياة
الزوجية. فعندما أخبر زوجتى بأنها كربةٌ بيت وزوجة وأم تقوم بدور
يفوق ما أقوم به من عمل خارج البيت فأنا أعنى ذلك، وأجسد هذا
التقدير فى جميع تصرفاتى. وبالمثل، عندما تخبرنى زوجتى بأننى الزوج
والأب المثلّى فذلك يتأكد فى سلوكها تجاهى.

باختصار إذا كانت الزوجة هى شريك الحياة والحبيبة والصديقة
والمستشارة ومديرة الأعمال، فعَمَّا يبحثُ الرجل فى امرأةٍ أخرى؟! يمكن
أن يحدث ذلك إذا كان الرجل فارغ العين أو كان يفتقر إلى النضج
النفسى ويعانى المراهقة النفسية، ولا أحسبنى كذلك.

هذا أيتها اللوامة نموذجٌ من الحب الحقيقى.

قالت اللوامة بانفعالٍ شديد: يا سلام!! وازاى يفصل كل زوجين
نشأتهما وحياتهما وعلاقاتهما بالشكل ده؟ لو أن نجيب محفوظ أو أسامة
أنور عكاشة كتبوا مثل هذا السيناريو لاعتبرهُما الناس مبالغين!! إن

الحياة ملأى حولنا بزيجات ناجحة دون هذا السيناريو المثالي للتوافق،
فماذا تقول في ذلك؟

قلت لنفسى اللوامه: أنا لم أدع أن الزيجات لا تنجح إلا إذا كانت
مثل تجربتي، لقد سألتني عن تجربتي الشخصية التي تُعتبر مثالاً من أمثلة
«الحب الحقيقي» ففصلتها لك، فلم تُحمّلين كلامي ما لم أفضله! وأضفت،
انتبهى وإلا لن أستمّر في حوارى معك ولا في الإجابة عن تساؤلاتك، إن
كنت قد سمحت لك بمساءلتي فلا تعتبرين ذلك تصريحاً بالتجنى على!

صممت اللوامه بعد أن أدركت أنها قد تجاوزت حدودها، وأدركت
أننى لن أسمح لها بالتجاوز بعد هذا العمر الطويل من الشد والجذب.

قالت اللوامه: حسناً... حسناً... كفاك لوماً!!!... ولكن اصدقني
القول: إنى أراك وزوجتك قد صرتما في السنوات الأخيرة أكثر توترًا،
فهل يرجع ذلك إلى أنكما تحيان محنة منتصف العمر التي طرقت بآبكما
متأخرة بعض الشيء، أو ترجع إلى إحالتك للمعاش؟

أجبتها قائلاً: أن نظرتي للعمر تختلف كثيرًا عن النظرة التقليدية،
فأنا أتبنى رأيًا طريفًا لبعض الحكماء؛ فإنى أرى أن للإنسان خمسة أعمار؛
الأول «عُمر الميلاد» كما يحدده تاريخ ميلاد الإنسان. والثانى «عُمر
الجسم» تبعًا للحالة الصحية لأعضائه، فرب شخص عمر ميلاده ستون
عامًا وتعاود حالته الصحية حالة رجل في الأربعينيات. والعمر الثالث
هو «عُمر العقل» ويحدده ما اكتسبه الإنسان من خبرة ومعرفة وحكمة
في حياته. ثم «عُمر القلب»، ويتوقف على إقبال الشخص على الحياة وما
يعتمل في قلبه من مشاعر، حتى قالوا الشباب شباب القلب. وأخيرًا يأتى
«عُمر الروح» الذى لا يتقدم بتقدم الأعمار السابقة، فالروح خالدة

لا يؤثر فيها مرورُ السنين، بل تزداد تألقًا بمرور الوقت وتَقَدُّمُ العناصر السابقة في العمر.

وبهذا يصبح لكل عنصر من عناصر الذات الإنسانية عمره الخاص به. ومن ثم، فإنني لأحس بتقديم في العمر يقتضى الخضوع لمحنة منتصف العمر، فروحى لا تشيخ، وتشاركنى زوجتى هذا الشعور.

وأصفت قائلاً للوامتى: أما ما لاحظته من توترات نفسية فربما يرجع إلى ما يعترى حياة أبنائنا من مراحل انتقالية. ولا شك أننى فى مواجهة هذه الانتقالات أشعر أحياناً (وربما لأول مرة فى حياتى) بالعجز عن مساعدتهم فى بعض المواقف، بالرغم من بذلى أشد الجهد فى التعامل معها، وهذا الشعور يضايقنى أحياناً.

ومن جانب زوجتى، فاعلمى أن الزوجة المحبة يظل زوجها هو شاغلها الأول، حتى تُرزَق بالأبناء، فتتغير بؤرة اهتماماتها، بل إنها تُعيد تقييم زوجها تبعاً لموقفه من أبنائه وإلى أى مدى يكون عوناً لهم. لذا أنصح الأزواج بوضع هؤلاء الشركاء الجدد فى الاعتبار، والتعامل مع الوضع بحكمة. ومن ثم فإن زوجتى أصبحت مثلى، تتعرض لتوترات أكثر بسبب قلقها على أبنائها ثم أحفادها.

وعند تقييم علاقتى وزوجتى بأبنائنا وأحفادنا، أضع فى الاعتبار أن كلاً منا قد فُطر على الاهتمام بأبنائه بطريقة مختلفة. فأنا يهمنى كثيراً أن أساعدهم على تجاوز ما يعانونه من مشكلات، فالأبوة عندى مسئولية، وربما لا يؤرقنى كثيراً غيابهم ما داموا بخير. أما زوجتى التى تحكمها الأمومة فهى كالحمامة، يؤرقها أن خرج أبنائها من تحت جناحيها، وتود لو ظلوا الصيقين بها.

إن انشغالي بأسرتي ومهنتي وعالم الفكر لم يدعاً لمشكلة منتصف العمر أو لهماوم المعاش موضعاً. وكذلك انشغال زوجتي بجميع أمورى، وبأبنائنا وأحفادنا ورعاية مصالحهم في الوطن وفي الغربة هما إكسير الشباب بالنسبة لها. لقد خرجت الكثير من الدراسات الغربية بنتائج تؤكد أن المرأة الشرقية لديها إكسير الشباب الذي لا يَنْضُب والذي تفتقده المرأة الغربية، ويعنون بذلك أن دورها في رعاية أبنائها لا يتوقف عند سن مراهقتهم كالغربيين، بل يمتد في أبنائها المتزوجين ثم في أحفادها. وأخيراً إذا أردت أن ألخص علاقتي بالمرأة وبالحب، لعلى لا أجد وصفاً لمنزلة المرأة عندي خير من وصف القرآن الكريم، حيث يقول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...﴾ [الأعراف: 189].

وكثيراً ما أسأل طلبتي؛ ماذا تقولون في أبيات الشاعر إبراهيم ناجي في قصيدته الأطلال؛ هل هذه الأبيات وصف رجل لمحبوته، أم وصف امرأة لحبيبها:

أين من عيني حبيبٌ ساحرٌ	فيه عزٌّ وجلالٌ وحياء
واثقُ الخطوة يمشي مَلَكًا	ظالمُ الحسنِ شجى الكبرياء
عقبُ السحرِ كأنفاس الربى	سأهم الطرفِ كأحلام المساء

ماذا تقول أنت قارئى الكريم، أهو الحبيب أم الحبيبة؟

الفصل السابع

أنا والآخر

قالت نفسى اللوامة:

لعل من أهم سماتك التي أعرفها أنك قليل الاصطدام بالآخرين، لذلك لم تُحمَلنى عبء كراهية أحد. وعادة تكون تعاملاتك مع «الآخر» في أضيق الحدود، وتحافظ على مسافة بينك وبينه «وزى ما يقولوا كدة ما تخلّش حد ياخذ عليك». ولا شك أننا قد دفعنا ثمنًا لهذا الفتور الاجتماعى، فقد خسرنا ما يمكن أن تجلبه صداقة الآخرين من منافع، ألا يُعتبر ذلك تقصيرًا في حقنا؟

شخصية انطوائية

قلت لنفسى اللوامة: عجبْتُ منك أيتها اللوامة، أحمّلينى مسؤولية أمور أنت المسؤولة عنها؟! إن ما تعتبرينه عيبًا - وأنا أخالفك الرأى - يرجع إلى أننا⁽¹⁾ «شخصية انطوائية»، ولا شك أنك المسؤولة عن نمط الشخصية النفسى فى المقام الأول، أما دورى أنا - العقل - فهو أن أخطئ لتعاملاتى بما يتناسب مع انطوائيتك. وإذا كنت تُحمّلينى عيبًا أنت المسؤولة عنه،

(1) الجمع هنا للإشارة إلى العقل والنفس وبقية مكونات الذات الإنسانية.

فإنك في الوقت نفسه تنسبين إلى فضل أنت صاحبتَه! تقولين إنني لم أُحمَلْ عبء كراهية أحد، بينما الحب والكُره يرجعُ إليك، ودورِي في حالة الحب أن أسعى لدعم العلاقة مع من نُحب.

قالت اللوامة: أنصفت، ولكن كيف تطاوعني في انطوائتي؟ أنستطيع أن نحيا بمعزل عن الناس؟!

قلت للوامة ضاحكاً: نحن شخصية انطوائية ولسنا مرضى بالتوحد⁽¹⁾! اطمئني، فقد حافظت على قدر معقول من العلاقة بالآخرين ومن المشاركة في العمل العام حتى لا يكاد أحد يشعر بانطوائيتنا. وفي نفس الوقت؛ لقد وفر لي هذا الميل الانطوائي قدرًا من الوقت أعانني على التفوق الدراسي والمهني، وسمح لي - بالرغم من كثرة مشاغلي - بدخول عالم الفكر كاتبًا وليس فقط قارئًا.

قالت اللوامة: وماذا عن خسائرنَا الحياتية بسبب ضعف العلاقة بالآخر؟!

قلت لها: بالرغم من أننا شخصية انطوائية وسواسة تعيش حياتها بقدر من التوتر، وبالرغم من أنني آخذ بالأسباب إلى أقصاها، ربما بدرجة مُبالغ فيها، إلا أنني أقبل النتائج ببساطة، مؤمنًا بعمق بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ومن ثم، مهما كانت النتائج لا اعتبر أنني قد خسرت شيئاً قط. وفي الوقت نفسه، فإن ما فاتني بسبب ضعف العلاقات أعوضه من خلال احترام الآخر لي وحرصه على صورته ومنزلته عندي.

(1) التوحد: اضطراب النمو العصبي عند الأطفال، يتسم بضعف التفاعل الاجتماعي وضعف التواصل اللفظي وغير اللفظي وبأنماط سلوكية مُقيّدة ومتكررة.

قالت اللوامة: لا بأس، هذا بخصوص علاقتنا بالآخرين، ولكن كيف تكون الحياة بالنسبة لك أيها العقل في ظل تعاملات قليلة مع «الآخر»؟ أجبت اللوامة قائلاً: الأمر ليس كما تتصورين، فأنا شديد الانشغال بالآخر ودائم الحوار معه.

اندهشت اللوامة وقالت: عجباً، كيف تكون انطوائياً وفي نفس الوقت دائم الانشغال الحوار مع الآخر؟!

أجبتها قائلاً: الأمر شديد البساطة؛ كل ما في الأمر أنني وَسَّعت دائرة الآخر بالنسبة لي. فالآخر عندي ليس قاصراً على «الآخر البشر»، لقد أصبح عندي «آخر آخر»؛ يشمل الزمان والمكان والبحر والنيل والجمال والفن و....، إنه يشمل الوجود كله، وأُطلق عليه «الآخر الوجود».

وقبل هذا وذاك هناك الإله الخالق للبشر وللوجود؛ إنني أوْمَنُ بالحكمة العطائية⁽¹⁾ التي تقول «أَلْسَنَةُ الْخَلْقِ أَقْلَامُ الْحَقِّ»؛ والتي تعني أنه إذا جاءك ثناءٌ حقيقي من الخلق فهو ثناء من الله عَزَّجَلَّ، وإذا جاءك لومٌ أو نقدٌ حقيقي من أحد فهو عتاب من الله عَزَّجَلَّ، وإذا جاءك ثناء أو لوم أو نقد لا تستحقه فهو ابتلاء من الله عَزَّجَلَّ. لا أدعى أنني «أستشعر» خطاب الله عَزَّجَلَّ في كلام وسلوك البشر، لكنني - على الأقل - أَصَنِّفُهُ هكذا على المستوى العقلي، وأسأل الله أن يرتقى هذا المعنى العقلي إلى مستوى الشعور والمعايشة.

وبالمثل، فإنني أرى - على المستوى العقلي أيضاً - أن «الآخر الوجود» يحمل رسائل الإله لي. فإدراك الجمال رسالة تحمل القبول والرضا، واستشعار

(1) نسبة إلى مجموعة حِكَمِ الشيخ ابن عطاء الله السكندري.

القبض عتاب، ومرور الزمن بُشرى بقرب اللقاء أو إنذار بقرب الحساب، وسعة المكان راحة وإدراك لاسمه الواسع، وضيقه استشعار للقبض واسمه القابض،.... وكل أحداث «الآخر الوجود» هي ابتلاء يُسجّل - لنا أو علينا - سلوكنا تجاهه.

وإذا كان الله عزَّوجلَّ يخاطبنا بكتابه المصور؛ القرآن الكريم، فإنه يخاطبنا بكتابة المنظور؛ الوجود. وكما تعلمنا قراءة الأول علينا أن نتعلم قراءة الآخر. إن انشغالي بـ «الآخر الوجود» ملأ حياتي، كما بدَّد الإنصات لرسائل الوحدة التي قد تسببها قلة حوارى مع «الآخر البشر».

الآخر البشر

سألتنى اللوامة: إذا أردت أن أتعرف على علاقاتك بالآخر، فعن أى آخر ستحدثنى أولاً، «الآخر البشر»، أم «الآخر الوجود»؟ أجبتها؛ كما تريدن.

قالت اللوامة: حسنًا، فلنبداً بالآخر البشر. لقد حدثتنا عن علاقاتك مع بعض أساتذتك فى الجراحة الذين تأثرت بهم وشاركوا فى صناعتك كجراح. كذلك حدثتنا عن خالك، الأستاذ عبد الوهاب ود. سامى (رحمهما الله)، وعرفنا منك كيف أثرًا فى حياتك وفكرك تأثيرًا عميقًا. وأنا أعرف أن هناك أشخاصًا آخرين من خارج المهنة وخارج العائلة حازوا على إعجابك بشخصياتهم أو سلوكياتهم أو أفكارهم، فهلا حدثتنا عن بعض هؤلاء.

قلت للوامة: لا بأس، ولكن لا تعجبنى إن كنت لمر أسع لتعميق

علاقتي بمن سأحدثك عنهم على المستوى الشخصي بل حافظت عليها في إطار عالم الفكر، فذلك طبع شخصيتنا الانطوائية.

سألتني اللوامة: بمن ستبدأ؟

الدكتور عبد الوهاب المسيري⁽¹⁾

أجبت اللوامة قائلاً: لا شك أن أكثر الشخصيات الفكرية تأثيراً في حياتي هو الدكتور عبد الوهاب المسيري (رحمه الله)، بالرغم من أنني وأنا على أعتاب الستين من عمري لم أكن أعرف عنه إلا أنه صاحب موسوعة الصهيونية، وكنت قد طالعت له بعض المقالات الصعبة في جريدة الأهرام.

وفي أحد أيام الجمعة، التقيت في مسجد السلطان حسن بصديق صحفى من تلاميذ د. المسيري، وسألني إن كنت قد قرأت كتاب «رحلتي الفكرية» للدكتور عبد الوهاب المسيري، وعندما أجبتته بأنني لا أعرف

(1) الدكتور عبد الوهاب المسيري: ولد بدمنهور بمصر عام 1938 (توفي بالقاهرة عام 2008). تخرج في كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية - جامعة الإسكندرية عام 1955، ثم حصل على الماجستير من جامعة كولومبيا عام 1964 والدكتوراه من جامعة رنجرز بالولايات المتحدة عام 1969، حيث عمل بالتدريس عدة سنوات. ثم عمل مستشاراً ثقافياً للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك قبل عودته عام 1979 للعمل كأستاذ للغة الإنجليزية بجامعة عين شمس وجامعات السعودية والكويت. أشهر مؤلفاته «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج معرفي جديد»، صدرت في ثمانية مجلدات عام 1999 وهي من أعمق المراجع العالمية في مجالها. وله العديد من الكتب حول سلبات الحضارة المادية، مثل «نهاية التاريخ» و«إشكالية التحيز» و«العلمانية الجبرية والعلمانية الشاملة» و«الحداثة وما بعد الحداثة». بالإضافة إلى عدة كتب في النقد الأدبي وأدب الأطفال، وديوان من الشعر.

الكتاب، قال ليس مثلك من لا يقرأ هذا الكتاب. وأضاف؛ المشكلة أن الكتاب لم يعد موجوداً في المكتبات، ووعدني بأن يحضر لي نسخته الخاصة الجمعة التالية. ما أن رأيت الكتاب بعد أسبوع حتى تعرفت عليه، فقد كان موجوداً في مكتبتى، ووعدت صديقى بأن أقرأه في أول فرصة.

لم تنقض ليلتها والليلتان التاليتان حتى كنت قد انتهيت من قراءة صفحات الكتاب الخمسمائة، وبعدها بدأت إجراء حوارات حول الكتاب مع أفراد أسرتى حول مائدة الطعام ومع طلبتى في المستشفى عقب دروس الجراحة الإكلينيكية، وكان الإعجاب الشديد بأفكار الكتاب هو رد فعل الجميع. بعدها نقلت لصديقى الذى عرّفنى بالكتاب إعجابى الشديد به ورغبتى فى أن التقى بالذكور المسيرى.

لم تنقض أيام حتى كنت فى حضرة الأستاذ الكبير، ولمست منه الترحيب والأنس. وفى اللقاء، نقلتُ له إعجابى وإعجاب كل من حاورته بالكتاب، وبينت له تحفظنا جميعاً على أن الكتاب صعب المعالجة، ويحتوى على اصطلاحات متخصصة، ورجوته أن يُبسّط الكتاب، وأضفت - بصوت خفيض - أو أن يدعنا نُبسّطه، ومن فوره قال: ليتك تُبسّطه.

قضيت ليلتها والليالى التالية الخُص وأُبسّط أفكار الفصلين الأولين من الكتاب. ولما كان عنوان كتاب د. المسيرى هو «رحلتى الفكرية فى البذور والجذور والثمر»، فقد رأيت أن يكون منهجى فى التلخيص أن أقطف بعض هذه الثمار (وهى أفكار الكتاب)، وأن أعرضها على هيئة الثمرة الأولى، الثمرة الثانية، وهكذا. وقد اخترت للكتاب عنواناً مبدئياً هو: «قطف الثمار الحضارية من رحلة المسيرى الفكرية».

بعد أيام زرت د. المسيرى، وصحبتنى زوجتى التى كانت تلميذته فى كلية

البنات، مُحَمَّلًا بعدد من الثمار، تناقشنا حولها وتركناها له ليراجعها. وعندما التقينا بعد أسبوع كان د. المسيرى قد اختار للقراءة ثمرات تدور حول مفهوم وحدة الوجود، وقال لى معلقًا: إن هذا الموضوع أصعب موضوعات الكتاب، وقد بَسَّطَه بِحَرْفِيَّةٍ، قلت له: إن لى تجربة شخصية مع التصوف الفلسفى الذى يتبنى وحدة الوجود، لذلك أنا على دراية بهذا المفهوم، شجعنى د. المسيرى قائلاً: استكمل تبسيط الكتاب على بركة الله.

استكمل الدكتور المسيرى مراجعة الكتاب، وقامت بإصداره الهيئة العامة لقصور الثقافة التابعة لوزارة الثقافة، تحت عنوان «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية» وسعد د. المسيرى كثيرًا بالنسخ الأولى التى حملتها إليه، وطلب أن أشتري له خمسين نسخة أصر أن يدفع ثمنها. توالى زيارتى للدكتور المسيرى فى أثناء مراجعة الكتاب وبعد صدوره، وكنا نتناقش فى الكثير من الأمور الفكرية والصحية الخاصة بمرضه.

وقد تفضل د. المسيرى بعقد صالون ثقافى فى مكتبه لمناقشة كتابى «أبى آدم: من الطين إلى الإنسان» وتبنى فى أثناء الحوار رأى بالتطوير البيولوجى المُوَجَّه، الذى يعنى أن الإله يقوم بخلق الكائنات بألية التطوير من الأبسط إلى الأعقد وصولًا إلى الإنسان. وفى أثناء الحوار رد د. المسيرى هجوم بعض السلفيين الذين رأوا فى هذا رأى خروجًا عن العقيدة. بعدها، شكى هؤلاء السلفيين إلى د. عبد الصبور شاهين أنى استخدمت جزءًا من عنوان كتابه للترويج لأفكار تتعارض مع العقيدة، أسكتهم د. عبد الصبور عندما أخبرهم بأنه قرأ الكتاب كلمة كلمة، ووجده مطابقًا تمامًا للعقيدة، وأنه يعتبره الظهير العلمى لكتابه الدينى «أبى آدم بين الأسطورة والحقيقة».

وقد انتقل أستاذى من تبني الشيوعية والإلحاد إلى رَفْضِهما، وعندما تعامل مع الحضارة الغربية المادية كانت له عين على إنجازاتها وعين على سلبياتها، بينما كان قلبه مع نشأته الشرقية التراحمية. وفي نهاية الرحلة أصبح د. المسيرى هو المفكر الإسلامى الكبير، بعد أن أدرك عجز النموذج المادى عن إدراك ما فى الإنسان من ثنائية؛ مادية وروحانية. وقد قاده إلى ذلك ما رصده من سلبيات المجتمع المادى فى الولايات المتحدة، وكذلك ما يميز الإنسان من مشاعر وفطري سامية، بالإضافة إلى تخصصه فى الأدب الإنجليزى الرومانسى. ولعل هذا المدخل إلى الإيمان مدخل فريد فى عالم الفكر، إذ لمر ألق له نظيراً.

ولعل أشد ما لفتنى فى رحلة المسيرى الفكرية، أنه عندما أدرك عظم الجرم الذى ترتكبه الصهيونية العالمية فى حق الشعب الفلسطينى تفرغ لقراءة ربع قرن لإخراج موسوعته عن اليهود واليهودية والصهيونية فى ثمانية مجلدات، مضحياً بعمله فى الجامعة وما يكفله من استقرار مادى، ومُعرِّضاً نفسه لمؤامرات هددت حياته.

وكان د. المسيرى يرفض أن يعيش المفكر فى برج عاجى، بمعزل عن هموم مجتمعه، فخاض غمار السياسة من أوسع أبوابها، وصار المنسق العام لحركة كفاية التى كانت تنادى بتخلى الرئيس الأسبق مبارك عن الحكم بعد أن قضى فيه ثلاثين عاماً، وقد دفع ثمناً لموقفه هذا اضطهاداً فكرياً ونفسياً وإيذاءً بدنياً. وقد تحمل تلك العواقب بالرغم من أنه كان يعانى سرطان نخاع العظام طوال السنوات الثمانى الأخيرة من حياته، أجرى فيها العمليات الجراحية وتعرض للعلاجات الكيميائية والإشعاعية والأدوية التى تثبط من مناعة الجسم.

وفي لقائنا الأخير قبيل وفاته، أخبرني د. المسيري بحرصه على العودة لعالم الأدب، وأخبرني بأنه أخرج من أدراج مكتبه ومكتبته مادة علمية جمعها عبر عشرات السنين، ونسقتها لتخرج في أحد عشر كتاباً، وإنه اختار لكل كتاب من يساعده على إتمامه حتى يستكمل المهمة إن وافته المنيّة قبل خروج الكتاب إلى النور. إن أستاذي يُجسد بهذا الموقف حديث رسول الله ﷺ: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها فليغرسها».

ربما يكون الدرس الرئيس الذي تعلمته من أستاذي د. عبد الوهاب المسيري (رحمه الله)، هو «أن يحيا الإنسان حياته تبعاً لما يؤمن به، وأن يناضل من أجل حقيقة». وقد كان إدراكي لهذا الدرس عميقاً، فقد لمست في تعامله الشخصي معه وتشربته في أثناء دراستي لرحلته الفكرية.

وفي ذكرى الأربعين لوفاة أستاذي المسيري حملت إلى منزله بعض نسخ الطبعة الثانية من كتابي الذي تناول حياته وفكره، وهي الطبعة التي صدرت بهذه المناسبة. أمسكت د. هدى زوجة أستاذي (رحمها الله) بالنسخ، وقالت باكية: كم كانت سعادته ستكون كبيرة لو رأى هذا الكتاب، قلت لها مُهَوِّناً؛ لقد سعد كثيراً بالطبعة الأولى، ولا أشك أن روحه الآن تحفنا وتدعو لنا.

رحمك الله أستاذي، وإذا أردت أن أصفك في كلمات قليلة، فلتكن «رجل يحيا فكره». لقد كان بحق رجلاً يدرك تمام الإدراك معنى حديث الرسول الكريم ﷺ: لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه ماذا عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. أحسبك سيدي ستكون جاهزاً

للإجابة عن هذه الأسئلة، فقد قضيت كل لحظة من لحظات العمر باحثاً عن الله عَزَّوَجَلَّ ومتقرباً إليه في محراب الفكر.

قالت اللوامة: رحم الله أستاذنا د. المسيرى، فقد تعلمنا منه الكثير. عمن ستحدثني الآن؟

د. عبد الصبور شاهين

أجبت اللوامة قائلاً: سأحدثك الآن عن د. عبد الصبور شاهين⁽¹⁾ (رحمه الله).

تعرفين أن د. عبد الصبور كان معروفاً كمفكر وداعية إسلامي وأستاذ للغة العربية في دار العلوم، وقد أصبح اسمه أكثر انتشاراً وشغل الرأي العام بشكل واسع بعد نشر كتابه «أبي آدم: قصة الخليفة بين الأسطورة والحقيقة» عام 1977.

وقد تبنى د. عبد الصبور في كتابه (الذي استغرق تأليفه أكثر من عشرين عاماً) أن آيات القرآن الكريم حول خلق الإنسان تحمل معنى الخلق التطوري، وليس الخلق الخاص المباشر كما جاء في معظم التفاسير التراثية. ولا شك أن هذا الطرح قد استفز الكثيرين من السلفيين الأصوليين، فهاجموا د. عبد الصبور في الإعلام المقروء والمسموع وفي

(1) د. عبد الصبور شاهين: (1929 - 2010)، أستاذ اللغة العربية بكلية دار العلوم، من أشهر الدعاة الإسلاميين في العالم الإسلامي، وكان خطيباً لمسجد عمرو بن العاص لفترة طويلة. وله 65 كتاباً ما بين مؤلفات وتراجم، أكبرها تفسير للقرآن الكريم في عشرة مجلدات، وينسب له وضع مصطلح «حاسوب» الذي أقره مجمع اللغة العربية. ووالده هو محمد موسى العالم الأزهرى، وجده الأكبر هو شاهين بك زعيم المماليك إبان حكم محمد على باشا، وأول من قُتل في مذبحة القلعة.

الفضائيات، حتى إن أحدهم أقام ضده في المحاكم أربع قضايا تكفير، تصدى للدفاع عنه فيها الأستاذ الدكتور سليم العوا وحصل له على البراءة في القضايا الأربع، بعد أن تلقت المحاكم عام 1999 فتوى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بأن ما طرحه د. عبد الصبور يقع في إطار العقيدة الإسلامية الصحيحة، وفي حدود الاجتهاد المسموح به.

بعد سنوات من صدور الكتاب تثنت لي قراءته، ورأيت في طرحه الديني توافقاً كبيراً مع الطرح العلمى لتفسير نشأة الإنسان. سعت للتعرف إلى د. عبد الصبور شاهين (رحمه الله)، وتواصلت معه تليفونياً وأخبرته برأىي، فدعاني للقائه بمنزله بمنطقة هضبة الأهرام بالجيزة.

في لقائنا، فصّلت للدكتور عبد الصبور رأى العلم، موضحاً جوانب التوافق بين طرحه وبين نظرية التطور كما تطرحها علوم البيولوجيا. أخبرني د. عبد الصبور بأنه بصدد تجميع وإصدار ما كُتب من مقالات مؤيدة لطرحه في كتاب يُطلق عليه اسم «في موكب أبي آدم»، وطالبني بكتابة مقال يعبر عن رأى العلم يضمه إلى الكتاب.

غبت عن د. عبد الصبور بضعة أسابيع، وعدت إليه بتفاصيل الرأى العلمى وعلاقته بالطرح الدينى بين دفتى كتاب، وعلقت قائلاً: نظراً لطبيعتى التأصيلية لما أعرض، فقد تمدد المقال وصار كتاباً، فضحك علمنا الكبير رحمه الله، وطلب منى أن أقرأ عليه الكتاب. أخذت أتردد على د. عبد الصبور في مكتبته التى تشغل الطابق الثانى فوق مسجده الكبير. كان لقاءنا كل يوم ثلاثاء لعدة أسابيع، فكنا نبدأ اللقاء فى العاشرة صباحاً لأقرأ عليه من الكتاب، ونُصلى معاً الظهر ثم العصر، وننعم بوجبة غداء من السمك الشهى، وأفارقه قبيل المغرب لأتوجه إلى عيادتي بمصر الجديدة.

كنت أقرأ على د. عبد الصبور وأبين له ما في الكتاب من مفاهيم علمية، وكان هو يصحح لي أخطاءى اللغوية ويطرح الصيغ الأفضل، ولم يكن يكتفى بأن يطعننى سمكة (أقصد فى اللغة) بل كان يعلمنى كيف أستخدم، أى يشرح لى القاعدة المعنية بما يطرحه، وبذلك تشرفت بأن أكون تلميذاً لأحد أكبر أساتذة اللغة العربية فى عصرنا.

استمرت لقاءاتنا قرابة العشرة أسابيع، أتينا فيها على الكتاب، وعرض د. عبد الصبور فى نهايتها أن يكتب للكتاب تقديمًا مع الإشارة إلى أنه قد راجعه. وذكر (رحمه الله) أنه سيكتفى بكتابى عن أى طرح آخر، باعتباره الظهير العلمى لكتابه الدينى. وهكذا خرج أول كتبى الفكرية «أبى آدم: من الطين إلى الإنسان» إلى النور.

بعدها، ظللت أتردد على د. عبد الصبور كل بضعة أسابيع، لأصلى خلفه صلاة الجمعة فى مسجده، واستمع لدرسه بعد الصلاة، ولا مانع من أن أناظر بعض المرضى الذين يترددون على المسجد. استمر هذا حالى مع د. عبد الصبور حتى وافته المنية عام 2010 عن عمر يناهز الواحد والثمانين عامًا، رحمه الله رحمة واسعة.

لا شك أن السمة الأكبر والأهم التى رصدتها فى شخصية د. عبد الصبور شاهين، هى «الجرأة فى الحق». فطرح د. عبد الصبور فى كتابه أبى آدم كان طرحًا جديدًا كل الجدة، يخالف به ما جاء فى معظم كتب التفسير التراثية، ويخالف أيضًا - بل يستفز - ويناصب السلفين الأصوليين العداء، فى وقت قويت فيه شوكتهم. لربى د. عبد الصبور بذلك وأصر على أن يطرح ما يرى أنه الحق.

كما تميز د. عبد الصبور (رحمه الله) بـ «المثابرة وعلو الهمة». فالرجل

الذى تجاوز الثمانين من العمر، وكلَّ بَصْرُهُ إلى درجة كبيرة حتى صار لا يقرأ إلا بعدسة مكبّرة، ظل يخوض المعارك الفكرية دفاعاً عما يؤمن به، وظل يُعيد للنشر عدداً من الكتب التى تحمل فكره وتُعلم الأجيال من بعده، وظل يلقى الدروس من فوق منبر مسجده حتى آخر العمر.

رحم الله د. عبد الصبور شاهين رحمة واسعة...

د. أحمد مستجير

أضفت قائلاً للنفس اللوامة: أما الآخر الثالث، الذى بهرنى بشخصيته بالرغم من قلة احتكاكى به، فهو د. أحمد مستجير (رحمه الله) أستاذ الهندسة الوراثية بكلية الزراعة بجامعة القاهرة. لقد كان د. مستجير شديد الوفاء لتخصصه العلمى، حتى إنه اجتاز بوابة عالم الفكر من خلال هذا التخصص، فألف وترجم الكتب وبَسَّطَ مفاهيم علمية كثيرة فى الهندسة الوراثية وباقى فروع علوم الأحياء وأيضاً فى الكيمياء والفيزياء.

ولم يشغل النشاط الفكرى د. مستجير عن البحث العلمى فى مجال تخصصه، فحقق إنجازات علمية كثيرة، ما زال معظمها محبوباً فى الأدرج، وأهمها أبحاث زراعة الأرز بماء البحر. ولم يكتف د. مستجير بأبحاثه، بل أسس مدرسة بحثية جادة فى كلية الزراعة لا تزال تمارس البحث العلمى بكل كفاءة وأمانة وإخلاص.

سعت للتعرف إلى د. مستجير لأعرض عليه كتابى الأول؛ أبى آدم من الطين إلى الإنسان، راجع د. مستجير الكتاب وأشاد به وذكر أنه جدير بالنشر، واعتذر بأدب شديد عن أن يقدم للكتاب بمقدمة علمية،

إذ تكفى مقدمة د. عبد الصبور شاهين، وأمدنى د. مستجير برأيه العلمى فى هيئة مقال بعنوان «إنسان بِلْتداون»، فضممته إلى كتابى. ثم ترددت على د. مستجير فى مكتبه بكلية الزراعة عدة مرات، تناقشنا خلالها فى موضوعات علمية كثيرة وأيضًا فى أمور طبية، وشرفنى بزيارة معمل أبحاثه وبالإطلاع على بعض نتائج هذه الأبحاث.

وكان ابنى الأصغر أحمد فى الحادية عشرة من عمره حين صحبتته لزيارة العالم الكبير، وكان أحمد مغرمًا بالقراءة فى علوم البيولوجيا الجزيئية، وله كشكوله الخاص الذى يُلخص فيه ما يقرأ على هيئة رسومات محورها جزئ الدنا DNA، طالع د. مستجير الكشكول وأثنى على اهتمام الصبى بهذه العلوم المعقدة، وأهداه أحد كتبه وصَدَّره بإهداء: إلى أبو حميد، مع تمنياتى بمستقبل مشرق، أحمد مستجير.

ولم تقف اتهامات د. أحمد مستجير عند البحث العلمى وفلسفة العلم والقدرة الفائقة على تبسيط المفاهيم العلمية المعقدة، بل امتدت إلى اللغة العربية وعلومها. لذلك عندما أراد أن يهدينى كتابًا اختار كتابه (مدخل رياضى إلى عروض الشعر العربى)، والكتاب يجمع بين عقلية العالم وعقلية الشاعر؛ أليس له ديوانان من الشعر: «عزف ناى قديم» و«هل ترجع أسراب البط». لذلك نال د. مستجير التكريم على المستوى العالمى بحصوله على زمالة الأكاديمية العالمية للفنون والعلوم، وعلى المستوى العربى بحصوله على عضوية مجمع الخالدين (مجمع اللغة العربية).

رحم الله أحمد مستجير رحمة واسعة، فقد فارق حياتنا إثر جالطة دماغية أصابته بعد تأثره بمشاهد ضحايا المذابح التى ارتكبتها إسرائيل بحق المدنيين والأطفال فى لبنان على شاشة التليفزيون. وليعوض

الله عَزَّوَجَلَّ عنه مصر التي أصر على البقاء بها رغم إغراءات الجامعات العالمية له، حتى يساعد في بناء قاعدة علمية بحثية نحن في أشد الحاجة إليها.

لا شك أن السمة الأشد ظهوراً في شخصية عالمنا الكبير هي «تواضع العلماء». لقد كان هذا العالم البارز على المستوى العالمى والمفكر والأديب والفيلسوف شديد التواضع، وما أحسبني التقيت شخصاً يجمع هذه الصفات ويَتَوَجَّهها بهذا القدر من التواضع مثلما كان د. أحمد مستجير. كان هذا الفذ يشعر في حضرته بأنك أنت الأكثر علماً وثقافة والأرقى منزلة، لقد كان مثلاً مجسداً لحكمة العرب «ازدد تواضعاً تزد رفعة». ولا أنسى كيف تَبَسَّطَ في حديثه مع ابني تلميذ السنة الخامسة الابتدائية وترك في نفسه انطباعاً لا ينمحي، وما زلنا بعد هذه السنوات كلما أردنا أن نمزح أحمد عمرو نأديناه بـ «أبو حميد» وهو الاسم الذي دلله به د. مستجير.

ولا شك أن د. أحمد مستجير يُعْتَبَر مثلاً أعلى لكل من يطمح للجمع بين بحار العلم وعوالم الفكر والدين، حتى إنه استحق عن جدارة لقب «أديب يتنكر في إهاب عالم». وتتردد الآن في أذني كلمات الإنسان أحمد مستجير، وهو يقول: «أنا في الحق مُوزَّع بين شاطئين، كليهما خصب وثرى، أجلس على شاطئ واستعذب التأمل في الآخر. وأعرف أن الفن هو «أنا» والعلم هو «نحن»، ذبتُ في النحن وأحن إلى الأنا، وأعرف أن الفن هو القلق وأن العلم هو الطمأنينة؛ فأنا مطمئن أرنو إلى القلق».

رحمك الله أيها العالم الفذ والمفكر والأديب والفيلسوف الذي شَمَخَتْ بقامتك لينا وتواضعاً.

أَمَّنت النفس اللوامة على دعائى وقالت؛ رحم الله عالم مصر الكبير
رحمة واسعة. ثم سألتنى: ومن فارسنا التالى؟

د. محمد رفيق خليل

قلت للنفس اللوامة: والآن أحدثك عن صديقى العزيز (أمد الله
عمره) د. محمد رفيق خليل، الأستاذ المتفرغ ورئيس قسم الجراحة
الأسبق بكلية الطب بجامعة الإسكندرية، ويشغل حالياً منصب نقيب
أطباء الإسكندرية لدورتين متتاليتين بالتزكية.

وإذا بدأنا بنشاطات د. رفيق العلمية، نجد أن تميّزه العلمى العالمى بدأ
بعد أن تدرب على جراحات الرأس والعنق فى إنجلترا على يد الجراح المصرى
العالمى د. عمر شاهين، وأيضاً جراح ملكة إنجلترا هنرى شو، الذى كان
يعتبر أن د. رفيق هو الأجدد بأن يُجرى للملكة مثل هذه الجراحات فى
حالة غيابه. كما تدرب فى إسكتلندا على الجراحات الميكروسكوبية على
يد رائدها د. سوتر. وهو الآن عضو بالجمعية الدولية لهندسة الأنسجة
التي لا يحظى بعضويتها إلا الصفوة من جراحى العالم.

لذلك لم يكن غريباً أن نشر د. رفيق أكثر من ستين بحثاً علمياً فى
كبرى المجلات العلمية الدولية فى مجالات الجراحة العامة وجراحات
الرأس والعنق. وليس غريباً أن أشرف على قُرابة الخمسين رسالة علمية
للحصول على درجتى الدكتوراه والماجستير فى الجراحة والأورام
وهندسة الأنسجة. كما شارك د. رفيق فى العديد من المؤتمرات الدولية فى
أوروبا وأمريكا واليابان، ودُعِى لزيارة العديد من الجامعات العالمية.

يلخص ما ذكرت من نشاطات د. رفيق العلمية الجانب المِهْنِى من

حياته واهتماماته. أما الجانب الأكثر تَشَعُّبًا واتساعًا فيتمثل في رحلته الفكرية والمعرفية، وفي نشاطاته الثقافية والاجتماعية والأدبية في مصر وعلى المستوى العالمى، ويبين هذه الاهتمامات العديد من المناصب غير الطبية التى يتولاها د. رفيق، ولعل أهمها:

- عضو مجلس إدارة بينالى⁽¹⁾ شباب أوروبا والبحر المتوسط منذ عام 2004، وعضو اللجنة العليا لبينالى الإسكندرية منذ عام 2001، والمشرف على الندوة الدولية لبينالى الإسكندرية، ولا يزال د. رفيق يشغل هذه المناصب فى البينالى حتى الآن.

- عضو مجلس إدارة جمعية مبدعى أوروبا والبحر المتوسط بإيطاليا.
- رئيس جماعة الفنانين والكتاب بالإسكندرية (الأتيليه).
- نائب رئيس جمعية الآثار بالإسكندرية.
- أمين عام الجمعية المصرية للثقافة والتنوير.
- عضو لجنة مستشارى مكتبة الإسكندرية منذ عام 2001 وحتى 2014، وعضو مجلس إدارة مركز الفنون بها (2008 - 2014).
- الوكيل السابق لجمعية الموسيقى بالإسكندرية، وهى جمعية دولية تأسست فى الأربعينيات، وانبثق منها كونسرفتوار الإسكندرية.
- أسس مع مجموعة من شعراء الإسكندرية الشبان فى ستينيات القرن العشرين جماعة أبوللو الجديدة الشعرية، كما أسس ورشة الشعر بأتيليه الإسكندرية، وله ديوان شعرى مطبوع بعنوان «سوناتا الرحلة».

(1) البينالى Biennale كلمة إيطالية، تشير إلى المناسبات التى تُعقد كل عامين، وتشير فى المعنى الاصطلاحي إلى تجمع خاص بالمساهمات الفنية الدولية.

- أشرف على عدد من رسائل الدكتوراه في كليات الآداب حول فلسفة وتاريخ العلم. وقد شرفني بالدعوة لمناقشة بعض هذه الرسائل لمنح الدرجة العلمية.

- شارك في إدارة العديد من المؤتمرات الفكرية والثقافية في العديد من مدن العالم التاريخية، ومنها روما - أثينا - لندن - مارسيليا - جنوا - بيزا - بيروجيا - طوكيو - نورمبرج... كما أسهم في هذه المؤتمرات بإلقاء المحاضرات حول الثقافة المصرية والحضارة المصرية وحوار الحضارات وفلسفة العلوم.

- أشرف على النشاط الطلابي لجامعة الإسكندرية في الثقافة والفنون عبر الثلاثين عامًا الماضية.

لا شك أن هذه النشاطات تعكس شخصية متعددة المواهب؛ ما بين الجراحة وبين الفكر والثقافة في مجالات الأدب والشعر والموسيقى والفلسفة. بالإضافة إلى أنه عاشق للتاريخ ولدراسات الحضارات المقارنة، فهو ملم بتاريخ الحضارة المصرية واليونانية والرومانية والهيلسيتينية، كإمام أساتذة التاريخ المتخصصين في بلادنا. وساعد رفيق على النبوغ في هذه المجالات والمشاركة في هذه النشاطات إتقانه اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، بالإضافة إلى تمكنه من قراءة نصوص اللغات القديمة (المصرية - اليونانية - الرومانية)، لذلك شارك في الإشراف على عدد من رسائل الدكتوراه والمجستير حول هذه الحضارات.

وبدأت معرفتي بالدكتور رفيق عام 2006، حين دعوته لمناقشة إحدى رسائل الماجستير التي أشرف عليها حول جراحات أورام الغدة النكفية،

فليس أنسب من د. رفيق خليل ليشارك في مناقشة مثل هذه الرسالة حتى تحظى الرسالة بمصدقية قوية.

ثم تعمّقت علاقتي الفكرية والإنسانية والشخصية بالدكتور رفيق من خلال التقائنا في المؤتمرات الجراحية، فقد كان كلُّ منا يحرص على تقديم مساهمة فكرية من خلال بحث ثقافي يُلقى في المؤتمر. ومن خلال هذه الأبحاث عرّفني د. رفيق على «بس شت» كبيرة الطبيبات في مصر القديمة، وأول عميد لكلية طب عين شمس «أون» منذ 3500 سنة. كما عرّفني على حبيبته «هياتيا» التي لا يكفُّ لسأله عن ذكرها، وهي الفيلسوفة وعالمة الرياضيات الإسكندرانية خلال فترة حضارتها الهيلسيتينية، والتي سقطت صريعة التعصب الديني، وروت بدمائها أرض الإسكندرية.

وبالنسبة لعلاقتي السابقة بالإسكندرية، فلم تكن تتجاوز الرحلات المدرسية إليها، حيث كنا نبيت بها ليلة أو ليلتين. وعندما تعرفت إلى د. رفيق، كثرت زياراتي لمدينتنا العريقة العظيمة، فما من دعوة تلقيتها منه لإلقاء محاضرة أو عقد ندوة أو مناقشة رسالة جراحية أو غير جراحية إلا كنت - ولا أزال - أُلبيها دون تردد.

رأيت الإسكندرية بعيني محمد رفيق خليل. رأيت المدينة الكوزموبوليتانية، متعددة الحضارات، والتقيتُ معه بالعائلات اليونانية والأرمنية وجالستهم في منتدياتهم ومطاعمهم. عرفت الإسكندرية القديمة بمتاحفها وشوارعها ومكتبتها، زرت صالونات المفكرين والفنانين والأدباء بالإسكندرية، كما استمعت إلى محاضرات «الأتيليه» وشاهدت معارض فنانيه واستمعت لشرح رفيق للوحاتها وتماثيلها،

وشاهدت جداريات المدينة القديمة والمعاصرة. هذه هي الإسكندرية كما عرّفني عليها صديقي الحميم، رفيق.

ما أروع هذا الرجل، المصري الأصل، الذى جعل هموم مصر والمصريين شاغله، والذى لم يكتف بالمساهمة فى قضاياها على مستوى القول، بل شارك بجده وفعله ووقته فى نصرة تلك القضايا فى الداخل والخارج، بعد أن أصبح مثلاً مُشرقاً للشخصية المصرية العالمة المفكرة، على المستوى العالمى بوجه عام، وعلى المستوى الأوروبى البحر متوسطى بوجه خاص. لذلك عندما سُئل د. رفيق عن توجهه السياسى قال إنه لا ينتمى لأى حزب من الأحزاب أو أى تيار من التيارات، ثم لخص توجهه فى كلمة واحدة؛ «مصرى».

وعندما طلب منى أحد الأصدقاء أن أصف د. رفيق فى عبارة مختصرة، احترت كثيراً؛ هل أصفه بعلمه، أم بثقافته أم بتدينه أم بأدبه وحيائه الجم وصوته الدافئ الذى لا ترتفع نبرته، أم بتواضعه الصادق. وحتى أخرج من هذه الحيرة، اخترت وصفاً يجمع ذلك كله، وصفته قائلاً: «إننى ما رأيت هذا الرجل يمشى فى يوم من الأيام»!! فمشاغله الكثيرة للغاية تتطلب منه الحركة السريعة، لذلك ما رأيته وما سرت بجانبه إلا مهرولين. وإذا كان أفلاطون ورفاقه قد اشتهروا باسم «المشائين»، فدكتور رفيق ومن يشاركه الطريق هم «المهرولون إلى الحقيقة».

قالت لى اللوامة: أراك فى حديثك عن «الآخر» الذى عرفته وأعجبت بشخصيته وفكره أو تأثرت به قد اخترت العلماء والمفكرين، فحدثتنا عن عالم الدين واللغة العربية، وعالم الاجتماع والأدب الإنجليزى، وعالم البيولوجيا الجزيئية والأديب الشاعر، وأخيراً أستاذ الجراحة

والمفكر الفنان. هل أفهم من ذلك أن قدرتك على الرصد والحكم على الآخرين قاصرة على من كان عطاءؤهم مرتفع النبوة، أين أنت من الشخصيات التي تمر بنا كثيرًا في حياتنا اليومية؟ ألا تُلفت هذه الشخصيات انتباهك؟

الأستاذ فايق عازر يعقوب

أجبتُ لوامتى قائلاً: مالى أراك متعجلة تستيقين الأحداث، لقد كدت أن أحدثك عن شخصية لفتت انتباهى وحازت على تقديري واحترامى. وهو ليس بالعالم ولا المفكر، لكنه «إنسان»، يمثل نمطاً لما أحب أن يكون عليه الإنسان المصرى، إنه المصرى الأصيل فايق عازر يعقوب.

الأستاذ فايق من مواليد عام 1940، ومن خريجي كلية التجارة، وتدرج في وظائف مكتب الخبراء بوزارة العدل حتى أُحيل إلى المعاش. بعدها أُنتخب رئيساً لمجلس إدارة نادى التجارة، وتكرر انتخابه لهذا المنصب منذ عام 2003 وحتى الآن. وللأستاذ فايق فى نادى التجارة إنجازات وتوسعات وتجديدات كثيرة تمثل طفرة ملحوظة فى مسيرة النادى.

ومن أنشطة نادى التجارة الأساسية مصيفه فى مرسى مطروح، والذى يشغل فندقاً كبيراً يطل مباشرة على البحر فى إحدى أرقى مناطق المدينة. ولى فى هذا المصيف ذكريات غالية ثرية. فمنذ أن كنت طالباً فى كلية الطب وأنا أتردد عليه سنوياً وحتى الآن، فى البداية مع والدى ووالدى (رحمهما الله) ثم مع أسرتى الصغيرة، ولم أنقطع عن هذا المكان أى عام إلا إذا كنت خارج مصر.

تنبّهت لأول مرة لعمق الجانب الإنسانى للأستاذ فايق (رئيس مجلس

إدارة النادي) حين شاهده وأنا خارج من بوابة فندق النادي بمرسى مطروح لصلاة الجمعة، كان الأستاذ فايق جالساً على كرسي أمام الفندق وظل في مكانه حتى عودتي من الصلاة. علمتُ بعدها من العاملين معه أنه يجلس هكذا لحراسة بوابة الفندق حتى يتثنى لرجال الأمن الذهاب إلى صلاة الجمعة.

أثار الموقف إعجابي واهتمامي، فحرصت على التعرف إلى شخصية الرجل عن قرب، فعرفت أن النادي يرسل طعام الإفطار والسحور في رمضان لشيخ وخدم مسجد سيدى العوام المجاور للنادي، كما يتابع أعمال صيانة الميكروفون والكهرباء والسباكة بالمسجد.

وبالرغم من أن لوائح المصيف لا تسمح بالحوارات الدينية والسياسية في الفندق، فإن فايق عازر يعقوب يصمم على أن أعقد ندوة دينية وأن يعقد الشيخ محمود عاشور وكيل الجامع الأزهر الأسبق ندوة أيضاً، حتى صارت هاتان الندوتان من الطقوس السنوية للمصيف.

ولعل «الوفاء» من أهم سمات الأستاذ فايق الإنسانية، وإذا كان يردد دائماً مقولة الوجدان المصرى الأصيل «الى مالوش قديم مالوش جديد»، فقد ترجم هذه المقولة إلى فعل، حين أطلق على قاعات الفندق أسماء كبار التجار في مصر الذين كانت لهم أيادٍ بيضاء على النادي. كما اعتاد أن يدعو إلى المصيف أسر التجار والراحلين الذين أسهموا في إدارة النادي وتقدمه. كذلك قام الأستاذ فايق بعمل تخفيض 50 % من قيمة الإقامة بالمصيف للمُعَوِّقين من الأعضاء وأسرهـم.

لقد اخترت أن ألقى الضوء على الجانب الإنساني لهذه الشخصية، حتى يعرف شبابنا (مسلمون ومسيحيون) الذين ضلّهم المصللون ممن يبغون

لمصر الهلاك، ويسعون إلى إيقاع الفتنة بين عنصرى الأمة، حتى يعرفوا ويتعلموا درساً عن كيف ينبغى أن تكون العلاقة بين المصريين.

شكراً يا أستاذ فايق، لقد وصلت الرسالة، متعك الله بالعمر المديد مع الصحة والرضا.

آخرون

ختمت حوارى مع اللوامة عن «الآخر البشر» فى حياتى قائلاً: إن الشخصيات الخمس التى تحدثت عنها هى عينة ممن تعاملت معهم، وهناك العديد من الشخصيات الأخرى التى تعرضت لها فى فصول الكتاب. كما أن هناك من المفكرين من تأثرت بهم من خلال كتاباتهم.

ويأتى على رأس قائمة هؤلاء الشيخ محمد الغزالى (رحمه الله)، وأذكر يوماً أنى كنت أنصح ابنى الأكبر بقراءة كتبه، فقال: لقد قرأت له كتابين ووجدت أننى لست محتاجاً للمزيد منها، فقد ريبتنا على هذا الفكر. تفكرت فيما قاله محمد قليلاً، وتساءلت؛ هل تأثرت فيما اتبناه من فكر نهضوى وما أمارسه من سلوك إسلامى بالشيخ محمد الغزالى رحمه الله، أم أنه تلاقى بين فهم للإسلام استشعرته وتبينته وبين فكر الشيخ المعلم؟

أما باقى «الآخر البشر» فهم الإنسانية جمعاء عبر العصور السابقة واللاحقة، من أبناء بلادى والعرب والمسلمين والبشر جميعاً، وهؤلاء تربطنى بهم روابط الوطن والعرق والدين والإنسانية. وهؤلاء جميعاً لا أشعر تجاههم بالغربة، بل أشعر بالألفة والمودة. لذلك لا أجد حرجاً فى التعلم من الآخرين من كل الأجناس والأديان، وأقبل على دراسة

الديانات المختلفة والبحث عن نقاط التلاقى بينها وبين الإسلام. ولا شك أن موقفى هذا قد أثار حفيظة من يريدون أن يجعلوا من غير المسلمين دار حرب، ويتفننوا فى التنقيب عن نقاط الصدام مع الآخر.

وفى الوقت نفسه، أجدنى أشفق على أجيال لم تولد بعد. فإذا كان جيلنا والأجيال السابقة قد يسرت للقادمين الحياة الرغدة، بما حققناه من اكتشافات واختراعات، فإننا بلا شك قد استهلكنا معظم موارد كوكبهم الأرض، ولوثناه، وأفسدنا الكثير من توازناته البيئية. ليس ذلك فحسب، بل إننا قد ضيعنا الكثير من قيم أجدادنا الأخلاقية والدينية، والتى كان ينبغى أن نمررها إلى أولادنا وأحفادنا، أى أن التجريف والتصحر لم يُصيبيا الطبيعة فحسب بل امتدّا إلى الإنسان ذاته.

لقد وجدت هذا الشعور وهذه المفاهيم تجاه الآخر مترسخة كفطرة فى نفسى، لذلك أراحنى كثيراً أن أجد أن الله عزَّجَلَّ يدعونا لأن نتبناها: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾ [الحجرات: 13]

ولذلك أيضاً خاطب الكثير من آيات القرآن الكريم الإنسانية جمعاء وليس المسلمين فقط: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِنْ مَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ...﴾ [البقرة: 168].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾ [النساء: 1].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

صدق الله العظيم

الآخر الوجود

قالت نفسى اللوامة: حدثتنا عن الآخر البشر، وذكرت قبلاً أن كل ما سوى الإنسان هو «آخر آخر» بالنسبة لك، وهذا يشمل الوجود كله. فماذا عن علاقتك بـ «الآخر الوجود»؟

أجبت اللوامة قائلاً: قبل الدخول فى التفاصيل، أطرح الإجمال؛ لقد أصبح الوجود عندى هو «كتاب الله المنظور» الذى علينا أن نتعلم قراءته، مثلما نقرأ القرآن الكريم (كتاب الله المسطور)، فكلاهما يكشفان لنا أدلة الوجود الإلهى والتوحيد وما يَسِرُّ الله عَزَّوَجَلَّ لنا أن نَطَّلِعَ عليه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

الزمن

أضفت قائلاً للوامة، وإذا أردت بعض التفاصيل، فإن بدايتى ستكون مع «الزمن». أرى أن:

الزمن هو حاضرى، فهو أنا؛ إذ إنه عمرى
والزمن هو الماضى، فهو مُعَلِّمى؛ من دروسه أتعلم
والزمن هو المستقبل، فهو أحلامى؛ لى ولغيرى

ثم فى نهاية رحلتنا فى هذه الدنيا، أنا فى انتظار الخروج من الزمن، والانتقال إلى الأبدية، فى جوار رب كريم، أحسن الظن به، بأن يجعلنى فى الجنان مع من أحب.

وللتعبير عن قيمة الزمن الحاضر كما استشعرها، وكيف أنه هو الإنسان، أضرب مثلاً لطلبتى فى الجامعة عندما أريد أن أشعرهم بقيمة

الوقت، فأشبهه من يُضَيِّع دقائق عمره بمن يبتز عُمْلة من أصبعه ويلقيها من النافذة! فإن كانت العقلة جزءاً من جسده فالدقائق جزءاً من عمره، وإذا كان يمكن لجسد ناقص أن يحيا فلا حياة لمن تنتهى دقائقه، كما إننى سأعوّض بجسد متكامل عند البعث يوم القيامة، أما ما مضى من العمر فسوف أسأل عنه.

وعندما أسأل عن سر القدرة على الجمع بين حياتى العملية المزدهرة وبين عالم الفكر، فىإنى أرجع ذلك - بعد التوفيق الإلهى - إلى حُسن إدارة الوقت. والعاملان متكاملان؛ فالقاعدة الإلهية تقول «لئن شكرتم لأزيدنكم»، وتقول قاعدة أخرى؛ إن الشكر الحقيقى للنعمة هو استخدامها فى الغرض الذى خُلقت من أجله. لذلك عندما استخدمت نعمة الوقت فى طاعة الله (وتسرى الطاعة على الواجبات العائلية والمهنية وعالم الفكر) ولم أضيعها فيما ليس وراءه فائدة حقيقية، فقد شكرت نعمة الوقت، عندها تنطبق على القاعدة الأولى، فيزيدنى الله من نعمته، أى يبارك لى فى وقتى.

لذلك عندما سألتى بعض طلبتى؛ لماذا أحمل معى دائماً حقيبة بها بعض ما أقرأه أو أترجمه أو أكتبه؟ أجيبهم بأن ذلك حتى أستغل وقتى إذا كان على الانتظار فى مكان ذهبى إليه؛ كالبنك مثلاً أو طبيب الأسنان، وأحياناً أضيف متندراً؛ أو إذا تعطل بي المصعد فاستغل وقت الانتظار داخله فى القراءة.

لذلك تجديننى - منذ وعيت - أندهش مما يطرحه البعض عن «مشكلة أوقات الفراغ» عند الشباب. إن المشكلة أخطر من ذلك كثيراً، وأهون من ذلك كثيراً فى الوقت نفسه! فتضييع الوقت انتحار بطيء، فهو تضييع

للعمر، وحسن استغلاله إثناء للحياة، وإضافة لحيات كل من نقرأ لهم إلى حياتنا. وإذا انتشرت هذه المشكلة بين الشباب صارت خطرًا على الأمة، إذ هي تبيد وإهدار لقدراتها.

ولمّا كنت أتحسر على كل لحظة تضيع من العمر دون فائدة، فإنني أشتري الوقت بالمال؛ وهذا قول حقيقي وليس مجازيًا. فكثيرًا ما أختار وسيلة انتقال أو مكانًا للإقامة أكثر كلفة؛ لأنه سيوفر لى بعضًا من الوقت؛ أليس هذا شراء للوقت بالمال.

المكان

انتقلت بي اللوامة إلى آخر آخر، فقالت: أراك شديد الإعجاب والاعتزاز «بالأماكن» التي تألفها؛ كبيتك، وفارسكور، ونهر النيل، والبحر. ومع ذلك فقد سافرت خارج مصر مُدِّدٍ تبلغ تسع سنوات. وخلال تلك الفترات - بالرغم من عشقك لمصر - لم أشعر بأنك كنت تعاني الحنين إلى الوطن الذي يسمونه «دُوار الوطن Home Sickness» ألا ترى في ذلك تناقضًا؟

قلت للوامة: ربما يرجع ذلك إلى أن الأماكن بالنسبة لى أماكن قلبية أكثر منها مواقع جغرافية. فأنا أحمل الأماكن التي أحبها فى قلبى مهما فارقتها، لذلك لا أشعر بكثير اغتراب. وقد أعجبتنى فى هذا المعنى مقولة لمكرم عبيد، كان يرددها دائماً الأنبا شنودة، وهى: مصر وطن يعيش فىنا وليس وطنًا نعيش فيه.

والأماكن التي فى القلب تصطبغ دائماً برويتى وذكرايتى، فالنيل الذى أحمله فى قلبى أينما ذهبت هو النيل الذى تعلقتُ به منذ جلست أأمله

في فارسكور وأسوان، وهو النيل الذي تغنى به المطربون؛ فهو نيل محمد عبد الوهاب النجاشي الخالد، ونيل أم كلثوم وأحمد شوقي والسنباطي، والخلو الاسمر الذي عشقه عبد الحليم حافظ. وليس النيل ما يقول عنه الناس إن التلوث قد أصابه، وإن الإنشاءات قد حجبتة، وإن سد النهضة بأثيوبيا يتهدهده. لذلك عندما أعود إلى مكان فارقتة منذ مدة أشعر كأني لمر أفرقه إلا بالأسس.

ولما كان الشعراء العرب المعاصرين والقدامى يعبرون في قصائدهم عن حنينهم لوطنهم المكان، فقد تشربت في صغري هذا الحنين، لذلك بقى منه في نفسي شوقاً لأماكن النشأة، فهي تاريخي، ومن لا تاريخ له ليس له حاضر ولا مستقبل. ولا شك أني أكون فرحاً عندما أعود إلى مصر بعد غياب، أنها الفرحة بلقاء من أحببت؛ مصر الرمز وليس المكان، وأهلها الذين هم أهلي.

الجمال

قالت نفسى اللوامة: لا شك أن «الجمال» جزء لا ينفصل عن «الآخر البشر»، وأعلم أنك تحب الجمال كثيراً. وإذا كان الجمال مرتبطاً بالمرأة، ألا ترى في ذلك خروجاً عن الأدب والفضائل، واقتراباً من مناطق محرمة حذرنا منها الديانات؟

قلت للوامة: سبحان الله، ويحك، إنك تفترضين افتراضات قاصرة وتحمليني توابعها!! لقد اعتبرت أن الجمال مرتبط فقط بـ «الآخر البشر»، وتجاهلت ارتباطه بـ «الآخر الوجود». من قال إن الجمال مرتبط فقط بالمرأة؟! ومن قال إن حب جمال المرأة خروج عن الأدب والفضائل؟!

أيتها اللوامة... لقد كان البدوى يرى الجمال فى الماء والخضرة والوجه الحسن، وكان ذلك يرتبط بالبيئة العربية الجافة القاحلة التى يمثل فيها الماء والخضرة أعلى أمانى الإنسان، كما يحتاج فيها البدوى إلى من يؤنسه ويمتعه. لكن الأعرابي لم يقتصر على ذلك، فقد أدرك الجمال فى الناقة وفى الخيل وفى شروق الشمس وغروبها، وفى المطعومات والمشروبات، ونعومة الحرير وشجن أنغام الموسيقى... و... و.... وتفاعلاً مع ذلك كله أبدع المعلقات والقصائد الباقية حتى اليوم. وعندما دخل العربى بلاد الفرس والروم رأى فيها من أنواع الجمال ما لم تُبصره عينه من قبل، فَرَهَفَ حُسه وانقدح خياله، فازداد إبداعه الشعرى رقةً وجمالاً.

وكثيراً ما أقول متندراً؛ أنه لو كان تناسخ الأرواح أمراً حقيقياً؛ فلا بد أن روحى كانت فى جسد بدوى فى أحد أطوار تناسخها!! وذلك لإعجابى الشديد بما تناوله الشاعر العربى القديم من مواطن جمال، خاصة الخيل والنوق والجمال وخطواتها التى تنتظم مع حِداء الحادى.

أتعلمين أيتها اللوامة أن علوم المنخ والأعصاب قد أثبتت أن للجمال قوانين، إن توافرت فى المنظورات أو المسموعات تفاعل معها العقل والنفس ونشطت مراكز الإمتاع فى المنخ، ويزداد نشاطها بقدر زيادة سمات الجمال، حتى تكاد تصل بنا إلى ذروة النشوة. ما أعجبك حين تُكرين على أن أكون إنساناً سويّاً أتفاعل مع الجمال الذى خلقه ربى وخلق فى آليات استشعاره والاستمتاع به!!

لقد أصبحت منذ بضع سنوات أدرك الجمال فى كل جميل حولى، ولو كان نصيبه من ذلك قليل. وما استشعره من جمال لا يقتصر على ما تدركه

حواسنا الخمس؛ بل يلفتني السلوك الراقى، وخُلُق الإيثار والتعاطف،
والرقة غير المصطنعة.

ولا شك أن جمال المرأة ظاهرة مركبة معقدة، ففيه الجمال الذى يألفه
الإنسان ويرقى به إلى المزيد من التعرف إلى خالقه، مثله فى ذلك مثل باقى
المدرَكات الجميلة. ويجتمع ذلك مع الجمال الذى يثير غريزة الرجل، وهو
الجمال الذى تعتبرين النهل منه خروجًا عن الأدب والفضائل. ولإدراكهم
ما فى جمال المرأة من أسرار، نجد شعراء الصوفية يبدأون قصائد العشق
الإلهى بالتغزل فى جمال المرأة، وربما يصل القارئ إلى آخر القصيدة وهو
حائر لا يدرى مَقْصِد مشاعر العاشق!!

الإعلام

وأضفت قائلاً لنفسى اللوامة: لا يمكننى أن أختتم حديثى عن
الآخر؛ دون أن أحديثك عن غول الإعلام، الذى أحيانًا أتلفظ فأسميه
«د. جيكل ومسترهايد»، هذه الشخصية المزدوجة التى تحمل الوجه
القبيح والوجه الحسن. ولا أحسب أن إنسانًا استفاد وعانى من الإعلام
قدر إنسان حضارتنا المعاصرة.

لقد فرض علينا الإعلام التواصل مع الآخر فى كل لحظة من حياتنا،
بل صار يسرق جُل العمر، حتى لم يكدر يترك وقتًا للإنسان ليمارس حياته
كما يتمنى، وأوشك أيضًا أن يقوم بالدور الأكبر فى تربية أبنائنا فلا
يكادون يكونون أبناءنا! وذلك من خلال الصحف والمجلات، والإذاعة
والتليفزيون، والفضائيات، وحديثًا الشبكة العنكبوتية ووسائل التواصل
الاجتماعى.

وحتى أكون منصفًا، لا ينبغي أن أتجاهل الجانب الإيجابي للإعلام في حياتي. لقد جعل الإعلام العالم قرية صغيرة بحق، حتى صرنا نعرف الأحداث التي تقع في أقصى الأرض قبل أن نعرف ما يحدث لجيراننا! ولا شك أن الشبكة العنكبوتية جعلت كل ما نحتاج لمعرفته من معلومات عند أطراف أصابعنا. وقد ساعدني ذلك كثيرًا في تأسيس وتأسيس ونشر مشروعي الفكري. ولعل من أمتع ما يقدمه لنا الإعلام جرعات ثقافية وترفيهية لا غنى عنها في حياتنا السريعة والمشحونة بالمصائب التي ترد إلينا من خلال الإعلام أيضًا! في كل لحظة.

لكن... هل يطلعنا الإعلام على الحقائق، أم يقوم بغسل وتسميم أدمغتنا بما يريد أصحاب السلطة والمال في العالم أن يشكّلوا عقولنا عليه؟ إن العقل البشري لم يكن نهبًا للأقوياء كما صار في ظل حضارتنا المعاصرة، حتى صار الإنسان -إلا من عصم ربي- يتبنى بسذاجة مفرطة آراء الآخرين السياسية والاقتصادية والأخلاقية الإباحية بل والدينية والعلمية! لقد صارت عقول البشر نهبًا لهذا السيد الأكبر؛ الإعلام.

بل لم يعد التزوير والتزييف قاصرًا على أصحاب القوة! إذ مكّنت وسائل التواصل الاجتماعي أقزام العقل والفكر والإنسانية من أن تكون لهم منابر يخاطبون من عليها البشرية جمعاء!!! فيثنوننا جهلهم وتفاهتهم، فيُصدقهم من يصدقهم ويلقى بهم الواعون في سلة المهملات.

لقد كان أجدادنا يُحذّرون أبناءهم من رفقة صديق السوء، وهل هناك رفقة أسوأ ولا أخطر من رفقة الإعلام المعاصر، الذي هو أقوى أسلحة مسيخ الحضارة المادية الدجال.

أيتها النفس... إن هذا الحديث عن هذا الآخر، الإعلام، يحتاج إلى كتب، ولكن لكثرة ما اشتهر عن هذا الغول المخادع الشرس فإنني أكتفى بما ذكرت، ولعل الإشارة تغني من الاطناب والتفصيل.

خلاصة القول أيتها اللوامة...

إن الآخر عندي هو الإنسان وهو كل الوجود، ومن ذروة العطاء الإلهي أن يكون على رأس ذلك كله مَنْ هو «أقربُ إليَّ من حبل الوريد». لذلك أجتهد أن أستشعر دائماً أنني في حضرة ربي عزَّ وجلَّ. وعشمتي أن تنطبق على القاعدة الإسلامية: من عاش على شيء مات عليه وبُعث عليه، ومن ثم إذا كنت أجتهد أن أكون في حضرته في الدنيا فعسى أن أصبح في حضرته في الحياة الأخرى الأبدية.

المسيخ الدجال

قالت لي نفسى اللوامة:

أراك كثير الاهتمام بتأمل الحضارة المادية المعاصرة، باعتبارها «آخر» تتعامل معه، كما أراك تستخدم كثيراً مصطلح «المسيخ الدجال» في وصف هذه

الحضارة. ألا ترى أن هذا المصطلح قد بلى من كثرة استخدام الإسلاميين له، خاصة هؤلاء الذين يُبغضون الشباب المسلم في سلبات وأيضاً إيجابيات هذه الحضارة!! معتقدين أنهم بذلك يرفعون من شأن الإسلام!! فهل ترى أن المصطلح يصف بالفعل سمات هذه الحضارة؟

قلت للوامة: أشارِكِ الرأى أن مصطلح المسيخ الدجال قد كثر استخدامه، لكنى أختلف معك في أنه قد «بلى» من كثرة الاستخدام؛ ذلك أنه يُوصَف بدقة سمات الحضارة المادية المعاصرة. ويهمنى أن ألفت نظرك إلى أن اصطلاح الحضارة المادية المعاصرة ليس قاصراً - كما يستخدمه الكثيرون - على الولايات المتحدة، ولا على الحضارة الغربية بصفة عامة، بل يشمل كل فكر ينظر للإنسان نظرة مادية تنزع عنه خصوصيته الإنسانية. لذلك فالنظام الشيوعى الذى تأسس وانتشر في بدايات القرن العشرين يقع تحت مقصد المصطلح.

وأول من استخدم مصطلح «المسيخ الدجال» في الأوساط الإسلامية لوصف الحضارة المادية المعاصرة كان المستشرق النمساوي ليوبولد فاليس، الذى تَسَمَّى بعد إسلامه باسم محمد أسد، ثم تحدث سيد قطب - مُنْظَرُ الإسلام السياسى - فى كتاباته كثيرًا عن محمد أسد وعن استخدامه الجديد للمصطلح.

قالت اللوامة: إذا كنت مقتنعًا بهذا الاستخدام لمصطلح «المسيخ الدجال»، فهل لك من الخبرة الشخصية ما يؤكد دقة دلالة المصطلح على الحضارة المادية المعاصرة؟

قلت للوامة: ترجع خبرتى الشخصية مع الحضارة المادية المعاصرة إلى أربعة مصادر. مصدران منها غير مباشرين؛ الأول هو دراستى التفصيلية لتجربة أستاذى د. عبد الوهاب المسيرى رحمه الله مع هذه الحضارة، وهى التجربة التى تشرَّبْتُهَا تمامًا بعد أن كتبت عن رحلة د. المسيرى الفكرية كتابًا. والمصدر الثانى غير المباشر، كان احتكاكى فى بلادى بمن يتبنون هذا الفكر؛ من المستغربين والمؤدَّجَّين بالفكر الشيوعى، سواء كان احتكاكى بالتعامل المباشر أو بالاطلاع على ما تبناه هؤلاء من أفكار ومبادئ ضَمَّنوها كتاباتهم.

والمصدران الآخران لتجربتي الشخصية مع الحضارة المادية المعاصرة كانا مصدرين مباشرين. يتمثل الأول فى عملى فى إطار هذه المنظومة كأحد تروسها، وكان ذلك فى مستشفى الملك فهد بالباحة بالمملكة السعودية، حيث كانت تدير هذا المستشفى الشركة الأمريكية الدولية لإدارة المستشفيات AMI، والمصدر المباشر الثانى كان زيارتى للولايات المتحدة لمدة أربعين يومًا مكنتنى من التعامل المباشر مع هذه الحضارة كسائح.

طبيب نفس الحضارة المادية

بدأت في شرح تفاصيل خبراتي مع الحضارة المادية، فقلت للوامة:
لا شك أن أعمق وأشمل تعرّفاً على الحضارة المادية المعاصرة كان من
خلال معاشتي اللصيقة لفكر أستاذي د. عبد الوهاب المسيري (رحمه
الله)، الذي شرّح هذه الحضارة ودرس جزئياتها دراسة عميقة مكنتنا من
التعرف على سلبياتها ومدى تشويهها بل ومسوخها للطبيعة الإنسانية.

يقول د. المسيري:

تقوم الحضارة المادية المعاصرة على «نموذج فلسفي مادي» يساوي بين
الإنسان والطبيعة المادية، ويعتبر أن مهمة العقل الإنساني الوحيدة أن
يرصد الطبيعة ويعرف مسارها وقوانينها ليطبقها على الإنسان، ومن هنا
سميتها «العقلانية المادية» (التي تُسمّى عادة: الاستنارة)؛ إذ تنبأ بمقدرة
العقل المادي على التجريب المنفصل عن القيم الإنسانية والأخلاقية، ثم
يتلقف نتائج تجربته دون تساؤل عن المعنى والغاية. وأهم سمات هذا
النموذج الفلسفي المادي:

أولاً: لا مكان للطمأنينة والاتزان في قلب الإنسان

كانت معظم المجتمعات الإنسانية في الماضي تحاول «إدخال
الطمأنينة» على قلب الإنسان، بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع
الطبيعة، ولعل الأسرة هي أهم المؤسسات التي طوّرها الإنسان ليحقق
ذلك الهدف. أما المجتمعات الحديثة (خصوصاً المجتمع الأمريكي) فقد
جعلت الإنتاجية والحركية هدفها، ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع

نفسه يكون أقل إنتاجاً، فالقلق يُؤلّد في الإنسان الرغبة في الإتقان ليثبت لنفسه تفوقه فيحقق شيئاً من الاتزان والطمأنينة.

إن المجتمع الأمريكي (كنموذج للمجتمع المادى) هو مجتمع القلق؛ إذ يتحدث عن الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله في سوق العمالة في مرحلة مبكرة للغاية، وفي سن الثامنة عشرة لا بد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه. لقد جعل التآكل الكامل للأسرة الفرد يعيش منعزلاً ولا يشعر بأى اطمئنان. لقد فقد الإنسان «المرفأ في عالم بلا قلب» كما يقول عالم الاجتماع الأمريكى كريستوفر لاش في وصفه لتآكل نظام الأسرة.

ثانياً: ليس هناك تميّز فردى إنسانى؛ وإنما نمطية مذهلة

تعلمنا في صغرنا، أن الحضارة الغربية تُميّز كل إنسان عمن سواه وتحترم تفرد «حضارة الفردية»، وأن حضارتنا هى الحضارة الشرقية الجمعيّة التى تلغى الفرد. ولكن حينما ذهبْتُ إلى الولايات المتحدة، فوجئتُ أن ثمة «نمطية مذهلة» فى أشكال الحياة وفى الأنماط الإنسانية. وقد زادت النمطية بعد ظهور علوم، تخصصت فى توجيه سلوك الإنسان وضبطه وفقاً لخطة محددة (نوم - إبطار - عمل)، بحيث أصبح كل شىء مُجهّزاً مُسبقاً، حتى الإجازات والأفراح بل والمآتم!!

كنت أقابل الكثيرين من الأمريكيين الذين يغيّرون ملبسهم ومأكلهم وسلوكهم حسب ما يمليه الإعلام والكتالوجات، فأدركت أن ما يسود فى الولايات المتحدة ليس الفردية وإنما «البراجماتية» التى لا تكثر بالثواب ولا تهتم بالقيم مثل الكرامة والشهامة، فالإنسان البراجماتى إنسان مرّن إلى أقصى حد، وعمل بشكل متطرف، يقبل أى شىء طالما إنه ينجح، ويتكيف

مع ما حوله بحيث يستجيب بشكل مباشر لما يأتيه من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية، فيعيد صياغة نفسه بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات. ولذا ينتهي به الأمر إلى ضمور ذاته الجوانية،

ثالثاً: اجتماع النقيضين، الذاتية المتطرفة مع الذوبان في الكل

حينما درست الأدب الأمريكي لاحظت ظاهرة غريبة: أن كلاً من «الذاتية المتطرفة» (شعوري بذاتي ورغبتى في تحقيقها) و«ذوبان الذات في الكل» (الطبيعة - الكون - الولايات المتحدة الأمريكية) يتعايشان جنباً إلى جنب، برغم تناقضهما، وبدأتُ ألاحظ أن المجتمع الحديث الذى يزعم أنه يدافع عن الفردية يقوم في واقع الأمر بهدمها وتذويبها.

وأضرب مثلاً بتقاليع الملابس نصف السنوية (شتاءً وصيفاً)، وكيف أن من يقرر أن يرتدى حسب «آخر موضة» هو إنسان متمركز حول ذاته يود إظهارها وتحقيقها بكل قوة، ولكن المفارقة أنه حين يفعل ذلك يكون قد تخلى عن فرديته تماماً! لأن عليه أن ينفذ أوامر مصمم الأزياء بحذافيرها لأن «الموضة كده السنة دى».

إنها مجتمعات شمولية نجحت في أن تجعل الجماهير تتبنى الرؤية السائدة في المجتمع، وتسلك حسبها دون قمع بوليسى، بحيث يقتنع الإنسان بأن الهدف من الحياة هو زيادة الإنتاج والاستهلاك والاستمتاع.

رابعاً: مستنقع النسبية المطلقة

1) النسبية المعرفية والأخلاقية

من السمات الأساسية في الحضارة الغربية الحديثة (بل أهم سلبياتها)

«النسبية المعرفية والأخلاقية»، التى كان من المفروض أن «تحرر الإنسان» وتفسح له المجال لتأكيد فرديته، لكنها أدت إلى العكس. فالنسبية تنزع القداسة عن الإنسان والطبيعة، وتجعل كل الأمور متساوية، ومن هنا فالظلم مثل العدل، والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له. بذلك يصبح من العسير للغاية على الإنسان الفرد أن يتخذ أية قرارات بشأن أى شىء، ويصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسياً. فالنسبية قوّضت الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار وإن كانت - فى الوقت ذاته - قادرة على إقناعه بأى شىء وكل شىء.

بل إن القانون الأمريكى نفسه، فى ظل النسبية، يجعل إصدار الأحكام أمراً فى غاية الصعوبة! أخبرتنى إحدى الزميلات أنها قررت أن تجلس على حِجر صديقها فى أثناء قيادته للسيارة، فأوقفها ضابط الشرطة الذى تبرم من منظرهما، ولكن القانون لا يُخَوِّل له أن يُجرِّم مثل هذا الفعل، فأصدر للسائق تذكرة مخالفة مروورية، على اعتبار أن زميلتى كانت تحجب عنه الرؤية!.

2) غياب المفاهيم الإنسانية الفطرية عن السعادة يؤدى إلى البؤس

لقد أدى الغلو فى النسبية إلى أن أصبح الكثير من المفاهيم الإنسانية الفطرية الأساسية، مثل الإحساس بالسعادة أو البؤس، محل تساؤل. نشرت مجلة تايم مقالة بعنوان «صحيح الجسم، وثرى وغير سعيد»، وردّ فيه أن أكثر الأوروبيين ثراءً وتقدماً هم الألمان وهم كذلك أكثرهم بؤساً وتشاؤماً، وأن أكثرهم فقراً الأيرلنديين والبرتغاليين، وهم أكثرهم رضا. وتضيف المقالة أن مقياس التقدم الإنسانى التى اعتمدتها هيئة الأمم

المتحدة غير كافية، فقد اعتبرت الدخل والتعليم ومتوسط العمر هي المقاييس الأساسية. وحسب هذا المعيار، فإن أمة من المصابين بالأمراض النفسية، حصل كل أفرادها على شهادة دكتوراه، ومتوسط أعمارهم 90 عاماً، ستحصل على الدرجات النهائية؛ لأن المرض النفسى ليس جزءاً من المعايير. وانتهت المقالة بأن وصفت الإنسان الغربى بأنه «خفاش يطير، ولكن بتوتر، ولا يعرف إلى أين».

(3) ازدواج الشخصية، وتبنى أكثر من نموذج

من الأشكال الحديثة لـ «النسبية الأخلاقية» أن يتبنى الإنسان أكثر من نموذج. فعلى سبيل المثال يتغنى المجتمع الأمريكى بأغانٍ يدور معظمها حول الحب الرومانسى، ولكن هذا المجتمع نفسه لا يكف عن الحديث عن الصراع من أجل البقاء كقيمة أساسية.

وبالمثل، يتنازع الآباء اتجاهاً متناقضاً في تنشئة أطفالهم: هل يحافظون على براءة أطفالهم ورومانسيتهم، أم يُعلمونهم فنون الصراع من أجل البقاء؟ إن حافظوا على براءتهم أفقدوهم جزءاً كبيراً من مقدرتهم على الصراع، وإن فعلوا العكس، أفقدوهم جزءاً كبيراً من براءتهم.

(4) مستنقع النسبية المطلقة أصاب الفنون بالعنف

لقد أثّرت النسبية في كثير من مجالات الحياة، خصوصاً الفنون. فبدأت في ستينيات القرن العشرين «عملية تحرير الفن» من القيود والحدود الأخلاقية والجمالية، حتى أصبحت تحرراً من أية قيود أو معايير، كما تزايدت معدلات الإباحية والعنف.

ويبلغ انحراف هذا الاتجاه الفني أقصاه ليصل إلى ما يُسمى «سنف موفيز Snuff Movies» وهى أفلام يختلط فيها العنف والجنس بطريقة متطرفة، وكثيراً ما تنتهى بقتل حقيقى لبطلة الفيلم وهى فى حالة نشوة جنسية. وقد أرجعت جريدة وول ستريت ما يحدث إلى الموقف النسبى المتسبب من الفن والجنس، وإنكار الحدود باسم الحرية المطلقة والإبداع غير المتناهى!.

5) مستنقع النسبية المطلقة أصاب ألزم الجميع بالخرس

صاحَبَ انتشار النسبية المطلقة ما يُسمى بـ«الخطاب السياسى الصحيح» Correct Politically وهو خطاب متعجرف، يُطالب المرء بألا يقول شيئاً قد يسيء لأحد أعضاء الأقليات، وكل البشر - حسب تصور هذا الخطاب - أعضاء أقليات: البدينون - طوال القامة - السود - اليهود - المعوقون. كما يعدد هذا الخطاب الأشياء الصحيحة والمواقف الواجب تبنيها، ومن ضمنها: الاهتمام بالبيئة - الاهتمام بكل الأقليات - قبول الشذوذ الجنسى بحُسابه شكلاً طبيعياً من أشكال التعبير عن الهوية. وبعض هذه الأفكار خَيْرٌ ولا شك ولكن البعض الآخر يعبر عن رؤية مغالية فى النسبية. ويدعى إلى هذا الخطاب بطريقة متعصبة إرهابية، بحيث أصبح شيئاً مخيفاً يهدد الجميع.

خامساً: تهميش الأمور الإنسانية

لقد صاحَبَ النسبية المطلقة شئ مناقض لها تماماً، وهو الرغبة الصارمة فى أن يصل المرء إلى اليقين العلمى الموضوعى الكامل بخصوص كل شئ، بما فى ذلك الأمور الإنسانية. فما لا يمكن تعريفه بوضوح

والتعبير عنه بدقة يتم تهميشه واستبعاده؛ ولعل أهمها التعبير عن العواطف والقيم الإنسانية.

سادساً: وهم الإحساس بالذنب

ثمة مقولة واهمة تعلمناها عن الحضارة الغربية؛ أنها حضارة الإحساس (الجوانى والفردى) بـ «الذنب guilt»، أما حضارتنا فهي حضارة الإحساس (البرانى والجماعى) «بالخجل أو العار shame». يريدون بذلك أن يشعرونا بأن الإنسان الغربى يردعه ضميره، لذا فهو أكثر تحضراً، أما الذى يتم رده اجتماعياً من الخارج بشكل دائم، فهو إنسان غير متحضر.

ولكن أسطورة إحساس الفرد بالذنب هذه تبخرت بغتة عام 1977 حين انقطع التيار الكهربائى عن نيويورك بضع ساعات، وبدأ الناس يتحركون كالقطيع ويقومون بنهب كل ما تقع عليه أيديهم دون سبب واضح، بل اشتركت بعض السيدات من الطبقات الثرية البيضاء فى كرنفال السرقة. أخبرت أصدقائى الأمريكان ساعتها بأننى شاهدت الليلة السابقة تبخر إحدى الأساطير الحاكمة والمقولات المرجعية فى حياتنا جميعاً، وعلينا بعد ذلك ألا نتحدث عن «الضبط الفردى الجوانى» وإنما عن «الضبط العلمى وربما البوليسى الكهربائى».

سابعاً: البحث عن ميتافيزيقا دون أعباء أخلاقية

ثمة ظواهر غريبة انتشرت فى الولايات المتحدة؛ منها زيادة قارئى الطالع والكف (كان آل ريجان لهم قارئة الطالع الخاصة بهم فى البيت الأبيض). كما ظهرت العبادات القديمة الجديدة (مثل عبادة الشمس أو الإيمان بالقدرات الخارقة للهرم وعبادة جايا؛ أى كوكب الأرض)، والإيمان

بالأطباق الطائرة، وغيرها. ويرجع ذلك إلى أنه رغم تزايد معدلات النسبية وتفشي أخلاقيات السوق فإن الإنسان يظل بحاجة لإشباع الجانب الإنساني فيه. لذلك لا مفر من الإيمان بما أسميه «ميتافيزيقا دون أخلاق» أو «ميتافيزيقا بغير تكاليف»، فهذا يعطيه الشعور الميتافيزيقي الذى يبحث عنه، ولكنه فى الوقت ذاته لا يُحمّله أية أعباء أخلاقية، مثل الكسب الحلال وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

ثامناً: النموذج المادى يضرب الإمبريالية

تتضح ببعض التأمل علاقة العقلانية الغربية بالإمبريالية. تلك الأيديولوجية التى قامت على استغلال خيرات آسيا وإفريقيا ونهب العالم، تساندها فى ذلك القوة العسكرية والمفاهيم العنصرية مثل «مسئولية الرجل الأبيض تجاه العالم الثالث»، وهى أيديولوجية أبعد ما تكون عن العقلانية (كُشِفَ أخيراً أن الجنرال مونتجمرى «بطل» العلمين، وضع مخططاً لاستعباد إفريقيا وأهلها وتحويلها إلى مصدر للمواد الخام). ومن ثم، فالغرب يحيا فى ظل حضارة متقدمة دفعنا تكاليفها.

وفى تطور أخير، أدركت الإمبريالية التقليدية أن تكلفة المواجهة العسكرية مع شعوب العالم الثالث أصبحت باهظة، كما أن الدخول فى حرب عسكرية «عالمية» يؤدى إلى استنزاف طاقة الدول الكبرى الغربية. ثم وَجَدَت الحل فى أن تقذف بالدول النامية إلى حروب صغيرة تحقق من خلالها أرباحاً عالية من بيع السلاح للطرفين (لا تزال تجارة السلاح أهم تجارة فى عصرنا الحديث، لا تفوقها حتى تجارة المخدرات).

تاسعاً: النموذج المادى يفرز العنصرية والصهيونية

يلاحظ أى عربى مقيم فى الغرب التعاطف الكامل مع ضحايا النازية من اليهود، ويلاحظ أيضاً التفهم العميق لرغبة اليهود فى العودة «لأرض أجدادهم» أرض الميعاد (بعد غياب دام بضعة آلاف من السنين)، ولكن الغرب نفسه لا يتفهم لِمَ يصّر الفلسطينيون على العودة، ويعرض عليهم بضعة ملايين من الدولارات للتخلى عن أوطانهم. فالحق ليس فوق القوة، بل إن دارون ونيتشه فوق الجميع.

إن العقل الغربى يُعجّب أيما إعجاب بالصهاينة بسبب بطشهم وقوتهم ومقدرتهم على حل كل الأمور بطريقة عملية جراحية باترة مباشرة. كما يرى هذا العقل أن الصهيونية جزء أصيل وجوهري داخل التشكيل الحضارى الغربى الحديث، ولذا فهو يعطيها حقوقاً مطلقة ويطلب منا أن نعترف بإسرائيل، لا بسبب ما تعرض له اليهود من المظالم، وإنما بسبب موازين القوى التى لا تعرف الله أو الإنسان ولا تعترف بهما، فالمعيار الوحيد هو القوة لا الحق ولا العقل.

والعنصرية الغربية ليست موجهة ضد العرب وشعوب العالم الثالث وحدهم، وإنما تمتد لتشمل الكثير من الأقليات فى الولايات المتحدة، وبخاصة الأمريكيين السود الأفارقة.

عاشراً: حضارة حضرت قبراً يكفى لدفن العالم

يقتبس د. المسيرى كلمات روجيه جارودى حين يقول: «كان نمو الغرب وليد نهب ثروات العالم الثالث ونقلها إلى أوروبا وأمريكا الشمالية، ومن ثم فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث

متخلفًا، وقد حدث ذلك خلال مراحل عدة: إبادة هنود أمريكا بدءًا من القرن السادس عشر - نخاسة العبيد السود لتوفير اليد العاملة - السيطرة الاستعمارية على إفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين المواد الخام والاستثمارات ذات الربح الأعظم في الصناعة وفي التجارة، وذلك عن طريق فرض السعر الأدنى على اليد العاملة والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة. ثم تحوّل استغلال العالم الثالث إلى شكل جديد بنشأة الشركات متعددة الجنسيات وتوسعها». وقد أوجز جارودي إنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية في صورة مجازية رائعة حين وصفها بأنها «حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم».

بالإضافة إلى كل هذا لا بد أن نشير إلى عمليات نهب آثار إفريقيا وآسيا، وأخيرًا متاحف العراق، حتى صارت متاحف البلاد الغربية وميادينها تغص بآثار هذه الحضارات.

لذلك لا نجافي الحقيقة قيد أملة حين نوّكد أن «التقدم الغربي» هو ثمرة نهب العالم الثالث، وأن الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه، وأن نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره. لذلك لا ينبغي أن نتحدث عن «التراكم الرأسمالي» وإنما عن «التراكم الإمبريالي».

قالت نفسى اللوامة: لمر أسمع من قبل شرحًا بهذا الجمال وهذه الدقة لسوءات الحضارة المادية المعاصرة. ولكن، ألا تتفق معى أن هذا التفصيل الذى قدمه د. المسيرى يخرج عن إطار حوارنا الذى ينبغى أن يكون عنك أنت شخصيًّا؟

أجبت اللوامة قائلاً: لمر أقصد من طرحى تشريح الحضارة المادية المعاصرة بقدر ما قصدت أن أبين لك سوء المصير الذى ينتظرنا إذا أصررنا

على السير في ركاب هذه الحضارة، وهو ما ألمسه الآن من تبيننا لتوجهات الفلسفة المادية والتخلي عن خصوصياتنا الحضارية. ولا شك أن هذه القضية من شواغل المُلِحَّة، لذلك حدثتِك عنها بالتفصيل.

كنت ترساً من تروسها!!

سألت نفسى اللوامة: لقد وصل د. المسيرى في فهم الحضارة المادية المعاصرة إلى أعماق بعيدة، فهل وصلت إلى القناعات نفسها خلال تعاملك المباشر مع هذه الحضارة في أثناء عملك - كترس من تروسها - في أحد مستشفيات السعودية؟

قلت للنفس اللوامة: كانت الرحلة إلى المملكة العربية السعودية للعمل في مستشفى الملك فهد بمنطقة الباحة خلال عامي 1982، 1983 هى احتكاكى المباشر الأكبر بالحضارة الغربية المعاصرة. فالمستشفى تديرها الشركة الأمريكية الدولية لإدارة المستشفيات (AMI)، وكان تعاقدنا مع وزارة الصحة السعودية يفرض أن يكون معظم الأطباء وأعضاء هيئة التمريض في المستشفى من الغربيين، وقد كان الكثيرون منهم من الأمريكيين.

وتقع منطقة الباحة في الجنوب الغربي من المملكة السعودية، على سلسلة جبال السَّراوات، وكان اسمها ضيعة مكة، كما سُميت حديقة الحجاز وباريس الشرق، لخضرتها وكثرة أشجارها المثمرة ومتنزهاتها وغاباتها. ويقارب ارتفاع منطقة الباحة العشرة آلاف قدم فوق سطح البحر. وطقس الباحة بارد ممطر شتاءً ومعتدل صيفاً، لذلك تُعد من أهم مصايف المملكة. ويقع مستشفى الملك فهد فوق أحد تلال جبال

السروات على مسافة عشرة كيلومترات من مدينة الباحة. لذلك كانت المستشفى مكاناً بديعاً لإقامتنا وعملنا من حيث الموقع والمناخ والظروف البيئية.

وعندما تأملت منظومة العمل في المستشفى، وجدت أنها تتميز بثلاثة عناصر أساسية، لا شك أنها وراء نجاح هذه المنظومة في جميع الدول المتقدمة. العنصر الأول، هو توفير كل الإمكانيات الطبية اللازمة لتقديم أفضل خدمة للمرضى. والعنصر الثانى، هو توفير الظروف المناسبة لراحة العاملين، سواء السكن وصيانتته، أو الانتقالات داخل مُجْمَع المستشفى، أو وسائل الترفيه وممارسة الرياضات المختلفة، مع ضمان حصول العاملين على حقوقهم المادية كاملة تبعاً لتعاقداتهم دون ماطلة، وذلك ليتفرغ العاملون لإتقان عملهم، وهم في أفضل حالاتهم الصحية والنفسية. أما العنصر الثالث، فهو انضباط العاملين والتزامهم بواجباتهم، في ظل منظومة فعالة للمتابعة والثواب والعقاب.

لذلك لم يكن غريباً لتحقيق العنصر الأول (الإمكانيات الطبية)، أن كانت جميع الأجهزة والأدوات واللوازم الطبية متوفرة، وتعمل بكفاءة عالية، وتُستعمل بأقصى طاقاتها لتحقيق الفائدة لأكبر عدد من المرضى بأقل تكلفة. كذلك كان القسم الخاص بـ «السجلات الطبية» يعمل بمستوى عال للغاية، وهذا القسم هو العمود الفقري للخدمة الطبية، فعن طريقه يتم تسجيل تفاصيل الحالات المرضية ومسارها وكيفية متابعتها، بما يسمح بالقيام بالأبحاث الطبية لاختيار أنسب المنظومات العلاجية للمرضى.

ولتحقيق العنصر الثانى (راحة العاملين)، كانت كل إجراءات القدوم إلى المستشفى للمرة الأولى (الحصول على التأشيرة، حجز تذكرة السفر،

الإقامة والانتقالات داخل المملكة للوصول إلى المستشفى...) مُيسرة وفي أعلى المستويات. كما صُرفَ لى مقابل إجراءات التجهيز للسفر في مصر، مثل رسوم استخراج الشهادات، انتقالات...

ولتحقيق الراحة والتفرغ للعاملين، كان يكفي إذا تعطل أى جهاز فى المسكن أن أبلغ عنه قبل الذهاب للعمل، وعند العودة أجد أنه قد تم إصلاحه أو استبداله. وكان مُلحقًا بالمنطقة السكنية نادٍ لممارسة جميع الأنشطة الرياضية، وحمامان للسباحة أحدهما بارد والآخر ساخن. وكذلك جميع الخدمات البنكية والبريدية ووكالة للسياسة وسوبر ماركت وجميع الأنشطة المطلوبة التى تغنى العاملين عن الخروج من المستشفى.

إما العنصر الثالث (الانضباط والمتابعة)، فهو عنصر أساس لتقدم منظومة العمل، وبدونه تنهار تمامًا. ولعل القصور فى هذا العنصر هو أشد ما تعانيه منظومات العمل فى الدول النامية؛ فالاعتماد على الالتزام الشخصى سواء بدافع دينى أو وطنى أو أخلاقى غير كاف، ولا تقوم عليه المؤسسات والدول والحضارات. وأذكر أنه كان لنا فى قسم الجراحة جلسة أسبوعية يتم فيها محاسبة المقصرين والمخطئين. كما اجتمع بى رئيس القسم أمريكى الجنسية بعد نهاية تعاقدى للسنة الأولى ليناقشنى أدائى خلالها، وفى نهاية الجلسة أخبرنى بأنه سيطلب لى الحد الأقصى من العلاوة عند تجديد العقد للسنة الثانية.

وإذا كانت منظومة العمل بعناصرها الثلاثة السابقة تحتاج إلى إمكانيات مادية كبيرة، فلا شك أنه يمكن تحقيق الحد الأدنى من هذه العناصر بإمكانيات مادية أقل كثيرًا، تتماشى مع ظروف الدول النامية.

وكم كنت أتمنى في أثناء عملي بالمستشفى أن تتوافر هذه العناصر الثلاثة في المستشفى الجامعى الذى أعمل به فى بلادى.

ولما كنت قد ذهبت إلى هذا المكان وأنا مشحون نفسياً ضد المنظومة الغربية، وخاصة الأمريكية، فقد آثار دهشتى أن وجدت أن معظم «الخواجات» كانوا على جانب إنسانى رفيع. فقد كانوا يبذلون أقصى الجهد فى رعاية المرضى والتخفيف عنهم، وهو عكس مع ما يلقاه المرضى فى بلادى من تقصير وإهمال من كثير من الأطباء وأعضاء هيئة التمريض. كذلك أعجبنى أن أرى مدير المستشفى وقد وقف فى طابور المطعم لتناول الغذاء خلف العامل البنجلاديشى لأنه حضر بعده، بالرغم من أن المدير يدفع دولارين فى الوجبة بينما يتناولها العامل مجاناً.

وعلى المستوى الشخصى، كنت ألقى التقدير والاحترام من كل من تعامل معى من هؤلاء الخواجات. فمثلاً كنت أسافر لأداء العمرة كل بضعة أسابيع، وكنت أغادر المستشفى صباح يوم الخميس لأعود صباح السبت، وقد اتفق معى رئيس قسم الجراحة (وهو جراح وقس أمريكى) على أن أترك طلب الإجازة عن يوم الخميس على مكتبه، وأقوم باسترداده بعد عودتى، وإذا (لا قدر الله) وقع لى حادث، فإنه سيقدم الطلب لإدارة المستشفى باعتبارى قد قدمته لرئيسى، وذلك حتى لا تضيع حقوقى. لا شك أن المواطن الأمريكى يختلف تماماً فى إنسانيته عن الحكومات الأمريكية التى لا ترى إنساناً سوى المواطن الأمريكى أولاً ثم الأوروبي ثانياً.

وإذا كانت رؤيتى للجانب الإنسانى عند المواطن الأمريكى فى هذه الفترة قد تحسنت، فإن نظرتى بخصوص اتهامه بالجانب المادى قد

تَعَمَّقْتُ، فقد لمست ذلك في العديد من المواقف. أذكر منها ما كان من د. كارتر وزوجته اللذين تعاقدًا مع المستشفى كاستشاريين للأمراض الباطنة، وعندما ثبت عدم كفاءتهما تم تنزِيلهما للعمل كطبيين ممارسين عامين، وعندما سألت د. كارتر؛ ألا يُسَىء ذلك إليكما؟ أجابني: لو طلبوا منا أن نَمسح بلاط المستشفى سنفعل، طالما لم ينقصوا من راتبنا دولارًا. وفي المقابل، تعرض أحد الأطباء المصريين لنفس الموقف، فاعتبره إهانة، ورفض الامتثال لهذا التغيير، وفضَّل العودة إلى مصر.

كذلك تعمقت نظرتي عن سيادة عقلية «التفرقة العنصرية» عند الأمريكيين، وكان ذلك نتيجة لموقف مر به د. أحمد، استشاري النساء والتوليد في المستشفى. فدكتور أحمد مصرى الأصل، حصل على بكالوريوس الطب والجراحة من جامعة الإسكندرية، ثم هاجر إلى السويد حيث حصل على شهادة الدكتوراه، كما حصل على الجنسية السويدية. وعندما تعاقدت المستشفى مع د. أحمد حددت له الراتب الذي يُعطى لحملة الدكتوراه من السويديين. وبعد ثلاثة أشهر من العمل تَنَبَّهت إدارة المستشفى إلى أن د. أحمد يتحدث العربية بطلاقة ولا يحتاج لمترجم (وهذا يحقق وفرًا ماديًا للمستشفى) مثل باقى الاستشاريين الغربيين. وعندما بحثوا الأمر وعرفوا أنه مصرى الأصل، أصرت إدارة المستشفى على تخفيض راتبه إلى مستوى راتب الأطباء المصريين. رفض د. أحمد هذا الظلم، وتمسك بشروط العقد، ورفع قضية في القضاء السعودي وكسبها.

أنهت المستشفى عمل د. أحمد، بعد أن اضطرت لأن تدفع له الراتب المستحق للاستشاري السويدي لمدة عامين تبعًا للعقد. وعاد د. أحمد

إلى السويد مرفوع الرأس وفي جيبه راتب العامين كاملاً. لا شك أنه موقف يعكس عنصرية قميئة ضد العرب، إذ لم تحتل إدارة المستشفى أن يكون طبيب مصري الأصل استشارياً بها، بالرغم من توافر شروط الحكومة السعودية بأن يكون الاستشاري غربي الجنسية، وحاصل على الدرجة العلمية العليا من إحدى دول الغرب.

ومن الأساطير التي انهارت داخل عن الحضارة الغربية في أثناء عملي في إحدى منظوماتها، أسطورة العدل وعدم المحاباة. فبينما كنت أعمل بالمستشفى، قامت وزارة الصحة السعودية بتعيين أحد أساتذتي في الجراحة (أ.د. محمد النجار- رحمه الله) مشرفاً طبياً عاماً على المستشفى، ولهذا المنصب سلطات تفتيشية كبيرة على أداء المستشفى. يومها قال لي نائب رئيس قسم الجراحة (وهو أمريكي الجنسية)، أبشر!، ستقوم إدارة المستشفى بترقيتك وإعطائك الكثير من المزايا خلال فترة وجيزة، يشير بذلك إلى أن المشرف الطبى على المستشفى هو أستاذى، وبالفعل حدث ما توقعه د. جوير.

ظننت وقتها أن إدارة المستشفى الأمريكية قامت بهذه المحاباة والمجاملة لأنهم يلعبون على غير ملعبهم، أى أنهم يخضعون لمجتمع شرقى يراعى الوساطة والمحسوبية، لكن الأيام أثبتت لى غير ذلك. فمنذ بضع سنوات، كنت أراجع سيرة الفيلسوف الأمريكى الملحد دانييل دينيت، وقابلنى موقف شديد الدلالة. لقد مات والد الفيلسوف وهو بعد صبى صغير، ويعتبر دينيت ذلك ميزة! إذ علّمه الاعتماد على النفس، وهو بذلك أفضل حالاً من زملائه فى الجامعة الذين كان آباء بعضهم أساتذة فى جامعتى هارفارد و MIT، فقد كان هؤلاء التلاميذ يلقون محاملات ومحاباة من قبل أعضاء هيئة التدريس فى الجامعة.

إذا فمجتمع المدينة الفاضلة في الغرب، الخالي من العبودية للدولار والتميز العنصري والمجاملة والمحابة، ليس إلا وهماً في عقول مجموعة من المفكرين التغريبيين المنهزمين الذين نقلوه إلى شبابنا.

وعندما صَمْتُ عن الكلام، أدركْتُ نفسي اللوامة أنى قد انتهيت من وصف تجربتي المباشرة مع الحضارة المعاصرة من خلال عملي كأحد تروس منظومتها في مستشفى الملك فهد بالباحة في السعودية.

سائِحٌ يَقْظُ

بعد ذلك، سألتني نفسي اللوامة؛ وماذا عن تجربتك المباشرة الثانية مع الحضارة المادية المعاصرة؟

أجبت اللوامة قائلاً: كان لقائي المباشر الثاني والأخير مع الحضارة المادية المعاصرة من خلال زيارتي السياحية للولايات المتحدة، التي بدأت أواخر شهر يوليو عام 2014، واستمرت لمدة أربعين يوماً، ولا شك أن الزائر للمكان كسائح يرصد من إيجابياته أكثر مما يرصد من سلبياته. ومع ذلك فإنني أرى أن تجاربي الأربع (المباشرة وغير المباشرة) قد أكمل بعضها بعضاً ورسمت صورة على قدر كبير من الحقيقة للحضارة المادية الحديثة، التي أصبح تعاملني معها حتمى ولا فكاك منه. كما أصبح علينا جميعاً أن نتوصل إلى المعادلة التي تكفل الأخذ من إيجابياتها وتحاشي سلبياتها، وإن كان هذا هدفاً صعب المنال، بعد أن فرضت هذه الحضارة نفسها على العالم أجمع.

وخلال وجودي في الولايات المتحدة، كتبت عددًا من الرسائل على صفحتي في الفيسبوك، أنقل فيها انطباعاتي عن الرحلة إلى أصدقائي

وقرائى، وقد رأيت أن أعرض عليكِ تجربتى من خلال هذه الرسائل، باعتبارها تحمل الانطباعات الحقيقية عن هذه الرحلة.

قالت اللوامة: رأى بعض قرائك فى رسائلك هذه ملامح إعجاب - اعتبروه انبهاراً - بالتجربة الأمريكية، بالرغم من كثرة سلبياتها، فما قولك؟

قلت للوامة: لقد أثارت رسائلى الإلكترونية آلاف التعليقات والمدخلات والتساؤلات حول محتواها. وقد تباين تفاعل القراء تجاه الرسائل فى اتجاهين، أقلية تبنت نفس موقفى، فى الإعجاب بالإيجابيات التى رصدتها فى سلوك الشعب الأمريكى، ورأت أهمية أخذ ما ينفعنا منها، وأكثرية اتخذت موقفاً رافضاً تجاه أى إعجاب بالإيجابيات، سواء فى الشعب أو فى طبيعة القارة الساحرة!! وقد انطلقت مآخذ هذا الفريق من أربع سلبيات فظيعة بحق، أولها؛ اعتماد قيام الولايات المتحدة كدولة على إفناء عشرات الملايين من الهنود الحمر وقتل واستبعاد الملايين من الأفارقة. وثانيها؛ دعم الولايات المتحدة الوقح لإسرائيل وإعانتها على استلاب حقوق الفلسطينيين ودعمها فى حروبها ضد العرب. وثالثها تبنيها ودعمها المطلق للمنظومة الاقتصادية الرأسمالية بالرغم مما لها من آثار مدمرة لاقتصاديات الدول الفقيرة. ورابعها رعايتها للإرهاب فى منطقتنا العربية فى السنوات القليلة الأخيرة، وهو ما أدى إلى خراب الكثير من بلادنا.

ولا شك أن هذه السلبيات الأربع، التى تبناها الفريق الراض لأى ثناء على إيجابيات التجربة الأمريكية، سلبيات حقيقية وهائلة ما زالت الحكومة الأمريكية تمارس معظمها، وما زالت الإنسانية تعانيها، خاصة العرب والمصريين على الأخص. لكن هذا لا يمنع أن الحكمة ضالة المؤمن،

أينما وجدها فهو أولى بها، وهذا ما حدا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن ينقل الكثير من أنظمة إدارة الدولة الإسلامية عن الفرس والروم بالرغم من أنهم كانوا أعداء أمسه وكذلك يومه، بل كانت دماء شهداء معارك المسلمين معها ما زالت تجري. ولا أحسبني بحاجة للاستشهاد بهذا الموقف، ولا بدعوة الإسلام لاتباع ما يثبت نفعه، فالمصلحة هي الحكم والدافع فيما يمكن اتباعه ونقله عن الآخرين.

والآن إلى رسائل العشر على الفيسبوك عن رحلتى إلى الولايات المتحدة:

(1) خواطر حول تمثال الحرية وجزيرة إيليس Ellis: 2014/8/1

«رفاق رحلة عقل...»

منذ قرابة 130 عامًا، أهدت فرنسا تمثال الحرية للولايات المتحدة باعتبارها رمزًا للحريات؛ حرية التعبير والأفكار والعقيدة والسلوك، وذلك بعد أن فتحت أمريكا الباب للمهاجرين من كل أنحاء العالم، من أجل أن يحقق كل منهم حلمه في حياة لم يستطع تحقيقها في بلاده. ويجاور الجزيرة التي أُقيم عليها التمثال جزيرة أخرى (إيليس Ellis) كانت مقرًا لإجراءات الهجرة والحجر الصحي للوافدين الجدد. ويوجد في هذه الجزيرة مُتحف يعرض صفحات من أيام الهجرة الأولى، وفي هذا المُتحف قسم بعنوان (إعمار الأرض بالسكان Populating the land)، وقد أثار هذا العنوان في نفسى خاطرًا:

تُعتبر الولايات المتحدة النموذج الوحيد في التاريخ والجغرافيا لدولة تم تجميع شعبها من شعوب الأرض المختلفة، دون أن يجمعهم عرق أو

أصل أو دين أو لغة أو.... أو... أفراد يجمعهم الطموح لحياة أفضل أصبحوا يمثلون شعباً... أما إسرائيل التى يتم (أيضاً) جمع شعبها من أقطار العالم، فيتم ذلك بحجة العرق والدين، بخلاف الولايات المتحدة التى لا يجمع شعبها إلا الطموح والرغبة فى التفوق. لقد آثار هذا الخاطر فى نفسى عددًا من التساؤلات:

- هل هذا الطموح يقف وراء ما أعرفه من جدية المواطن الأمريكى فى العمل، ومن ثم هو السبب فيما حققته هذه الدولة من سيادة فى العالم؟

- ما الذى يحجب الكثيرين من أهل بلادى عن الطموح والجدية؟ بالرغم من أن ديننا يعتبر أن «العمل عبادة».

- هل يمكن للطموح والمصلحة أن يُشكَّلا رابطاً قوياً يجمع بين أفراد متباينين ليشكلوا شعباً واحداً؟

- إذا كان أستاذنا د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) يرى أن الحلم الأمريكى فى أن ينصهر الأمريكيون فى بوتقة واحدة لم يتحقق، ألا ترون معى أن هذا الحلم فى طريقه للتحقق؟

- بالنسبة لى، يمثل الانتماء الوطنى للعرق والأصل بديهية وجودية، فهل تمثل التجربة الأمريكية مثلاً لنجاح ما بعد الحداثة فى القضاء على الحقوق والثوابت التاريخية، وسيادة البراجماتية (سياسة الأمر الواقع) والطموحات المادية؟

تساؤلات عديدة آثارها تأمل بنية الشعب الأمريكى، وكل منها يؤلِّد عددًا من التساؤلات الأخرى...

أرجو ألا أقرأ في مداخلات البعض على رسالتى أن عمرو شريف قد انبهر بزيارته للولايات المتحدة، فأنا بعيد كل البعد عن ذلك، لكننى أطرح تساؤلات موضوعية...».

(2) الحكمة ضالة المؤمن: 2014/8/4

«رفاق رحلة عقل...»

أتفق تماماً مع ما جاء فى بعض المداخلات حول رسالتى: خواطر حول تمثال الحرية وجزيرة إليس... تلك المداخلات التى أشارت إلى قيام الولايات المتحدة على جرائم فظيعة فى حق الإنسانية، كإبادة الهنود الحمر واستعباد الأفارقة، وهذه جرائم يعترف بها الأمريكيون الآن ويحاولون التكفير عنها... كما أتفق مع القول بأن السياسيين والعسكريين الأمريكيين المعاصرين ينتهكون حقوق الإنسان غير الأمريكى، كما حدث فى هيروشيما ونجازاكي والعراق وغيرها وغيرها...

وفى إحدى الندوات التى نظمتها جريدة الأهرام المصرية وأدارها أستاذى د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) حول «الطريق إلى نهضة عربية»، تبنى معظم العلمانيين الحاضرين الرأى بأن نهضة العرب لا تتم إلا باتباع النموذج الغربى، بل وتمسك الكاتب توفيق الحكيم بأن النهضة لن تتم إلا باتباع النموذج الإسرائيلى بالتحديد!!! فبين لهم د. المسيرى استحالة ذلك. فتلک النماذج حالات خاصة لا يمكن أن تتكرر؛ فالتجربة الأوروبية قامت على تراكم رأس المال عن طريق الاستعمار، والتجربة الأمريكية قامت على الإبادة والاسترقاق، والتجربة الإسرائيلية قامت على اغتصاب الأرض وإنكار الحق التاريخى. وهذه الجرائم كلها لا يمكن تكرارها الآن...

أتفق مع هذا كله، ولا مجال لإنكاره...

وفي الوقت نفسه، كشف الكثير من المداخلات على رسالتي مشكلة أنا (كعرب) مغرمون بالتاريخ أكثر من الحاضر، ومغرمون أيضاً بالنظر إلى سلبيات الآخرين دون إيجابياتهم، لذلك عندما طرحت التجربة الأمريكية ودعوت للاستفادة من إيجابياتها، اكتفى الكثيرون باستعراض نشأتها التاريخية الظالمة والتي يستنكرها الأمريكيون أنفسهم، وفاتهم الخروج من هذه التجربة بدروس مستفادة، وفي هذا خسارة كبيرة لنا نحن... وللأسف فإن هذا الاتجاه هو السائد في الخطابين العربي والإسلامي.

إن القضية التي تناولتها في رسالتي السابقة، والتي أدركتها بعض مداخلات الأصدقاء هي:

أولاً: هل تصلح «المصلحة» عاملاً يجمع بين الأفراد ليتكون منهم شعباً، بعد أن استقرت علوم الاجتماع على عوامل معينة لقيام الشعوب؛ كالأصل والعرق والتاريخ المشترك واللغة والدين، وغيرها؟

ثانياً: ما إيجابيات الحياة الأمريكية «المعاصرة» التي يمكن أن نستفيد منها لنحقق نهضتنا؟ ألم يقل الرسول الكريم ﷺ: الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أولى بها... أعرف (ما ذكرني به البعض) أن الإسلام (قرأنا وسنة) قد قدم لنا عوامل النجاح وقيام الحضارة، لكنني أتحدث عن التطبيق العملي المعاصر، وأتحدث عن السير في الأرض لقراءة السنن الحضارية في الأمم والأقوام حتى نتعلم منها هذا ما أمرنا به الله عز وجل... ماذا ترون؟»

«رفاق رحلة عقل...»

خطأ كبير يقع فيه الكثيرون (وتبنته الكثير من المداخلات على رسالتي السابقة)، وهو اعتبار أن «التقدم المادى» لا يتحقق إلا في ظل «الفكر المادى» و«الفلسفة المادية»، ومن ثم إذا أردنا التقدم علينا الاستسلام للمادية. ربما كان هذا الادعاء مقبولا منذ بضعة عقود، عندما كان التقدم قاصرا على دول العالم الغربى (أمريكا وأوروبا)، عندها كان العلمانيون يستشهدون بذلك على أن التقدم منظومة واحدة، إما أن نأخذها كلها أو ندعها كلها. أى أنك إذا أردت التقدم فعليك قبول ما فى الغرب من بلايا: تجاهل الألوهية والدين، والتحلل الأخلاقى، وغيرهما من سوءات مرتبطة بالمنظومة الرأسمالية.

أما الآن فقد تغير الوضع، وحقت دول أخرى (النمور الآسيوية) تقدما ماديا كبيرا دون أن تتبنى الفكر المادى والفلسفة المادية، بل تتمسك هذه الدول بالفكر الدينى والفلسفات غير المادية. كذلك انضمت أخيرا لطائفة المتقدمين دول إسلامية مثل تركيا وماليزيا وإندونيسيا... وبذلك ثبت أن الدول يمكن أن تحقق «التقدم المادى» دون أن تقع فى التحلل الأخلاقى ولا فى التنكر للديانات...

وبالرغم من ذلك، فقد رأيت خلال زيارتي لليابان ما ساءنى. كنت أظن أنى سأشاهد هناك ملامح حضارتهم العريقة؛ فأرى النساء يخطين برقة فى ثياب الكيمونو، وأتناول أطعمتهم الشهيرة باستخدام العصى، وأنام على الحصير فى فنادقهم الصغيرة، و... لكننى للأسف، وجدت الجميع يرتدون الجينز ويأكلون الهامبرجر الأمريكى، ووجدت فنادق

الحصير أغلى عدة مرات من الفنادق الغربية!! إنه انهزام حضارى أصاب
اليابان عقب هزيمتها في الحرب العالمية الثانية.

وتساءلت بعض المداخلات مستنكرة: وما حاجتنا للتقدم المادى؟
أليس بناء الإنسان هو الأهم؟

نعم... بناء الإنسان هو الأهم، لكن ذلك لن يتم دون قوة تحميه...
إن بناء الإنسان يحتاج لاستقلال اقتصادى وعلمى وإعلامى وعسكرى
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، لذلك
لا كرامة فى عالمنا المعاصر لدولة فقيرة ضعيفة...

ويقول البعض: أليس فى منهج الإسلام الكفاية لتحقيق التقدم؟
نعم... لكن الإسلام يضع الخطوط العريضة لمشروع النهضة (أى
الفكر الإستراتيجى)، أما التفاصيل التطبيقية التى تختلف مع الزمان
والمكان (الفكر التكتيكى) فذلك تقوم به عقول علماء متخصصين،
وصفهم القرآن الكريم بأهل الذكر.

لقد صارت «منظومة التقدم المادى» معادلات معروفة لكل
الاقتصاديين، تبعها من تبعها ففاض، وتراخى فى اتباعها معظم المسلمين
(لدوافع عديدة) فاحتلوا مواضع لا يرتضيها لهم الله عزَّجَلَّ ولا رسوله
الكريم..

(4) الشيخ الدجال: 2014/8/7

«رفاق رحلة عقل...»

منذ أربعين عاماً، تبنيت (ولا أزال) رؤية المفكر الكبير محمد أسد
(المستشرق النمساوى ليوبولد فاليس)، بأن مفهوم «المسيح الدجال» قد

تحقق في «الحضارة المادية المعاصرة»، سواء تجسد هذا المفهوم في جسد إنسانى أو لم يتجسد..

ألا تتسم هذه الحضارة بصفات المسيح الدجال كما جاءت في الأحاديث النبوية الصحيحة؛ أليست حضارة «عوراء» أحادية الرؤية، لا ترى في الإنسان إلا جانبه المادى فقط؟ أليس ما تقدمه باعتباره الجنة هو في الحقيقة النار، والعكس صحيح؟ ألم تُمكن هذه الحضارة الإنسان من أن يبصر ويسمع عن بُعد هائل؟ ألم تصنع الحضارة المادية للإنسان ما يشبه المعجزات؟ أليست كافرة ولا يدرك ذلك إلا مؤمن؟ أليست... أليست...

وقد عشت حياتى متحققًا باتصاف الحضارة المادية بهذه السمات، وازداد تيقنى من ذلك بعد اطلاعى على فكر أستاذى د. عبد الوهاب المسيرى. ثم قَدَّرَ الله عَزَّجَلَّ لى أن أتعامل بشكل مباشر مع معقل هذه الحضارة، وأن أتتحقق من هذه المعانى رَأى العين، فارتقى «علم اليقين» إلى مرتبة «عينُ اليقين».

وفى نفس الوقت، كلما سرت فى شوارع نيويورك وبوسطن، وعندما زرت معالمها السياحية، خاصة متحفى التاريخ الطبيعى والمتروبوليتان للفنون، وأيضًا جامعتى هارفارد وييل، وما فيهما من نظام وانضباط ونظافة وحسن معاملة، أقول؛ كلما رأيت ذلك همست بصوت تسمعه زوجتى وابنى اللذان رافقانى فى الرحلة: ليتنى أرى مثل ذلك فى بلادى...

اكتب ذلك لألفت النظر إلى ما يصيب بعض شبابنا من انبهار، فيخلطون بين التقدم المادى بإيجابياته وبين الفكر والفلسفة المادية

بسلبياتهما... وقد جالست في مصر وأمريكا عددًا من الشباب العربي الذين ذهبوا للولايات المتحدة ودول أوروبا للدراسة فافترسهم غول الانبهار، ورأوا في هذه الحضارة الفردوس الأرضي المفقود، وقد سبقهم إلى ذلك كثير من المفكرين العرب منذ بدايات القرن العشرين...

لذلك، أرى أنه ينبغي أن يتحصن شبابنا المبتعثون للغرب من داء الانبهار، وذلك بوسيلتين:

أولاً: الاطلاع على حقيقة الحضارة المادية المعاصرة التي هي إفراز للفلسفة المادية. وأرشح لذلك فكر د. المسيرى وكتابي عن رحلته الفكرية، وأرشح أيضًا كتاب الفردوس المستعاد والفردوس المستعار للدكتور أحمد خيرى العمرى.

ثانيًا: دراسة ما يوج به الفكر الغربى من مفاهيم إلحادية، والتمكن من دحضها بالمنطق العلمى. وأرشح لذلك ما طُرح فى الساحة من كتب متميزة، منها كتابى «خرافة الإلحاد»⁽¹⁾.

والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين...».

(5) خواطر متنوعة: 2014/8/9

«رفاق رحلة عقل...»

- عند القيام بإجراءات دخول إلى الولايات المتحدة، لاحظت أن مطار القاهرة أجمل وأوسع وأكثر تنظيماً من مطار J. F. Kennedy، لكن حجم العمل فى الأخير أكثر كثيراً من مطار القاهرة (يوجد أكثر

(1) بعد هذه الرسالة بعام واحد، أصدرت كتابى «الإلحاد مشكلة نفسية»، الذى يتناول الخلفيات النفسية لتبنى الإلحاد.

من ثلاثين شباناً لحتم الجوازات تعمل بكامل طاقتها في صالة واحدة) وبالرغم من ذلك فالحركة سريعة للغاية.

- بعد أن وصلت إلى الشقة التي استأجرتها في بروكلين بنيويورك، علمت أن مالك الشقة يحتفظ بنسخة من مفاتيح بابها وأن من حقه دخولها لأخذ بعض متعلقاته في أى وقت، عندها قررت تركيب ترباسين (مزلاجين) للباب حتى لا يدخل المالك علىّ وأسرقى في أى وقت... كلفنى تركيب ترباسين (عاديّين جدًّا) 200 دولار = 1500 جنيه مصرى في مهمة استغرقت من العامل عشر دقائق... عمار يا مصر...

- للمتاحف الحكومية (مثل متحف التاريخ الطبيعى والمتروبوليتان للفنون) رسوم مقترحة suggested للدخول (تتراوح بين 20 - 25 دولارًا) ومن حق الزائر أن يدفع ما يشاء، حتى لو كان دولارًا واحدًا أو لا شيء! أما المتاحف الخاصة فلتذكره دخولها قيمة محددة ثابتة...

- رافقنى فى إحدى الجولات السياحية جراحٌ أمريكى تعرفت إليه فى أحد المؤتمرات الجراحية بالقاهرة، وقال لى بعد الجولة: إن ما رأيناه من معالم يرجع إلى عشرات السنين، أو مائتين أو ثلاثمائة سنة على الأكثر، أما ما رأيته فى مصر كم فيرجع إلى مئات عديدة أو الآلاف من السنين. لا شك أن ما قاله الجراح صواب، لكنهم صنعوا من الفسيخ شربات (كما نقول فى مصر)؛ جولات سياحية على مراحل عبر نيو يورك كلها، ساعات تروى لك وتشرح كل ما تشاهد فى الجولة أو فى المتحف بلغات عديدة، نظام ونظافة مُبهرين...

- خرجنا من نيو يورك إلى بوسطن (3 ساعات بالسيارة) ودفعنا رسوم بوابات المرور قُرابة 13 دولارًا، مرة أخرى عمار يا مصر...

- لفتت نظري في الطريق السريع كمية الأشجار الخضراء الهائلة على جانبي الطريق. وعلمنا أن أوراق هذه الأشجار تتساقط في الشتاء، لذلك يقوم المسؤولون بتعليق لافتة على كل شجرة تحمل البيانات اللازمة لرعاية الشجرة في أثناء هذا الفصل القارس!!!

- أشد ما لفت انتباهي هو نظافة طرقات وحدائق وساحات المدن، تأوهت كمداً على كمية القاذورات التي تملأ أشهر شوارعنا، والتي تسبب فيها جهلاء أو خونة مرتشون كانوا وراء إسناد مسؤولية نظافة القاهرة لشركات أجنبية بشروط تفتقر إلى المتابعة وإلغاء العقد في حالة التقصير، ذلك بعد أن كانت هناك منظومة لجمع قمامة القاهرة بكفاءة لا بأس بها...
أكرر كل يوم عدة مرات: ليتني أجد في بلادي مثل هذا...».

(6) قراءة في صفحة من «كتاب الله المنظور...»: 2014/8/1

تأملات حول زيارة إلى شلالات نياجرا Niagara Falls
«رفاق رحلة عقل...»

سبحانك ربي «البدیع»: بديع السماوات والأرض...

- سرْتُ موازياً للماء المتدفق عبر أشجار الغابات والصخور الناتئة إلى نهاية البحيرة.

- وقفت بعيداً أتأمل الماء الهادر المتساقط عبر الشلالات الثلاثة، بأعلى معدل لتساقط المياه عبر الشلالات في العالم.

- اقتربنا إلى أقصى حد ممكن من الماء المنهمر من الشلالات ونحن فوق سطح السفينة «خادمة الرزاز The Maid of Mist» فغَشِينَا الرزاز الذي يملأ المكان.

- ثم وقفنا على السقالات فوق الصخور التى يرتضم بها الماء المتساقط
كالهراوات بلا هوادة.

فى هذه المواقف الأربعة، ملأنى شعور بالانبهار والسكينة! بالرغم
من هدير الماء الصاخب.

أى لوحة تلك التى أرى! وأى سيمفونية تلك التى أسمع! وأى هدهدة
تلك التى يداعب بها الرزاز وجهى ويضرب بها الماء المتساقط جسدى!
إنه مزيج من اندفاع الماء واضطرابه وتساقطه، ومن الصخور
الجبارة والصخور المتشظية، ومن الأشجار السامقة وأيضًا تلك التى
تهاوت إلى الأرض بفعل المياه المندفعة، ومن الرياح التى تنثر بعضًا
من المياه المتساقطة، ومن، ومن،... إنه امتزج رائع لبعض من عناصر
الطبيعة.

سبحان ربى «البدیع» الذى أبدع تلك اللوحة وتلك السيمفونية وهذه
الهدهدة والحنان. وفى نفس الوقت، مع تجليات الجمال تلك، تستشعر
تجليات الجلال فى الشلال الهادر؛ تستشعر صفات الإله القوى القهار
الجبار.... وباكتمال الجمال والجلال تستشعر الكمال الإلهى...

فى غمرة تجليات الجمال والجلال تلك، دعوت بكمال الخير لدينى
ووطنى وأهلى وكل من تعلق قلبى به وتعلق قلبه بى...
سبحانك ربى....

وفى أثناء عودتنا للفندق، جال بخاطرى - بعد أن حل الظلام - كيف
استولد الإنسان من المياه المتساقطة «الكهرباء»، تلك المعجزة الإلهية
العجيبة، التى تتخذ هيئة القوة الفيزيائية، فتارة تعطينا الحرارة، وتارة

البرودة، وتارة الإضاءة، وتارة الحركة الميكانيكية، وتارة تُستخدم في علاج بعض الاضطرابات الدماغية، وتارة....، وتارة....

لقد تطلب ذلك كله أن يُوهَبَ العقل البشرى القدرة على تذوق الجمال والتفاعل معه، وأن يُوهَبَ أيضًا القدرة على فهم قوانين الطبيعة واستغلال قواها.

بمثل ذلك وهب الله عَزَّجَلَّ الإنسان بعضًا من ملكات اسمه «البديع»، وبمثل ذلك صار الإنسان خليفةً من الله في الأرض...
سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب...».

(7) قراءة في صفحة من «كتاب الله المنظور...»: 2014/8/21

مع عالم الأحياء...

«أحبائي رفاق رحلة عقل..»

سبحانك ربي: «المحيي»، «الواسع»، «البديع»، «القدير».

زرت منذ أسبوعين مُتْحَف التاريخ الطبيعي بنيويورك، وقد بهرني فيه قسم «التنوع البيولوجي Biological Diversity، سبحان الله، أَكُلَّ هذا التنوع والجمال في الكائنات الحية (حيوانية ونباتية)! شعرت وقتها أن ذلك من تجليات أسماء الله عَزَّجَلَّ «الواسع» «البديع» «القدير»، سبحانه وتعالى...

طوال الأسبوعين الماضيين كنت أشعر بشيء ينقص ما شعرت به في المُتْحَف، كان هناك جزءٌ شاغرٌ في إحساسي بالتنوع! ثم أدركت أن ذلك التنوع «المُتْحَفِي» الصامت لمر يشف غليل قلبي، كنت في حاجة لأن أرى الكائنات وهى تتفجر بالحياة، فجعلت في برنامجي زيارتين

أساسيتين، فذهبنا أول أمس إلى «حديقة النباتات» ببروكلين، وذهبنا
أمس إلى «حديقة الحيوان» في برونكس، وهما من أكبر الحدائق في
العالم...

كنت طوال حياتي (ربما لكوني جراحاً) أستمع بالتنوع في عالم
الكائنات الحيوانية بقدر أكبر كثيراً من النباتات، لكن كانت زيارتي
لحديقة النباتات أكثر إثارة لروحي من حديقة الحيوان! لقد خرجت
منها وأنا أقول: لو كانت جنة السماء بهذا الجمال لكانت أكثر من
رائعة، عندها تنبّهت أن ربّي قد أعد في جنته «ما لا عين رأت، ولا
أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». سبحانك ربّي. ربما يرجع غلبة
انبهارى بعالم النبات الذي استشعرته إلى ما مارسه الفنان من تنسيق
في أقسام الحديقة، بخلاف عالم الحيوان الذي يحتفظ كل كائن فيه
بذاتيته، إنها لمسات الإبداع البشري الذي هو من تجليات اسم الله
عَزَّجَلَّ «البديع». إن كل كائن من هذه الكائنات (حيوانية ونباتية)
موجود «متفرد» في بنيته وهيئته، ولم لا؟ أليس هو من تجليات ربّي
الذي ليس كمثله شيء...

استشعرت أمس أننا قد شغلنا أنفسنا (أكثر مما ينبغي) بخلاف صرت
أراه سخيّاً؛ أخلق هذا الإبداع والتنوع تطوراً أم خلقاً خاصّاً؟ أليس
ربّي عَزَّجَلَّ هو الخالق في الحالين!! لقد خسرنا بسبب هذا الخلاف استشعار
الكثير من جوانب الإبداع الإلهي في الخلق، لقد كاد الخلاف أن يُباعد
بيننا وبين استشعار القدرة الإلهية. سواء كان الخلق تطوراً موجهاً أو
خلقاً خاصّاً، أكرر، فالله عَزَّجَلَّ هو الخالق في الحالين.

ذكرني هذا الخلاف بما كتبه شيخى د. عبد الحليم محمود في كتابه

«الإسراء والمعراج» قائلاً: لقد شغلنا أنفسنا بالخلاف؛ هل كانت الرحلة بالروح والجسد معاً أم بالروح فقط؟ فأفقدنا هذا الاختلاف استشعار أهم ما في الرحلة؛ وهو الدروس المستفادة منها...

بت أمس أسائل نفسي: سبحان ربي، أكلَّ هذا الجمال في الكائنات الحية وفي الطبيعة يرجع إلى أن خالقه جميلٌ يحب الجمال، وفقط... أم أن إمتاع الإنسان بهذا الجمال من مقاصد الخالق عَزَّوَجَلَّ... يقيني أن العطاءات الإلهية لم تقف عند الإيجاد والإمداد، بل تعدتها إلى إمتاع المخلوق بما حوله.

وكما ترجع هذه العطاءات إلى حب الإله الخالق لمخلوقاته، أليس حرياً بها أن تصير دافعاً لحب يصعد من الإنسان لربه؟ عندما وصل التفكير بي إلى ذلك، جالت بخاطري أبيات رابعة العدوية الشهيرة.

أُحِبُّكَ حُبِينَ، حَبَّ الْهُوَى	وَحَبًّا لَأَنَّكَ أَهْلٌ لِيَذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهُوَى	فَشَغَلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	فَكَشَفُكَ لِي الْحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي	وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

عندها توجهت إلى ربي راجياً:

وَقَفْتُ بِيَابِ الْحُبِّ أَطْرُقُهُ عَسَى يُؤْذَنُ لِلْمُحِبِّ أَنْ يَلْجَأَ

عندها عدت إلى بداية الخاطرة وبدأتها بكلمة «أحبابي...».

ليلة أمس، بعد أن أفقت من كتابة هذه القراءة للوجود، سألتني زوجتي: أين كنت؟!

فأجبتها: كان قلبي يحيا في حال «فاسجد واقترب»، وسألت ربي دامعاً أن يُبدِّل هذا «الحال» «مقاماً» يستقر فيه قلبي ولا يفارقه... آمين».

(8) أكرر، الحكمة ضالة المؤمن: 2014/8/27

«رفاق رحلة عقل...»

قد تكون هذه آخر رسائل التي أكتبها من الولايات المتحدة، فغداً إن شاء الله أسافر لزيارة واشنطن، على أن نعود منها يوم الإثنين أول سبتمبر إلى نيويورك، لنستقل طائرة الثلاثاء، لنصل - إن شاء الله - إلى مصرنا الحبيبة في اليوم التالي!

يهمني في هذه الرسالة أن ألفت النظر إلى ما يمكن أن يُصيب الزائر للولايات المتحدة من «انبهار»، وهي نفس الملاحظة التي لاحظتها في أثناء زيارتي لليابان منذ قرابة الثلاثين عاماً. فما يسود (بصفة عامة) في هذه المجتمعات من نظام ونظافة وأمان!! وأدب في التعامل أمر شديد الوضوح، ويتمنى مثله كل مخلص لبلده.

ولا ينبغي أن يتجاوز هذا الإعجاب حدوده فينسبنا كيف قامت الحضارة الأمريكية وكُلِّفَ قيامها. ولا ينبغي أن نخلط بين «التقدم المادي» (الذي نبغيه لبلادنا في ظل منظومة إسلامية متكاملة) وبين «الحضارة الغربية المادية» بما يسود فيها من تحلل أخلاقي وظلم للطبقات الكادحة وتوجه استغلالي بغرض مع نظرة مُستعلية للدول الأخرى، وهو ما يعكس أسلوب الكيل بمكيالين الذي يُميز «الفلسفة المادية».

لذلك أدعو دائماً كل من يسافر للدول التي تسود فيها الحضارة المادية (خاصة شبابنا الذي يُبتعث إلى هناك) إلى القراءة حول سلبات هذه

الحضارة قبل سفره، كوسيلة لإكسابه مناعة ضد ما يمكن أن يصيبه من انهيار حضارى، وذلك بالطبع بعد أن يتزود بالفهم الصحيح لديننا الإسلامى وثوابته ودعوته لتعمير الأرض تحقيقاً لمفهوم الاستخلاف من الله عزَّوجلَّ.

وفي المقابل، لا ينبغي أن تشغلنا كراهيتنا (المبررة) للحضارة الغربية عن رؤية إيجابياتها، والسعى لتحقيق هذه الإيجابيات (بعد فهم آلياتها) في واقعنا الإسلامى. ولا ينبغي أن نكتفى بأن كل هذه الإيجابيات (وأكثر منها) موجود في منهجنا الإسلامى (وهذا صحيح) لكننا في حاجة لتعلم الآليات المعاصرة التى تحقق التقدم، وليس معقولاً أن ننفق عشرات وربما مئات السنين من أجل ابتكار جديد لآليات التقدم!!

إن القارئ لسيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدرك ما أعنى، فالخليفة العظيم أخذ دون تردد عن الفرس والروم كل آليات التقدم الحضارى، ولم يقل إن الإسلام يغنينا عن ذلك. فنقل عنهم كل ما رأى فيه مصلحة الأمة، كالدواوين والعملة وعشرات الأفكار النافعة، مما شارك في بناء حضارتنا الإسلامية الفتية في غمضة عين بمقياس زمن نشأة الحضارات.

أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أولى بها، وكل يوم يمر علينا دون تقدم فنحن في تأخر...

اللهم ها قد بلغت، الله فاشهد..

(9) احترام العلم وبذل الجهد: 2014/9/6

«رفاق رحلة عقل...»

أكتب رسالتى هذه من أرض مصر الحبيبة... أكتبها من مصر التى فى

خاطري وفي دمي (بدلاً من فمي)، وهى غير مصر التى يتنازعها الساسة والإعلاميون والمتآمرون...

لقد تدهورت بنا الحال وصار البعض يسأل؛ ما معنى الوطن؟ وما قيمة الوطن؟ أليس الأهم أن يجد الإنسان النجاح والثروة فى أى مكان، فينتمى إليه؟!... لهؤلاء أقول: الوطن هو ما وصفه الشاعر:

وطنى وصبايا وأحلامى

وطنى وهوايا وأيامى

ورضا أمى وحنان أبى

وخطى ولدى عند اللعب

يخطو برجاءٍ بَسَّامٍ

كانت زيارتى الأخيرة فى الولايات المتحدة إلى العاصمة واشنطن، وهناك استكملت الإجابة عن تساؤلى فى رسالتى الأولى عن سر نجاح الأمريكيين. جاءتنى الإجابة من موضعين:

أولاً: متحف الفضاء والهواء، وفيه عرض لما حققه الإنسان من تفوق علمى، ارتقى به من طائرة الأخوين رايت حتى هبط على القمر وانطلق خارج مجموعته الشمسية، جهود مضنية وهمة وحماس. لم ييخلوا على الطبيعة بجهدهم وفكرهم ووقتهم فحققوا ما يصبون إليه...

ثانياً: زيارتى للتجمع الوطنى National Mall بقلب العاصمة، وهى المنطقة التى تُتخذ فيها القرارات التى تؤثر فى مصير شعوب الأرض كلها. ففيها البيت الأبيض والكونجرس ووزارتا الخارجية والخزانة والمحكمة العليا، ذلك بالإضافة إلى نصبين تذكاريين لتكريم رجلين من أصحاب

الفضل الأكبر في تأسيس أمريكا، وهما توماس جيفرسون وإبراهام لينكولن.

وفي مركز ذلك كله انتصبت «مسلة»، نعم مسلة، تعلو ذلك كله وتُشاهد من كل مكان. وهذه المسلة ارتفاعها 555 قدمًا، أى أعلى بناء رمزي قبل بناء برج إيفل. ولبناء هذه المسلة قصة، فقد شُيّدت تكريمًا لجورج واشنطن الذى يعتبره الأمريكيون رجلًا لم ولن يوجد الزمان بمثله. لكن لماذا اختاروا المسلة رمزًا لتكريم جورج واشنطن؟

قطعًا ليس حبًا في مصر القديمة، لقد اختاروها مثلما اختاروا الهرم ليزين دولارهم. إن المسلة والهرم من رموز الماسونية، التى لها احترامها في الغرب، وليست مجرمة كما في عالمنا الإسلامى بعد أن ثبت تواطؤها ضدنا. وللماسونية عدد من الرموز تُجسد كلها أدوات ومنتوجات العلم. لقد اختارت هذه الدولة أن يكون «العلم» سبيلها، وأخلصت في ذلك، فحققت ما يكفل لها الاستغناء عن الآخرين، بل وقيادة العالم!!!

انظروا ماذا قدم هؤلاء لماسونيتهم؟! وماذا قَدَّمنا نحن لديننا؟! إن ذروة المأساة أن نجد من أنصار دين «اقرأ» و«عَلِّم بالقلم» من يستهينون بالعلم ويُسقِّهون العلماء، ويستमितون في تأصيل ذلك!!!

وينسب البعض أسباب تخلفنا لعصياننا لله عزَّ وجلَّ، وأنا أوافقهم، لكن أليس من عصيان الله أن نُقَصِّر في الأخذ بالأسباب.

هذا ما قدمته لى زيارتى لواشنطن من إجابة عما طرحته من تساؤلات حول سر تخلفنا في ظل تفوق الآخرين، أنه: احترام العلم والعلماء، وبذل الجهد والعرق.

والله من وراء القصد...».

(10) حكاية الترباسين: 2014/9/13

«رفاق رحلة عقل...»

كانت نيتي أن أختم رسائل التأملية عن رحلتى إلى الولايات المتحدة برسالة خفيفة الظل تُدخِلُ البهجة في القلوب، لكن منذ عودتى إلى مصر الحبيبة منذ عشرة أيام شُغِلت ببعض الرسائل والحوارات مع الملاحدة... والآن إلى هذه الرسالة:

حكاية الترباسين: الجزء الأول...

في رسالة سابقة من الولايات المتحدة كتبت عن استئجارى وزوجتى وابنى شقة بالمنطقة الراقية من حى بروكلين بمدينة نيويورك، وكيف أنى علمت من المالك أن نظام إيجار الشقق المفروشة لفترات قصيرة يعطيه الحق فى الاحتفاظ بنسخة من مفاتيح الشقة، والحق أيضاً فى دخول الشقة لأخذ بعض متعلقاته حين يريد!!! أَفْهَمْتُ المالك أننا كشرقيين نحب أن نغلق باب شقتنا علينا من الداخل، واستأذنته فى تركيب ترباسين للباب فوافق.

وأخبرتكم فى الرسالة بأن تركيب ترباسين عاديين قد كلفنى 200 دولار، أى قرابة 1500 جنيه مصرى... ونمت ليلتها قريـر العين وأيضاً الليالى التالية، فكلما كنت أغلق الترباسين كنت أشعر بالارتياح والأمن والأمان... ولا شك أن 40 جنيهاً مصرىً عن كل ليلة ليست بالثمن الكبير مقابل الشعور بالطمأنينة فى بروكلين القلقة بنىـورك... واعتقدت وعائلتى أن حكاية الترباسين قد انتهت عند ذلك الحد... لكن الحكاية أبت إلا أن تكون لها ذيول!!

حكاية الترباسين: الجزء الثاني...

آن أوان العودة إلى مصر الغالية، واتفقت مع طوني (مالك الشقة) أن يأتي لاستلامها ورد قيمة التأمين التي دفعناها عند الاستئجار... وطوني هذا شاب زنجى طيب، يهوى جمع الأيقونات الدينية، وعندما سألته عن مصدر لوحة معلقة في الشقة مكتوباً عليها سورتي المعوذتين من القرآن الكريم، أخبرني بأنها هدية من صديق، وأنها كلمات من التوراة!!! أخبرته بأنها من القرآن الكريم، فطلب مني أن أشرح له معناها ففعلت..

قبل وصول طوني تناقشت وزوجتي في حقنا في استرداد جزء من تكلفة الترباسين باعتبار أننا قد أضفنا إلى الشقة شيئاً يرفع من قيمتها الإيجارية، ثم اتفقنا على أن نتنازل عن حقنا هذا، من أجل أن يتعرف طوني على أخلاقنا الإسلامية وكرمنا الشرقي...

جاء طوني وعان الشقة وأظهر سروره بأن الشقة أفضل حالاً وأنظف مما كانت عليه عندما سَلَّمَهَا لنا. وقام طوني برد قيمة التأمين لي، بعد أن اقتطع منها 125 دولاراً، قال إنه سيضطر إلى دفعها لفك الترباسين، وربما يحتاج لدهان الباب بعد ذلك!! وأضاف أنه يعرف عُمالاً قليلي التكلفة، ولولا ذلك لاقتطع من التأمين 200 دولار!!!

أتمنى أن تكون حكاية الترباسين قد انتهت عند هذا الحد، وألا ألتقى (مثلاً) طلباً من حكومة الولايات المتحدة بسداد بعض الرسوم مقابل تركيب وفك الترباسين!!!

عمار يا مصر...».

ابتسمت نفسي اللوامة وقالت:

لقد أمتعتني رسائلك التي أرسلتها لرفاق رحلة عقل عن رحلتنا إلى الولايات المتحدة، كما أمتعني من قبل استعراضك لتشريح د. عبد الوهاب المسيري للحضارة المادية المعاصرة، وأيضاً عرضك لدروس فترة عملك بالمملكة السعودية كترس من تروس منظومة العمل في أحد معاقل الحضارة المادية. وبعد كل ما استمعت إليه منك، أوافقك على وصف الحضارة المادية المعاصرة بالمسيخ الدجال.

علقت على ما قالت اللوامة قائلاً: سواء كانت تلك الحضارة هي المسيخ الدجال أو حتى الشيطان الرحيم، فالمهم أن نأخذ منها ما ينفعنا ونندع ما يضرنا؛ أليست الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أولى بها...

الجزء الثانى

عالم الفكر

جعلوني مفكرًا

قالت نفسى اللوامة:

لعل أكثر ما يهم قارئك هو علاقتك بعالم الفكر،
فقد تدرجت في سلك الجراحة قرابة الثلاثين عامًا
حتى صرت أستاذًا ورئيسًا لأقسام الجراحة بالجامعة
قبل أن تُصدر كتابًا واحدًا، بعدها كنت تصدر كتابًا أو كتابين كل عام،
فهل ظهر هذا النبوغ الفكرى فجأة؟!

تجاوزت عن هذه السخرية من اللوامة، وكِلْتُ لها الصاع صاعين،
وقلت: أليديك اعتراض؟ أم أنك تشعرين بالغيرة لأن عالمي الفكرى
كان ملكًا خالصًا لى أنا العقل، وأن دورك فيه كان محدودًا للغاية، ويكاد
أن يكون «اللا دور»؟

أجابت اللوامة: إنها ليست غيرتى، بل هو غرورك، أتذكر أنى
لوامتك التى تصحح مسارك أولًا بأول، ألا يعطينى ذلك دورًا فى مسيرتك.
وأضافت: دعنا من هذه الخلافات، أصدقنى القول، هل كان توجهك
للكتابة الفكرية رغبة فى الانفتاح على مجال جديد تحقق من خلاله الريح
والمزيد من الظهور، بعد ما حققته فى الجراحة وفى الوسط الجامعى؟
فَشَلْتُ كلمات اللوامة فى استفزازى، بل أَلَقَمْتُهَا بهدوء الحُجَّة

المُسَكِّتَةُ بأن قلت لها: أنْغاطيني مرة أخرى! إن السعى للشهرة من حظوظ النفس، أى إنها مطلبك أنتِ ومُنَاكِ، أما أنا فلا أصبو إلى المزيد من الشهرة في مجالى، فقد أصبح لى مدرسة في تدريس الجراحة تحدت ملاحظها عبر السنين، حتى طُلب منى مراراً أن أكتب كتاباً في الجراحة، فاعتذرت، لقناعتي أن هناك العديد من الكتب التى تعرض الجراحة بأساليب مختلفة تناسب جميع الطلبة. كذلك لم أشرع في تأليف كتبى الفكرية إلا بعد أن استشعرت حاجة الساحة الثقافية العربية إلى طرح ما تحمله كتبى من مشروع فكرى. وأضفت معاتباً اللوامة: أما موضوع الربح فقد أضحكنى، فأنت أول العارفين بأنى أنفق على مشروعى الفكرى من خلال مهنتى كجراح.

صمتت اللوامة قليلاً، ثم قالت: أخبرنى (بجد) سر تحولك إلى عالم الفكر.

قلت لها: ما أشد تحاييلك، تصرين على وضع الألغام فى طريقى قبل طرح رحلتى العقلية والفكرية؛ أنتِ تعلمين أن ليس فى الأمر سر، بل ليس فى الأمر تحول، فأنا لا أزال أستاذ الجراحة التى أمارسها فى الجامعة وفى عيادتى وفى المستشفيات، كما أن توجهاتى إلى عالم الفكر موجودة منذ الصغر، وقد مررت بمواقف ومراحل نمت هذه التوجهات خلال حياتى، وهذا ما سأبينه لك الآن.

بناء مذكر

قلت لنفسى اللوامة؛ فى رحلته الفكرية، شرح أستاذنا د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) أسباب وإرهاصات تحوله من توجهات بيئته

التجارية الرأسمالية الصراعية إلى عالم الفكر، أما أنا، فلا أحسبني في حاجة إلى أسباب ومبررات، فأنا لمر أنشأ في بيئة معارضة لعالم الفكر، بل إن بيئتي كانت تتقبل - بيسر وبساطة - بل وتمارس هذه التوجهات. والآن أعرض عليك أيتها اللوامة العوامل التي أسهمت في بناء شخصيتي كمفكر:

(1) كانت بداية اطلاعي على عالم الفكر في فترة الطفولة من خلال البرامج الإذاعية، فقد تربيت (مثل كل أبناء جيلي) على برنامجي بابا شارو وأبلة فضيلة، إذ كانت برامج الأطفال مدرسة متكاملة الأركان، يتم إعدادها بعناية حتى تؤدي دورها التربوي والتثقيفي والأخلاقي. كذلك تأثرت كثيرًا بالمسلسلات الإذاعية، فعلى سبيل المثال كانت حلقات ألف ليلة وليلة التي تذاع في رمضان - وما زال لحنها المميز⁽¹⁾ - يتردد في أذني حتى اليوم - تتركني أفضي الليل مع عوالم الجن والسلاطين وست الحسن والجمال، أتنبأ بأحداث الغد التي تركت شهرزاد الملك شهر يار متعلقًا بها ومتربحًا لها.

(2) كانت مكتبات بورسعيد (المكتبة الأمريكية ومكتبة نادي التجارة ومكتبات بيع الكتب) بما فيها من كتب الأطفال الملونة وقصص كامل الكيلاني نافذة طفلنا الأولى على عالم الكتاب، حتى صار الطفل معروفًا في هذه الأماكن بحبه للقراءة.

(3) فضل فارسكور...

كانت بلدة أمي فارسكور هي البيئة التي تعمقَ فيها توجه الصبي لعالم الفكر. فبعد انتقالنا من بورسعيد إلى القاهرة في سن التاسعة كنت

(1) لحن المسلسل هو موسيقى باليه شهرزاد، للموسيقى الروسي ريمسكي كورسيكوف.

أقصى إجازة نصف العام وجزءاً من إجازة نهاية العام هناك في ضيافة أحوالى، غالباً بمفردى وأحياناً في صحبة الأسرة. وعندما كانت أمى تعترض على سفرى المتكرر إلى هناك كان خالى يقول لها: «يا عليّة بطلنا ناكل العيال!».»

رباط⁽¹⁾ عبد الوهاب مجاهد

تأثرت بشدة في دخولى عالم الفكر باثنين من أحوالى من أهل فارسكور، الأول هو شقيق أمى الذى يصغرها بعامين؛ الأستاذ عبد الوهاب مجاهد (رحمه الله)، المربي المثالى الذى تزوجت ابنته ماجدة فيما بعد. وكان خالى مدرّساً للغة الإنجليزية ثم ناظرًا للمدرسة الإعدادية في البلدة ثم مديراً للتعليم العام بمحافظة دمياط. كما كان خالى من كبار مثقفى المحافظة، لذلك عندما كان يأتى ضيفاً مهم للبلدة كان هو الذى يُلقى كلمة الترحيب به، فقد كان من أكثر أهل البلدة إتقاناً للغة العربية وإلماماً بتاريخ فارسكور، كما كان من أكثرهم اهتماماً بالعمل الاجتماعى والسياسى.

ويحضرنى موقف يلخص أخلاق وخصال خالى عبد الوهاب. ذهبت منذ عدة سنوات لاستخراج شهادة النسب الشريف لعائلتنا من نقابة السادة الإشراف بالزمالك بالقاهرة. اطلّعتُ مُحقق الأنساب على مستندائى

(1) رباط العلم هو مكان يقيم فيه طلاب العلم مع مشايخهم بصفة دائمة لسنوات طويلة، يتلقون في أثناءها علوم الدين كلها. يدخله الطلاب صبياناً صغاراً، وكثيراً ما يأتونه من شتى أنحاء العالم الإسلامى، ويغادرونه وقد صاروا مشايخ قادرين على الفتوى وتعليم الأجيال التالية. ومن أشهر الأربطة تلك في المدينة المنورة ومكة المكرمة وحضرموت وموريتانيا.

ونظر إلى وقال: إن لم يكن عبد الوهاب مجاهد من الأشراف فمن يكون منهم؟ نظرت إليه باندهاش، فاستطرد قائلاً؛ لقد عملت معه لمدة شهرين بفارسكور، وكان مثلاً للخلق النبوي، رحمه الله.

وكانت مكتبة خالى غنية بكتبها العربية والإنجليزية التى أنفق الكثير فى اقتنائها، حتى إنه عند زواجه كانت عليه أقساط لباعة الكتب. اطلعت فى مكتبة خالى على الفكر العالمى عبر التاريخ وعبر الجغرافيا. فمن الفكر القديم اطلعت على قيدها الهندوس وكتاب الموقى للمصريين القدماء والإلياذة والأوديسا لهوميروس ومدينة أفلاطون الفاضلة ومحاوراته، وكليلة ودمنة، وأجزاء من ملحمة جلجامش والشاهنامة. كما اطلعت على الكثير من درر الفكر والأدب العربى، كرسائل إخوان الصفا والبخلاء والحيوان للجاحظ وألف ليلة وليلة. واطلعت أيضاً على الكثير من كتابات حركة الاستنارة الأوروبية والفلسفات المعاصرة، وبعض أجزاء قصة الحضارة لول ديورانت.

ومن عالم الأدب، اطلعت على العديد من روائع الأدب العربى المعاصر، ككتابات توفيق الحكيم وطه حسين والعقاد ويوسف السباعى وإحسان عبد القدوس ويحيى حقى والمنفلوطى والرافعى وأحمد أمين. ومن الأدب العالمى، قرأت الكثير، وقد تركت بعض هذه الأعمال أثراً عميقاً فى نفسى، وأهمها بؤساء فيكتور هوجو، والأخوة كرامازوف لدوستوفيسكى، والحرب والسلام وأنا كارينا لتولستوى، والعجوز والبحر لهيمينجواى، وامراتان لألبرتو مورافيا، والربيع على ضفاف الأودر لكازا كفتش.

لم يقتصر عطاء بيت خالى عبد الوهاب الفكرى على مكتبته الثرية

التي التهمت معظم كتبها، بل كان جو البيت العام لا يقل أهمية عن المكتبة. لقد كانت الموضوعات المطروحة حول طاولة الطعام تتناول قضايا فكرية ودينية وسياسية، وأيضًا القضايا الأخلاقية؛ كيف ينبغي أن يتصرف خالى مع هذا المدرس أو هذا الطالب في موقف ما؟ كيف ينبغي أن يتصرف ابن خالى مع زميله أو مع مدرسه؟... كذلك كان البيت ينشغل أيام الانتخابات بهل يترشح فيها خالى أم لا، ومن يدعم من المرشحين الآخرين،...

وعندما التحق ابن خالى الأكبر، عبد السلام، بكلية الطب، كنا نتناقش كثيرًا حول نشاط فريق الإسلام السياسى فى الجامعة، وتوصلنا سويًا إلى معادلة: كيف يمكن أن نتعامل مع هذا الفريق دون أن تنالنا سلبياته.

وكان يتردد على خالى الكثيرون، من متخاصمين يطرقون باب البيت فى أى وقت من ليل أو نهار طالين التوسط وراضين بحكمه، إلى مختارين يطلبون مشورته فى أمورهم العائلية أو الوظيفية، إلى رجال فوضوه فى تدبير أمور ممتلكاتهم وأبنائهم. باختصار كان خالى (رحمه الله) حكيماً البلدة، وقد تعلم منه الفتى كيف يكون حكيماً.

وفى الخميس الأول من كل شهر، ليلة أم كلثوم، كانت الأسرة تجتمع حول المذيع الحشبي الكبير الذى يعمل ببطارية السيارة لتستمع إلى وصلات الحفل الثلاث. وكثيرًا ما يحضر السهرة بعض الأهل والأصدقاء. وكان الصبى يرصد سلوك الموجودين فى أثناء الاستماع؛ فمن شخص يستعين على قضاء الوقت بقزقة اللب والسودانى وشرب الشاي؛ إلى آخر يطرق ساهماً ثم ينفجر صائحاً: الله، إلى ثالث (وهو خالى) يتحنت

صامتًا في محراب الفن المقدس، وتسيلُ دموعُه على خده في صمت من حين لآخر. لقد تعلم الفتى من خاله احترام الفن، حتى صار الفن الراقى من أهم عناصر منظومتنا الفكرية والمعرفية.

لم يكن هذا فقط هو حظ الفتى من أم كلثوم في بيت خاله المطل على نيل فارسكور الجميل، فقد كانت تقع في مواجهة البيت (على النيل أيضًا) **قهوة الزغبى**، التي كانت تدير المذيع من الرابعة عصرًا على محطة أم كلثوم، وكانت المحطة تبدأ بأغنية لأم كلثوم ثم قصيدة من سيمفونيات عبد الوهاب. اعتاد الفتى أن يستمع من البلكونة المواجهة للقهوة إلى هذا الإبداع الفنى يوميًا، واستمر على هذا النهج في القاهرة، حتى حفظ الكثير من هذه الروائع.

باختصار، كان خالى عبد الوهاب مثلى الأعلى في عالم الفكر، كما كان بيته هو الحضّانة التي أفرخت مشروع مفكر.

الخال حامل المسك

أما خالى الآخر الذى تأثرت به كثيرًا بالرغم من أنه كان يكبرنى بثلاثين شهرًا فقط، فهو د. **سامى مجاهد** (رحمه الله)، الذى أصبح فيما بعد استشارى الأمراض الباطنة والقلب فى فارسكور، وكان هو الصديق أكثر منه الخال. كان د. سامى منذ صغره شخصية فريدة شديدة التنظيم، تعلم منه الفتى كيف يستذكر دروسه وكيف يستفيد من القراءات الحرة وكيف يستثمر وقته وكيف ينفق ماله.

عاصر الفتى طالب الإعدادى خاله سامى وهو يقرأ ملخصات للأدب العالمى فى كتب مكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية فى صفحتين

متقابلتين، كما كان يستمع للبرامج الإذاعية الإنجليزية، حتى يرفع من مستواه في اللغة الإنجليزية.

وفي إحدى إجازات نصف العام، سافر الفتى إلى فارسكور لقضاء إجازته، وقتها كان سامى طالباً في السنة الأولى في كلية الطب، وكانا يقضيان الكثير من الوقت معاً، هذا مع قراءته الحرة وهذا مع كتب وظائف الأعضاء والتشريح والهيكل العظمى. شرح سامى للفتى كيف اختار كتبه الدراسية وكيف يستذكر دروسه، كان أسلوباً فريداً لم يتكرر مع كل من تعاملت معهم طوال نصف قرن!

وتتلخص هذه الطريقة في أن سامى كان يحدد في بداية العام الدراسي عدد الساعات المتاحة للاستذكار، تبعاً لعدد أشهر السنة الدراسية، ويعتبر أن كل صفحة تحتاج إلى ساعتين ونصف للدراسة (ساعة للمذاكرة الأولى وساعة ونصف لثلاث مراجعات تالية)، ومن ذلك يحسب عدد الصفحات التي يمكن دراستها في ذلك العام. ثم تأتى المرحلة الثانية، وهى اختيار الكتب التي سيدرسها في المواد المختلفة، فيذهب سامى إلى أكشاك الكتب الجامعية ليتصفح كتب المواد المختلفة ويختار منها ما يناسبه من ناحية أسلوب الطرح وعدد الصفحات.

تأتى بعد ذلك طريقة المذاكرة؛ كان الطالب سامى يستذكر باستخدام القلم والمسطرة، فيخطط تحت الأسطر المهمة ويضيف بعض الملاحظات على الهوامش، ويُرقِّم أجزاءً من فقرات الموضوع. وكان يستخرج الكلمات الإنجليزية التي لم يعرف معناها ويسجلها مع ترجمتها العربية في أجندة، وفي أثناء تحركاته داخل البلدة وفي أوقات

فراغه يقوم بحفظ معانى الكلمات، وتدرّيجاً يقل متوسط الكلمات غير المعلومة في كل صفحة.

أما الخطوة التالية، فكانت أن يفتح الطالب سامى أجندة خاصة ليدون في صفحة اليوم الفصول التى استذكرها، ثم يتقدم فى الأجندة أسبوعين ويسجل أن هذا الفصل ينبغى مراجعته لأول مرة، ثم يقلب شهرين من صفحات الأجندة ويسجل المراجعة الثانية للفصل على أن يقوم بالمراجعة الثالثة قبيل الامتحان. وعند بداية المذاكرة، يراجع سامى بند المراجعات ويحصر ما ينبغى مراجعته فى هذا اليوم قبل أن يبدأ مذاكرة الفصول الجديدة.

وفى فترة تواجدهما معاً فى فارسكور، كان سامى يقطع مذاكرته فى الخامسة عصرًا للراحة لمدة ساعة، وهذه الساعة طقوس محددة، تبدأ بارتداء ملابس الخروج، والذهاب مع صديقه عمرو إلى قهوة الزغبى أو قهوة الرشيدى، ليلعبا دورًا من الشطرنج، ويتناظرا فى الشعر العربى؛ فيذكر أحدهما بيتًا من الشعر ويكون على الآخر أن يذكر بيتًا يبدأ بحرف قافية البيت السابق، وهكذا، وفى أثناء ذلك كان كل منهما يتناول مشروبًا واحدًا، ثم يعودان للبيت ليجلس سامى إلى مكتبه فى تمام السادسة ليستأنف المذاكرة.

لم تتوقف دقة سامى مجاهد عند تنظيم مذاكرته ووقته، لكنه استخدم نفس المنهج فى تنظيم إنفاقه المادى. كان لسامى دخل ثابت شهريًا، وكان يُقسّمه؛ جزءًا للطعام ومصاريف البيت، وجزءًا للترفيه (مشروب يومى ونزهة آخر الأسبوع)، وجزءًا يتم ادخاره لمصروفات الجامعة وشراء الكتب وكسوة الشتاء والصيف.

لا أدعى أن الفتى كان يُطبَّق «طريقة سامى» - كما أسمىها -
بحذافيرها، لكنه تأثر بها وأخذ منها ما استطاع، لكنه دون شك قد تعلم
من سامى احترام الطب والعلم والمعرفة، والجدية في طلب العلم والتعمق
فيه، وأيضاً حسن استغلال الوقت والتدبير في النفقة.

وفي أيام الدراسة في القاهرة، كان لسامى وعمرو صالون يعقدانه
في حضور أصدقاء كل منهما المقربين من ذوى الاهتمامات الفكرية،
كانوا يجتمعون في حديقة جروبي بشارع عدلى بوسط البلد مساء كل
يوم خميس، ويتناقشون في اهتماماتهم الفكرية وهموم كليتهم، وعادة
يعقب اللقاء «تمشية» في وسط البلد، وربما عشاء في محل التابعى الدمياطى
ودخول السينما.

لم يقف تأثر عمرو بسامى عند الجوانب الفكرية والدراسية، لكنه
امتد إلى الجوانب الفنية والعاطفية. كان سامى يمر ببيت أخيه الأستاذ
عبد الوهاب ليلة الجمعة ينوء بالأشجان العاطفية، ليلتقى بصديقيه،
عمرو وماجدة ابنة أخيه، ويتسامر الثلاثة لساعات طويلة، ينشدهما
سامى خلالها بعض أغنيات أم كلثوم بلحن مُحكَّم وصوت عذب ومشاعر
جياشة تتبدل تبعاً لحالة القلب، كانت جلسات لا يزال الزوجان عمرو
وماجدة يستحضرانها كلما استمعا إلى تلك الأغنيات... ما كان أعذب
شدوه وهو يغنى:

عودت عيني على رؤياك... وقلبي سلم لك أمره...

أشوف هنا عنيّاً في نظرتك ليا...

وألقي نعيم قلبي... يوم ما التقيك جنبى...

وأن مر يوم من غير رؤياك...

ما ينحسبش من عمرى...

ويغنى

لسه فاكر قلبى يدملك أمان... ولا فاكر كلمة هاتعيد اللى كان...

ولا نظرة توصل الشوق والحنان... لسه فاكر كان زمان...

ويغنى

حيرت قلبى معاك... وأنا بدارى واخبنى...

قُلِّ اعْمَلْ إِيه وياك.... ولا اعْمَلْ إِيه ويا قلبى...

نفسى اشكيلك من نار حبنى... نفسى احيكلك عَلى فى قلبى...

وأقولك عَلى سهرنى... وأقولك عَلى بكانى...

وأصور لك ضنى روحى...

وعزة نفسى منعانى...

أما قصائد أم كلثوم، فكان لها شأن يفوق الأغنيات السابقة، فقد كان الثلاثة من ذواقة الشعر العربى الأصيل؛ فكم ردّدوا معاً قصائد ثورة الشك، وأراك عصى الدمع، وسلوا قلبى، وقصة الأمس، والأطلال، وغيرها.

كما حفظ عمرو وماجدة من سامى قصائد رابعة العدوية، فى مرحلتى المجون والوجد، ولا تزال هذه القصائد أفضل ما أحب أن أستمع إليه من الغناء.

يا ترى، هل كان لهذه الأغنيات العاطفية دور فى الربط بين قَلْبَيّ الفتى والفتاة.

الجلس الصالح

اعتبرت النفس اللوامة أن ما ذكرت عن تأثير الخالين عبد الوهاب وسامى (رحمهما الله) فى بناء شخصيتى الفكرية ينتقص منى! وقد افتضح ما اعتملى فى النفس حين قالت: إذا أنت تعترف بدور هاتين الشخصيتين فى دخولك عالم الفكر، فلولا هاتان الشخصيتان لربما تأخر ذلك أو توقفت عند قشور المعرفة، أو ربما لم تتعرف على هذا العالم على الإطلاق.

أجبت اللوامة منفعلًا: أنت تستكرين أمرًا بديهيًا، وكأنك اكتشفت نقيصة كبيرة فى بنية شخصيتى! سبحان الله. إن تأثر المفكر بآخرين لا ينتقص من قدره، خاصة إذا لم يصبح مجرد ناقلًا لأفكارهم، ولكن أصبح مبدعًا ذا فكر أصيل. وهذه هى طبيعة الإنسان؛ يولد غصًا طريًا كالصلصال، يحمل صفاته الوراثية، ثم تقوم العوامل التربوية والتنشئية بتشكيله. لذلك إذا أردنا لأنفسنا وبلادنا الرقى علينا أن نحرص على مصاحبة أبنائنا لأصحاب الفكر والقيم والمثل.

(4) يقف الفتى فى الصباح الباكر على أحد أرصفة ميدان سليمان باشا (طلعت حرب) فى انتظار أتوبيس المدرسة الذى يأتى فى تمام الساعة. لقد ألحقه والده بالمدرسة المارونية للغات بحى الضاهر - بعد أن انتهى من دراسته الإعدادية - حتى يرفع مستواه فى اللغة الإنجليزية.

أخذ الفتى يتحرك - وعيناه على مكان توقف الأتوبيس - بين أكشاك الكتب وباعة الصحف الذين بدأوا نشاطهم فى الصباح الباكر، وفرشوا صحفهم ومجلاتهم على الأرصفة، إنه يبحث عن الكتب والمجلات التى

اعتاد أن يقتطع من مصروفه ليشترىها؛ مجلات العربي الكويتية⁽¹⁾، والمختار (ريدرز دايجست) والهلل وإصدار سلسلة أقرأ ومجلة وكتاب الأمة القطرى. ويقتنى الفتى ما صدر من المجلات والكتب، ويبدأ فى تصفحها على الرصيف، ويستكمل ذلك فى أتوبيس المدرسة.

(5) عندما يصل الأتوبيس إلى المدرسة، يتجه الطلبة والتلاميذ من فورهم إلى «فصل الأتوبيس»، فعليهم الانتظار فيه حتى يُحضر الأتوبيس الدورة الثانية من الطلبة والتلاميذ قبل أن يدق جرس بداية اليوم الدارسى. كان هؤلاء يجلسون فى الفصل يمارسون أنشطة مختلفة؛ بعضهم يستذكر دروسه ويحل بعض الواجبات المدرسية، بعضهم يستكمل نوم الصباح، بعضهم يتحاورون أو يتشاكسون.

أما عمرو، طالب الصف الأول الثانوى، فكان يستغل ساعة الصباح فى بعض القراءات الحرة. وفى يوم من الأيام لمح يحيى طالب الصف الثالث الثانوى الجالس فى الصف الخلفى منهمكاً فى قراءته، فنادى عمرو وأجلسه جواره، وعرض عليه كتاب «المنتخب من أدب العرب» الذى كان يقرأ فيه، وأخذ الطالبان يتناوبان قراءة الشعر بصوت مسموع؛ قرأ بعضاً من الشعر الجاهلى وبعضاً من الشعر العباسى. كان عمرو يُتقن قراءة الشعر التى تدرب عليها فى المرحلة الإعدادية وصقلها بالاستماع

(1) كان رئيس تحرير مجلة العربي فى ذلك الوقت هو د. أحمد زكى (رحمه الله)، الذى أضفى على المجلة صبغة عربية إسلامية، وأيضاً صبغة حضارية عالمية. وكانت مجلة المختار تترجم ملخصات لمقالات وكتب عالمية. أما مجلة الهلال، فكانت مجلة أدبية ثقافية متنوعة. وكانت مجلة وكتاب الأمة يقدمان فكرًا إسلاميًا معاصرًا. وكانت سلسلة أقرأ تقدم موضوعًا مختلفًا كل مرة، فى العلم والأدب والفلسفة.

لقصائد أم كلثوم وعبد الوهاب. لم تنته الساعة حتى عرف طالبنا من يحيى كيف يشتري كتب التراث القديمة من سور الأزبكية.

وفي رحلة العودة من المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي، وعندما وصل الأتوبيس إلى العتبة، غادره عمرو واتجه مباشرة إلى سور الأزبكية لأول مرة، وطاف بمكتباته الصغيرة العتيقة، واتفق مع بائعين أن يُحضرا له جُزئاً «المنتخب من أدب العرب» وديوانى المتنبي وأبي العلاء المعرى مقابل أربعين قرشاً، واحتاج الأمر لأن يمر عليهما لثلاثة أيام متتالية قبل أن يوفيا باتفاقهما. كانت هذه الشروة بمثابة الثروة لعمرو، وكانت هذه الكتب ملجأه المفضل في وقت الفراغ. ولم يمض العام الدراسي والصيف التالى حتى كان قد حفظ الكثير من أبيات المعلقات السبع وقصائد المتنبي وأبي العلاء والبحترى وأبي تمام وغيرهم. ولا أزال أحتفظ بكشكول كنت أدون فيه ما انتقى من أبيات شعرية أعجبتنى.

في هذه المرحلة، كان المتنبي شاعري المفضل، لما فى شعره من حكمة واعتزاز بالنفس، فحرصت على التعرف إليه عن قرب، وأعاننى على ذلك كتاب «الشاعر الطموح» من تأليف الأستاذ على الجارم. لم أنتبه وقتها إلى ما فى شخصية المتنبي من سلبيات، لعل أهمها أن العطاء والمنع هما أكثر ما يُلهم قريحته الشعرية، فتجود بذكر المديح أو الهجاء. وقد احتاج الأمر منى إلى ثلاثين عاماً حتى أبغض الجانب الوصولى فى شخصية المتنبي.

(6) مثَّلت الإذاعة والتلفزيون للفتى نافذة واسعة على عالم الفكر ابتداءً من المرحلة الثانوية، فتابع بانتظام البرامج الثقافية الإذاعية، خاصة برامج ديوان العرب، والأغاني للأصفهاني، ولغتنا الجميلة، وحول

الأسرة البيضاء، وقال الفيلسوف، وزيارة لمكتبة فلان، وصحبة وأنا معهم. وقد أثرت هذه البرامج الفتي ثقافياً ولغوياً.

وقد مثل التليفزيون رافداً ثرياً على كبار المفكرين العرب، فكان الفتى يستمتع بمشاهدة برامج نجمك المفضل، وشريط تسجيل، وريبورتاج، وأهلاً وسهلاً، وأوتوجراف. كذلك أطلع التليفزيون الفتى على العالم الخارجى، من خلال برامج نافذة على العالم، وجولة الكاميرا، ونادى السينما، واختزالك، والعالم يغنى... وكانت هذه المشاهدة منتظمة فى الإجازات ومتقطعة أيام الدراسة. وقد استكملت هذه البرامج ما حصّله الفتى عن «الآخر» من خلال قراءاته فى الأدب العالمى.

كم كانت الإذاعة والتليفزيون رافداً فكرياً ثرياً للفتى، يتحسر عليه كلما تأمل ما آل إليه الحال هذه الأيام بعد أن تبدلت طبيعة البرامج، فصارت ترفيهية (أو قل تهريجية) بناء على رغبة المستمعين! بدلاً من أن تجمع مع الترفيه الراقى التوجيه وتربية الذوق الرفيع. ولا شك أن ما زال هناك بعض البرامج القيمة مثل برامج أتيليه للفنان القدير د. طه قرنى، وبورترية، والشاعر، ومشاورير ومشاهير، وحكايات مصرية وغيرها بقناة النيل الثقافية، لكنها غير كافية.

مُدْرِسِيْ

قالت النفس اللوامة؛ عجباً، فى حديثك عن العوامل التى أطلعتك على عالم الفكر ذكرت الخالين والأقران والإعلام بالإضافة إلى جهودك الخاصة، لكننى لم أسمعك تتحدث عن تأثير مدرسيك وأساتذك فى مرحلتى

ما قبل الجامعة ثم الجامعة، بينما كل من قرأنا لهم من المفكرين تأثروا بمدرسيهم الذين مهدوا لهم الطريق إلى عالم الفكر في إحدى مراحل حياتهم.

قلت لها مندهشًا؛ وما العجيب في ذلك! صحيح إن الكثيرين من المفكرين تأثروا بمدرسيهم في ولوج عالم الفكر أو في تغيير مسارهم من اتجاه إلى اتجاه، لكن ذلك لم يحدث معي! ربما لأن الميل الفطري للمعرفة في نفسى غذته منذ الصغر الروافد التي ذكرتها، وقد رسم ذلك لى طريقًا فكريًا في مرحلة مبكرة من حياتي. أما تأثري بأساتذتي فقد جاء بعد دخولي كلية الطب وتخصصي في الجراحة، وكان تأثرًا مهنيًا وأخلاقيًا وليس فكريًا، كما ذكرت لك من قبل.

أمي وأبي

قالت النفس اللوامة: إن كنت لم تذكر دورًا لمدرسيك في حياتك الفكرية، وفَسَّرْتَ ذلك بما يمكن قبوله، فإنني أراك لم تذكر أيضًا دورًا لوالدينا، فهل كانت جذورنا واهية لم تُمد ثمار الفكر بغذاء؟!

أجبت اللوامة قائلاً: إذا كانت العوامل التي وجهتني لدخول عالم الفكر والإبداع داخله تحتل عددًا من المستويات تبعًا لمدى تأثيرها، فإن المستوى الأساسي الذي تقف عليه تلك العوامل هو التربية والتنشئة التي قام بها الوالدان منذ الطفولة. فلا شك أن نمط علاقة الصغير بوالديه يحدد علاقته بالآخرين وبالدين والإله، كما يحدد طبيعة علاقته بعالم الفكر؛ أيكون مُقبلًا على هؤلاء أم رافضًا لهم، أيكون معتدلًا أم متطرفًا، أيتبنى الاتجاهات الإنسانية أم التدمير.

وهذا ما طرحه علم النفس الحديث في نظريتي الترابط والتقصير الأبوي⁽¹⁾ في ختام القرن العشرين.

وأصفت قائلاً للوامة: تعلمين أن والدينا قد أحاطانا بالرعاية والحب والحنان، فنشأت محباً للآخرين متسامحاً متقبلاً لاختلافهم معي. وانتهزتها فرصة للوم اللوامة، فقلت لها: أتظنين أن إدراككِ الحى الذى يتنبه لأى حيد عن الصواب يرجع الفضل فيه إليك وحدك! لقد رباك والدانا على الاستقامة وتحرى الصدق والحق.

ربة البيت

كانت أمى (رحمها الله) زوجة وأماً وربة بيت مثالية، وكانت تتمتع بالنسب الشريف عن طريق والدتها من «عائلى سماعة ومُشرقة» الإشراف الحسينيين. وكانت أمى البنت الوحيدة بين ستة إخوة، كانت لهم بمثابة الأم بالرغم من أنها كانت أوسطهم، وقد ازدادت هذه المنزلة بعد زواجها من أبى الذى كان أخو إلى جميعاً (حتى الأكبر منه) ينادونه بـ «الأستاذ عبد المنعم».

وبسبب تدبير أمى، لم نشعر بأى ضيق فى العيش، وكان يُعينها فى شئون البيت دائماً خادمتان (تكونان غالباً شقيقتين) تأتيان من العزب المجاورة لفارسكور، وكانتا لا تتركان خدمتنا إلا إلى بيت العريس.

(1) تتبنى نظرية الترابط Attachment Theory التى وضعها عالم النفس البريطانى الكبير جون بوالبى، أن سوء العلاقة بين الأم وطفلها يمهد الطريق أمام الطفل للإلحاد. كما تتبنى نظرية التقصير الأبوى Defective Father Theory التى وضعها عالم النفس الأمريكى الكبير بول فيتز، أنه ما أن تنهار صورة الأب فى نظر ابنه حتى يصبح الطريق إلى الإلحاد مفتوحاً أمامه على مصراعيه.

وكان وجود هاتين المساعدتين يتيح لأمى العيش فى رفاهية كما يتيح لها الكثير من الوقت لرعاية أولادها الثلاثة، دون دلع ودون تشدد.

وبالرغم من أن أمى (مثل معظم المصريات وقتها) لم تتجاوز فى تعليمها المرحلة الابتدائية، إلا أنها كانت تهتم بمتابعة الأخبار السياسية والاجتماعية فى الصحف والإذاعة، ثم فى التليفزيون. وكانت أمى تتابع الموضة، خاصة فستان أم كلثوم الذى ترتديه فى حفلتها الشهرية التى كانت تُقام عادة فى سينما قصر النيل المجاورة لبيتنا، فكانت تتأمل الفستان فى الجريدة والتليفزيون وتساءل والدى وتسالنى فى بعض تفاصيله.

كنت أكثر إخوتى التصاقاً بأمى، خاصة بعد أن التحق أخواى الأكبر بالكلية البحرية التجارية والكلية الحربية وغادرا البيت مبكراً. وكثيراً ما كنت أخرج مع أمى للتسوق ولبروقات الملابس عند الحياطة. وكنا نَصُم معاً العقود التى تلصمها، وياقات فساتينها التى كانت تشغلها بنفسها، ذلك بالإضافة إلى شغل الكاناكاه والكروشيه، ولا يزال بيتى يباهى بمفرشين كبيرين من الكروشيه من صنع يديها، أحدهما لمنضدة السفرة والآخر للسريـر. لقد كانت أمى ماهرة فى **الأشغال اليدوية**، ويبدو أنى قد ورثت عنها هذه المثابرة والحس الجمالى والمهارات اليدوية.

وكانت أمى **شديدة التنظيم والترتيب**، حتى إن بيتنا الكبير الواسع كان جاهزاً لاستقبال الضيوف فى أى وقت. ويبدو أنى قد ورثت هذا السلوك عنها أيضاً، فلا أجلس إلى مكتبى لاستذكار دروسى إلا وهو مرتب، ولا أبدأ عملياً فى الجراحية إلا وكل شىء فى موضعه، كما لا أجلس لتأليف كتبى إلا وكل ما حولى على ما يرام، حتى إنى أدعى أن المكتب المنظم يُعين على تنظيم الأفكار فى المذاكرة وفى الكتابة.

وكانت أُمى مشهورة كذلك على مستوى العائلة بالحزم، لذلك ما كان أحدٌ من فتيان وشباب العائلة يتعثّر في دراسته وحصوله على الشهادة الإعدادية أو الثانوية، أو يتعثّر في الجامعة، إلا وكان يتم إرساله إلى بيتنا لأشهر أو لسنوات، لتقوم أُمى بالإشراف على تربيته ودراسته حتى يتجاوز عثرته. لذلك تربى في بيتنا عددٌ من أفراد عائلتيّ أبي وأُمى، وهو ما جعلهم شديديّ القرب منا حتى الآن.

رَبُّ الْبَيْتِ

كان والدى رجلاً فاضلاً محترماً بمعنى الكلمة، وكان رجل دولة، تعلمت منه احترام النفس وفَرَضَ احترامه على الآخرين، وكان مثالاً للرجل طاهر اليد، الذى ربى أبناءه من حلال. وكان والدى كبير وحكيم عائلته الكبيرة وعائلة أُمى وأصدقائه، وما من أسرة من هذه الأسر إلا وله عليها يد بيضاء؛ إما تعيين شخص في وظيفة، أو مساعدة مالية في زواج، أو راتب شهري، أو موقف داعم في محنة، أو نصيحة سديدة، أو...

وقد تدرج أبى في وظائفه حتى صار رئيساً لمجلس إدارة بعض كبريات شركات وزارة التموين ونائباً للوزير، وبعد إحالته للمعاش صار مستشاراً لعدد من المكاتب والشركات الاقتصادية الكبرى حتى وفاته في سن الرابعة والثمانين.

ومن المواقف المشهورة لوالدى في مجال العمل، أن كادَ له بعض الحاسدين حين كان رئيساً لمجلس إدارة شركة محلات عمر أفندى، فأرسلوا شكوى كيدية للرقابة الإدارية يتهمونه وأعضاء مجلس الإدارة بالتقصير

والتَّربُّح، وبأنه بدلاً من أن يهدم مبنى فرع عبد العزيز فإنه قام بتجديده من الداخل بتكلفة تقارب إعادة بناء مبنى جديد. دافع الوالد عن معاونيه وتحمل مسؤولية كل تصرف قاموا به، كما تحمل مسؤولية قرار تجديد فرع عبد العزيز ورفض هدمه باعتبار أن تصميمه الخارجي وواجهته - حتى الآن - أحد رموز القاهرة الخديوية وباعتباره رمز (لوجو) الشركة. تلقى الوالد خطابي شكر من الرقابة الإدارية ومن وزير التموين؛ لذلك لم يكن غريباً أن يحصل عبد المنعم شريف على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى من الرئيس السادات عام 1976.

كان والدى رجل دولة مهم، وفي الوقت نفسه لم تُورثه علاقاته ومراكزه كِبَرًا، بل كان شديد التواضع. أذكر عندما مرض يوماً، وجاء فراش مكتبه إلى المنزل ليعرض عليه أوراقاً عاجلة، عرَّفنى والدى رئيس مجلس الإدارة بالرجل، وأشار إليه قائلاً: عم أحمد زميلى فى الشركة. أحسب أن تواضع والدى الجم هو أول ما سيوضع فى ميزان حسناته يوم القيامة، والله أعلم.

وكان والدى خلال العشرين عاماً الأخيرة يقوم من نومه قبل الفجر بساعة ونصف، يقضيها فى صلاة قيام الليل وقراءة القرآن والأوراد. وقبل أذان الفجر كان ينزل من البيت ليمر على عساكر الحراسات السهرانيين، والبوابين والمحتاجين لمساعدتهم مادياً - وقد علمنا ذلك منهم بعد وفاته - ثم يصلى والدى الفجر ويعود إلى البيت. وقد تُوفى والدى وهو ساجد فى صلاة العشاء فى المسجد المجاور لبيتنا بعد أن تناول طعام إفطار آخر يوم صامه من الأيام الست البيض، وكان ذلك عام 1999. فارقنا أبى، وترك لنا وصيته يوصينا بأمننا (التي فارقتنا بعده بأشهر) ويوصينا ببعضنا بعضاً

وبزوجاتنا وأبنائنا. وعندما حان موعد تقسيم التركة قال أَخَوَاي: عمرو
يقسم ويوزع!!

هذا بعض ميراثي عن أبي: الإخلاص والوفاء والطهارة والتواضع
وتحمل المسؤولية، واحترام النفس والآخرين، والحب المتبادل بيني
وأخوَي، وحب البشر جميعًا.

احتقن صوتي بالدموع وأنا أقول للوامتي؛ هذا هو ميراثي الأكبر
عن والدِيّ، إنه بناء الشخصية التي انطلقتُ بها إلى عالم الفكر. ما أشبه
ذلك بالصاروخ الذي يُزَوَّد بالوقود ليخرج من جاذبية الأرض؛ فخرج
المفكر من طينته، يحتاج إلى الوقود الذي يدفعه خارج جاذبيتها، وهذا
الوقود هو العوامل التي تشجع الشخصية على الدخول إلى عالم الفكر،
لكن المفكر يحتاج قبل ذلك إلى الصاروخ ذاته، والذي هو بناء الشخصية،
ذلك البناء الذي تقوم به تربية وتنشئة الوالدين لصغارهما.
أبعد ذلك تُشككين في دور والدِيّ في دخولي عالم الفكر!!

أذنّى الموسيقىّة تقودنى إلى عالم الفكر..

قالت نفسى اللوامة:

تحدثت كثيرًا عن تأثرك بالغناء، حتى استشعرت أنه كان أحد
روافدك الفكرية والنفسية!، فهل أنا مُحِقَّة فيما ذهبتُ إليه؟

أجبت النفس اللوامة قائلاً: لقد كانت نعمة تذوقى للموسيقى بابًا
لخير ديني ونفسي وفكرى غزير، لذلك يدهشنى موقف أقوام يلوون
النصوص الدينية ويُمَلِّونها ما لا تحمل لِيُحَرِّمُوا الموسيقى!! وقد

صدق شيخنا الإمام محمد الغزالي حين نهر شاباً استنكر عليه الاستماع إلى إحدى أغنيات فيروز وقال له: لقد مزجتم الدين بعبادات البداوة، وقتلتم للناس إما أن تأخذوه كله أو تدعوه كله، فقالوا ندعه كله... لقد أخرجوا الناس من دين الله أفواجاً... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يبدو أن مخ الفتى قد وُهب مراکز سمعية موسيقية متميزة، وهو ما يصفه البعض بالأذن الموسيقية؛ فالحقيقة أن المهارة ترجع إلى المراكز المخية! تماماً كما يصفون جراحاً بأن «يديه تتلف في حرير»، بينما المهارة ترجع إلى التنسيق والتناغم في مراكز الحركات الدقيقة في المخ.

لقد كانت هذه **الموهبة الموسيقية** مسئولة عن تذوقنا⁽¹⁾ (بل واستمتاعنا) بالموسيقى والغناء، وأيضاً استمتاعنا بالشعر، وإذا اجتمع الإبداع الموسيقي مع الإبداع الشعري هَزَّتْنا النشوة. كم حملنا «كرنك» و«كليوباترا» و«جندول» عبد الوهاب إلى عوالم زمانية ومكانية مليئة بالشجن والعَبَق. وكم حملتنا «أذكريني» و«سلوا قلبي» و«سلوا كئوس الطُّلا» و«وُلد الهدى» و«قصة الأُمس» و«ثورة الشك» و«أطلال» أم كلثوم إلى أعماق نفسية صافية وذراً روحية سامقة.

إنها نفس الموهبة الموسيقية التي طالما أمتعنا عند استماع القرآن الكريم، خاصة الشيخين عبد الباسط عبد الصمد ومحمد صديق المنشاوي (رحمهما الله) اللذين يغوص بنا صوئُهما وأداؤُهما إلى أعماق معاني القرآن الكريم. وهى أيضاً نفس الموهبة التي مكنتني فيما بعد من إجادة التلاوة والترتيل بجهد قليل. أما صوت الشيخ محمد رفعت الملائكى

(1) الحديث بالثنى هنا يخاطب العقلُ به النفسَ.

فهو من سمات شهر رمضان المبارك قبيل الإفطار، فيشارك ما وصلت إليه النفس من صفاء الصيام في العروج بنا إلى قدس الأقداس.

كذلك كان «السماع» هو مدخلي إلى الصوفية منذ استمعتُ إلى إنشاد قصائد الإمام عبد الله الحداد يؤديها أحفاده على نغمات الأورج والدُف، سمعتهم ينشدون:

ما بال جيراننا بالبان مالوا عن الودِّ والحبِّ
وصَيِّروا حَظَّنَا الهِجران منهم وما ثم من ذنبِ

ثم استمعت إلى الشيخ يس التهامي ينشد لسلطان العاشقين ابن الفارض:

شَرَبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ أَنْ يُخَلِّقَ الْكَرَمُ
لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهِيَ شَمْسٌ يَدِيرُهَا هَلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو إِذَا مُزِجَتْ نَجْمُ

وينشد من عينيه عبد الكريم الجيلي:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرَائِي جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مَرَعَى لِلْحَبِيبِ طَلَائِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعًا تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهَنْ مَطَالِعُ

وينشد للحلاج:

وَاللَّهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غُرُبَتْ إِلَّا وَحُبُّكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي
وَلَا خُلُوتٌ إِلَى قَوْمٍ أَحَدْتُهُمْ إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَّاسِي

لقد دفعني إعجابي الشديد بالإنشاد الصوفي إلى دراسة الفكر الصوفي واتباع طريقهم منذ أكثر من ربع قرن.

الأطباء وعالم الفكر

قالت نفسى اللوامة: حسناً، لقد فَصَّلْتُ لى العوامل التى وَجَّهَتْ دخولك عالم الفكر، وهذه عوامل خاصة بك، لكننا نجد عوالم الفكر والأدب والسياسة وقد دخلها الكثيرون من الأطباء على مستوى العالم! فهل توافقنى على ذلك؟ وإن وافقتنى، فما تفسيرك لهذه الظاهرة؟

أجبت اللوامة قائلاً: أوافقك فى رأيك هذا ولا شك...

ففى تاريخنا المعاصر تُقابلنا شخصياتٌ عديدة تجمع بين الطب وبين الأدب والفكر، فكلنا يعرف د. مصطفى محمود د. يوسف إدريس، وقبلهما د. محمد كامل حسين ود. إبراهيم ناجى، وبعدهما د. محمد المخزنجى ود. علاء الأسوانى، ومن الموسيقيين د. محمد صبرى التجردى. وليس هذا بتوجه جديد، ففى الحضارة الإسلامية تُقابلنا فى طور ازدهارها شخصيات عديدة جمعت بين الطب وبين المنطق والفلسفة والأدب والرياضيات والطبيعات، ولعل أشهرهم ابن سينا والرازى ويعقوب الكندى وابن الكندى.

وعلى المستوى العالمى، نقرأ أدباً وفكراً للأطباء أنطوان تشيكوف أشهر من كتب القصة الروسية القصيرة، وسير آرثر كونان دويل الروائى الإنجليزى مخترع أشهر شخصية بوليسية عبقرية؛ شخصية شرلوك هولمز، وأيضاً الروائى والقاص البريطانى سومرست موم، وغيرهم.

وهناك من الأطباء من اهتم بالإنسان خارج مجال الأدب والفكر، وأقصد هؤلاء من اهتموا بالسياسة. ولعل من أشهرهم النائب الكوبى تشى جيفارا، والسياسيين الإيرانيين على أكبر ولاياتى، ومحمد رضا خاتمى،

وسلفادور اليندى رئيس تشيلى، وصن يات سن مؤسس جمهورية الصين، ومهاثير محمد باعث نهضة ماليزيا. ومن النساء د. جين آدمز الناشطة الاجتماعية الحاصلة على جائزة نوبل للسلام عام 1931.

لعل هذه الأسماء تؤيد فكرتك أيتها النفس، بأن اهتمام الأطباء بالإنسان لا يقف عند جسده فحسب، بل يهتم الكثيرون منهم بالإنسان على المستويات الأدبية والفكرية والسياسية. لذلك تُعقد المؤتمرات الدولية للأطباء الأدباء، وقد عقد أولها عام 1956 فى مدينة سان ريمو الإيطالية الساحرة المطلة على البحر المتوسط.

أما تفسير اهتمام الأطباء بالجانب الإنسانى للإنسان، فيرجع إلى عدة أسباب. لعل أولها أن الأطباء من المتميزين عقلياً، لذلك ترجع اتهامات الكثيرين منهم بعالم الفكر إلى ما قبل دراستهم للطب، ولعل بعضهم هجر هذا العالم فى أثناء انشغالهم بدراسة الطب المُجهد، لكنهم لا يلبثون أن يعودوا إليه.

كذلك فإن دراسة الطب تُطلع الطبيب على بنية ووظائف ونفسية الإنسان السليم وأيضاً الإنسان المريض، وتظل هذه المقارنة ماثلة أمامه فى كل لحظات حياته. وتُمكن الممارسة الطبية الطبيب من التعامل مع الإنسان فى أحواله المختلفة؛ فى أشد لحظات ضعفه، وفى قلبه بين اليأس والأمل، وفرحته وأهله بالشفاء، وربما الشعور بالنكسة والإحباط. ولا أحد كالطبيب يكون قريباً من على لغز الحياة ولغز الموت. كذلك قد يكون عالم الفكر والأدب مهرباً لكثير من الأطباء من ضغوط العمل والدراسة التى لا تنقطع.

أزيد على هذه التفسيرات أمراً خاصاً بالجراحين الذين أشرُف

بالانتماء إليهم. فأنتِ تعلمين - أكثر مني - أيتها اللوامة أن مهنة الجراحة تُصبغ الجراح بصفيتين نفسييتين متضادتين؛ الديكتاتورية والحزم حين يكون هو الأمر الناهي في غرفة العمليات، والتواضع ولين الجانب عندما يتابع بترقب وقلق مسار حالة مريضه بعد إتمام العملية الجراحية، ولا شك أن المجادلة بين هاتين الصفتين تصبغان شخصية الجراح بالقلق الذي يُميز عالم الفكر.

ولعل أروع ما قرأت في وصف هذه العلاقة بين الطب وعالم الفكر، مقولة للشاعر والسياسي التشيلي الشهير بابلو نيرودا الحاصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1931، انظري إلى قوله: «عندما يُدع الطبيب فكريًا أو فنيًا فإنه يكون الأجل والأصدق والأدق؛ لأنه لا يتخيل المعاناة البشرية بل يعيشها ويعالجها ويكون من أكثر المتأثرين بها». صدق الشاعر الفنان بابلو، الذي عبّر في سطرين عما احتجت أنا لصفحات عديدة لشرحه لكِ أيتها اللوامة.

كيف تُصبح مفكرًا

قالت نفسى اللوامة: أرجو أن تتقبل سؤالى الأخير هذا دون حساسية، هل تعتبر أن تنوع مصادر معرفتك وعمقها كان كافيًا لأن تتبنى مشروعًا فكريًا كبيرًا، يربط بين العلم والفلسفة والدين، لإثبات الوجود الإلهي والتعرف على أسماء وصفات ربنا عزَّجَلَّ بالعلم والعقل، أم أنك - بغرور العقل - قد خُضت بحرًا لا طاقة لك به؟

أجبت اللوامة: الحكم في ذلك هم القراء. وأنا أسألك بدورى؛ هل ترين أن تناولى لهذا المشروع الفكرى قد أفاد قرائى وأحدث نقلة

فكرية بين الكثير من الشباب، أم أنه كان حرثاً في بحر؟ وأضفت: وهل تعتبرين أن قراءات ودراسات متنوعة مستفيضة لأكثر من خمسين عاماً غير كافية لأن تُمد مشروعى الفكرى بمادته؟!

ومع ذلك، فإن الإبداع الفكرى ليس بكثرة القراءة بقدر ما هو بعمقها وبالقدرة على استنباط المفاهيم والنقد الصائب. إن الإبداع هو «عملية تفكيك» للواقع والتاريخ والعلم إلى عناصرها الأولية، ثم «إعادة تركيب» هذه العناصر في تصور جديد. لذلك يُفَرَّق أستاذنا د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) بين «الموضوعاتية التراكمية» أو المُتَلَقِّيَّة أو التصويرية أو الفوتوغرافية، التى تكتفى بالرصد ومراكمة المعلومات، وبين «الموضوعية الإبداعية» أو التوليدية أو التوليد، التى تقوم باستخلاص المعلومات المهمة وبناء تصور جديد منها. وانقل لك أيتها النفس نكتة ومثالاً يشرح بهما د. المسيرى هذا الفرق:

سار شحاذ فى المدينة يعلن أنه سيتزوج ابنة السلطان، وحينما تمدى فى ادعائه أمسكه أحدهم من قفاه، وقال: «لِرُ تَرْوَج لهذه الأكاذيب أيها الشحاذ؟»، فقال: «فى واقع الأمر، المسألة شبه منتهية، فأنا موافق على هذا الزواج، كما وافق كل من أبى وأمى عليه، ولم يبق سوى موافقة ابنة السلطان وأبيها وأمها». ويضيف د. المسيرى: كنت أسأل طالباً، لماذا نضحك لهذه القصة مع أن الشحاذ صادق فيما يقول؟! ومن خلال الحوار نصل إلى أن الشحاذ، من ناحية الموضوعاتية المتلقية، لم يكذب، فهو وأبواه يمثلون 50 % من العناصر المكونة للظاهرة، ولكن الأمر يختلف تماماً إن أخذنا فى الحسبان مدى قيمة وفاعلية كل عنصر فى القضية.

والمثال الذى يطرحه د. المسيرى: دخل مخبران غرفة وقعت فيها

جريمة، وألقيا نظرة عليها. وبعد قليل دَوَّنَ أحدهما المعلومات التالية: جثة قتيل - مسدس أستخدم لتوه - محفظة فارغة - زر أخضر. واستخلص المخبر من هذه المعلومات أن هناك جريمة قتل أستخدم فيها مسدس بهدف السرقة، وأن القاتل كان يرتدى قميصًا أخضر. أما المخبر الثانى، فقد استمر فى عملية الرصد الموضوعاتى، وأخذ يُدَوِّن: كرسيان - قطر المائدة كذا - لوحة - لون السقف - لون السراميك - ارتفاع الحائط... إلخ. والحقائق التى أوردها المخبر الثانى صحيحة لا مرأى فيها، لكنه لم يستخدم عقله فى عملية الربط والتجريد التى تؤدى إلى اختيار بعض العناصر واستبعاد البعض الآخر، ومن ثم تاه هذا المخبر فى خِصَم المعلومات الدقيقة الكثيرة غير المترابطة التى ليس لها أية قيمة تفسيرية. كما تُبين القصة أن تزايد المعلومات لا يؤدى بالضرورة إلى زيادة المعرفة والحكمة!

لذلك فهناك فرق بين أستاذ الفلسفة والفيلسوف! فمدرس الفلسفة فى المرحلة الثانوية (وربما طالبه) يعرف «عن الفلسفة» أكثر مما يعرف أرسطو وأفلاطون وسقراط مجتمعين (وهذه هى الموضوعاتية التراكمية)، ولكن شتان بين من يُراكم الفلسفة كمعلومات وبين من يمارسها نقدًا وتفكيكًا وتركيبًا وتفسيرًا، وهى الموضوعية الإبداعية.

وأخيرًا، يمكن تلخيص عملية بناء المفكر فى أن العقل الفلسفى والعقل المبدع منحة إلهية ينميها الشخص أو يدفنها... وأحسب أن ما حصلته طوال حياتى من معرفة كاف لأن يمدنى بلبنات مشروعى الفكرى، بعد أن مكثت قرابة النصف قرن من الزمان أجمع الرحيق مثل شغالات النحل قبل أن أبدأ فى إفراز العسل خلال السنوات العشر الأخيرة...

الثمار - 1

محاولات أدبية مبكرة

قالت نفسى اللوامة:

بعد هذه المسيرة الطويلة، هل آن الأوان لثُحْدثنا عن ثمارها، أى عن إنتاجك الفكرى من مؤلفات كتبتها لتنتقل فكرك للآخرين، ولتحفظه لأجيال قادمة.

قلت للوامة: أراك مُخطئين إذ تُقصرين ثمار مسيرتى على إنتاجى الفكرى فقط، إن مؤلفاتى هى أحد أنواع الثمار وليست كلها.

وأضفت: إننى أشبّه ثمار مسيرتى فى الدنيا ببستان، يحوى أصنافاً عديدة من الأشجار المثمرة، وهذا البستان هو الذى حدثنا عنه رسول الله ﷺ بقوله: «الدنيا مزرعة الآخرة». وقد كنت دائماً (ولا أزال) أجتهد فى أن أضيف لبستانى كل ما أستطيع من أشجار مثمرة، عملاً بالحديث الشريف: «إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها».

وإذا كانت ثمرات بستانى كثيرة طيبة، فذلك لأن الله عزَّ وجلَّ تفضل علىَّ منذ بواكير الشباب بأن عودنى أن أجعله نُصب عيناى، محاولاً التحقق بأن أعبدته كأنى أراه فإن لمرأى أكن أراه فإنه يرانى. ليس معنى

ذلك أن ذنوبي قليلة، لكنني تعلمتُ ألا أحاول تبرير المعصية أو أن أحلل ما حرّم الله، تعلمتُ عندما اقترفتُ معصية أن أدرك وأقر بأنها معصية قادني إليها ضعفى الطيني، وأن أسأل الله عَزَّجَلَّ أن يُعينني عليها وأن يغفرها لي. ولا شك أن لك أيتها اللوامة فضلاً كبيراً في ألا أتوسع في اقتراف المعاصي، فقد كنتِ الضمير الذي يلومني أولاً بأول على ما أقترف، مما ينبهني كجرس إنذار لمعاصي، كما يُضَيِّعُ عَلَيَّ ما أستشعره من لذة تلك المعاصي.

قاطعتنى اللوامة من فورها، واندفعتِ قائلة؛ ما كنتُ أحسبك تنكأ جُرحاً قديماً غائراً في قلبي ما زال ينزف، كيف تشارك الماديين في وصفى بـ «الضمير»!! أترضى أن أُسميك بغير اسمك؟! إنني أنا الجوهر المؤنّب، ومع ذلك أصر الماديون على أن ينزعوا عني اسم «النفس اللوامة» الذي أسماه الله عَزَّجَلَّ، وأطلقوا عَلَيَّ «الضمير»، كم يحزنني هذا، لا تعد إليها مرة أخرى وإلا أجهدتك لوماً وتأنياً.

اعتذرتُ للنفس اللوامة، خاصة وأني أعاني مثل ما تعاني، ألا يرجع معظم الناس ما أقوم به من إنجاز وإعجاز إلى المخ المادي، ويتجاهلون نسبتي إلى النفخة المقدسة من روح الله. أردت أن أتجاوز الموقف بأن أعود إلى سابق حديثي مع اللوامة، فقلت لها مستأنفاً كلامي: الحمد لله الذي جعل حرصى على مرضاته عَزَّجَلَّ يسبق سعبي إلى الجنة وخوفي من النار. ولا أدعى في ذلك كله فضلاً لنفسي، لكنه عطاء إلهياً أحاسبُ على التقصير تجاهه يوم تُوزَنُ الأعمال.

هدأت النفس اللوامة، وقبلت أن نعود إلى حوارنا السابق، وقالت: أحسب أنك صادق النية في أن تحمل ثمار مسيرتك إلى الآخرة. ثم أضافت

متسائلة: إذا كنت لا تعتبر مؤلفاتك هي كل ثمارك، فما هي بقية الأشجار المثمرة في بستان مرضاة ربنا عزَّوجلَّ؟

ثمرات غير فكرية

قلت للنفس اللوامة: لأجيب عن سؤالك هذا، أروى لك موقف أستاذي د. عبد الوهاب المسيري من هذه القضية. فعند عودة د. المسيري من الولايات المتحدة حدد أولوياته التي ينبغي تحقيقها، وعرضها في سيرته الذاتية قائلاً: عند عودتي من الولايات المتحدة، كان مشروعي الحياتي يتكون من ثلاثة عناصر: الأول؛ أن أكون زوجاً وأباً ناجحاً، والثاني؛ أن أكون أستاذاً جامعياً يقوم بواجبه التعليمي والتربوي والتثقيفي تجاه طلبته، والثالث؛ أن أنجح في تحقيق مشروعي الفكري. فإن لم أنجح في تحقيق الهدف الثالث، فلا كن أستاذاً جامعياً وأباً وزوجاً ناجحاً، فإن لم أستطع فيكفيني إنجازي الأسري. ولا شك أني أتفق مع د. المسيري في أولوياته.

في ضوء ذلك، فإني أرى أن ثمار بستانى (خارج عالم الفكر) كانت من أربعة أصناف؛ أسرى وطلبتى ومرضاي وعبادتي.

ثمار الأسرة

لا شك أن أول أشجار بستان مسيرتي كانت «أسرتي». فلي أسرة أحسبها موفقة، يقوم كل فرد فيها بواجبه تجاه نفسه ودينه ومجتمعه والآخرين من أسرته ومن الإنسانية جمعاء. ولا شك أن زوجتي قد لعبت الدور الأهم في إنبات ورعاية هذه الشجرة، وكانت الزوجة المثالية والأم المثالية.

وقد طَرَحَت شجرة أسرقى خمس ثمرات، أبناء ثلاثة وحفيدين. ابني الأكبر محمد استشارى الأمراض النفسية والباحث بجامعة بيل بالولايات المتحدة، وهو أيضاً عضو هيئة التدريس بقسم الطب النفسى بجامعة عين شمس. ثم ابنتى إسراء التى تخرجت فى كلية الحاسبات والمعلومات فى جامعة القاهرة، ثم تزوجت ووهبنا الله منها زيّداً وجُود. ثم أحمد الطالب بالمرحلة النهائية بكلية الطب بجامعة عين شمس.

والحمد لله أن أصبح كل أفراد أسرقى من المهتمين بالآخر وبالعالم الفكر، حتى أصبح فى كل ركن فى بيتى مكتبة، تُشبع احتياجاتنا العقلية. ولِئلا، وقد نبتت الأسرة فى طاعة الله، وغُذِّيت من حلال.

ثمار طلبتة كلية الطب

وثمار الشجرة الثانية فى بستان مسيرتى، هى عشرات الآلاف من الأطباء من طلبتى فى كلية الطب على مدى أربعين عاماً. وقد أصبح الآلاف منهم أعضاءً بهيئة التدريس بالجامعة، يتخرج على أياديهم عشرات وعشرات الآلاف من الأطباء. ويشارك هؤلاء وهؤلاء فى علاج الملايين من المرضى فى مصر والمنطقة العربية بل والعالم كله.

وكنت دائماً أُرَبِّي طلبتى على إتقان دراسة الطب وإتقان ممارسته. وإذا كان ذلك فرض كفاية بالنسبة للمجتمع فإنه بمثابة فرض العين لمن اختارهم المجتمع لهذه المهمة. وأريهم على أن التقصير فى هذا الفرض أخطر على الطبيب من التقصير فى العبادات المفروضة كالصلاة والصيام! فالتقصير فى العبادة ذنب يعفو الله عَزَّوَجَلَّ عنه إن شاء، أما التقصير فى حق المريض، سواءً فى الدراسة أو الممارسة، فقد ربط الله عَزَّوَجَلَّ عفوه عنه

بمساحة مَنْ قَصَرْنَا فِي حَقِّهِ، فهل سيسأحنا مرضانا إذا قَصَرْنَا فِي حَقِّهِمْ؟!
على هذا ينبغي أَنْ نَرْبِي أَبْنَاءَنَا وَنَطْلُبْتَنَا فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ.

ثَمَارُ مِمَارَسَةِ الْجِرَاحَةِ

والثمار الثالثة، هِيَ نَتَاجُ مِمَارَسَتِي الطِّبِيَّةِ وَالْجِرَاحِيَّةِ، وَالتِّي بَدَأْتُهَا مِنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ عَامًا، نَاضَرْتُ فِيهَا عَشْرَاتُ الْأَلْفِ مِنَ الْمَرْضَى، كُنْتُ مَعَ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ مَبْضِعُ الْجِرَاحِ (الْمَشْرُطِ) فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، يَزِيلُ بِي الْأَنْسَجَةَ الْمَعْطُوبَةَ وَيَرْتُقِي بِهَا الْأَنْسَجَةَ الْبَالِيَةَ فِي أَجْسَادِ الْمَرْضَى، وَيُمِّنُ بِالشِّفَاءِ عَلَى مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ. لِذَلِكَ جَعَلْتُ مِنْ أَوْرَادِي فِي أَثْنَاءِ تَعْقِيمِ يَدَيَّ قَبْلَ إِجْرَاءِ الْجِرَاحَةِ دَعَائِينَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ يَدٌ﴾ [الأنفال: 17].

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10].

وَمَا زِلْتُ أَرْبِي الْجِرَاحِينَ تَحْتَ التَّدْرِيبِ عَلَى هَذِينَ الْوَرْدِينَ.

كَمَا اسْتَحْضَرْتُ النِّيَّةَ عِنْدَ سَهْرِي بِجَوَارِ مَرْضَايَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ «قِيَامًا لِلَّيْلِ»، سِوَاءَ كُنْتُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَوْ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْهُرِ، وَمَا زِلْتُ أُعَلِّمُ هَذِهِ النِّيَّةَ لَطَلَبَتِي. وَسِوَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَى مَرِيضِي بِالشِّفَاءِ أَوْ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِلْمَرِيضِ، فَأَحْسَبُ أَنِّي أَكُونُ قَدْ حَصَلْتُ الثَّوَابَ بِفَضْلِ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي أَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّجَلَّ عَلَيْهَا فِي مِمَارَسَتِي الطِّبِيَّةِ، أَنَّنِي كُنْتُ - سِوَاءَ فِي مَسْتَشْفَى الْجَامِعَةِ أَوْ عَمَلِي الْخَاصِّ - لَا أَتَصَدَّى لِإِجْرَاءِ عَمَلِيَّةِ جِرَاحِيَّةٍ أَرَى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجْرِِيَهَا لِلْمَرِيضِ بِشَكْلِ أَفْضَلِ، خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ الْجِرَاحَةُ مِهْنَةً شَدِيدَةً التَّخَصُّصِ، بَلْ أَقُومُ

بتحويل المريض لهذا الأفضل أداءً، سواء كان من زملائى أو تلاميذى. وأحسب أن هذا حق للمريض الذى استأمننى على صحته؛ أن أقدم له أفضل فرصة ممكنة.

لذلك قال لى أكثر من مريض فى أكثر من مناسبة؛ د. عمرو، أنا لو مِتُّ على يدك لن أكون حزينًا، فقد بذلت من أجلى أقصى الجهد. أحمد الله - أيتها اللوامة - أنى أتعامل مع مريضى كأننا فى قارب واحد، إما أن نصل معًا إلى بر الأمان أو أن نغرق سويًا.

ثمار العبادات والطاعات

أما ثمار الشجرة الرابعة، فهى ثمرات متناثرة هنا وهناك. أولها عبادات وطاعات كلفنا بها الحق عزَّ وجلَّ، أسأله أن يقبلها على ما فيها من تقصير. وتأتى بعدها قربات قد نراها هينة وهى ثقيلة فى الميزان؛ كابتسامة فى وجه ضعيف، أو إعانة لمحتاج، أو مسح على رأس يتيم، أو كلمة حق يحتاج إليها إنسان فى موقف عاثر، أو...

هنا توقفتُ فجأة، وضغطتُ على كلماتى التى أوجهها للوامة، وقلت: أتذكرين يوم احتاج أحدهم لكلمة حق أقولها، لكنى لم أفعل، ليس خوفًا - والله - من عواقبها علىَّ، لكنى لم أدرك شدة توابع الموقف على هذا المحتاج إلا بعد أن تأزمت الأمور. أتذكرين كيف أخذتِ تلومينى من يومها، ولم تكفى عنى إلا بعد أن احتجتُ لكلمة حق فى موقف ما وجبسها من يملكونها، وتحملنا عواقب ذلك. عندها تحررنا - أنا وأنت - من هذا العبء، بعد أن استشعرنا أن الله عزَّ وجلَّ قد عَجَّلَ لنا عقوبة الأمر فى الدنيا، وعساه أن يتجاوز فى الآخرة. من يومها أذكرُ نفسى دائمًا، أنه

إذا كان رجلاً قد دخل الجنة في كلب سقاه، فإن امرأة دخلت النار في قطعة حبستها ومنعتها الزاد.

الثمرات الفكرية الأولى

قالت النفس اللوامة: أحسب أننا قد وصلنا إلى ثمار الشجرة الخامسة في بستان مسيرتنا، شجرة عالم الفكر، فما قصة دخولك عالم تأليف الكتب؟

أجبت نفسى اللوامة: عندما هممتُ بالدخول معك في هذه الحوارات، بحثت عن المصادر التي أستمد منها أحداث مسيرتي لأدعم بها ذاكرتي، ووجدت بُغيتي في مصدرين؛ دفاتر مذكراتي وخطاباتي التي كتبتها لرفيقة العمر زوجتي، منذ خطوبتنا وحتى الآن.

وعندما قَلَبْتُ هذه الدفاتر والخطابات، عَثَرْتُ بين صفحاتها على قطع نثرية وأبياتٍ شعرية ترجع إلى عشرات السنين، أرى أنها تمثل مساهمة بدائية في عالم الفكر والأدب، ومن ثم فهي «عطائي المبكر» في هذا العالم، والذي سبق مؤلفاتي التي صدرت خلال السنوات العشر الأخيرة. وسأقرأ عليك من هذا الإنتاج ما أراه يستحق الخروج من عالم النسيان، وأن يوضع في هذه الصفحات قبل أن نتحدث عن الكتب التي قمتُ بتأليفها.

حوار مع القلم...

عندما التحق الفتى بكلية الطب، أمسك ابن الثامنة عشرة بقلمه وكتب هذه الافتتاحية لدفتر مذكرات جديد...

«عَوَّدْتُكَ يا قلمي على كتابة خواطري... كلما استبد بي خاطر يُفِعُّ
قلبي بالسعادة، أو كلما تَجَمَّعَتْ في مُقْلَتَي دموعُ حبسها الكبرياء، هرعْتُ
إِلَيْكَ، وَحَلَقْنَا معًا فوق السماء، أو غرقنا معًا في بحار الأسي... أحكى لك
فُتْنَتِ، وأبتسم لك فَتَسَّرَ، أو أشكو إِيْلِكَ فتضطرب في يدي المرتعشة.

ما أقل ما سُرِرْنَا.. وما أَكْثَرَ ما اضطربنا...

ما أَكْثَرَ وفائِكَ يا قلمي... وما أقل وفائي...

لكم انفعَلْتُ، فسعدت وَحَزِنْتُ لى...

أما أنا؛ فعندما جَدَّ من الجَدِّ ما يُشغِلُنِي نسيئُكَ، نعم نسيئُكَ ولر أعد
أرى فيكَ سوى هيئَة انسيابية ولونًا أزرق...

أصبحت وقتها لا تعنى لى سوى أداة... أستخدمُها في مذاكرتى
وامتحاناتي، لأنتقل من سنة لأخرى. ولى عذرى في ذلك؛ فقد ودَّعْتُ
السعادة - كما تعلم - وَكَبْتُ الأملَ، وحوَّلْتُه إلى عمل.

واليوم؛ وقبل أن أمد يدي لتحتضنك، نظرتُ إِيْلَكَ حائرًا مترددًا...

نظرتُ بعينِ ملوِّها الأسي لنسيانى لك...

وعينِ ملوِّها الأمل ألا تكونَ قد نسيَتني.

ما أشد حاجتى إِيْلِكَ اليوم يا عزيزى، آه لو تعلم ما يعتمل داخلى...
ما أروع أن نجتمع كصديقين بعد جفوة وشقاق، وأن نتصافا...

هل تُصَدِّقُنِي لو قلتُ لك إننى اليوم أكادُ أَطِيرُ فَرِحًا... لا، بل حالى
أكبر من ذلك...

لا تَسْلَنِي؛ وَلِرَ كَانَ ذلك، وكيفَ، ومتى...؟

اندهش القلم وقال؛ وكيف أنسى يا صاحبي ثوراتك واضطراباتك،
وليا لى قاسية قضيناها معاً، قبل أن تُودعنى..

تبشنى فكرك... وأبشك مدادى ودمى.

تُرى هل كل ما كتبناه كان هُراء...

هل كان انفعالك زائفاً...

كيف آلت قسوتك إلى زوال؟!

أجبتة؛ أيها القلم... لمرأى قاسياً كما تدعى...

أسألك أن تعود بذاكرتك إلى الوراء... إلى ما سبق أن كتبنا...

هل تذكر كيف وصفنا تلك الوردة المقلّة الصغيرة، وكم فاح أريجها
ومالت بدلال على غصنها عندما روتها يد بريئة وتناثرت حولها رزازات
المياه...؟

هل تذكر كيف وصفنا حال الورقة البيضاء الناصعة، عندما بدأت
الأم تخط عليها سطور أول خطابٍ لوحيدها الذى فارقتها...؟
هل تذكر إيقاعنا الذى رقص عليه الثوب عندما ارتدته العروسُ
الحسنة لأول مرة...؟

هل تذكر اندهاشنا لزهو شجرة الرُمان وهى تجود على زارعها بأول
ثمارها... لتعوضهم حبات العرق والجهد...؟

هل تذكر فرحتنا بالبسمة الجزلة التى تلالأت على شفتى الطبيب
عندما شفى مريضه الأول...؟

هل تذكر... وهل تذكر... وهل تذكر...؟

سل تلك الوردة... وهذه الورقة... والثوب الراقص... وثمار
الزمان...

سل الشجرة المزهرة... والبسمة الجزلة...
سلهم جميعاً...

سيقولون لك إن الله عَزَّجَلَّ غمرهم بجميل لو قضوا أعمارهم ساجدين
لحمده ما كافأوه...

كل ما أستطيع أن أقوله.. إن سعادة تلك الكائنات الرقيقة تتضاءل اليوم
أمام سعادتي...

أفقت من هذه الذكريات، وقلت مخاطباً نفسي اللوامة: يا الله،
لقد بَنَيْتُ هذه الخواطر التي افتتحتُ بها دفتر مذكراتي عند التحاقى
بالجامعة إلى أمر شديد الأهمية؛ كم كانت علاقتي وثيقة بالقلم منذ
المراهقة والفُتُوَّة. يبدو أن السنوات الشاقة في دراسة الطب وممارسته
قد شغلتنى - لفترة - عن ولوج عالمِ الكتابةِ والفكر، فوَقَفْتُ على شاطئه
مكتفياً بمذكراتي وخطاباتي.

قَلَبْتُ دفتر المذكرات، فعثرت على تأملاتٍ رثاءٍ وحزن، ترجع إلى
العام التالي بعد الالتحاق بالجامعة. يبدو أن الفتى (ككل الفتيان) كان
توافقاً لمذاق الشجن الذى يكابده القلب، فتعجل مشاعر عاطفية تجاه
زميلة مقاعد الدراسة، وكان طبيعياً أن يُكْتَبَ لهذه التجربة الخيالية
الفضلُ مُبَكِّراً، ففاض الشجنُ على الأوراقِ مداداً منشوراً:

لا لمواكب الانتقام...

«هذه الكلمات ليست سوى دموعى... دموعٌ أنهمرت من عينيَّ عقب
صفعة قاسية...

هذه الكلمات مدّادها قطرات دم انبثقت من جُرحى إثر طعنةٍ حادة،
طعنةٍ فى القلب، طعنةٍ فى النفس...

هذه الكلمات هى بصمات الأصابع الباردة على جبيني الساخن
الحار...

إنها آهاتٌ وتأوهاتٌ انطلقت من داخلى...

كان طبيعياً أن تُحدث «الصفعة الطعنة» كل هذا الأثر...

كان طبيعياً أن تُبكيني، وأن تُغيبنى عن وعيى...

بل إن هذا الأثر أقل مما ينبغى... أقل مما تفرضه العاطفة ويأمر به
العقل...

لقد كان قلبى غَضًّا، وكانت نفسى رَحبة... قلباً غَضًّا ونفساً رَحبة
أعدًّا للمزيد من الحب والمحبة، وليس المزيد من النكبات والآهات...

كان طبيعياً أن ينفطر هذا القلب... أن يتصلب وأن يجحد...

كان طبيعياً أن تتمزق هذه النفس... وأن يضيق وتضيق حتى لا
يتسعا لشيء..

ولكن لا...

سيظل القلبُ الغضُّ غَضًّا... وستظل النفسُ الرَحبة رَحبة...

وسيمضى موكبُ الألم... ويمضى موكبُ الحزن...
سيمضيان وتمضى معهما ذكرياتُ مرّة... ذكرياتُ لها مرارتها الحلوة!
الخاصة المميّزة...

وتُقبلُ مواكبُ أخرى... مواكبُ الانتقام... مواكبُ تفريغِ شحنة
غضبٍ شُحِنَتْ بها رغمَ أنفى... مواكبُ لا بد أن تعقب مواكب الألم
والحزن... هكذا تأمرنا طبيعتنا البشرية... وهكذا يفرضُ المنطق...
اللهم في حضرة مواكب الانتقام كن بي رحيماً، كن رءوفاً... واجعلني
رحيماً رءوفاً...

اللهم أزل غضبي وفرّغ شحنتي...
اللهم لا تُحمِلْنِي ما لا طاقة لي به من الانتقام، من نفسٍ كانت هي
نفسى...
اللهم لا تُرجع موكبَ الحزن، مواكبَ الآلام، فقد نهلتها ومنها
اتعظت...

لقد أخذتُ منها موعظة تكفيني سنوات وسنوات... عمرو...». .
يبدو أن فتانا قد تعافى سريعاً من خيالاته وأوهامه، فكتب بعدها
يقول:

رثاء...

«رثاءٌ على... رثاءٌ مني إلى... رثاءٌ مما بقى مني إلى ما بقى مني...
حرارة الألم... قسوة النبض... أداء الواجب.. الإخلاصُ للنفس...
الإخلاصُ للحق... الإخلاصُ للإنسان، تدفعني...

تدفعني قُدماً للعمل... للتفاني... للذوبان... للانتهااء...

أدور أنا الإنسان في دوامة عمل الحاضر والمستقبل... وعندما رأيتموني هكذا، ظننتموني هكذا وفقط...

صورة قد يظنها البعض تَسْرُنِي... وأنا لا أنكر...

ولكنكم نسيتموني! نعم... نسيتم الإنسان في...

هذه النفس التي تُقبل على العمل، وتدفع إليه، إنما هي - وقبل كل شيء - نفسٌ شاعرة... نفسٌ يؤلمها تجاهل طبيعتها... نفسٌ يؤلمها الجفاء... نفسٌ في حاجةٍ للعاطف وللرثاء...

وهذا القلب الذي يدفع الدم، ويبيث التفاني... إنما هو مُضغّة حساسة... مضغّة تأسرّها الكلمة ويُنشئها الإطراء... مضغّة تعمرها المشاركة بفيض من السعادة...

أنتم... أيها البشر... يا من حولي...

يا من تشاركونني درسي ومعملي... يا من تشاركونني كتابي وتفكيري...

إنني لستُ آلة... لستُ مجرد مبادئ جافة متراسة... لست مبادئ تدفن العاطفة وتمحو مني الإنسان الإنسان...

كفاكم في طعنًا... كفاكم في تمثيلاً... ولتُبَقُوا على ما بقي مني... لتُبَقُوا عليه.. لننعم بالإنسان في سويًا...

ومع اكتمال العام العشرين من عُمره، أمسك فتانا قلمه يحاوره ويوجهه، ربما ليطفئ شوقاً إلى عالم الفكر.. فكتب قائلاً:

وانصرم العام العشرون...

«ليت القلم يطاوعني ويُسَجِّل ما أريد أن أكتبه حقًا... ليتهُ يُسَجِّل ما يجولُ في نفسي حقًا...

هل أنت يا قلمي الذي تُضفي على ما بداخلي ألوانًا داكنة، تُعكِّرُ صفاء إنسانية النفس...؟

ليس الذنبُ ذنبك يا قلم... إن الذنبَ ذنبي... إذ لا تطاوعني الكلمات المُعبِّرة المناسبة، ولا تليّنُ تحتِ سِنِّكَ طائعة... لا أدري، أهو قصورٌ في الثقافة، أم اضطرابٌ في الأفكار... ومهما يكن، فحمدًا لله أن السبب ليس فتور النفس أو جفاف الوجدان.

لا أدري، هل أجعل وقفتي مع انصرام الربيع العشرين كلمات العظیم نهر و إلى ابنته أنديرا، كلمات مرشدة دافئة... أم أجعلها قاسية كصلابة أخيل في الدفاع عن إسبرطة... أم أجعلها حنونة من فيض رحمة الله عزَّ وجلَّ بخَلقه...

ما أبعدك - أيها القلم - عن ذلك كله... فلست أنت الذي يُوجِّهُ إليه الإرشاد... وما أغناك عن القسوة والعناد... وأين أفكارى من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

فلتكن خواطري كلماتٍ جديدة.. أستحضرُ معناها الآن في نفسي... لكن لا أعرفُ كيف ستكونُ عندما تنسابُ إلى أناملی... عمرو...». ثم يوجه فتی العشرين حديثه لك، أيتها النفس!! فلا شك أن الحوار بينكما قديم، فيقول:

حديث إلى النفس...

«ليتكِ أيتها النفس تتوقفين برهةً قصيرة... ليتكِ تنظرين خلفكِ... لا أقصد أن تُديرى رأسكِ، ولكن انظري في مرآة أفعالنا لترى خلاها ما مضى.

حاولي أن ترى تجاربكِ في سماء المستقبل... ولتكن أحلامكِ في المستقبل مشرقة، حتى نرى هذه التجارب بعين الارتياح.

لا أقول انسى ما مر في أيامنا من آلام ومعاناة... ولكن أقول اصطلي بها ثانيةً وثالثة... نعم اصطلي بها ولكن دون ألم!! أقصد اصطلي بحكمتها ونتيجتها وليس بأحداثها.

لا أقول انسى الإساءة وصافحى يداً غارقةً في دموعكِ، بل حاذري منها... ولكن أقول انسى أحقادكِ، وانظري إلى هذه الأيدي نظرة مرتابة، شاكرة لها الجميل! جميل أن زودتكِ بألف خبرةٍ وألف سلاح.

لقد خلقنا الله عزَّجَلَّ - أيتها النفس - لغاية، هل ترين أننا قد حققنا ما خلقنا من أجله.. لا أدري بأى حقٍّ وأى وجهٍ أتوجه إلى ربي داعياً أو شاكياً، أو حتى شاكرًا.

يُحيطُ بنا البشرُ، كأمانة غالية، بل أغلى مما يعتقدون هم أنفسهم... فلنكن جديرين بالأمانة قادرين على صيانتها.

كم تحيرتُ معكِ أيتها النفس... تارة تتمردين علىّ، فلا أدري لمن أشكوك... وتارة تُقبلين علىّ فلا أدري حالَ بَسْمَتِكِ؛ أغدرُ أم صفاء؟! نحن دائماً في صراع.

أمامنا طريقٌ ذو شعبتين؛ إما أن «نفهم» حياتنا ونُفلسفها معنىً وقيمةً وعلمًا، وإما أن «نحياها» بأبعادها وبلحظاتها وبخلجاتها... ولا أدرى هل يتسع العُمر للفهم وللحياة في الوقت نفسه!

ما أرانى اليوم راغبًا في أن أفهم كيف أعيش ما تبقى لى من أيام، خاصة بعد يأسى من الوصول إلى شاطئ الأمان... فلنعش الحياة، نعرکہا وتعرکہنا، نُضفى عليها ونُضفى علينا، ونعطىها ونأخذ منها... عندئذٍ، وعندئذ فقط، ربما نفهمها؛ نفهمها فلسفةً ومعنىً وقيمةً وعمقًا، وربما أكثر من ذلك...

ما أجمل أن يكون المرء إنسانًا يرد الجميل أضعافًا وأضعافًا... قطراتُ غذاء رضعناها من أُنما ينبغي أن نردّها خيرًا على أُنما الطبيعة كلها؛ إناسِها، زهورِها، قطراتِ مائها، خريِرِ جداولِها، نسباتِ هوائِها، ودَفءِ شمسِها.

لا ينبغي أن نسأل ماذا سنأخذ، لقد أخذنا، وأن أوان أن نعطى..
عمرو...».

قالت نفسى اللوامة: أسعدنى أن أكتشف أن ما يدور بيننا اليوم من مساءلة تمتد جذورها عشرات السنين إلى الوراء. ثم أضافت: كذلك أسعدنى أن أتنبه أن أسلوبك الأدبى الذى تعرض به مؤلفاتك العلمية له أيضًا جذوره القديمة، هل كانت محاولاتك كلها نثرية، أم كانت لك محاولاتٍ شعرية؟

أجبت نفسى اللوامة: عندما تصفَّحتُ دفترَ مذكراتى الذى يحمل خواطرى خلال فترة الدراسة بكلية الطب، عثرتُ فيه على بعض محاولاتٍ شعرية، لا أدرى كيف يمكن أن ينظرَ إليها المتخصصون،

والغريب أنها محاولات قليلة، لا أظن أنه قد سَبَقَتْهَا محاولات قبل الجامعة أو أنها استمرت بعد تخرجى فى الكلية. هل يُشير تركيز هذه المحاولات الشعرية فى مرحلة الدراسة الطبية إلى أنها كانت فترة ثرية فى منشطاتها الشعرية والنفسية؛ ربما...

والآن، أعرض عليك شيئاً من إنتاج مرحلة دراستى الجامعية. ولا أدرى، هل يعتبره المتخصصون شعراً؟!

مناجاةُ قلب...

دموعى تسيل، شموعى تميل	والضنى والسهدُ أضحيانى خيالاً
حبى يصول، وقلبى يقول	علّما البعادُ، وكيف الوصالا
يا قلبُ سلهُ هل منُ فراقه	يبغى عذابك أم يبغى انتصارا
أتحسبه يا... قلبى يرقُ	لو تدرّجتَ بالدم الغزارا
أم ينتشى... ويأبى لِقَاكَ	فتعوى تعانى كئوسَ المارارا
يا قلبُ صبراً... فالحبُ ولى	فلا تُبديَنَّ للوصلِ بالا
تجلّد يا قلبُ وودّع هواك	فليس بكاؤك مُحى الأمالا

دعوةٌ للحب..

يا حظ... دعنى أرتوى	ودّع الفؤادَ يهيمُ بها
واطلق زمامَ روحى وقلبى	لأنعمَ بالحب فى قريها
فما يُنسِنى البعدُ حبّا	هيامى وشوقى وسهدى لها

دعوة..

يا فؤاداً والهّا... لا تلتظى	واخذِ النارَ بماءِ المقلتين
------------------------------	-----------------------------

عسى الحبيبُ يجودُ بنظرتين
لمسامع من جفاني همستين
تاركٌ بعدى لحبى أُنّتين

يا أنا مل... لربك أضرعى
يا نِسْمَةُ الليل هُبى وانقل
إنى وإن أهلكنى البكا
همومُ روح...

وتَحَيَّرتُ روحى أين الركون
فَتُنَشِّينِ بذكرى ماضى السنون
خَرَّ صريعاً لسحر العيون
يُذَكِّرُهُ حالى ويُحِبُّ الشجون

يا صاحبى لو دنا حتفى
دعوها تُرفرفَ حولَ الظلال
وارسلوها إليه ليرأف لقلب
فليس لَدَى سواها رسولٌ

مرثية...

بإباء الرجال
أضحيانى خيال
شَتَّنا الآمال
فى حيرةِ الشجون
يُعِيدُ كَرَّةَ السنون
عليه حسرة العيون
للرحى والمنون
عليه بزفرات
علينا فهو آت
لمشواى بآهات

يا دموعى لا تُبالى
فالضنى والسهد
واشتياقى لحبيب
بتُ يا دموعى
إن ترى جريانك
فاسكبى واسكبى
وإلا فأسلمينى
يا ضلوعى لا تَضُنِّى
فالردى وإن تأبى
فعساهُم يودعونى

إنك إنسان...

أخى، رفيقى، إنك إنسانٌ
أتدفع صديقَكَ نحو الوهادِ
وتُخْفِرُ قبراً يواری رُفاته
أخى رفيقى إنك إنسان
أتخونُ عهداً وتُحكم قيوداً
وتنسى الأمانى وتنسى الوعودَ
أخى رفيقى إنك إنسان
وادعم يداى بقلبٍ عطوفٍ
ولا تملأ جفونى بوهم الأمانى
أخى، رفيقى، إنك إنسان
واصهر جليداً وفتت صخوراً
فليس لعزمِكَ ثمَّ حدودٍ
نفسى أبية..

إذا تَرَفَّعتُ عن الدنيا
وسَمَت رُوحى فوق المشاعرِ
وَعَزَت أمانى أرض الخيالِ
ورصدتُ من عليائى الملا
ووجهت وجهى تجاه الهمومِ
فلا تَحَسِّبْنى أعانى غروراً
وعافت نفسى أرض الشقاء
وسَمَت بقلبى فوق السماء
وجَفَفْتُ يَدَى بقايا بُكاء
وكرهتُ إمراً يُبدى انحناء
ولم يرهبنى إعصارُ الشتاء
ولكن شيمَةُ النفسِ الإباء

إباء...

عَجِبْتُ لِنَفْسٍ تَسِيرُ الْهُوَيْنَا	وَيُرْهِبُهَا حَفِيفُ أُرَاقِ الشَّجَرِ
عَجِبْتُ لِنَفْسٍ تَرْضَى الْمَلَامَ	وَتَرْضَى الذَّلَّ طَوَلَ الْعُمُرِ
نَفْسٌ يَفُوحُ مِنْهَا الشَّقَاءُ	نَفْسٌ تُكَابِدُ طَوَلَ السَّهْرِ
فَلَا تَرْضَى يَا نَفْسِي الْهُوَانَ	مَا بَقِيَ صُورَتِي بَيْنَ الصُّورِ

دعوة...

قَلْبِي تَبَّهَ، حَطَّمْ جِدَارَكَ	وَلَا تُبْقِ دَمْعَكَ بَيْنَ الْجَفُونِ
وَاحْفَرْ طَرِيقًا يَشُقُّ الْجِبَالَ	وَلَا تَجْرَحْ بَقَايَا الْغُصُونِ
وَلَا يُرْهِبُكَ بَرْقٌ وَرَعْدٌ	وَلَا تَرْهَبُكَ أَسْوَارُ السَّجُونِ
فَلَا تَبْتَ أَسِيرَ اللَّظَى	وَلَا يَأْسِرُكَ سَحَرُ الْعَيُونِ

علامات الساعة...

إِذَا مَا غَرُبَتْ شَمْسُ النَّهَارِ	وَغَابَ عَنِ كِبَدِ السَّمَاءِ الْقَمَرُ
إِذَا مَا تَبَدَّلَ حَالٌ بِحَالٍ	وَصَاحَ النَّاسُ... أَيْنَ الْمَفْرُ
إِذَا مَا غَزَا الشَّيْبُ الْخَضَارَ	وُطِمِسَتْ مَعَالِمُ وَتَعَرَّى الشَّجَرُ
إِذَا مَا نَاءَتْ ظُهُورُ الْخَلَائِقِ	وَكَلَّتْ كَتُوفُهَا وَشَاخَ الْعُمُرُ
فَقَدْ أَقْبَلَتْ نَهَايَةُ عَالَمٍ	تَفَشَّى ضَلَالُهُ بَيْنَ الْبَشَرِ

قالت النفس اللوامة متهمكة: الحمد لله أنك لم تستمر في قرض الشعر، وأن محاولتك الشعرية توقفت عند الانتهاء من دراسة الطب الأولية.

أجبت اللوامة قائلاً: أدرك بعضاً من جوانب العوار في محاولاتي

الشعرية التي قرأتها عليك، لكنني أحببتُ أن أسجلها؛ لأنها تعكس ما كان يعتمَلُ داخلي من أفكارٍ ومشاعر، وهى لا تختلفُ عما تموج به عقول ونفوس الشباب في هذه المرحلة؛ البكاء على تجارب عاطفية فاشلة، ونظرة متشائمة للحياة، وأحياناً تمرد على هذا وذاك. ولعلّ لو استمررت في محاولاتي مع مزيد من الدراسة لفنون الشعر لأصبحت شاعراً كبيراً!

إرهاصات أديبٍ يتدرب على الجراحة

قالت نفسى اللوامه: وماذا عن محاولاتك الأدبية بعد أن انتهيت من الدراسة الطبية الأولى (البكالوريوس) وبدأت في التدريب على ممارسة الجراحة؟

قلت للوامه: لقد كانت فترة ما بعد البكالوريوس حافلة بالمشاغل المهنية، سواء في تعلُّم أو ممارسة الجراحة، وكانت أيضاً حافلة بالمشاغل الاجتماعية التي تركزت حول مشروع الزواج وتكوين الأسرة. لذلك كنتُ أُعَبِّرُ عما يعتمَلُ داخلي من مشاعر وعواطف في مرحلة ما بعد الجامعة عن طريق النثر؛ فهو أسهل تناولاً وربما أصدق في نقل ما بداخلنا من أفكار وأحاسيس.

إن ما سأقرؤه عليك الآن هو بعضٌ من تأملاتي، أودعتها بعضُ خطابات كنت أكتبها لرفيقة العمر في أثناء فترة خطوبتنا، وقد سجلت هذه التأملات وأنا جالسٌ في مكتبي بقسم الجراحة وأحياناً في سكن أطباء المستشفى، لذلك كان طبعياً أن يحمل بعضها بصمات المرض والمعاناة.

وكان طبعياً أن تكون انطباعاتي وتأملاتي الأولى حول الأمل:

لو كان الألم رجلاً لقتلته!...

«عندما يتألم الإنسان، تموت مع آهاته بسمات الزهور... وتذبلُ
نُضرتَها... ويتلاشى عطرُها.

عندما يتألم الإنسان تكفُ الحَمَاماتُ عن البكاء... فأين بكاءُها من
بكائه...

عندما يتألم الإنسان لن تعد نسماتُ الهواءِ العليلِ عليةً.

عندما يتألمُ الإنسانُ ويقف أخوه الإنسان أمامه عاجزاً مكتوف
اليدين، سيشاركهما الوجودُ كله الحُزن..

أعيش وَسَطَ الألم، بل قولي آلاماً كثيرة. آلامُ تُفجرها وطأة المرض...
آلامُ يُوججها انتظارُ إجراء الجراحة... آلامُ تعقُب الجراحة... آلامُ رفيقٍ
يشارك المريضَ طريقه... آلامُ الجوع في بطون أطفال بعيدين ينتظرون
شفاءَ عائِلهم، حتى يستطيعوا النوم بعد أن سلبهم الجوعُ كل شيء، حتى
النوم.

تُرى هل تعيش مع هذه الآلام زهرة، أو تحتفظ بنضارتها وعطريها.
لا أعتقد... فالزهورُ لا تتنفسُ هذا الجوّ القاسي... إنها تستمد وجودَها
من السعادة... لا يستطيع أن يواجه هذه القسوة إلا الإنسان الإنسان.

عندما حَلَلْتُ هذا المكان بدأت الزهور تنبُت من حولي، أتعرفين
لماذا... لأني إنسان يحاول أن يزرع السعادة حوله... كلُّ مَنْ حولي
في حاجة لسعادتي... بحاجة لابتسامتي... إن سعادتي ليست ملكاً
لنا وحدنا... إنها لنا ولهم؛ إنها للممدوح ومجاهد وعم أحمد والأستاذ

رشدی وست زینب والطفلة سعاد، إنها لهؤلاء ولأهليهم جميعاً، وسعادتي أيضاً للست الريسة والحكيمة، وللممرضة والتمرجية وعامل الأسانسير، وكل من يعمل على خدمة مرضاى... إنهم جميعاً في حاجة لسعادتي... حتى يُعينوا مريضى على التغلب على آلامه.. عمرو...». وحول أحد الأمراض الفتاكة المهلكة التى أصابت أحد مرضاى، كتبت لرفيقة العمر:

الموت الأسود...

«عند مرورى صباح اليوم على مرضاى بالقسم؛ وجدتُ أحد مرضى بتر الساق وقد ظهرت عليه أعراضُ مرضٍ خطيرٍ للغاية، شديدُ الفتك بالمرضى وشديد العدوى للجروح الأخرى. ولكي تتطهر المستشفى من هذا المرض يجب حرق قَرشٍ سرير المريض وأمتعته وأيضاً الأسرة المجاورة، ويجب تبخير القسم كَـلِّه بمواد مُطهرة بعد إخلائه ثم غلقه لعدة أيام...»

الموت الأسود Black Death يحيط بنا من كل مكان... قديماً أطلقوا الاصطلاح على الطاعون... واليوم أُطلقه أنا على هذا المرض... فما أسوأه وما أقدره.

معدرةٌ لهذا الوصف، لكن هذا ما ينطبقُ عليه تماماً... مرضٌ لعينٌ خبيثٌ أشد وطأة من الأمراض السرطانية الخبيثة... إنه أشبه ما يكون بالبشر عندما يتجردون من إنسانيتهم، عندما تغلب عليهم أحقادهم فينشرون الفسادَ فى الأرض وفى الهواء أينما ذهبوا، فيصيبون به الناس بجرمٍ أو بغير جرم.

عندما أُشبهَ المرضُ بمن ينشرون الفساد في الهواءِ فلستُ مبالغاً... فهذا المرضُ ينتشرُ في الهواءِ بشكلٍ مفرعٍ ليصيبَ أى جُرحٍ ويكمن فيه، ثم ينشرُ سُمومَه في جَسَدِ الإنسانِ ولا يتركُه إلا جُثَّةً هامدةً... لذلكِ يسمونه الغرغرينة الغازية Gas gangrene.

رفيقة العمر.. حسبكِ من هذا البلاء اسمَه... لا أراكِ الله رسمَه... يُسببه ميكروب يصيبُ الجروحَ ويتغلغل فيها... يتغذى على أنسجتها ويبيت فيها سُمومَه... يجعلها عفنة، نتنة، مقززة... تثير الاشمئزاز برائحتها ولونها وملمسها.

ويتجاوز هذا الميكروب سُننَ المرضِ المتعارفِ عليها!... فلا يعبأُ بمناعة جسمٍ أو محاولات طيبٍ أو جراح حاذقٍ... يسخرُ منا جميعاً ومن كل محاولاتنا... وإذا تمكنا من قتل الميكروب، يكون قد بث سُمومَه المتنوعة في أنسجة ودماء المريض المسكين... أنواعاً وأنواعاً من السموم؛ هذا يمزقُ النسيج، وهذا يحلله، وذاك يعتصره عصراً ولا يتركُه إلا مَيْتاً محطماً عفناً... وإذا حاولنا التخلص من هذه السموم فشلنا؛ فقد التصقت بالأنسجة لا تفارقها؛ لا يصلحُ معها مصلٌّ ولا عَقَّارٌ... لقد وصلتم متأخرين يا سادة، يسخرُ المرضُ من تجاعيد رَسَمها الزمن على وجوه أساتذتنا الكبار، ويسخرُ من لحاهم التي جللتهما الخبرةُ باليباض.

عزيزتى...

لا تقف المشكلة عند هذا المريض المسكين... الذى كُتب عليه الموت شئنا أم أبينا... فالمشكلة تمتد إلى باقى مرضانا كُلِّهم... كيف نحميمهم من هذا الوباء المميت الذى يُخالطُ الهواء...

أخشى أن تكون المشكلة أكبر من طاقتنا... إلهى كن معى... إلهى
كن فى عون مرضاى... إنهم يجلسون حولى لا يستوعبون ما نتخذ من
إجراءات... يُحمَلون، يندهشون... لا يصدقون أن يتحول طبيبهم
المهذب الرقيق إلى هذا الإنسان القَلِق الشرس... إنهم يولونى ثقةً لا أدرى
إن كنت الآن استحقُّها.

اتخذنا قرارًا بإغلاق القسم... إني أشعرُ كأن بيتى قد خرب... أو أن
أحد أولادى قد هلك!... فما أعز هذا المكان على قلبى... فهنا سهرتُ
الليالى... وهنا تعلمتُ... ومن هنا أتعشم أن يُجازينى ربى خيرًا وأن يبارك
لى فى كل من أحب... عمرو...»

ثم قدّمت لنفسى اللوامة للخاطرة التالية قائلاً: كان من أقرب أصدقائى
إلىّ، جمعتنى به وبزوجته زمالةُ الدفعة فى الكلية، ثم طوّرتها صحبتنا إلى
صداقةٍ وأخوةٍ، كانا لى نعيمَ الصديقين، وكنت لهما الأخ الأثير محل الثقة.
وعندما قارب صديقى استكمال تدريبه فى التخصص الذى اختاره مر
بمحنتين؛ فقد امتنع أستاذة عن تعيينه فى سلك الجامعة، وبعدها بيوم تُوفى
والده. ذهبت إليه مُعزياً، ثم عدت إلى المستشفى؛ لأمسك بالقلم لأخط
لخطيبتى رفيقة العمر خطاباً عن زيارة العزاء:

عزاء...

«ها قد عُدتُ من واجب العزاء فى والد صديقى الأثير.

ما أشدها من محنة أصابته فى وقت عصيب.

فبالأمس أُلغى تعيين صديقى فى سلك الجامعة، واليوم تُوفى والده.

بالأمس سرّيتُ عنه، وذكرته بما نؤمن به من أن المستقبل بيد

الله عَزَّوَجَلَّ، وأن عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم. وعندما علمت بوفاة والده ضربتُ كفاً بكف، وقلت سبحانك... ماذا يريد الله عَزَّوَجَلَّ أن يثبتَ لنا؟!..

أعتقد أنني فهمت.. هل تعتبرين ما حدثَ تعاضلاً في المصائب؟! لا... أعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يُسرِّي عنه وأن يلقننا درساً... كنت أقول له بالأمس؛ علَّ في ذلك خيراً، فليس التعيين في الجامعة هو نهاية المطاف، قلت له كلاماً كثيراً... ولكني الآن أصبحت أؤمن تماماً بما قلت، فكأن وفاة والده إثباتٌ لما حاولت أن أقول.

صديقي صابرٌ ومتناسِكٌ... يُدرك معنى الحكمة الإلهية للموت... ما احتج، ولا اهتز... سررتُ جداً برؤيته... وددتُ لو جلست أمامه طيلة يومي وليلي... لأتعلمَ منه، أو لتتعلمَ منه جميعاً.

اليوم عند الفراق بعد العزاء - وكنا جماعة من الأصدقاء - همس لي إنه يُريدني أن أبقى... بقيت قليلاً... لم نستطع أن نتحدث... مُعزَّوه كثيرون... جاءه ظرفٌ مهم دفعه للخروج من الغرفة... خرجتُ وراءه... همس لي بكلمات مقتضبة تُعبِّر عن ضيق شديد، وأخبرني بأنه سيحدثني فيما بعد... وعرفتُ منه أيضاً أن هناك احتمالاً أن يعينوه في الجامعة... فلندعُ له سويّاً.

وعند انصرافي رأيتها.. زوجته الفاضلة... صديقتنا... نظرتُ إليَّ بعينين تبرقان... ملؤهما الحيرة والبحث عن الأمان... نظرة لن أنساها... ارتعدتُ من داخلٍ... صديقي، ارتعدت وارتعشت وتلعثمت... هكذا دائماً لحظات الصدق والوفاء... قالت لي: ادعُ له... لحظتها دمعت عيناى... وحتى الآن تدمعان.

صافحتها مُودِّعًا... أردت أن أقول لها شيئًا... الظروف لم تسمح...
لكن مصافحتي القصيرة قالت لها كل شيء... قلت لها يدي؛ البركة
فيكي... فأنت السلوى... وأنت الأمان وأنت الشاطئ... أنت الحب
والحنان والحلم والمستقبل... أنت له كل شيء... حلم الماضي... وحب
وحنان الحاضر... ومستقبل العمر... وقالت لها يدي أيضًا؛ أنت الحبيبة
وأنت الزوجة... لا شك تدركين حاجة الزوجة المحبة لزوجها، أليس
هو كل شيء لها... إن حاجة الرجل لحبيبته وزوجته أكبر... لذا قالوا
عنا «طفل كبير»؛ لأنه بحاجة لحنان حبيبته التي تسهر عليه.

عندما رأيتهما قفز إلى خاطري مرأى عينيها عندما كنا معًا في الكلية...
كان لهما بريقُ أَخَازٍ... بريقُ المرح والانطلاق والصبا... أما اليوم فقد
رأيتهما أجمل... رأيتهما تُدَمِّعان بدموع الحب... تُدَمِّعان خوفًا على
زوجها... كانتا تطلبان مني المعونة والنجدة... عيناها صقلتهما الحب..
صقلتهما المسؤولية... فأصبحتا أكثر عمقًا... وأكثر روعة.

عندما طلب صديقي مني البقاء، أحسست بمنتهى السعادة والرضا.
وعندما أقبلت على زوجته وخصتني بدموعها وبثقتها، أحسست
برضا أشد...

مَنْ تعتقدين كان أشد احتياجًا للآخر؛ أنا أم هما...؟
أيُّ الإحساسين نحن أشد احتياجًا له؛ إحساس أن تجدى من يقف
بجانبك عند احتياجك... أم إحساس أن الآخرين بحاجة إليك؟
إحساس أنك تودين أن تشتكى، أم إحساس أن الآخرين أولوكِ حُبهم
وثقتهم، والتمسوا دعواتك لهم في أشد لحظاتهم ضيقًا وضعفًا؟

كنت في منتهى الرضا... أحسست أنني في أمس الحاجة لاحتياجهم لي.
وعدته أن ألقاه غداً... وأن نتحدث سوياً.

وسأجتهد أن أراها... أحادثها.. أترجم لها بلساني ما قالتها لها يدي...
وفي النهاية؛ سأختم حديثي لها بشيء واحد، سأقول لها: عزيزتي، إنني
أرى فيك ما أتمنى أن أراه في رفيقة العمر.

عدت وحيداً... مُطَرِّقاً ناظري إلى الطريق.. متفكراً... قلبي يَدْمَعُ،
ونفسي تنهنه... عدتُ إلى شُرْفَتِي... كان الجو رائعاً... وكانت نسمة
الهواء باردة... القمرُ مكتملٌ على عرشه الذي أولاه له صاحبُ العروش.
كان الهدوءُ ساحراً، وإذا بصوت أم كلثوم ينساب ساحراً:
يا ما حاولت أنساك... وأنسى ليالي هواك...

وأنسى الزمان اللى شَفُّته... في الوجود وياك...
حاولت أن أجلس إلى مكتبي لأراجع بعض العمليات الجراحية..
لَمْ أَسْتَطِعْ... من بدايتها؛ لَمْ تَكُنِ اللَّيْلَةُ تَصْلُحُ إِلَّا لشيء واحد...
لا تصلح إلا للحب... لذلك أمسكتُ القلم؛ أَبْنَتْهُ أَشْجَانِي لِيَنْقَلِهَا إِلَيْكَ...
عمرو...».

أَطَرَقَتْ نَفْسِي اللّوامة؛ أَنَا أَعْرِفُ كَيْفَ يَكُونُ حَالُهَا فِي لَحْظَاتِ
الشَّجْنِ؛ لَا شَكَّ أَنَّ حَدِيثِي لَهَا عَنِ الْأَلَمِ، ثُمَّ عَنِ الْمَرَضِ الْمُهِلِكِ، ثُمَّ عَنِ
الْحُبِّ الَّذِي يَتَفَجَّرُ فِي لَحْظَاتِ الْمَوْتِ كَانَ حَرِيّاً أَنْ يُهَيِّجَ فِيهَا مَا سَكَنَ مِنْ
مَشَاعِرٍ... أَرَدْتُ أَنْ أَخْفِفَ عَنْهَا، فَقُلْتُ لَهَا؛ كَفَانَا لَوْعَةً؛ مَاذَا لَوْ قَرَأْتَ
عَلَيْكَ بَعْضًا مِنْ نَثَرِي الْوَصْفِيِّ الْخَالِي مِنْ لَحْظَاتِ الْأَسَى.

قالت: يا ريت.

فقرأت عليها شيئاً مما كتبه ابن الثالثة والعشرين في أحد دفاتر
مذكراته:

حلم الأميرة...

« كانت الأميرة ساقى ابنة الإله رع - صاحب النعم ومقسم الأرزاق -
نائمة في فراشها المشغول من الأزهار والرياحين... وكانت الحور العين
قد أعددته لها من سبع باقات من الأزهار، جمعنها من حدائق الإخلاص
والمحبة على سطح القمر ليلة الرابع عشر من شهر الهيام... أراحت
الأميرة خدّها الوردي على وسادة من العنبر العبق... وكانت تحلم وتحلم
وتحلم... وكانت تتثنى برقة في فراشها...

لا أدري بماذا كانت تحلم ابنة رع العزيرة الأثيرة لديه... والتي لـ
يدعها تحتاج لأى شئ لتحلم به!... ولكن لا شك عندي أنها كانت
تحلم...

انسابت الأميرة من حافة سريرها الوردي... فأحاطتها أشعة القمر
الموكلة بحمايتها والساهرة على سلامتها... كان هبوطها هيناً ليناً...
فنزلت تتهادى على ذلك الشعاع الفضى الذى أسلمها إلى الأرض بجوار
نهر رقرق... وما أن لمست قدمها الأرض حتى ومضت وأضاءت
واهتزت... لقد هبطت في بقعة هى أجمل بقاع وادى النهر...

كان الفتى كعادته هناك... ينتظر... دائماً هو فى كل مكان يمكن أن
تهبط فيه... ما أسعده اليوم... سيحتفل دائماً بهذه الليلة من شهر الهيام...
لقد رآها فى صورة أجمل ما تكون... تهبط على شعاع القمر الفضى فى

ثوبها الوردى المَهْفَاف.. كانت شديدة البهاء... قاسية الجمال... ولكن
أين هو من ابنة رع... إنه لا يملك إلا قلبه وعقله... حتى هذان لم يعد
يملكهما... عمرو...»

وقرأت أيضًا على النفس اللوامة ما كتبه فتى عاشق في أثناء زيارته
لمعرض اللوحات... كتب كأنه يخاطب حبيبته:

حديث اللوحات..

«ما أروعها... اثنتا عشرة لوحة مُعلَّقة أمامى... أودُّ أن أنظر إلى
إحداها وأستوحى منها خطابًا لك... أختار واحدة... أتأملها... أسرحُ
فيها... لأترجمها لك سطورًا وكلمات...

اللوحاتُ كلها رائعة... كلها ساحرة... كلها حاملة... لا أدري أيها
أختار... بعضها يسيطر عليه اللون الأبيض الناصع، المُتمثل في لون
السحاب ولون الجليد الذى يكسو قمم الجبال ويغطى الأرض والأكواح
وأوراق الشجر... إنى استوحى من دفء برودة هذه اللوحات ومن منظر
الجليد إحساسًا بالعرشة التى تُعمرنى وأنا بين يديك... ربما...

بعض اللوحات تُسيطر عليها الخضرة التى تُعمر كلَّ شىء... وكأن
الدنيا قد أمطرت اخضرارًا... اخضرارًا... اخضرارًا... الخضرة فى هذه
اللوحة تمتزجُ بزرقه نهر دافق... وفى هذه، تتناثر الطيور التى تبدو
كبقع بيضاء على الخلفية الخضراء... وهنا تبدو الطيور كحبات العرق
على جبين مجهد عاشق... وهذه اللوحة تُخالطها حمرة الشفق... وتلك...
أوصاف لا نهائية لجمال لا نهائى تُدرِّكه العين، إذا كان لقلب المرء نصيبٌ
من تدوِّق الجمال ومن القدرة على الحب...

حيرني هذا الجمال، فصرتُ لا أدري هل أنتِ -رفيقتي- جميلةٌ حقاً!!... لا أدري... هل أنتِ رقيقةٌ حقاً!!... هل أنتِ ساحرةٌ حقاً!!... هل أنتِ حقاً وفعلاً أجمل من كل هذا الوجود!... لا أدري... قد لا تكونين بهذا الجمال والرقّة والسحر... لا يعنيني ذلك... فأنا لا أهتم في حضرتك بالقيم المجردة... كل ما أهتم به هو كيف أراك أنا داخل نفسي... وهل الجمال والرقّة والسحر سوى إحساس داخلي ينبع من مشاعري نحوك... عمرو...».

لُذت بالصمت بعد أن انتهيت من قراءة القطعة النثرية الأخيرة، فأدركتُ اللوامة أني انتهيت من عرض محاولاتي الأدبية، فعَلَّقتُ قائلة: بغضُ النظر عن رأي أربابِ الأدب ونُقَّادِهِ فيما قرأتَ عَلَيَّ، فإنني في الحقيقة استمتعت بما سمعت، وأدركت الآن سر ارتفاع المستوى اللغوي لكتبتك العلمية والفلسفية كما يشهد بذلك قراؤك، إنها موهبة أدبية عبَّرت عن نفسها منذ قرابة نصف قرن. كذلك أعجبنى تعدد موضوعات هذا الإنتاج وتنوعه تبعاً لمرحلتك العمرية والدراسية والفكرية. ويُحزني أن كانت بداية ممارستك للجراحة مرحلة أفول توقَّف بعدها إنتاجك الأدبي.

قلت للوامة؛ ذكرتُ لك منذ قليل أن مشاغلي الجراحية والعلمية والعملية والاجتماعية قد شغلتني عن الاستمرار في الكتابة الأدبية، وأنتِ تعلمين أن سنوات دراسة الطب فصلتني تماماً عن الحياة العملية والاجتماعية، فوجب تعويض التقصير في هذه الجانِب، بجانب الانشغال بممارسة الطب والجراحة، مما لم يترك مجالاً للفكر والأدب، إلا إنتاجاً قليلاً كان يظهر من حين لآخر كلما دعت الحاجة لذلك.

قالت اللوامة: لقد امتدت مرحلة «البيات الأدبي» قُرابة الثلاثين

عامًا، قبل أن تبدأ مرحلة إنتاجك الفكرى من خلال تأليف الكتب العلمية والفلسفية، أليس كذلك؟

أجبتها: نعم...

قالت اللوامة: هل آن الأوان أن تُحدثنى عن مشروعك الفكرى ومؤلفاتك التى صمَّنتها هذا المشروع؟

قلت: نعم، فاستمعى إلىَّ...

الثمار - 2

مشروعى الفكرى

قالت نفسى اللوامة:

بعد استعراضك لبعض محاولاتك الأدبية التى كانت بمثابة إنتاجك الفكرى المبكر، آن الأوان أن نُحدثنا عن مؤلفاتك الفكرية. وقبل أن تطرح علينا مؤلفاتك، ما قولك فيما يتهمك به البعض من أنك ما أقدمت على نشر كُتُبك إلا طلبًا للمال والشهرة، فهل هذا صحيح؟

أجبتها: لا شك أنك تعلمين (دون الدخول فى التفاصيل) أنى أنفق ماديًا على مشروعى الفكرى وأنه لا يحقق عائداً لى فى النهاية. وأنتِ أدرى منى - باعتبارك نفسى - أننا⁽¹⁾ لسنا من طالبي الجاه والشهرة، وقد حققنا منها من خلال عملنا الأكاديمى والطبى ما يُشبع مَيْلَكِ القليل لذلك، وفى نفس الوقت فإننى قد رفضت من المناصب ما كان كفيلاً بأن يحقق لى شهرة واسعة عبر وسائل الإعلام فى الداخل والخارج. ومن ثمَّ، دَعِينَا مما يروجه ضعيفو الحيلة، الذين لم يجدوا سبيلاً لنقض فكرى، فلبجأوا

(1) المثنى هنا يشمل العقل والنفس.

إلى النقد الشخصي، ليشبعوا مرضاً في نفوسهم، وهذه قاعدة يمارسها دائماً الجُهلاء والجبّناء.

قالت اللوامة: حسناً، يعتب آخرون أنك بعد أن وصلت إلى مستوى متميز في الجراحة (تدريساً وممارسة) قد تخلّيت عن عملك الأكاديمي والجراحي لتتفرغ لعالم الفكر، ويرون في ذلك خسارة كبيرة يدفع ثمنها مجتمعك الذي ممكنك من تحقيق هذا التميز، فإذا بك تحرّمه من الاستفادة منك كأستاذ للجراحة وكجراح؟

قلت للوامة: تعرفين أن هذا غير صحيح، فأنا لا أزال أقوم بجميع مهامى التعليمية والعلاجية في الجامعة، وبعد أن انتهى عملى كرئيس لأقسام الجراحة وأصبحت أستاذاً متفرغاً تم اختيارى طوال السنوات الخمس الماضية - وحتى الآن - كعضو بمجلس الكلية، كما أقوم بجميع نشاطاتى فى الكلية والجامعة. وإذا كنت قد تخلّيت عن بعض هذه النشاطات، فذلك لأن من الأجيال التالية من تدرب على القيام بها، وربما بشكل أفضل. وبالنسبة لعملى الجراحي الخاص، فما زلت منتظماً فى العمل فى عيادتي وفى إجراء العمليات الجراحية. ومن ثمّ لم يكن نشاطى الفكرى على حساب عملى التعليمى والجراحي.

مع مؤلفاتى

قالت النفس اللوامة:

فهمت من حديثك السابق أنك ما طرقت عالم الفكر ككاتب إلا بعد أن استشعرت حاجة المجتمع لمفاهيم لم يسبق طرحها، أو طرحت بقدر غير كاف أو بشكل غير مناسب، فهل هذا صحيح؟

أجبت اللوامة قائلاً:

نعم؛ مع ملاحظة أن عطائي في عالم الفكر لم يبدأ بمؤلفاتي، فقد سبقها ما كنت أديره من حوارات مع طلبتي في الكلية طوال ثلاثين سنة، وما كنا نناقشه في بيتي في «صالون الأحد» الأسبوعي طوال عشرين سنة. بعد ذلك جاء إنتاج الكتب، ثم تبعته ثمارٌ فكرية أخرى على هيئة ندوات ومحاضرات ومقالات صحفية وبرامج تليفزيونية وفضائية.

وأضفت قائلاً للوامة: وكما ذكرت، فإنني لم أمارس الكتابة إلا بعد أن استشعرت حاجة المجتمع لمفاهيم معينة. بل إنني أزعم أني لم أكتب كتاباً لمجرد طرح كتاب جديد، بل لقد كان لكل كتاب من كتبي مناسبة فرضت تأليفه ونشره. ودليل احتياج الساحة الفكرية لما كتبت، أن معظم كتبي يتراوح ما صدر منها حتى الآن ما بين الخمس والعشر طبعات، وما زالت أوائلها تُطبع حتى الآن، كما أن كل كتبي هي الأكثر مبيعاً عند ناشرها. ودليل ذلك أيضاً أنني عندما لم أشتعر الحاجة إلى كتاب جديد توقفت عن الكتابة بعد كتابي الأول، من عام 2005 حتى عام 2008.

قالت اللوامة؛ هلاً ذكرت لي باختصار مناسبة كل كتاب من كتبك، ولخصت لي موضوعه.

قلت: بسم الله نبدأ وعليه التوفيق:

أبي آدم، من الطين إلى الإنسان...

كان كتابي الأول في عالم الفكر هو «أبي آدم، من الطين إلى الإنسان» الذي صدر عام 2005، وقد ذكرت لك ملابسات صدور الكتاب عند

حديثى عن علاقتى بالدكتور عبد الصبور شاهين، رحمه الله، فى أثناء حديثى عن علاقتى بالآخر.

ويدور الكتاب حول احتياج منظومة الخلق (خلق الكون والحياة وتطور الكائنات الحية وصولاً إلى الإنسان) إلى تدخل خالق حكيم، وأن الخلق لا يمكن أن يكون قد حدث عشوائياً. كما يتعرض الكتاب بالتفصيل لنظرية التطور البيولوجى، ويتبنى أن التطور (الذى يحظى بإجماع علمى على مستوى العالم) قد حدث بتوجيه إلهى، لذلك ينبغى أن نُطلق عليه اصطلاح «التطور الموجه» أو «التطوير الإلهى». وفى نهاية الكتاب تعرضنا لعلاقة التطور البيولوجى بالمفاهيم الدينية حول خلق الإنسان.

وقد قمت بتحديث وتوسيع ما فى الكتاب من مفاهيم، ونشرتها فى كتاب أحدث عام 2011، وهو كتابى «كيف بدأ الخلق».

ومن المواقف التى تستحق الذكر، أنه عقب صدور كتاب أبى آدم، اتصل بى أحد القراء وطلب لقائى. وفى اللقاء، أخبرنى هذا القارئ بإعجابه بما ورد فى الكتاب من احتياج الخلق للذكاء، مما حتم طرح مفهوم «التطور الموجه»، وسألنى إن كنت قد اطلعت على مفاهيم «مدرسة التصميم الذكى» التى تتبناها مؤسسة ديسكفرى بالولايات المتحدة، فأجبتة بالنفى، فأخبرنى بأنهم يتبنون نفس الفكر. وقد أهدانى هذا القارئ فيما بعد مجموعة من المراجع الأمريكية الرئيسة لمدرسة التصميم الذكى.

أذكر هذا الموقف لبيان أن اقتناعى باحتياج الخلق والتطور لحكمة وذكاء كان نابعاً من قناعاتى الخاصة، قبل أن أطلع على فكر مدرسة

التصميم الذكي بالولايات المتحدة... وذلك يعنى أن قناعتى بالتصميم الذكى قناعة أصيلة، توصلتُ إليها بنفسى. وللأسف، فإن هذا الرجل يدعى على صفحات التواصل الاجتماعى أنه هو الذى أطلعنى على هذا الفكر. والحقيقة أنه قد اطلع على هذا الفكر وتبناه (لفترة) نقلاً عن مؤسسة ديسكفرى، بينما هذا الفكر كان أصيلاً عندى، توصلتُ إليه بنفسى.

رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية...

توقفت عن الكتابة بعد كتاب أبى آدم الذى صدر عام 2005؛ لأننى لمر استشعر احتياج الساحة الفكرية لكتاب محدد، حتى كان كتابى «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية» الذى صدر عام 2008، والذى ذكرت ملابسات صدوره عند حديثى عن علاقتى بالدكتور عبد الوهاب المسيرى رحمه الله، وكيف أن الكتاب تلخيصٌ وتبسيطٌ لكتاب د. المسيرى «رحلتى الفكرية فى البذور والجذور والثمر».

ولعل استعراض أفكار رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية يكاد يكون مستحيلاً هنا، لتنوع مجالات اهتمام د. المسيرى وتطور رؤيته للكون والإنسان والدين والإله. لكنى أوجز أفكار الكتاب فى أنه يتكون من جزأين:

الجزء الأول خاص بـ «التكوين»، وفيه يستعرض د. المسيرى بذور نشأته فى دمنهور، ثم بدايات تشكُّل هويته واتجاهه لعالم الفكر كطالب فى جامعة الإسكندرية، ثم توجهه لدراسة الماجستير والدكتوراه فى الولايات المتحدة، حيث تعامل مع الحضارة المادية المعاصرة بشكل مباشر وعائش سلبياتها، مما كان له الأثر الأكبر فى إدراك ما عليه الإنسان من

ثنائية (روح وجسد)، بخلاف ما يتبناه الفكر المادى من مادية الإنسان، وقد فتح هذا الفهم الجديد باب انتقال د. المسيرى من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان على مصراعيه.

والجزء الثانى من الكتاب، عبارة عن جولة فى «عالم الفكر»، ويشتمل على استعراض لأهم مؤلفات د. المسيرى كتطبيق على منهجه الفكرى، خاصة موسوعته الشهيرة «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»، والتي صدرت فى ثمانية مجلدات (3500 صفحة - ما يزيد على مليونى كلمة) وهى بحق «أعمق» عمل فكرى فى موضوعها على مستوى العالم. وأخيراً يحدثنا كتاب «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية» عن اهتماماته فى عالم الأدب الإنجليزى، وإصداره كتاباً لقصص الأطفال، وأيضاً اهتمامه بعالم الفن والعمران خاصة فنون الأرابيسك.

المخ ذكر أم أنثى...

يأتى بعد ذلك (عام 2009) كتابي «المخ ذكر أم أنثى؟!» الذى شاركنى فى تأليفه الصديق الفاضل الدكتور مهندس نبيل كامل، خبير التنمية البشرية. ولتأليف هذا الكتاب قصة طريفة، تبين كيف وُضعت فكرة الكتاب ومادته العلمية فى طريقى!!

فى إحدى الليالى، طرق باب بيتى صديقٌ مشترك لى ولدكتور نبيل كامل، حاملاً حقيبة بها قرابة خمسة عشر كتاباً باللغة الإنجليزية من أحدث الإصدارات، وقال لى: د. نبيل (لر نكن قد تعارفنا من قبل) يسأل؛ هل يمكن أن نخرج من هذه الكتب كتاباً باللغة العربية؟! اندهشت،

وقلت لصديقي؛ ما هكذا يا سعد تُورَدُ الإبل⁽¹⁾! ليس هذا أسلوب تأليف الكتب!، وتجادلنا، واتفقنا أن ألقى نظرة على الكتب قبل أن أرفض الفكرة.

سهرت ليلتي اتصفحُ الكتب، وجدتُها تدور حول الفوارق البيولوجية بين مخ الذكور ومخ الإناث، والتي تؤدي إلى فوارق سلوكية ونفسية وشعورية بين الجنسين، هالني حجم ما رأيت من فوارق لم أكن أعرفها، ولا تعرفها الأغلبية العظمى من الناس. اتصلت بصديقي تليفونياً في الصباح، وطلبت منه تحديد موعد مع د. نبيل كامل، لأعرف بالتحديد ماذا يريد!

كان لقاءً ودياً للغاية، تحدث خلاله د. نبيل عن دهشته مما يردده المتعصبون اللأثوية Feminists من النساء والرجال عبر وسائل الإعلام، من أنه لا توجد فوارق مخية أو عقلية بين الجنسين، ومن ثم يتبنون رأياً يقول بالمماثلة بينهما، وليس فقط الدعوة للمساواة! ويتخذون من هذا الرأي حجة لمهاجمة المفاهيم الدينية التي تتبنى وجود اختلافات عقلية بين الجنسين. وأضاف د. نبيل إن الكثيرين قد خُدعوا بهذا الرأي وأصبحوا يتبنونه، بالرغم من أن العلم (كما فهم من المراجع) يتبنى غير ذلك.

بعد مناقشات يسيرة، اتفقنا على تأليف الكتاب!!

ويتناول الكتاب في بابه الأول الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الذكر ومخ الأنثى، والآليات التي تقف وراء هذه الفوارق (الآليات الجينية والهورمونية والتربوية)، كما يتناول الكتاب ملامح

(1) مثلٌ عربي يُضرب لمن لا يُحسن الاستعداد لما يريد، بل يطرح لذلك وسائل شاذة.

وسمات كل من العقل الذكورى التنظيمى والعقل الأنثوى التعاطفى.
وفى بابہ الثانی يتعرض الكتاب للتطبيقات العملية والحياتية للفوارق
المخية / العقلية بين الجنسين، وذلك فى مجالات مؤسسة الأسرة،
والأمومة والأبوة، العلاقة الجنسية، وأيضًا فى مجالات الدراسة والعمل
والاهتمامات الحياتية.

بعد صدور الطبعة الأولى من الكتاب بأسابيع، تلقيت مكالمة هاتفية،
أحب أن أطلعك أيتها النفس على ما دار فيها من حوار:

- ألو، أنا أحمد عكاشة.
- أستاذى الفاضل، اتصالكم شرفٌ لى.
- إيه يا عمرو، أنت دمياطى! تُصدر كتاب عن «المخ ذكر أم أنثى» ولا تهدينى منه نسخة.
- ياسيدى، ومن أنا حتى أهدى كتابًا فى علوم المخ والأعصاب وعلم النفس للدكتور أحمد عكاشة! هل أبيع المية فى حارة السقاين.
- أصدقك القول يا عمرو، كتابك رسالة دكتوراه ممتازة فى علم النفس، وفى الحقيقة، أنا لمر أقرأ لأستاذ فى علم النفس كتابًا فى هذا الموضوع بهذا العمق والوضوح.
- شهادتك وسام على صدرى يا أستاذى.
- اسمع، أنا ها اكتبك مقدمة للطبعة الثانية من الكتاب.
- شكرت أستاذى شكرًا عميقًا، وكتب د. أحمد عكاشة التقديم للكتاب، ولا يزال الكتاب يحمل مقدمته فى الطبعات المتكررة منه.

رحلة عقل...

في أحد الأيام، اتصل بي أحد قرائي تليفونيًّا، وحدثني عن كتاب بعنوان «There Is A God - هناك إله»، وذكر أنه لم تعد في مكتبة ديوان سوى نسخة واحدة منه، وحمّسني أن أشتريها.

أقتنيْتُ الكتاب، وهو من تأليف سير أنتوني فلو أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد. ويدور الكتاب حول رحلة مؤلفة من الإلحاد إلى الإيمان بالإله. فأنتوني فلو ظل زعيمًا للإلحاد في الفكر الغربي طوال النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد أن تجاوز الثمانين من عمره، أعلن عام 2004 إنه قد صار يؤمن - بناء على الأدلة العقلية والعلمية - بالإله الخالق للوجود، ثم أصدر عام 2007 كتابه «هناك إله» يشرح فيه رحلته الإيمانية والأدلة التي دفعته لتغيير رأيه من الإلحاد إلى الإيمان.

وقد انطلق سير أنتوني في تغيير موقفه إلى الإيمان من ثلاثة مفاهيم علمية. المفهوم الأول؛ ما أثبتته أبحاث علوم الكونيات من أن للكون بداية، وما أدى إليه ذلك من وضع نظرية الانفجار الكوني الأعظم لتفسير نشأة الكون. والمفهوم الثاني ما أثبتته العلم من عجز الصدفة والعشوائية عن إنشاء ظاهرة الحياة وإحداث تطور الكائنات الحية. والمفهوم الثالث، هو التعقيد المذهل للمخ البشري ودوره في النشاطات العقلية للإنسان. هذه المفاهيم الثلاثة دفعت أنتوني فلو للإقرار بالوجود الإلهي كسبب أول وراء نشأة الكون والحياة وتطوير الكائنات الحية وخلق العقل الإنساني.

وقد قضى سير أنتوني فلو السنوات القليلة التي تبقت من عمره باحثًا

عن الأدلة على تواصل الإله مع البشر من خلال الديانات، وإذا كان الإله قد تواصل معنا فما هو الدين الحق بين الديانات العديدة المنتشرة بين الناس. ومات أنتوني فلو على ذلك.

ترجمت كتاب «هناك إله»، ولخصته، وجعلته الجزء الأول من كتابي «رحلة عقل». وجعلت الجزء الثاني بعنوان «نستكمل الرحلة»، وفيه استكملت أدلة الوجود الإلهي، واستدللت على تواصل الله عزَّجَلَّ مع الإنسان، وطرحت المقاييس الموضوعية التي يمكن أن نُرجَّح بها بين الأديان، وصدر الكتاب عام 2010.

وفي تقديمه للكتاب، كتب أستاذنا د. أحمد عكاشة يقول: «إنني أهيب بكل باحث عن الحقيقة، وكل متدين يبحث عن يقين العقيدة، أن يقرأ هذا الكتاب قراءة متأنية. إنه طرحٌ جديد كلِّ الجِدَّة، يُعتبر ثورة في المفاهيم العلمية، وثورة في النظر إلى الدين».

لاقى كتاب «رحلة عقل» قبولاً واسعاً، ودعاني المفكر الكويتي الكبير الشيخ د. محمد العوضي للكويت لتسجيل سلسلة من الحلقات عن الكتاب لقناة الراي الفضائية لإذاعتها في شهر رمضان، وأسمينا السلسلة: «العلم الحديث في مواجهة الإلحاد». وعند وداعي عائداً إلى مصر أوصاني د. العوضي قائلاً: إن ملف الإلحاد يزداد سخونة، وليس هناك من متخصصٍ فيه، ليتك تُقرِّغ له جهدك.

لفتت هذه الوصية نظري لأهمية إعطاء ملف الإلحاد أولوية في مشروعي الفكري حتى أستوفي ما يمكن أن أقدمه فيه، وقد كان. والحمد لله أن كان اهتمامي بملف الإلحاد وما كتبته عنه بمثابة لفت النظر إلى ورود هذه الظاهرة إلى بلادنا.

ويُعتبر الكتاب من أكثر الكتب «الفكرية» العربية مبيعاً في مدخل القرن الحادي والعشرين، ف قد صدرت منه خلال الخمس سنوات الأولى من نشره عشر طبعات.

كيف بدأ الخلق...

أعقب لقاءاتي مع د. العوضى أن اهتممتُ بقراءة الكتب العالمية (باللغة الإنجليزية) وكذلك اهتممتُ بالحوارات والمناظرات التي تتناول الإلحاد في العالم الغربي، كما زرتُ المواقع العربية للملاحظة التي بدأت في تناول القضية. لفت انتباهي أن كل هذه المصادر تُروِّج للإلحادِها من خلال مجموعتين من الحجج؛ قضية خلق وإدارة الوجود (الكون - الحياة - تطور الكائنات الحية - العقل الإنساني)، والمجموعة الثانية؛ إثارة الشُّبهات حول النصوص المقدسة للديانات وما يُثار حول حياة الأنبياء.

ولا شك أن التصدي للشبهات حول القرآن الكريم والأحاديث النبوية وحياة المصطفى ﷺ قام به رجالٌ متخصصون في هذه الأصول، حتى أنهم لم يدعوا شُبْهة إلا وأفوها حقها من التفنيد. لذلك أحسستُ أن الوجود هو المجال الذي يحتاج للتناول بأسلوب علمي، يُثبت الاحتياج في خلقه وإدامته وإدارته إلى إله حكيم خبير قادر، من هنا جاءت فكرة كتابي: «كيف بدأ الخلق»، الذي صدر عام 2011.

ويتناول الكتاب نشأة الكون وكوكب الأرض وإعداده لنشأة الحياة، كما يدرس ما تعكسه هذه النشأة من دلائل على وجود الإله الخالق. ثم ينتقل الكتاب لدراسة نظرية التطور الدارويني، ما لها

وما عليها. ويقتحم الكتابُ المنطقة المحظورة الخاصة بنشأة الإنسان، ويخرج بترجيح مفهوم التطور الموجه (التطوير الإلهي) الذي استخدمه الإله عَزَّوَجَلَّ في خلق الكائنات الحية وخلق الإنسان. وينتهي الكتاب باستعراض جوانب الاتفاق بين مفهوم التطور الموجه وبين آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم.

ثم صار المخ عقلاً...

لمَّا كان المخ البشري أعقد موجود في الوجود، ولما كان الخلافُ محتدماً في الأوساط العلمية والفلسفية حول علاقة المخ بملكاتنا العقلية، خاصة وأنَّ لذلك انعكاساً على قضية الوجود الإلهي، فقد استشعرت حاجة الساحة الفكرية إلى كتاب يتناول هذه المجادلة، فكان كتاب «ثم صار المخ عقلاً» الذي صدر عام 2012.

ويقع الكتاب في بابين، تناولنا في الباب الأول بنية المخ البشري ووظائفه وآلياته وبعضاً من أسرارهِ، وكذلك تناولنا الملكات العقلية التي هي سمة التفرد الإنساني، ثم تأملنا العلاقة بين هذين الجانبين (المخ والعقل) وخرجنا باستحالة أن يكون المخ المادى هو مصدر المَلَكَات العقلية، التي تحتاج إلى جوهر غيبي.

وفي الباب الثاني، تناولنا العلاقة بين المخ والعقل وبين المشاعر الروحية، وعلاقة البيولوجيا بالمفاهيم الصوفية، وختمنا الباب بوسائل تنمية قدراتنا الجسدية والعقلية والنفسية، من أجل أن نُحقّق السكينة والسمو الروحي.

أنا نتحدث عن نفسها...

حدث أن زرت الكويت في شهر يناير 2012، للمشاركة في فعاليات مؤتمر جمعية الإبداع الأسرية الحادى عشر، وكانت مشاركتى بمحاضرتين تتعلقان بموضوع المؤتمر وهو «أنا... روح، عقل، عاطفة، جسد». ومن وحي عنوان المؤتمر بزغت فكرة تأليف كتاب عن هذه الـ «أنا» الغامضة، ليكون دليلاً يُعرّف كلاً منا بالآخر، وقبل ذلك يُعرّف كلاً منا بنفسه، ولترقى من هذه المعرفة إلى معرفة الله عزَّ وجلَّ، انطلاقاً من قول حكيم العرب يحيى بن معاذ: من عَرَفَ نفسه عَرَفَ ربه.

والمنهج الذى اتبعته في فصول الكتاب، هو أن أعرض في بداية كل فصل بعض المفاهيم المتعلقة به وأحللها، وربما أطرح حولها بعض التساؤلات، ثم أعرض المزيد من الأفكار عن طريق إدارة حوار مع عالمٍ عالى التخصص في هذا المجال، سواء التقيت به أو لم ألتق.

وتدور فصول الكتاب الذى صدر عام 2013 حول مفهوم «أنا» في مجالات ثلاثة: أنا.. في العلوم الطبيعية، أنا.. في العلوم الإنسانية، أنا.. في القرآن الكريم.

وفي المجال الأول (أنا.. في العلوم الطبيعية)، تناولنا السمات التى جعلت من الإنسان ذاتاً عاقلة، سواءً على مستوى الوعى أو اللاوعى. كما فندنا مفهوم الحتمية البيولوجية التى تفرض على الإنسان سلوكه، والذى انهار مع مطلع القرن الحادى والعشرين. ثم ختمنا الباب بمناقشة ما يتمتع به الإنسان من قوى خفية تُمكنه من خلال الوعى الإنسانى من التأثير فى العالم المادى المحيط.

وفي الباب الثاني، تناولنا مفهوم «أنا» في العلوم الإنسانية: في الفلسفة وعلم الإنسان وعلم الاجتماع والحضارة.

وختمنا الكتاب بباب عن «أنا... في القرآن الكريم»، عرضنا فيه كيف ينظر الإسلام إلى الذات الإنسانية باعتبارها وجوداً مُركَّباً من جسد وعقل وقلب وروح ونفس، وكيف يرسم لنا القرآن الكريم طريق الخروج من هذه الدنيا بالموت، وأيضاً ما يعترى الذات الإنسانية من تغيرات في الجنة، متعنا الله بها.

وبعد صدور الكتاب بأشهرٍ قليلة، اتصل بي الفاضل الدكتور وليد فتيحي استشاري الأمراض الباطنة وصاحب المركز الطبى الدولى بمدينة جدة بالسعودية، والمفكر الإسلامى الكبير، وأخبرنى بأن المركز يتبنى مشروعاً لبناء الكوادر الصحية على أفضل معايير الجودة العالمية في الرعاية الصحية التابعة من هويتنا الإسلامية، وذلك لتحقيق شفاء المريض على المستوى الجسدى والعقلى والروحى، وقد أطلق على المشروع اسم «الأهلة». وأخبرنى د. وليد فتيحي بأنه قد تم اختيار كتابى «أنا» كمرجع رئيس لهذا المشروع، ودعانى لإلقاء محاضرة وعقد ندوة حول الكتاب فى مركزه الكبير. وكم كنت سعيداً أن لبيت الدعوة، واتفقنا على عقد ورشة عمل أقوم فيها بتدريس محتوى الكتاب فى مدينتى جدة والدمام كل عام.

خرافة الإلحاد...

ثم حدث أن ارتفعت الموجةُ الإلحاديةُ فى بلادنا، وقد لمسنا ذلك بالاتصال المباشر بالشباب بالإضافة إلى متابعة مواقعهم على النت. كذلك

صارت للملاحظة لقاءات ومناظرات في الفضائيات، وللأسف كان معظم من تصدى للمناظرة من الجانب المتدين دون مستوى الحدث إلى حد بعيد، لذلك جاءت فكرة كتابي «خرافة الإلحاد» الذي رأيت أن أضم بين دفتيه ملف القضية كله، من الجانب الإلحادي ومن الجانب الإيماني. وبالفعل صدر الكتاب في يناير 2014.

وتناول الكتاب في بابهِ الأول نشأة الإلحاد المعاصر، وطبيعة العلم، والصراع المُتَوَهَّم بين العلم والدين. وفي الباب الثاني، عرضنا نظرة كل من الملاحظة والمؤهلة للوجود بكل عناصره؛ الكون - الحياة - التطور والتطوير البيولوجي - العقل الإنساني - ومنظومة الربوبية والدين والأخلاق. وأفردنا الباب الثالث لسبر مستنقع الملاحظة، ابتداء من ريتشارد دوكنز حادى الملاحظة الجدد وبقية شراذم الإلحاد الجديد، إلى الملاحظة في العالم الإسلامي ابتداء من مُدَّعى النبوة عقب وفاة الرسول الكريم ﷺ وحتى الموجه الحالية بين شبابنا. وانطلاقاً من خبرتي الشخصية في مناظرة هؤلاء الشباب أُطلقتُ على إلحادهم اسم الإلحاد السفسطائي، ووضعت لهم تصنيفاً تبعاً للدوافع الإلحادية التي تحركهم. وفي الباب الرابع والأخير من الكتاب، رسمنا طريق العودة إلى الله والخروج من مستنقع الإلحاد.

هذا وقد حاز الكتاب قبولاً واسع النطاق على جميع المستويات، حتى إن الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الجامع الأزهر، عرض الكتاب في برنامجه التليفزيوني الأسبوعي، وذكر أنه أفضل ما كُتب في التصدى لهذه الظاهرة.

وهم الإلحاد....

في أثناء إعداد كتاب خرافة الإلحاد للنشر، اتصل بي الفاضل الدكتور محمد عمارة، المفكر الإسلامى الكبير ورئيس تحرير مجلة الأزهر وقتها، وطلب أن أعد كتاباً صغيراً عن الإلحاد وكيفية التصدى له، ليصدر كهدية مُلحقة بالمجلة العريقة.

أخبرت د. عمارة أن كتاباتى تصعب على الكثيرين وقد لا تناسب قراء مجلة الأزهر، فوضعنى فى تحدٍّ أن أبسّط القضية لتلائم غير دارسى العلوم كخريجى الأزهر ومن فى مستواهم ممن يتصدون للخطابة والوعظ والدعوة، فدعوت الله عزَّجَلَّ أن يُكَنِّنى من ذلك.

سهرت على مسودات كتابى خرافة الإلحاد، مُلَخِّصاً ومُبَسِّطاً ما ورد فيه من مفاهيم وأفكار، وخرج كتاب «وهم الإلحاد»، الذى أرفق كهدية مع مجلة الأزهر عدد شهر المحرم 1435هـ (2014م). وكتب د. عمارة مقدمة للكتاب من خمس عشرة صفحة جاء فيها:

«اقتضت ظروف المجتمع أن تُصدر مجلة الأزهر كتاباً عن الإلحاد... تَطَلَّعتُ إلى ساحة الفكر الإسلامى - وخاصة فى مصر - بلد الأزهر الشريف، فكانت الصدمة عندما لَرَّ أجد أحداً بين علماء الإسلام قد أولى هذا الحقل؛ حقل الرد على الماديين ومحاورة الملحدّين، ما يستحق من التخصص والاهتمام. لكن ولحسن الحظ وجدت هذا العالم الفاضل، أستاذ الطب الدكتور عمرو شريف، الذى استوعب تاريخ الإلحاد ودعاوى فلاسفته قديماً وحديثاً فى الغرب والشرق، والذى أسهم بجهود فكرية مشكورة ومتميزة وممتازة فى هذا الميدان، والذى قام بمحاورة عدد

من مشاهير الملحنين العرب، فكسر شوكتهم بالعقلانية العلمية والمنطق
الإيماني، فطلبتُ منه أن يقدم لقراء مجلة الأزهر الحقائق التي تُعرى أوهام
الإلحاد وأكاذيب الملحنين، فكان هذا الكتاب الذى أقدم بين يديه.

لقد عشتُ معه، وعاشتُ أفكاره، وتأملتُ منطقَه وحججه، فوجدته
ثمرة ناضجة لعلم غزير، وتجارب غنية، وإخلاص يتميز به أصحاب
الرسالات، وغيره على الإنسانية أن تضل طريق الهداية فتقع في مستنقع
الإلحاد الذى يقطع طريق الأمل أمام أهله فيُغرقهم في بحار اليأس
والقنوط.

إنه كتاب علمى دقيق وعميق، ومع ذلك فهو واضح، بل وممتع،
وجذاب.. ففيه مستويات من الحقائق العلمية وطبقات من البراهين
المنطقية، تجعل لكل قارئ من القراء، الذين تتفاوت مداركهم العلمية
ومستوياتهم الفكرية، نصيباً وحظاً يدعم الإيمان ويبدد شبهات
الإلحاد».

الوجود رسالة توحيد...

بينما كنت أطلع بعض آيات القرآن الكريم، لفتت انتباهي الآيات
الكثيرة التى تنتهى بالإقرار باتصاف الله عَزَّجَلَّ ببعض الأسماء الحسنى
والصفات العلى، منها: لا إله إلا هو العزيز الحكيم - إنك أنت العليم
الحكيم - إنه كان حليماً غفوراً - وهو اللطيف الخبير - وكان الله شاكراً
عليماً - من لدن حكيم خبير - والله واسع عليم - فإن الله غنى حميد...
ولفت انتباهي أيضاً أن الكثير من هذه الأسماء تأتى عقب نظرات في
الآفاق وفى سلوك النفس البشرية.

ولما كانت معظم كتبى السابقة تُركّز على الاستدلال العلمى والعقلى لإثبات الوجود الإلهى، وهو المحور الأول فى قضية الربوبية، فقد قررت أن أفرد كتاباً يُركّز على إدراك التوحيد والأسماء الحسنى والصفات العلى، من خلال قراءة كتاب الله المنظور (الكون والآفاق والأنفس)، لذلك خرج كتاب «الوجود رسالة توحيد» إلى النور عام 2015.

وكتبت مُعرِّفاً للقارئ بالكتاب فقلت:

«لمر تكن محض صدفة أن يتوجه أبو الأنبياء إبراهيم ﷺ وأيضاً خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلى السماء، يتأملانها ويستدلان منها على الإله الخالق. ويؤكد ذلك السلوك أن «الوجود هو أول رسالات التوحيد»، خلقه الله عزَّجَلَّ على هذه الهيئة ليشير إليه وإلى وحدانيته وأسمائه وصفاته.

لذا فإن الوجود رسالة توحيد تماماً مثلها أن الديانات الإبراهيمية رسالات توحيد. وكما أن القرآن الكريم هو «كتاب الله المسطور» فالوجود هو «كتاب الله المنظور» الذى نستنتقه مفاهيم الألوهية التى أنزلت الكتب المقدسة لتعرفنا بها.

ويخبرنا الله عزَّجَلَّ فى كتابه: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]. أى أن العلم سيكشف للإنسانية من الدلائل فى الكون وفى الأنفس البشرية عبر العصور ما يجعلنا نُجزم بأن مفاهيم الألوهية حق. كما تخبرنا الآية الكريمة أن آيات الوجود هى الحجة على صدق آيات القرآن الكريم. ومن ثم فإن «القراءة العلمية للوجود» تقدم البرهان على صدق المحاور الثلاثة للألوهية (إثبات الوجود الإلهى - الإقرار بالتوحيد -

التعريف بما شاء الله عَزَّجَلَّ أن يطلعنا عليه من أسمائه الحسنی وصفاته العلی».

ویرکز الکتاب علی إدراک ما تتطلبه الربوبية من أسماء وصفات من خلال دراسة خلق الکن والحياة. وأيضًا قراءة تلك الأسماء والصفات من خلال تأمل خَلْق وسلوک الإنسان المرأة، الذي خُلِق على صورة الله عَزَّجَلَّ، ثم قراءة تلك الأسماء والصفات من خلال إدراک ما فی الوجود من کمال وجمال وأمان وعطاء.

الإلحاد مشكلتة نفسية...

كنت أعتقد أنني بإصدار کتابي «خرافة الإلحاد»، الذي كان بمثابة الخاتمة لسلسلة من عشرة كتب، قد قمت بدورى تجاه هذه القضية. فقد عرضت فى الکتاب خلفيات نشأة الإلحاد وأسبابه فى العالم وفى بلادنا، كما عرضت سمات الفكر الإلحادى وكيف نتعامل معه.

وأعقب صدور ذلك الکتاب أن دُعيت إلى العديد من اللقاءات والندوات وإلقاء المحاضرات وكتابة المقالات حول موضوع الإلحاد، ومع تکرار الطرح تنبعت إلى غزارة الدوافع النفسية للإلحاد. عندها رجعت بعقلی إلى حواراتى مع الشباب الملحد فى بلادنا العربية، وانتبعت إلى أن معظمهم لیرى أن قد قرأ شيئًا فى الرد على ما يثيره من مبررات عقلية للإلحاد! كما تنبعت إلى أن من طرحوا شبهات حول القرآن العظيم وحول رسولنا الكريم ﷺ لیرى أن يكونوا قد طالعوا شيئًا مما کُتب لرد تلك الشبهات!.

أدرکت بوضوح أن بعض شبابنا قد اتخذ قرارًا بالرفض فى أخطر

قضية في حياة الإنسان، وهى قضية الوجود الإلهى، دون أن يبذل الجهد الذى يبذله في قراءة كتالوج الهاتف المحمول الذى سيشتريه!!.. لم تكن هذه النقطة غائبة عني في أثناء تأليف كتابي «خرافة الإلحاد»، بل إنني بسببها أطلقت على إلحاد الشباب في بلادنا اسم «الإلحاد السفسطائي».. لكن هذا الاسترجاع جعلني انتبه إلى أنني لم أوف الجانب الأساس (وهو الجانب النفسى) وراء الإلحاد حقه. وبدأت أفكر كيف أستوفى عرض هذا الجانب.

عكفت أحد الليالى على محرك بحث جوجل وموقع أمازون، أراجع الكتب والمقالات والأبحاث التى اهتمت بالجانب النفسى للإلحاد. فوجئت بأن الموضوع قد استحوز على قدر كبير للغاية من الاهتمام فى أوساط علم النفس والطب النفسانى وعلم الاجتماع، غرقت بين عشرات الكتب ومئات الأبحاث والمقالات التى تناولت هذا الموضوع، وأعددت قائمة بعشرة كتب وطبعت عشرات المقالات التى أعجبتني. وفى الصباح التقيت بأستاذي د. أحمد عكاشة وسألته عن جدوى كتاب جديد باللغة العربية فى هذا الموضوع، أعجب د. عكاشة كثيرًا بالفكرة وحمّسنى لإنجازها، وعرض على أن يراجع الكتاب ويقدم له حتى تزيد حجته ومصداقيته لدى القارئ. ليلتها أرسلت إلى ابني محمد استشارى الطب النفسانى فى الولايات المتحدة طالبًا شراء ما اخترت من كتب، وبدأ العمل.

خرج الكتاب فى أربعة أبواب؛ يشتمل الباب الأول على «جولة مع الإلحاد»، تناولنا فيها تعريف الإلحاد وسماته، وظروف نشأته فى العصر الحديث. ثم جاء الباب الثانى بعنوان: «علم نفس الإيمان»، وعرضنا فيه

التفسيرات المادية التي يقدمها الماديون لنشأة مفهوم الألوهية وظهور الأديان وقمنا بدحضها. ثم عرضنا الآليات البيولوجية لمنظومة الإيمان كما بينَّها العلم.

ويمثل الباب الثالث «علم نفس الإلحاد» جوهر الكتاب، تناولنا فيه الأسباب النفسية وراء تبني الإلحاد، وركزنا على دور علاقة الصغار بأبائهم وأمهاتهم في تبني الإلحاد. كما تناولنا العوامل الشخصية والمفاهيم المجتمعية في نشأة الإلحاد المعاصر. وختمنا الباب بفصل بعنوان «الإلحاد في بلادنا»، قمنا فيه بجولة تاريخية مع نشأة الإلحاد في العالم الإسلامي، وعرضنا سمات إلحاد الشباب في بلادنا، وهو الإلحاد الذي سادت فيه العوامل النفسية الذاتية وغابت عنه العوامل الموضوعية، فاستحق أن يُوصَف بالإلحاد السفسطائي.

ولما كان تأكيد دور العوامل النفسية، خاصة التربوية، يمكن أن يفتح الباب لنفي المسؤولية العقلية والأخلاقية عمن يتبنى الإلحاد بدعوى الجبر وحتمية الأسباب النفسية، كان لزاماً أن يأتي الباب الرابع والأخير من الكتاب لنفي شبهة الجبر والحتمية وتأكيد دور «حرية الإرادة الإنسانية». وقد عرضنا في الباب الأبعاد الفلسفية للمجادلة، ثم أثبتنا مفهوم الحرية الإنسانية من خلال نظرة علوم النفس والأعصاب والبيولوجيا. ثم استكملنا طرح مفهوم حرية الإرادة الإنسانية من خلال معالجة القرآن الكريم لقضية الجبر والاختيار، وقد قمنا بذلك من خلال الفصل الثالث عشر والأخير من الكتاب تحت عنوان من كلمتين يلخص محتوى الباب كله، وهو «عبدٌ مُخَيَّرٌ».

مآخذات!!

قالت نفسى اللوامة: قبل أن نترك مؤلفاتك، دعنى أنقل لك مآخذتين للبعض على كتبك: الأولى هى ارتفاع المستوى العلمى والفلسفى لما تطرح فيها، مع ارتفاع مستواها اللغوى، وهو ما يحرم الكثيرين من الاستفادة منها، فما قولك فى ذلك؟

قلت للوامة: أوافقك على ما تقولين، ويرجع ذلك إلى أن القضايا الخاصة بالعلاقة بين العلم والفلسفة والدين قد أصبحت تُطرح فى الفكر العالمى بمستوى عميق، كما أن الملاحدة فى الغرب (وعنهم ينقل ملاحدة بلادنا) يطرحون حُجَجَهم بنفس العمق، مما يجعل تناول هذه القضايا بمستوى عالٍ أمرًا حتميًا، فلا يمكن أن نرد عليهم بكلام عام غير متخصص.

واستشهد هنا بكتابات د. مصطفى محمود (رحمه الله). فقد اكتشفتُ من قراءتى المتكررة لها أنه لَر يترك قضية من قضايا العلاقة بين العلم والفلسفة والدين إلا وتناولها وتعرَّض لها، كما لَر يترك حُجة من حجج الملاحدة المعاصرين له إلا وفندها منذ أكثر من أربعين عامًا. وكان طرح د. مصطفى محمود دائمًا متماشياً بل وسابقاً عصره، لذلك كان يترك فى نفوسنا كقراء أكبر الأثر.

وإذا رجعنا إلى كتابات د. مصطفى محمود اليوم نجد أنها غير كافية للرد على حجج الملاحدة المعاصرين، بعد أن أصبح هؤلاء يُطالبون عن طريق النت حُجج كبار الملاحدة فى العالم من المتخصصين فى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والفلسفة. لذلك خَوَّت الساحة مما يدفع حجج

هؤلاء ويُفَنِّدها، مما اقتضى أن يكون طرحي على مستوى ما يعرضه الملاحدة.

كذلك هناك من المتدينين من يتمتعون بمستوى ثقافي عال، ولا يجدون في الساحة مَنْ يعرض عليهم العلاقة بين العلم والفلسفة والدين بالمستوى اللائق، فصار هؤلاء لا يجدون من يخاطبهم، ولا يجدون إلا كلاماً لا يرقى إلى مستواهم. وأصدقك القول، إن هذه المجموعة هم المُخاطَبُ الأول بكتبي، بينما أراعى في مقالاتي ومحاضراتي وبرامجي أن أبسط المفاهيم بشكل أكبر لمن لا يستوعب هذه الكتب.

واستشهد كثيراً على هذا الرأي بمثالٍ فأقول؛ إنك لا تستطيع أن تُطالب عباس العقاد بأن يكتب بنفس مستوى وأسلوب ولغة أنيس منصور (رحمهما الله)، فكل منهما حدد هدفه من البداية، وحدد فئة المخاطبين الذين يعرض عليهم فكره. وليس في هذا انتقاص من أستاذنا أنيس منصور (حاشا لله)، بل لعل فكره أوسع انتشاراً من فكر العقاد.

وبهذه المناسبة، فيإني أفخر بأنني كنت صاحب آخر لقاء فكري مع أنيس منصور قبل وفاته، وهو لقاء دبره وأداره الصحفي الكبير د. مجدى العفيفي، ثم نشره في صفحتين كاملتين في جريدة الأخبار. وفي اللقاء عرضتُ على مفكرنا وفيلسوفنا الكبير مشروعى الفكرى، وكما كان سعيداً وهو يناقشنى فيه، حتى إنه قال وهو يودعنى؛ لا تحرمنى من زيارتك، فقد مضى علىَّ وقتٌ طويل لمرأتناور فيه علمياً وفلسفياً، فكل زوارى الآن لا يزيد كلامهم عن: إزى صحتك يا أستاذنا. أرجوك لا تحرمنى من تكرار زيارتك. ولكن القدر لمر يسعنا.

وأضفت قائلاً للوامة: أما بالنسبة لارتفاع مستوى كتاباتي اللغوى، فأنا أقر بارتكاب هذا الجُرم أيضاً! حتى إن الأستاذ الدكتور إبراهيم عوض رئيس قسم الأدب العربى الأسبق بجامعة عين شمس قال لى فى حوارٍ بيننا، بعد أن طالع بعضُ كُتُبى؛ لِمَ أكن أعرف أن أساتذة الجراحة يستخدمون الأسلوب العلمى المتأدب فى الكتابة بهذا الرُقى والإتقان. ولا شك أن ذلك يرجع إلى أن الشعر العربى القديم وعيون الأدب العربى كانا من روافد ثقافتى المبكرة، مما جعل العربية الفصحى الراقية أسلوبى المعتاد فى الكتابة.

وبالإضافة إلى ذلك فإنى أحرص على أن أطرح أفكارى وآرائى العلمية والفلسفية بهذا الأسلوب باعتبارى أحد فرسان العربية الفصحى الذين حملوا على عاتقهم المحافظة على هذه اللغة فى المجال العلمى بالإضافة إلى دورها فى المجالات الأدبية والدينية والفلسفية، خاصة بعد أن شاعت اصطلاحات سوقية فجّة فى الحوار بين شبابنا وكبارنا. وأُصدِّقُ القول، أننى لو حاولت النزول بالمستوى اللغوى لما أكتب، لما استطعتُ أن أُعبّرَ من أفكارى بوضوح ولاستشعر القارئ التصنع فى كتاباتى.

ثم سألتُ اللوامة: وما المؤاخذة الأخرى التى يأخذها البعض على كُتُبى؟

قالت اللوامة: يأخذون عليك أنك تكرر فصولاً من بعض كتبك فى كتبك الأخرى، حتى لا يكاد يخلو كتاب من فصلٍ ورد فى كتاب آخر، ألا يخل ذلك باستقلالية كل كتاب؟

قلت للوامة: إن المؤلف الذى يتصدى للكتابة فى مجالات مختلفة

يستطيع أن يُفرد لكل موضوع كتابًا، دون تكرار للموضوعات والأفكار. أما «صاحب المشروع الفكرى المتكامل» فيعرض مشروعه من زوايا وجوانب مختلفة حتى يستكمل طرحه، ولا مفر في عرض المشروع الواحد عن طريق عدة كتب من تداخل وتكرار الأفكار. فإذا نظرنا - مثلاً - إلى موضوع «التطور البيولوجى والنظرية الداروينية»، فلا شك أنه لا ينبغي أن يغيب عن أحد كتبى الثلاثة: «كيف بدأ الخلق»؛ باعتباره كتاباً يتناول نشأة كل مكونات الوجود ومنها الكائنات الحية - و«أنا نتحدث عن نفسها» باعتباره يُعرّف الإنسان بذاته الإنسانية - وأيضاً كتاب «خرافة الإلحاد» الذى يناظر الملاحظة فى حججهم وأهمها النظرية الداروينية.

ذلك بالإضافة طبعاً، إلى أن القارئ لأحد كتبى قد لا يكون قد قرأ الكتب السابقة، فمن حقه أن نغطى جوانب موضوع الكتاب كلها. وربما كان أستاذانا د. مصطفى محمود ود. عبد الوهاب المسيرى ممن ظهرت هذه السمة بوضوح فى كتاباتهما المتعددة.

ملامح مشروعى الفكرى

قالت نفسى اللوامة: تحدثت كثيراً عن مشروعك الفكرى، الذى تطرحه من خلال كتبك ومقالاتك وبرامجك ومحاضراتك وندواتك، ولى معك وقفات حول هذا المشروع، ولكن فى البداية، هلاً طرحت علينا فى إيجاز ملامح هذا المشروع.

قلت للوامة: باختصار، يدور هذا المشروع حول العلاقة بين العلم والفلسفة والدين، وكيف أن هذه الثلاثية تصل بالإنسان إلى

خالقه عَزَّجَلَّ، ومن ثم فالعلاقة بين هذه الثلاثة علاقة تكاملية وليست تعارضية ولا حتى جدلية.

كذلك، إذا كان القرآن الكريم هو «كتاب الله المصور»، فالوجود هو «كتاب الله المنظور»، وعلينا أن نتعلم قراءته لنذكر من خلاله أدلة الوجود الإلهي، والتوحيد، وما يَسِّرَ الله عَزَّجَلَّ لنا أن نطلع عليه من أسمائه الحسنی وصفاته العلی.

ويهدف هذا المشروع إلى هدف رئيس، وهو تجديد الفكر الديني، بعد أن أصبح عاجزاً عن ملاحقة العصر. كما يهدف إلى تجديد الفكر العلمي.

ونهدف من تجديد الفكر الديني إلى طرح خطاب ديني يمثل عامل جذب بعد أن أصبح الخطاب السائد عامل طرد من دائرة الإيمان. وذلك امتثالاً لحديث الرسول الكريم ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد (يصلح) لها (أمر) دينها»⁽¹⁾.

أما تجديد الفكر العلمي، فيهدف إلى أن يدرك العلماء أن ليس بين العلم والدين تعارض، بل هناك توافق عميق بينهما، مصدره أن جذور العلم الحديث مُستَمَدَّة من الدين، وأن يدركوا أن التوصل لآليات الظواهر العلمية لا يتعارض مع وجود غائية وراءها. وبذلك يُسلمنا العلم في آخر المطاف إلى القول بالوجود الإلهي الخالق لهذا الوجود ومدبره وحافظه.

(1) هذا الحديث من الأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابي الجليل أبي هريرة. و(يصلح) و(أمر) في بعض الروايات. رواه أبو داود، وصححه السخاوي والحاكم والبيهقي وابن حجر والألباني.

ويتفاعل هذان المشروعان التجديديان ليُحققا المنهج الإسلامى الأصيل فى الدعوة والذى يتماشى مع هذا العصر ويتجاوب مع وعد الله عزَّوجلَّ: ﴿سَرِّهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾ [فصلت: 53].

وفى إطار هذا المشروع الفكرى، احتلت «قضية الإلحاد» موضعاً مهماً، باعتبارها خصوصية داخل المنظومة العامة، خاصة فى السنوات الأخيرة. كذلك فقد أقحم التصدى للفكر الدينى الأصولى الجامد المتشدد نفسه فى مشروعنا فى الفترة الأخيرة.

تجديد الفكر الدينى

قالت اللوامة: نسمع كثيراً فى الفترة الأخيرة اصطلاح «تجديد الخطاب الدينى»، وها أنا أسمع منك لأول مرة اصطلاح «تجديد الفكر العلمى»، فماذا تقصد بالاصطلاحين؟

أجبت نفسى اللوامة قائلاً: لقد صار «الخطاب الدينى المعاصر» السائد عاجزاً عن عرض الإسلام عرضاً حقيقياً جاذباً، مما أسهم بشكل كبير فى الموجة الإلحادية التى ظهرت فى بلادنا فى الفترة الأخيرة، كما أسهم فى الصورة السيئة لدى الغرب عن الإسلام.

والم تأمل للخطاب الدينى يجد أنه ليس قاصراً فى الأسلوب والهيئة فقط، بحيث إذا عدلناهما انصلح الأمر، بل إن هذا «الخطاب» يعكس قصوراً حرجاً فى «المحتوى» ينبغى تداركه فوراً، أى يحتاج إلى علاج مكثف ورعاية مركزة كما نقول بلغة الأطباء.

وقد طرح رسول الله ﷺ الآلية التى تُمكن الدين الذى أنزل فى

القرن السادس الميلادي في جزيرة العرب من أن يكون صالحاً لكل زمان ومكان: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد (يصلح) لها (أمر) دينها». ويبين الحديث حاجة الأمة إلى (تجديد) و(إصلاح) أمر الدين وإلا صار رجعيًا متخلفًا. لم يقل رسول الله ﷺ من ينبه الأمة أو يعيد الأمة إلى دينها، والفرق واضح جلي. فتغير ظروف البشرية وأحوالها مع تطورها الحضارى يتطلب ألا تكون المنظومة الدينية جامدة، وإلا قيدت الحضارة وألزمته بالتوقف والسكون عند القرن السادس الميلادي، خاصة وأن الإسلام هو خاتم الديانات السماوية، وأنه يجب أن يظل صالحاً لكل زمان ومكان.

سبحان الله، ما أكثر ما تتداول الأمة هذا الحديث وما أقل عملها به! فمئذ أكثر من ألف سنة أُغلق بابُ الاجتهاد المنوط به التجديد، فوصلت الأمة إلى الدرك الأسفل في الحضارة الإنسانية. وقد وصف الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) هذا المصير - عن حق - فقال: «إن أمة تلغى عقولها لألف سنة كان الأحرى بها أن تسير على أربع (كالدواب)»، لولا ستر الله.

وفي بحث ألقاه الأمريكي د. روبرت بللا⁽¹⁾ أحد كبار علماء الاجتماع في مؤتمر عُقد بجامعة هارفارد عام 1968، قال: إن تعاليم الإسلام عالمية تقدمية بل وثورية أيضًا. وما مُنيت به هذه التعاليم من إخفاق لا يرجع إلى خطئها أو جمودها كما يتهمها الكثيرون، بل على العكس تمامًا، وربما يرجع إخفاقها إلى أنها كانت في بعض الفترات الزمنية أكثر عصرية من أن تنجح.

(1) Robert N. Bellah: شغل منصب أستاذ علم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا، من المهتمين بعلاقة علم الاجتماع بالديانات.

تساؤل مُلح يطرح نفسه؛ كيف تخلفت دعوة عالمية تقدمية ثورية حتى صارت أداة حَجَر على الفكر وآلية لتجميد المجتمع؟! إذا قارنا حال الإسلام في عصوره الزاهرة الأولى مع حاله في عصور تراجع وتأخر الحضارة الإسلامية، وجدنا أن عِلَّتَيْن خطيرتين قد جَدَّتَا وترسختا في الفكر الإسلامي حتى خُيِّل للناس أنهما من أصول الدين. إحداهما، ظهور طبقة تحتكر تفسير النصوص وتستأثر بحق التحدث باسم الدين وإصدار الحكم فيما يوافقها من الآراء والمذاهب وما لا يوافقها، أى أنها «طبقة كهنوتية» وإن لم تتَّسَم بهذا الاسم صراحة. وثانى العِلل؛ اعتبار تلك الطبقة أن ما سبقها من تشريعات وأجوبة وحلول هى «تعاليم مُلزمة من أساسيات الدين»، لا يجوز تعديلها أو تغييرها، سواء فيها يختص بأمر العقيدة أو ما يتطرق إلى المعاش⁽¹⁾.

قالت اللوامة: حسنًا لقد عرضت علىَّ سمات وأسباب قصور الفكر الدينى السائد، فكيف يكون الإصلاح والتجديد؟

قلت للوامة: إن المسئولية هائلة والمهمة شاقة تنوء بها الجبال، فلم يعد ينفع في عالمنا المعاصر السكوت عما فى الفكر الدينى الجامد من سوءات وتضارب داخلى تراكم عبر مئات السنين، وتعارض تبلور فى مناخ ثورة العلم والعقل. لقد آثر علماءنا السكوت حتى لا يثيروا مشكلات مع المقدَّسين للتراث، لكن الأمر لم يعد يُحتمل، فلا يكاد يمر يوم أو بعض يوم حتى يسقط بعض شبابنا صرعى بسهام التشكيك.

(1) عن كتاب نحو ثورة فى الفكر الدينى، للدكتور محمد النويهى. حصل على الدكتوراه من جامعة لندن، ورأس قسم اللغة العربية بجامعة الخرطوم، ولد بطنطا عام 1917. الناشر، دار رؤية.

ويرى المهتمون بالأمر، وأرى، أن تجديد الفكر الإسلامى ينبغى أن يقوم على الأسس التالية:

- نزع القداسة عن التراث، وإدراك أنه منتج عقلى بشرى، يتناسب مع زمان ومكان ما طرح من أحكام فقهية.
- عدم الوقوف عند ظاهر النصوص، والنفوذ إلى المقاصد والحكمة من التشريع، وإعلاء قيمة المصلحة.
- تأكيد أن مفهوم «الحاكمية لله» يكون فى أمور العقيدة، بينما ينبغى الالتزام فى الأمور المعاشية بحديث رسول الله ﷺ: «أنتم اعلم بأمر دنياكم»⁽¹⁾.
- فتح باب الاجتهاد وإعلاء قيمة العقل.
- إعلاء قيمة العلم والعمل فى الحياة.
- التسليم بشرعية تعدد المذاهب الإسلامية وإسقاطها على واقع المسلمين. وفى نفس الوقت إباحة عدم التقيد بمذهب معين، ما لم يتعارض اختيار الأحكام من المذاهب مع ثوابت الدين.

دعوة إلى المصالحة

وكما كانت الرجعية المسيحية فى أوروبا فى العصور الوسطى هى العامل الأول وراء انفجار أكبر موجة إichادية فى التاريخ، فما أشبه الليلة بالبارحة، فالمقدمات هى نفسها فى العالم الإسلامى المعاصر، وأخشى ما أخشاه أن يؤدى تشابه المقدمات إلى تشابه النتائج.

(1) رواه مسلم.

لقد تصادم الفكر الإسلامى الجامد مع جميع جوانب الحياة؛ مع الدين، ومع العقل، ومع الإنسان، ومع التاريخ، ومع العلم، ومع الطبيعة، حتى صار بحق السبب الأول لتخلف الأمة وللإحاد بين شبابنا. لذلك لا يقف تدارك المشكلة عند مجرد تجديد «الخطاب» الدينى، بل ينبغى أن يمتد إلى تجديد «الفكر» الدينى، ولا أكون مخطئاً إن قلت إلى «تجديد أو إصلاح أمر الدين»؛ أليس هذا قول رسول الله ﷺ؟! ولا شك أن ذلك لن يتم إلا بعقد مصالحة حقيقية (وليست صورية) مع جميع جوانب الحياة.

تجديد الفكر العلمى

قالت اللوامة: والآن نأتى إلى الاصطلاح الجديد الذى لم يُطرح من قبل، وهو «تجديد الفكر العلمى»، فما هى مشكلات الفكر العلمى التى تحتاج لتجديد دون أن تخل بالمنهج العلمى؟

أجبت اللوامة: لعل أخطر سقطات العلماء الماديين (وليس العلم) هى تصورهم أن فهمنا للآليات الفيزيائية التى يعمل بها الكون يعنى أن ليس هناك إله صَمَمَ وَخَلَقَ الكون. إن هذا الاستنتاج يحوى سقطة منطقية كبيرة. فإدراك الآليات والمبادئ الفيزيائية التى يعمل بها الكون والحياة لا يستبعد الاحتياج لإله صممها وأنشأها، أى أنهم خلطوا بين الآلية والسبب الأول.

وعندما اكتشف سير إسحاق نيوتن قوانين الحركة والجاذبية، لم يقل: لقد اكتشفت الآليات التى تحرك الأجرام، إذ لا داعى لوجود الإله. بل لقد زادته اكتشافاته إعجاباً بالإله الذى صمم هذه الآليات المحكمة.

وقد لخص الفيلسوف الإنجليزي مايكل بوول⁽¹⁾ العلاقة بين الآلية والسبب الأول والغائية في مناظرته مع ريتشارد دوكنز حين قال: «ليس هناك تعارض بين وجود تفسيرات علمية لظاهرة ما، وبين مُنشئ هذه الظاهرة، وبين الغاية منها. وكما ينطبق ذلك على ابتكارات الإنسان كـ(السيارة والطيارة) فإنه ينطبق على ابتكارات الإله، وهذه بديهية عقلية لا علاقة لها بكونك مؤمناً أو ملحدًا».

وإذا كانت أكبر نجاحات العلم أنه يرينا أن العالم الطبيعي منتظم ومتناسق، فقد أدرك أينشتين ما وراء ذلك حين قال: «إن أعظم الأشياء استعصاء على الفهم في الكون أنه مفهوم»، ويرى أن هذه القابلية للفهم لا بد أن يكون وراءها سبب أعمق وأقوى.

باختصار، لقد أراد الله عَزَّجَلَّ أن يكون عمله في الكون من خلال قوى وقوانين الطبيعة.

قالت اللوامة: حسنًا، بعد أن أدركنا هذه السقطة للفكر العلمي، فكيف يكون التجديد في رأيك؟

أجبت اللوامة قائلاً: نتيجة لاهتمام العلم بالآليات، فقد أحرز إنجازات باهرة في هذا المجال، ولكن نظرة متأملة لما أنجزه العلم ترينا أنه يكتفى دائماً بالسبب المباشر للظاهرة وأحياناً بالسبب قبل المباشر فقط.

فالعلم - مثلاً - قد توصل للسبب المباشر لسقوط الأجسام، وهو

(1) Michael Poole: الفيلسوف الإنجليزي المهتم بالعلم والدين، حاصل على جائزة تمبلتون.

الجاذبية، وعندما سعى لمعرفة سبب الجاذبية، رَجَّحَ إسحاق نيوتن إلى أنها خاصية ذاتية للمادة تجعل الأجسام المادية تنجذب لبعضها، ثم نفى أينشتين ذلك، وفسر الجاذبية بما يصاحب وجود الأجسام من تَحَدُّب في الزمكان. وتوقف الأمر عند ذلك المستوى من التفسير.

ويقيني أن العلم إذا بحث في آلية تحدب الزمكان عند وجود جسم مادي فسيصل إلى تفسير لذلك، وإذا بحث عن آلية لهذا التفسير فسيجد آلية أعلى، وهكذا، عند ذلك سيصل العلم إلى السبب الأول وراء هذه الآليات، وهو الإله عَزَّوَجَلَّ.

لذلك فدعوتنا لتجديد الفكر الديني، تتركز في نقطتين:

■ الفصل بين الآليات والسبب الأول، وإدراك أن الآليات تحتاج لسبب أول.

■ عدم الاكتفاء بالسبب المباشر للظواهر، بل التسلسل مع سلسلة الآليات إلى أعلى حتى نصل إلى السبب الأول.

وختمت حديثي مع النفس اللوامة عن تجديد الفكر الديني وتجديد الفكر العلمي قائلاً: إن يقيني يتزايد كل يوم في أن الفلسفة والعلم (إذا تم فهمهما بعمق) يمثلان رافدين أساسيين يُشكِّلان مع رافد الدين (كضفيرة ثلاثية) نهراً دافقاً هادراً يحتاج أوهاام المادية والإلحاد⁽¹⁾.

فعن رافد الفلسفة، يقول الشيخ نديم الجسر: «الفلسفة بحرٌ ليس ككلِّ البحار، تجد الهلاك في شطآنه وتجد النجاة في أعماقه».

(1) يطرح هذا المفهوم الشيخ نديم الجسر في كتابه: (قصة الإيمان في الفلسفة والعلم والقرآن).

وعن رافد العلم، يقول فيرنر هيزنبرج⁽¹⁾: «قد تحولك أول رشفة من كأس العلوم الطبيعية إلى ملحد، لكنك ستجد الإله ينتظرك عند اكتمال الكأس». أما أشد حاجتنا لأن نفهم الفلسفة والعلم فهما عميقًا صحيحًا.

وعن رافد الدين، يقول الحق عزَّجَلَّ:

﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1 - 2].

الديناميكية فى فكرى العلمى وفكرى الدينى

قالت اللوامة: لعل من المواضيع التى أثارت جدالاً كثيراً فى مشروعك الفكرى هو موقفك من «التطور البيولوجى»، حتى صرت معروفاً فى الأوساط الفكرية وبين الشباب بتبنيك لمفهوم «التطور الموجه». ويرى البعض أنك قد غيرت رأيك فى بعض الجزئيات بخصوص التطور، فلماذا كان هذا التغير، وما هى آخر قناعاتك عن التطور؟

قلت للوامة: نعم؛ خلال رحلتى الفكرية، غيّرت إحدى قناعاتى بخصوص التطور البيولوجى، وأنا اعتبر هذا الموقف من سمات النضج الفكرى. فكما ذكرت لك، أنا أتبع حديث رسول الله ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»، وهو المنهج الذى عبر عنه سقراط فى قوله: «أن تتبع الدليل إلى حيث يقودنا». وسأبين هذا التغير فى آرائى أثناء طرحى لآخر ما استقرت عليه قناعاتى بخصوص التطور فى حوارنا القادم.

(1) فيرنر هيزنبرج من مؤسسى فيزياء الكم، توصل إلى مفهوم الاحتمية الذى يحكم سلوك الجسيمات تحت الذرية.

وفي أثناء انشغالي بعناصر مشروعى الفكرى، ظهر عنصر جديد وفرض نفسه فرضاً علينا، وهو الصراع ضد الفكر الأصولى الجامد، وأرى أن نفرد لهذا الحديث الحوار القادم أيضاً وذلك لتعقيد وتشعب هذه القضية.

لكنى أقول (بصفة مبدئية) إن تغير مواقفى من التطور البيولوجى والفكر الأصولى الدينى الجامد، يمثل نموذجين لما ينبغى أن يكون عليه الفكر من ديناميكية (قدرة على تغير المواقف) فى أثناء تعامله مع القضايا العلمية والقضايا الدينية.

منافذى الفكرية

واستكملت حديثى للوامة عن مشروعى الفكرى فقلت: وبالإضافة للكتب⁽¹⁾ التى حملت مشروعى الفكرى، فقد قدمته من خلال العديد من المقالات الصحفية، والندوات والمحاضرات والدورات وورش العمل التى عُقدت وتُعقد فى المنتديات والجامعات والنوادر. ويرجع الفضل إلى المفكر والإعلامى الكويتى الكبير الشيخ د. محمد العوضى فى تقديم هذا الفكر فى الفضائيات، سواء من خلال استضافتى فى العديد من برامجهم، أو عرض كتبى فى برامجهم فى الكثير من المناسبات.

كذلك أقوم بطرح هذا المشروع من خلال قنواتى على شبكة المعلومات، وأيضاً صفحتى فى الفيسبوك، وأتجاوز بشكل يومى مع رواد الصفحة حول تفاصيل هذا المشروع. ونزولاً بهذا المشروع الفكرى إلى واقع التطبيق خصصت لى مجلساً فى كافيه سلاترو، التقى فيه

(1) وصلت حتى الآن ثلاثة عشر كتاباً، تحتوى قرابة 5000 صفحة.

بالشباب الملاحدة والمتشككين بمعدل أسبوعي لمحاوَرَتهم ومناظرتهم في دعاوِيهم.

وفي إطار هذا المشروع أيضًا، كانت لى أول مناظرة بين مؤمن وملحد تُذاع في الفضائيات. وكانت المناظرة مع أحد رءوس الإلحاد العرب، وهو عراقي الجنسية يعيش في السويد، وكانت على هيئة فيديو كونفرانس⁽¹⁾. وكانت المناظرة في 4 حلقات، استغرق كل منها 45 دقيقة. وقد أجمع غير الملاحدة على أنها كانت مُفجِمة تمامًا للطرف الملحد، كما اعترف عدد كبير من الملاحدة أنها أخرجت الملحد العراقي كثيرًا.

لمن هذا المشروع

قالت النفس اللوامة: لا شك أن اهتمامك قد صار موجَّهًا في الفترة الأخيرة إلى الملاحدة، فهل نقول إن مشروعك الفكري موجه لهؤلاء أم أنه أوسع مقصدًا من ذلك؟

قلت للوامة: أجبت عن هذا السؤال في حصاد كتابي «رحلة عقل»، فذكرت أنه يخاطب أحد خمسة عقول، لا شك أن القارئ يمتلك أحدها:

1- متدين يريد أن يرقى بإيمانه، من إيمان الميلاد إلى إيمان اليقين، حتى يمتلئ قلبه بالشعور بأن الله حق: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾ [فصلت: 53]. وقد يقترب الإنسان بذلك من مقام الخشية: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ [فاطر: 28].

2- متدين غابت عنه حقيقة الإنسان، كموجود متكامل من جسد وذات

(1) كنت أنا جالسًا في الاستديو، وكان هو يتواصل معنا من خلال الإنترنت من السويد.

غير مادية (روح / نفس / قلب / عقل). ومن ثمَّ نظر إلى الإنسان نظرة عوراء، لا ترى فيه إلا مادية متدنية أو روحانية منفصلة عن الواقع.

3- متدين يظن أن فهمه للدين الذى تربى عليه «تمام التمام»! فلم يُنزل العقل والعلم منزلتهما فى منظومة الإيمان. فغاب عنه الكثير، بل غاب عنه أكثر مما حَصَلَ. وربما أسلمه ذلك إلى أن يصبح أحد أفراد المجموعة التالية.

4- متدين يبهره ما يردده الملاحدة من (كلام كبير) حول مساهمة العلم فى تأكيد المفاهيم الإلحادية، حتى قالوا: «إن الإله وهم كبير، وإن الدين أفيون الشعوب،...»، فيغمره شعور بالنقص لانتعائه لهذه الطائفة المتخلفة (المتدينين!)، بدلاً من أن يغمره الشعور بالزهو.

5- ملحد أو متشكك، اتَّشَحَّ بالعلم، عن كبر أو عن جهل، ورأى فيه برهان الإلحاد بدلاً من أن يرى فيه أدلة الإيمان، فتوجَّـب أن نوضح له الحقيقة حتى نُنقذه من نفسه.

وبعد أربع سنوات، خاطبت بكتابى «خرافة الإلحاد» ذات العقول الخمسة التى خاطبتها بكتابى «رحلة عقل»، عسى أن تجد فيه العقول المؤمنة اليقين والترقى، وأن تجد فيه العقول الملحدة والمتشككة النور والهداية.

والآن، وبعد أن أقحم التيار الأصولى الدينى الجامد نفسه فى مشروعى الفكرى، صار هؤلاء يمثلون مخاطباً سادساً بهذا المشروع، عسى أن يتخلصوا من جمودهم ويدركوا خطورة توجهاتهم، ويراجعوا فهمهم الدينى شديد القصور.

السير نحو الهدف

قالت النفس اللوامة: إذا كان هؤلاء هم المخاطَبون بمشروعك الفكرى، فهل ترى أن هذا المشرع قد حقق أهدافه؟

قلت للوامة: يُترك هذا الحُكْم للمستقبلين لما أطرَح، فحكمى لن يكون موضوعيًا في هذا الأمر. لكنى أرى من الشواهد ما يُرَجِّح قبول المشروع وتحقيق أهدافه حتى الآن. فبالرغم من صعوبة وخصوصية طرحى، فطباعات كتبى المختلفة تتراوح بين خمس وعشر طباعات من كل كتاب، وقارب عدد المعجبين بصفحتى العشرين ألفًا حتى الآن. كما أجد قبولًا واسعًا وارتياحًا كبيرًا في ندواتي ومحاضراتي، وكم جاءتنى رسائل من القراء والمشاهدين تخبرنى بأن هذا الفكر قد أنقذهم من الضياع بعد أن كانوا واقفين بشاطئ الإلحاد. كذلك يخبرنى صديقى الفاضل د. محمد العوضى بأن الكثيرين من المشتركين في تغريداته (قاربوا المليونين) ينقلون له استفاداتهم الكبيرة من هذا الفكر الذى يرجع له فضل كبير فيما يلقاه من رواج وانتشار.

قالت اللوامة:

بالرغم من ملازمتى لك طوال حياتنا، وبالرغم من اطلاعى - بحكم المصاحبة - أولًا بأول على نشاطاتك الفكرية، فقد كنت فى أشد الحاجة لهذا العرض الموجز لمشروعك وإنتاجك الفكرى، حتى أكون على إمام واضح به.

وأضافت: لقد ذكرت لى أن معارك ضد الفكر الأصولى قد أقحمت وفُرضت على مشروعنا الفكرى فرضًا!! وهذا أدهشنى كثيرًا. فلا شك أن

أهم روافد الفكر الأصولي، وهو الأصولية الإسلامية، يشاركوننا موقفنا
الرافض والمعارض للإلحاد، أي أنهم رفاق طريق ومعنا في نفس الخندق،
فكيف تحتاج لأن تخوض ضدهم معارك وصراع؟ هلا وضحت لي...
قلت للنفس اللوامة: لكِ كل الحق في تساؤلِكَ هذا، والموضوع بلا
شك شديد التعقيد، لذلك أفردت له لقاءً القادم...
دعينا نبدأ بعد قليل حوارنا حول هذه الإشكالية...

الثمار - 3

معاركى ضد الأصولية

قالت نفسى اللوامة:

ذكرت أنك تطرح أفكارك ومفاهيمك على طلبتك فى الجامعة منذ عشرات السنين، لكنى أعتبر أن البداية الحقيقية لمشروعك الفكرى ترجع إلى عشر سنوات، حين أصدرت كتابك الأول (أبى آدم: من الطين إلى الإنسان). وإذا كان أحد أهداف مشروعك الرئيسة هو تجديد الفكر الدينى، فلا شك أنك قد قابلت الكثير من المعارضة والهجوم على ما تطرح، فهل هذا هو سبب معاركك وصراعتك ضد الأصوليين؟

أجبت اللوامة: نعم...

قالت: هلاً وضحت لى، كيف كانت المعارضة والهجوم، ومع من بالتحديد كان الصراع؟

أجبتها: كانت معركتى الرئيسة حول مشروعى الفكرى التجديدى ضد «الفكر الأصولى» المعارض للتجديد.

قالت اللوامة: ماذا تقصد بالفكر الأصولى؟

أُجبت اللوامة قائلاً: يُخطئ الكثيرون حين يعتقدون أن «الفكر الأصولي» هو «الفكر الإسلامي السلفي». إن الفكر الإسلامي السلفي هو الاقتصار على فهم السلف للقرآن الكريم والسنة النبوية، وبالرغم من اختلاف في كثير من الجوانب مع هذا المنهج، فلا شك أنه قد قدم للإسلام (ولا يزال) خدمات جليلة ليس هنا مجال ذكرها.

أما «الفكر الأصولي Fundamentalism»؛ فهو اتجاه فكري موجود في كل الديانات والمذاهب السياسية والاجتماعية والفكرية والفلسفية و...، لذلك نسمع عن الأصولية الشيوعية والرأسمالية والإحادية و.... ويتسم الفكر الأصولي (على اختلاف مذهبه) بثلاث سمات⁽¹⁾:

أولاً: إطلاق النسبي: إذا كانت القاعدة المنهجية السَّوِيَّة هي ما طرحه الإمام الشافعي، من أن «قولنا صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، فإن الفكر الأصولي يتبنى أن «قولنا صواب لا يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ لا يحتمل الصواب»!! أي أنه يجعل رأيه وفهمه (النسبي) هو الحقيقة الوحيدة، أي يجعله مطلقاً..

ثانياً: إرادة الهيمنة: لما كان الأصولي يعتبر أن فهمه وحده هو الصحيح والمطلق، فقد اعتبرت الأصولية الإسلامية فهمها هو مراد الله، وما سوى ذلك غير صحيح، وبالتالي استشعر هؤلاء أن من واجبه نشر أفكارهم وفرضها، والقضاء على أية أفكارٍ أخرى.

ثالثاً: الغاية تبرر الوسيلة: اعتبر الأصوليون المسلمون أن من أجل

(1) طَرَحَ د. عدنان إبراهيم في بعض برامج سمات الفكر الأصولي بهذا التقسيم شديد الدلالة والتعبير.

القيام بمهمتهم المقدسة، وهى إعلاء كلمة الله (كما يفهمونها هم وحدهم)، فإنه يمكنهم استعمال أية وسيلة مشروعة أو غير مشروعة. لذلك ليس غريباً أن استَحَلَّتْ بعض مدارسهم سفك الدماء. كذلك قام الأصوليون الشيوعيون بسفك دماء قرابة المائة مليون إنسان من أجل نشر مذهبهم.

قاطعتنى نفسى اللوامة قائلة: أفهم مما ذكرت أن اصطلاح «الأصولية Fundamentalism» ليس قاصراً على الفكر الدينى، وأن الأصولية متعددة، هلاً أخبرتنى أى أنواع الأصولية كابدت وصارعت.

قلت للوامة: لقد تَرَكَّزَت معاركى ضد ثلاثة أنواع من الأصولية؛ الدينية والملحدة والمُستَعْلِمة. وأفضل أن أبدأ كلامى معك بحديث مختصر عن الأصولية الملحدة والأصولية والمُستَعْلِمة، قبل أن نتفرغ لحديث مُطَوَّل عن الأصولية الدينية.

معاركى ضد الإلحاد الأصولى

قالت النفس اللوامة: ماذا عن الملحدة الأصوليين؟

قلت للوامة: مثلما تُعارض الأصولية الدينية فى حقيقتها الدين وتُسىء إليه - كما سنرى لاحقاً - يُسىء الملحدةُ الأصوليون إلى الإلحاد!!

فإذا كان الإلحاد الأصولى يتمثل حالياً فى حركة الإلحاد الجديد New Atheism التى يتزعمها فى الغرب ريتشارد دوكنز⁽¹⁾ ومجموعة من رفاقه؛

(1) Richard Dawkins: بريطانى وُلِدَ فى نيروبي بكينيا عام 1941، وهو بيولوجى، كان يشغل منصب أستاذ تبسيط العلوم فى جامعة أكسفورد. وفى عام 2006 أصدر كتاب «وهم الإله The God Delusion» الذى ينكر فيه وجود أى قوى غيبية، وينظر إلى الإيمان باعتباره من الضلالات والأوهام، ويُعتبر هذا الكتاب أشهر كتبه الآن.

فقد أدّى تحامل هؤلاء على الإله وعلى الدين بأسلوب شديد العدوانية إلى نفور الكثيرين من الملاحظة مما يكتبون.

واتباعاً للحكمة العربية: «وشهد شاهد من أهلها»، اقرأ عليك بعض ردود أفعال المفكرين الملاحظة تجاه كتاب ريتشارد دوكنز الأخير «وهم الإله»:

يقول الفيلسوف الملحد مايكل روس: «لقد جعلني كتاب وهم الإله أشعر بتوتر وارتباك Embarrassed لكوني ملحدًا. فالكتاب الذى يعالج فى المقام الأول قضية الأخلاق، يتبنى حملة صليبية لا أخلاقية، تتسم بالتكبر والعجرفة. فدوكنز لا يتحدث كفيلسوف يعالج الأدلة ليصل إلى استنتاجات منطقية، لكنه يتحدث كواعظٍ أصولى يرسم طريق الخلاص ويهدد بالطرد من الرحمة». ثم يطرح روس تساؤله: «إذا كان الإله غير موجود، فلمَ هذا التطرف الشديد ضده وضد الدين؟!».

ويفيض الكيل بالفيلسوف الأمريكى الملحد توماس ناجل، بسبب أسلوب دوكنز فى الحديث عن الإله، فيقول: «يهدف دوكنز فى كتابه إلى إنكار أن الدين هو مصدر آداب السلوك Etiquette التى تسود الحضارة المعاصرة، وقد أخذ يكرر هذا الإنكار قدر استطاعته بطريقة كريهة ومقرفة Offensive».

ويقول الأمريكى عالم الوراثة التطورى هـ. ألين أور: «بالرغم من إعجابى السابق بنشاط دوكنز إلا أنه قد آن الأوان لنفترق، إن كتابه «وهم الإله» سيئ للغاية. وبالرغم من أنى وصفت دوكنز قبلاً بأنه ملحد محترف، فإننى بعد قراءة كتابه الأخير أجزم بأنه مجرد ملحدٍ هاوٍ، فهو لم يقدم فى الكتاب أى نقد موضوعى للدين بالرغم من إنفاقه مئات الصفحات فى الهجوم على الإله».

ويُشَخِّصُ المفكر الأمريكي المهتم بالديانات سكوت هان سبب ما يوضح به الكتاب من تدنٍ أخلاقي قائلاً: «إن الكتاب لاذعٌ جارحٌ مليءٌ بالغضب، ويُعد سقطة مخجلة لدوكنز، ولا يُصَنَّفُ كعمل فكري موضوعي. إنك تشعر وأنت تقرأ الكتاب بأنك أمام محاولة يائسة من شخص يعصِفُ به الضيق؛ لأنه لم يستطع التخلص من معارضيهِ الذين لا يزالون يملئون الساحة. إن الكتاب يبدو كهزيان شخصٍ ملاء الغرور والزهو بعد أن أفرط في شرب الخمر، فأخذ يُبعثر سُبَابَهُ الحاقداً على كل من لا يشاركونه الرأي».

وقد حَدَّانِي ذلك لأنَّ أُنْهَسِرَ في أحد كُتُبِي على «الإلحاد المحترم»، الذي يناقش الحُجَّةَ بالحجة، ويحترم الطرف الآخر وإن اختلف معه؛ لقد مضت أيام إلحاد برتراند رسل وسير أنتوني فلو!!

وبجانب تجربتي مع الملاحدة الأصوليين، من خلال كتبهم ومناظراتهم، فإن لي معهم تجارب شخصية مباشرة، من خلال صفحتي على الفيسبوك ومن خلال لقاءاتي ومناقشاتٍ معهم. ولعل من أشهر معاركي ضدهم تلك المناظرة التي أذاعتها الفضائيات في أربع حلقات مع الملحد الأصولي العراقي المشهور. وهذا بالإضافة إلى تفنيدى للفكر الإلحادى فى معظم كُتُبِي وندواتى وبرامجى ومقالاتى.

معاركى ضد الأصولية المُستَعْلَمة

قالت النفس اللوامة: فهمت منك الإلحاد الأصولى، لكنى لا أتصور الأصولية العلمية! أليس العلم هو المرادف للموضوعية، بينما تتسم الأصولية بالذاتية، فكيف يجتمعان؟!

أجبت اللوامة: لعلك لاحظت أنى أسميها الأصولية المستعلمة، وليست العلمية، فالعلم بلا شك مرادف للموضوعية. وإذا كان كثير من العلماء يمارسون قدرًا من التحيز لمفاهيم أيديولوجية (غالبًا مادية) تنحرف بهم عن موضوعية العلم، فهذا القدر مقبول بين العلماء، ولهم يقف حجر عثرة في وجه موضوعية العلم ولا تقدمه.

لكننا نجد قدرًا هائلًا من التعصب للمادية عند الأصوليين المستعلمين في بعض المواقف، لعل أهمها موقف كثير من البيولوجيين من نظرية دارون! فإذا كانت الأدلة العلمية تُرجح حدوث التطور فإن هؤلاء يتهمون بالجهل من يعترض على حدوثه، كما يتمسك هؤلاء بعشوائية التطور دون أى دليل وبالرغم من أن العلم صار ينفي تمامًا وجود ما تعارفنا عليه من قبل بالعشوائية والصدفة!!

وإذا كان من المنطقي أن يأتى المذهب الفلسفى كإفرازٍ للعلوم الطبيعية، إذ يدرس العالم الكون أولاً، ويضع نظرياته، فيجد أن المحصلة تُشكّل مذهباً فلسفياً جديداً، أو تندرج تحت مذهب فلسفى معين (مذهب طبيعى، أو مذهب وجودى، أو مذهب دينى خلقوى...) فيتبناه، فإن ما يحدث فى كثير من الحالات عكس ذلك تماماً!

فالعلم كثيراً ما يتبع الأيديولوجية وليس العكس! ذلك أن العقل المحايد تماماً فى حكم المستحيلات. فهذا عالم المناعة السويدي جورج كلين يصارحنا بأن إلحاده ليس منطلقاً من العلم، بل كان إيماناً مسبقاً اكتسبه فى صباه. ويؤكد نفس المعنى عالم الوراثة الأمريكى ريتشارد ليونتن فى حديثه عن صديقه كارل ساجان (عالم الفضاء الأمريكى الشهير إعلامياً) فىقول: من الواضح تماماً أن القناعات المادية لساجان

كانت عقيدة مسبقة، شكَّلت نظرتَه للعلم. ويتبنى ريتشارد ليونتن نفس القناعة التي نسبها إلى ساجان، ويقول: إن المادية هي المُطلق، ولن نسمح للألوهية بأن تقترب من الباب.

لذلك عندما يواجه أمثال هؤلاء العلماء موقفًا علميًا ليس له تفسير إلا التدخل الإلهي فإنهم يبادرون إلى رفضه أو تشويبه أو تعميته، ويطرحون تفسيرات طبيعية مادية لا يمكن لعقل منصف أن يقبلها، مثل نظرية الأكوان المتعددة. وهذا من أكبر «مطبات» التحيز في العلوم الطبيعية.

ويُشبه ذلك عالمًا صمَّ جهازًا يستطيع رصد موجات الضوء المرئي فقط، ثم يدعى أن ليس في الكون موجات غير مرئية (كالأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء)! لا شك أنك تستقبح أن يفعل عالمٌ ذلك، لكن في الحقيقة هذا ما حدث تمامًا. لقد وضع العلماء منهجًا للبحث العلمي لا يرصد إلا الطبيعة، ولا بأس في ذلك، لكن المشكلة أن الماديين منهم قد تطاولوا وادعوا أن العلم ينفي ما سوى الطبيعة.

ويقابلنا في تاريخ العلم المعاصر أيضًا موقف علمي أصولي مخجل، إنه رفض الفيزيائي الكبير «سير جون مادوكس» (رئيس تحرير مجلة نيتشر Nature العلمية الشهيرة لمدة عشرين عامًا) لنظرية الانفجار الكوني الأعظم، ليس انطلاقًا من دليل علمي، ولكن لأن الإقرار بالنظرية يعني أن للكون بداية، مما يدعم المفهوم الديني بوجود إله خالق للكون!! لقد رفض هذا العالم الكبير نظرية راجحة لأنها تعادى مفاهيمه المادية!!

وإذا كان بعض العلماء الكبار يمارسون هذه الأصولية الفجة، فليس عجيبي أن نجد الكثيرين من المهتمين بالعلم من مفكرين وإعلاميين

وكتاب علميين يتبنون نفس الموقف. وقد خُصْتُ منذ أشهر قليلة معركة ضد أحد هؤلاء.

معركة مع أصوليّ مُستَعلِم

قالت اللوامة: هلا أخبرتني عن هذه المعركة، حتى أزداد فهماً للأصولية المستعلمة.

بدأت في عرض الموقف على اللوامة قائلاً:

عَرَضَ الصحفى والكاتب الكبير بجريدة الأهرام المصرية تحليلاً لرسالة وصلته من إحدى قارئاته، ودار جزءً من تحليل الكاتب للرسالة حول مفهوم الحسد، وذكر الكاتب أن العلم قد توصل إلى أن منخ الحاسد يُصدر طاقة تؤدى إلى إيقاع الضرر بالمحسود.

فى اليوم التالى، فوجئ القراء بأحد الكتاب العلميين (ولنرمز له بالحرف «س») يتصدى فى عموده الیومى بالصحیفة الخاصة لما جاء فى جريدة الأهرام. لا بأس فى هذا، فمفهوم الحسد ما زال من القضايا التى تحتاج لمزید من البحث العلمى. ولكن المشكلة أن «س» لم يذكر مبرراً علمياً واحداً لإنكاره الحسد، بل كان المقال قطعة من الممارسات الإعلامية المنحرفة: أسطراً من السب والقذف والسخرية من كاتب الأهرام الكبير، ومن الجريدة العريقة ذاتها! أزعجنى هذا الموقف من «س» تجاه الكاتب والجريدة.

جاء الهجوم فى الوقت الذى أهتم فيه ببحث إمكانية تأثير العقل على العالم المادى من خلال طاقات تنبعث من المنخ. وقد استطاع العلم تفسير ذلك عندما أثبت بعض كبار العلماء فى العالم (ومنهم ویلیام

تيلر William Teller رئيس قسم فيزياء المواد بجامعة ستانفورد، أكبر الجامعات العلمية في العالم) أن أخاخنا تُصدر طاقات كهربائية وضوئية تؤثر في الوسط المادى المحيط.

وقد روى لى د. وسيم السيسى، وهو من كبار مثقفى مصر الثقات، أنه قد شاهد بنفسه بعض الرهبان البوذيين وهم يركزون نظرات أعينهم على أجسام معدنية فتلتوى أو تنصهر.

كتبْتُ رسالة لجريدة الأهرام بهذا المعنى، وتَفَضَّلَ الصحفى الكبير صاحب التحليل بنشرها، باعتبارها دعماً علمياً لما جاء في تحليله لرسالة القارئة.

بعدها بيومين، اتصل بى الطيب الكبير الذى أجله كثيراً ليناقشنى فيها كتبت، ونقل لى غضب تلميذه الصحفى «س» لأنى نشرت ما يُدعم طرْحاً هو غير راضٍ عنه!. بينت لأستاذى وجهة نظرى، فنَسَّقَ حوار تليفونى بينى وبين «س» ليعرض كل منا تصوره العلمى.

لم يخرج الحوار التليفونى عن «الجدال» حول ما كتبتَه ومدى حجيتَه فى دعم الحسد. وقد انبرى «س» مُحْطِئاً القول بالحسد ومُسْقِهاً ممن يقبلون ذلك المفهوم.

قلت لـ «س»: إن الحسد من المفاهيم السائدة والمنتشرة فى كل الحضارات عبر التاريخ وعبر الجغرافيا، حتى فى أكثر المجتمعات تقدماً وعلميةً فى العالم، وقد أثبت الفيزيائى الأمريكى الكبير وليام تيلر أن أدمغتنا تُصدر طاقات تؤثر فى الوسط المحيط، وختمت أدلتى بأن القرآن الكريم قد أثبت الحسد. وأضفت، وبالتالى فالحسد ثابت بكلمة الدين والحضارة، وأيضاً راجح بكلمة العلم الحديث.

فوجئت بالكاتب العلمى يثور بشدة ويدّعى أن موقف الدين من الحسد قاصر على عصر النبوة!! وأن من يُقدّم أى دعم علمى لهذا المفهوم (حتى وإن كان من كبار علماء الفيزياء فى العالم) منحرف الفكر، بل لقد سخر «س» وهو الكاتب العلمى من العلماء وأساتذة الجامعات!! وأضاف: أن ما عرضته من فكر هو أخطر على مصر مما يقدمه الدجالون ومما يفعله المتآمرون!!

امتد الجدل دون تقدم، وحتى أنهى الحوار سألته: ماذا تريد منى؟

قال: أريد مقالاً تؤكد فيه أن العلم لا يُقر بمفهوم الحسد.

قلت له: لا بأس، ولكن ليتك «تغششنى» ولو دليلاً علمياً واحداً على أن العلم ينفى وجود الحسد حتى استشهد به فى مقالى، فأنا لا أتبع أسلوب السب والقذف، لكنى أتبع الدليل إلى حيث يقودنى، كما قال سقراط.

صمت «س»، وطلب إنهاء المكالمة.

عجباً... يريد منى الرجل أن أنفى مفهوماً بدأ العلم الحديث فى تقديم ما يدعمه، وذلك دون أى دليل، إلا رأى «س» بأن القول بالحسد من سمات التخلف فى الدول الفقيرة!!

وملخص هذا الحوار، أنى أتبنى أن الحسد من المنظور الدينى يقين لا يتغير مع الزمان. ويقع على المستوى العلمى فى منطقة عدم اليقين، بين النفى والإثبات، وإن كانت هناك أدلة تُرجحه، أهمها ما ثبت من أن أمحاضنا تصدر طاقات تؤثر فى عالم المادة. ويؤيده أيضاً شيوع وانتشار هذا المفهوم فى كل حضارات العالم، بالإضافة إلى خبراتنا الشخصية.

وكما كانت نظريتيّ الكوانتم والنسبية ثورتين في الفيزياء، أدخلتا البشرية عصر الفيزياء الحديثة، فيبدو أننا على أعتاب فيزياء جديدة، يمكن أن نطلق عليها فيزياء ما بعد الكوانتم، تهتم بتأثيرات الوعي الإنساني على العالم المادى.

وبالنسبة لـ «س» فإنه يرفض مجرد التفكير في كل ما لم يُقَدَّم العلم بعد دليلاً جازماً على صدقه، ويطالبني بأن أتبنى رأيه دون دليل. وإذا قال «س» إن العلم لم يدرس الظاهرة حتى يقدم الدليل العلمى على خطئها، قلنا له: إذا كيف تطالبنا أن نرفض (باسم العلم) ما لم يدرسه العلم!!!

وأضفت قائلاً للوامة: هذا مثال عن الأصولية المُستعلِمة التى ترفض كل ما هو غير مادى. أما ما يُقَرَّب بين العلم والدين، كأن يطرح العلماء بعض المفاهيم التى وردت فى الديانات (كالחסد) للبحث العلمى، حتى يقدم دليلاً على صحتها، أو خطئها فذلك مرفوض عندهم، خشية أن يُقال إننا ندخل العلم فى الغيبيات. فى الحقيقة، إن المثال السابق يبين العكس؛ فإنه يُخرج أحد المفاهيم (الחסد) من إطار الميتافيزيقا ويدخله فى إطار المفاهيم العلمية التى يمكن تفسيرها فيزيائياً.

والأصوليون المستعلمون يكونون عادةً أحد ثلاثة؛ إما ملحد يرفض كل ما هو خارج مادية العلم التقليدية، وإما رجل وقف بالعلم عند أعتاب القرن العشرين واعتبر آخر ما فى العلم هو نظريتيّ الكوانتم والنسبية ولا يدري ما بعدهما، وإما مؤمن غيور يخشى إذا تتبع الجديد فى العلم والذى يتسق مع بعض المفاهيم الدينية أن يتَّهم بأنه يطرح علماً كاذباً Pseudo - Science.

معاركى ضد الأصولية الدينية

قالت النفس اللوامة؛ استوعبت الآن أصولية الملاحدة والأصولية المستعلمة، بقى أن تحدثني عن الأصولية الدينية ومعاركك معها.

قلت: سأنقل لك ملامح الأصولية الدينية ومعاركي معها من ميدان الصراع. فقد دارت بيني وبين بعض أشكال الفكر الأصولي الديني صراعات على صفحتي في الفيسبوك من خلال رسائل إلى «رفاق رحلة عقل»، وستجدون فيها قدرًا كبيرًا من التفصيل الذي تنتظرين.

(1) وقفة مع الفكر الأصولي الديني؛⁽¹⁾ 2014/10/17

«رفاق رحلة عقل...»

طرحنا على هذه الصفحة منذ أسابيع السمات العامة للفكر الأصولي، ولخصناها في ثلاث سمات؛ إطلاق النسبي -إرادة الهيمنة- الغاية تبرر الوسيلة. وكنت أدرك هذه السمات على المستوى النظري فقط، حتى تفجرت على هذه الصفحة فضيحة «الأصولي ص» فأصبحت خبيرًا بها. فالمدعو (ص) مثالٌ نادرٌ حقًا للفكر الأصولي الإسلامي في أسوأ صوره، حتى إنه سيظل يُستشهد به لسنوات عديدة، وذلك لفُحش ممارساته الأصولية، وأهمها:

(1) يرفض (ص) تمامًا وجود ما يخالف رأيه في الساحة. وقد صرح مرارًا على صفحتنا أنه لا يقبل إلا الرؤية الواحدية -وهي رؤيته- لأية قضية، وكل من يخالفه يكون نصيبه السب واللعن (إطلاق النسبي).

(1) المقصود بالفكر الأصولي هو الترجمة للاصطلاح الإنجليزي Fundametalism، وهو يختلف تمامًا عن علمائنا الفضلاء في علوم أصول الدين وأصول الفقه.

(2) كل من يختلف مع رأى (ص) حتى في قضايا علمية (ومنهم أنا) نصيبه «التكفير»! ولهم يُعجزه أن يعثر على رأى فقهي من نفس مدرسته يدعمه. وقد نشر (ص) هذا التكفير مراراً في صفحتنا وغيرها من الصفحات (إرادة الهيمنة).

(3) عندما استشهدتُ في حوارى المباشر وعن طريق رسائل SMS مع (ص) بآراء الإمامين الجليلين ابن تيمية وابن قيم الجوزية، كان نصيبهما منه اللعن والسب!!!! وذلك بالرغم من تعلقه للفكر السلفى ورجاله الذين نكن لهم الاحترام (الغاية تبرر الوسيلة).

(4) أما الثالثة الأثافي، فهي لجوء (ص) إلى النفاق والخداع الفاجر. فقد تقمص على هذه الصفحة شخصيتين، إحداهما مؤمنة تدافع عن الإسلام وتتملقني وتدعوني لأن أشكّل جبهة أترأسها لمقاومة الإلحاد على مستوى العالم الإسلامى! وشخصية أخرى ملحدة (جون) تسبني وتلعنني! ومن أجل إحكام تقمص الشخصية الملحدة قام (ص) بسب كل مقدساتنا، كما أجرى (ص) حوارات بين الشخصيتين، وكان ينتصر دائماً للشخصية الملحدة!!! (الغاية تبرر الوسيلة).

(5) قام (ص) بالتواطؤ مع أحد الملاحدة (ظناً منه أنه مسلم) بغرض الانتقاص مني ومن كتاباتي وصفحتي، ففضحه هذا الملحد وفضح تأمره في الصفحة (الغاية تبرر الوسيلة).

كانت نيتي أن أستر هذا الأفاق المنافق، خاصة بعد أن أقسم بالله مراراً أن يُغلق صفحته، لكنه يصّر دائماً على النكوص، ويستمر في أسلوبه الذي دفع الكثيرين من شبابنا إلى الإلحاد!! بعد أن رأوا فيه

نموذجاً سيئاً للإسلام، إذ أصر على سب كل من يخالفه، وأيضاً سب أئمة السلف، وسب العلم والعلماء، وقد أخبرته بذلك مراراً...

سألت رائد الطب النفسى د. أحمد عكاشة عن رأيه فى الأصوليين الإسلاميين، فأخبرنى بأنهم يعانون تَوَرُّم الذات، فلا يرون صواباً إلا رأيهم، وأنهم إذا لجأوا إلى (الغاية تبرر الوسيلة) باسم الدين، فذلك انحطاط أخلاقى.

طلب البعض منى إفساح صفحتنا مرة أخرى لهذا الأصولى، والتجاوز عن مصائبه، وهؤلاء بالتحديد كتبت هذه الرسالة، فهل ما زالوا عند رأيهم؟!».

ودارت الحوارات حول هذه الرسالة، وآن أوان رسالة تالية:

(2) مرض قلبى أم مرض نفسى؛ 2014/10/19

«رفاق رحلة عقل...»

آثارت رسالتى الأخيرة حول «الأصولية» ردود أفعال متباينة، وصلتني فى هذه الصفحة وبوسائل التواصل المختلفة.

تباينت ردود الفعل بين أغلبية «مدهشة» وأقلية «مصدومة» وقارئین غير مصدقين ما نسبته لـ (ص). ولا شك أن موقف هؤلاء جميعاً يرجع إلى اعتقادهم أن (ص) شخص شديد الدين كما ظهر من كتاباته السابقة فى الصفحة، وأنا أشاركهم هذا الرأى!.

هنا تكمن مشكلة الأصوليين الدينين؛ كيف لرجل بهذا «الدين» أن «يتدنى» إلى ما انزلق إليه (ص) من دنایا (التكفير - سب أئمة السلف -

التسمى باسم جون الملحد لمهاجمتي بحرية، ومن أجل أن يُحبك الشخصية يقوم بسب مقدساتنا!).

كيف يجمع إنسان بين النقيضين «التدين» و«التدنى»؟!

هنا تكمن المشكلة في نظر الكثيرين...؟!

لم يكن جَمْع الأصوليين المعاصرين بين (التدين والتدنى) السابقة الأولى في التاريخ الإسلامي، بل لقد تنبأ بها رسولنا الكريم ﷺ حين قال: «يُخرج فيكم قوم يُحَقِّرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم..» أى أن عبادتهم تفوق عبادة الصحابة الكرام، ويستكمل رسولنا الكريم الوصفَ قائلاً: «يَمِرُّونَ مِنَ الدِّينِ مَرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»⁽¹⁾ يا الله... إلى هذا الحد يمكن أن يجتمع (التدنى مع التدين)؟!

هذا هو محور الفكر الأصولي الديني: التدين + التدنى.

يأتى الآن دور السؤال المهم: كيف تستطيع النفس البشرية الجمع بين النقيضين؟!

يحدث ذلك في حالتين؛ إذا كان المرء يعانى «حقداً جارفاً» تجاه آخر، أى أن المشكلة تكمنُ في «مرض قلبي». والتفسير الآخر هو «الخلل النفسى» كما ذكرَ أستاذنا د. أحمد عكاشة؛ مثل أن يعانى المرء «تَوَرُّمَ الذات» فيرى أن عقله أفضل العقول ومن ثم فإن قناعته وحدها هى الصحيحة.

وفي كلتا الحالتين: المرض القلبي والخلل النفسى، لا يملك الإنسان

(1) رواه البخارى ومسلم.

لنفسه ردعًا، فيسعى بأية وسيلة للهيمنة، وتُصبح الغاية تبرر الوسيلة. وفي رسالتي السابقة، أحسنتُ الظنَّ بـ (ص) واستبعدت المرض القلبي، ولم يبق تبريرًا لما اقترفه إلا ما قدمه د. عكاشة من تفسير للفكر الأصولي.

لقد تصديت للفكر الأصولي في رسالتي هذه والرسالة السابقة ليقيني أن هذا الفكر يمثل حَجَرَ عَثْرَةٍ في جهودنا ضد الإلحاد. وقد أخبرت (ص) بأن تكفيره وسبابه كانا سببًا أكبر في انصراف بعض المتشككين من طلبتي في كلية الطب إلى الإلحاد، ورجوته مرارًا أن يكون عونًا لنا لا عونًا علينا، ولا فائدة.

وقد سبق أن نبهنا شيخنا محمد الغزالي إلى «أن انتشار الكفر في العالم يحمل أكثر من نصف أوزاره متدينون بَعْضُوا الله إلى خلقه بسوء صنيعهم وسوء كلامهم»، ولا شك أن الأصوليين (بالمعنى المطروح هنا) يأتون على رأس قائمة هؤلاء.

وإذا كان رجالٌ من أمتنا قد نذروا أنفسهم للوقوف في وجه الموجة الإلحادية، فلا أحسب أن جهودهم ستأتى بالنتيجة المرجوة وأمثال هؤلاء بيننا، ما لم يراجعوا أنفسهم، ولا أحسبهم يفعلون.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»...

ودارت حوارات حول الرسالة، وأن أوان رسالة تالية:

(3) فتاوى مُضَلَّلَات 26/10/2014

«رفاق رحلة عقل...»

أراد المدعو (ص) أن يُقيم على الحجة، بأن يستصدر من دار الإفتاء

فتوى بتكفيرى!!! أرسل (ص) لدار الإفتاء سؤالاً يتضمن رأء نسبها إلى كَذِبًا، فأفتت الدار بأن من يقول ذلك فقد كفر. فرح (ص) فرحاً شديداً، وملاً صفحات الفيسبوك بالفتوى، ولا بد أنها قد وصلتكم.

سبحانك ربي، يا من قلت: ﴿...وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ...﴾ [فاطر: 43]، لقد «فضحت» دارُ الإفتاء (ص)، عندما نشرت نصَّ سؤاله، فاتضح قبح تزويره لأفكارى وعقيدتى. كان سؤال (ص): ماذا تقولون فيمن ينسب إلى الطبيعة أنها قد خلقت «استقلالاً» (أى بشكل مستقل)، ثم يدعى أن الله قد استخدم قوانين الطبيعة فى الخلق؟

أجابت دارُ الإفتاء بأن من قال إن الطبيعة تخلق «استقلالاً» فقد كفر... وأنا (وطبعاً أنتم كذلك) تشاركونى دارَ الإفتاءِ رأيها، فهى كلمة واحدة تفرقُ بين الحق والباطل، وقد أضافها (ص) ليزور عقيدتى، وهى كلمة «استقلالاً».

أى فُجِرَ هذا، وأية بذاءة تلك، تُزور عقائد الناس حتى تكفرهم!!! أتحدى أن يستخرج أحدٌ من أربعة آلاف صفحة من كتاباتى أنى قلت إن الطبيعة تخلق بشكل مستقل. كررنا مئات المرات أن الله عَزَّجَلَّ يُسخر فى خلقه وتديره للوجود قوى الطبيعة وقوانينها، واستشهدنا على ذلك بقول الحق عَزَّجَلَّ سبع مراتٍ فى القرآن الكريم أنه ينبتُ الزرع بالماء، منها قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: 9] وقد تبين فى هذا الأمر رأى الإمامين ابن تيمية وابن القيم بأن حرف الباء (أنبتنا به - أحيينا به) هى باء السببية، أى أن الله عَزَّجَلَّ قد جعل الماء سبباً فى الإنبات. وأنها ليست باء المصاحبة كما يرى الأشاعرة.

كذلك نقلنا عشرات المرات مقولةً حكيمة لفرانسيس كولنز (رئيس مشروع الجينوم البشرى) تُعبّر عن قناعتنا، وهى: «من الذى يجبر على الإله فى أن يستخدم قوانين الطبيعة فى الخلق». ثم يأتى من يكذب علينا بُفجرٍ وتَدَنٍ، ويدعى أننا نقول إن الطبيعة تخلق «بشكل مستقل».!!!! حسبنا الله ونعم الوكيل.

كيف يسفُط هذا الكاذب هذه السقطة؟ (معذرة على انفعالى، فليس من المقبول أن يُزوّر شخصٌ عقيدتك حتى يحصل على فتوى بتكفيرك، لا أتصور هذا القدر من الدناءة) ليس لهذا الفُجر والبذاءة إلا أحد تفسيرين:

التفسير الأول هو «الجهل»، أى أن (ص) لم يستوعب ما أكتب، وهذا التفسير مرفوض... فقد سبق أن ناقشنى فى هذا الأمر (ما زالت المناقشة موجودة على الصفحة) وذكرت له أن عقيدتى أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يضع قوانين الطبيعة وتركها تعمل، بل يمدّها بفاعليتها لحظياً وآتياً، وهذا من معانى القيومية، ولو قطع عنها الإمداد اللحظى لتوقفت من فورها.

عندما ذكرت ذلك فى صفحتى هلى (ص) لى وشهد بسلامة عقيدتى! بل وسجل فى صفحتى تاريخ هذا اليوم المشهود!! كما قال. بهذا ينتفى جهل (ص) بعقيدتى، ولا يبقى إلا التفسير الثانى:

إنه الفكر الأصولى الذى ينتهج مبدأ أن «الغاية تبرر الوسيلة»، من أجل فرض رأيه المطلق، حتى لو لجأ لتزوير عقائد الآخرين.

ألى هذا الحد يمكن أن يتدنّى هذا الشخص، ويضيف إلى نقائص النفاق والكذب والفُجر والبذاءة التى ذكرناها فى رسالتى السابقتين نقيصة «تزوير العقائد».

ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ودارت الحوارات حول الرسالة، وأن أوان رسالة تالية:

(4) الاحتجاج بآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ 2014/10/28

«رفاق رحلة عقل...»

أبدأ بالاعتذار لكم، إذ شأشغلكم بنادرة أخرى من نوادر (ص)، بالرغم من أن الكثيرين منكم طلبوا ألا نُعير ما يكتبُ أيُّ اهتمام، فالندارة تستحق التفنيد، خاصة بعد أن ملأ بها صفحات الفيسبوك.

في محاولاته التكفيرية، سأل (ص) دار الإفتاء: ما تقولون فيمن يُنكر أن يكون «آدم» عَلَيْهِ السَّلَامُ قد خُلِقَ خلقًا خاصًا، ويقول إن له أبوين من أجناس غير إنسانية؟ فأجابته دارُ الإفتاء أن ذلك لا يجوز. والحقيقة أنه لا مشكلة عندي في قبول هذه الإجابة!

المشكلة أن (ص) قد سبق وسألني نفس السؤال بصيغة أخرى (ماذا تقول في آدم؟) فأجابته إجابة أثلجت صدره وهلل لها واعتبر ذلك اليوم يومًا مشهودًا (كما حدث في رسالتي السابقة)، وما زال الحوار الذي دارَ بيننا موجودًا في صفحتي، وقد نشرتُ هذا الرأي في كتابي خرافة الإلحاد. فلا أدري لماذا أعاد (ص) الطرح من خلال دار الإفتاء ليحصل على فتوى تكفيرية، هل السبب كما ذكرتُ في رسالتي السابقة هو الجهل أم الخُلُق الأصولي الذي يتبع أية وسيلة لتحقيق الهيمنة؟

كانت إجابتي عن سؤال (ص): ما تقول في آدم؟ هي: أن العلم لا يعرف آدم... ولا التاريخ يعرف آدم...

إن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ شخصيةٌ دينيةٌ نعرفها من نصوصنا المقدسة، ونؤمن

بها تبعاً لما في النصوص على مراد الله (أى تبعاً لمعانى النص التى يقصدها الله عزَّوجلَّ). إنها قضية إيمانية غيبية بحثة، ليس للعلم كلمة فيها.

أما العلم فيهتم بنشأة الإنسان، دون أن يأخذ شخصية آدم فى الاعتبار، وهذا ما أمرنا به الله عزَّوجلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: 20].

والعلم فى بحثه يهتم بـ (الآلية How)، ويتبع منهجاً علمياً تعارف عليه علماء الدنيا، وليس من هذا المنهج تحكيم أفهامنا الدينية المتباينة فى المفاهيم العلمية. أما الدين، فيهتم بـ (الحكمة والغاية Why)، ويتبع منهج الفهم عن النصوص المقدسة.

فلنؤمن بما نفهم من نصوصنا المقدسة، وليتوصل العلم إلى ما شاء الله أن يكشفه لنا من معارف. والقاعدة الأساسية فى الطرحين ألا تضرب أحدهما بالآخر، وإلا فالدين هو الخاسر؛ فقد خسر بسبب ذلك مئات الملايين من المتدينين عبر التاريخ وعبر الجغرافيا بعد الثورة العلمية فى أوروبا.

لذلك، فنحن نقبل فتوى دار الإفتاء، لكنها لا تخصنا، فهى تتحدث عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذى لا نتحدث عنه عند الدراسة العلمية لاحتبالية التطوير البيولوجى... وتظل عقيدتنا فى آدم هى ما قصده الله عزَّوجلَّ فى كتابه الحكيم. فلا تُقَوِّلنا أيها الـ (ص) ما تعرف يقيناً أننا لم نُقله.

يقول البعض: لكنك فى كتاب «كيف بدأ الخلق»، جمعت اجتهادات تربط بين آدم ومفهوم التطور؟ أجيب: نعم... وقد أكدت أن هذا نموذج من اجتهادات رجال من فطاحل الفكر الإسلامى تسرى فى حالة الإثبات العلمى للتطور كحقيقة علمية، إن أن البديل الآخر فى هذه الحالة أن

يُكَذِّبُ اللهَ ورسوله. هل وعيتهم وفهمتم وأدركتم يا من احترفتُم الاعتراض بسذاجة شديدة.... أفيقوا!!!.

طالبني البعض في مداخلاته السابقة ألا أُعير ما يكتب (ص) أي اهتمام، فما هو إلا طالب شهرة، وأنه حقق ذلك من خلال صفحتي. وأنا أؤيد ما يقولون، ولكن أية شهرة قد حقق؟ لقد صار نموذجًا مشهورًا يُستشهد به على ما يمكن أن يتدنى إليه الفكر الأصولي من نفاق وتزوير وكذب، سعيًا وراء فرض آراءه فرضًا على الآخرين....

ودارت الحوارات حول الرسالة، وأن أوان رسالة تالية:

(5) أن أوان الإصلاح: 2014/11/5

«رفاق رحلة عقل..»

نصحتني بعض الإخوة الأفاضل بعدم الانشغال بقضايا فرعية عن مشروعى الفكرى، وأنا أشكرهم وأؤيد رأيهم. لكن لا شك أن فَضَحَ هذا الفكر المنحرف ووضعه في موضعه ليس بقضية فرعية، بل هى المعركة الحاسمة لإنقاذ الإسلام من هؤلاء الذين كانوا سببًا في تدهور العالم الإسلامى، تلك المعركة التى تأخرت لقرون. وربما يكون الله عَزَّجَلَّ قد اختارنا لنكون من جنوده فيها... أعاننا الله وسدد خطانا وخطاكم...».

قالت اللومة: تستشهد كثيرًا بنصيحة د. المسيرى بألا نشتغل بقضايا فرعية عن هدفنا الأكبر، ألم تراجع نفسك بعد فترة بخصوص انشغالك بالفكر الأصولي؟

أجبتها: نعم؛ فقد مضت الشهور وصراعاتنا ضد الفكر الأصولي

الدينى لم تتوقف وهو لا يزداد إلا تعنتاً، لذلك قمت بمراجعة النفس وكتبته الرسالة التالية لرفاق رحلة عقل عن هذه المراجعة:

(6) وقفة للمراجعة: 2014/7/27

«رفاق رحلة عقل...»

عدت لِتَوَى من جَلْسة طويـلة مع أحد أقرب أصدقائى، وهو خير بالنفس البشرية وأمراضها، وتناولنا فى الجلسة مشروعى الفكرى، وما تم إنجازـه منه، والعوائق التى تواجهه.

وقد وجدت أن الله عَزَّجَلَّ - كما وفقنى فى رسم ملامح مشروعى الفكرى - فقد وفقنى فى إنجاز الكثير من أهدافه على أرض الواقع...

ثم انتهت...

لقد نجح بعض الأصوليين الدينيين فى أن يشغلوا الكثير من وقتنا وفكرنا جميعاً، طمعاً فى علاجهم من هذا الداء النفسى العُضال الذى ألـم بهم، وهو داءُ الكِبَرِ وادعاء الاستئثار بالمعرفة، فسَمَحَتْ لهم أنفُسُهم بالتفتيش فى عقائد الآخرين وتنصيب أنفسهم حَكَمًا على الجميع. وقد استخدموا فى ذلك أخطأ ساليب الكذب والخداع ولوى الحقائق والتكفير.

إن هؤلاء الأصوليين كالملاحدة تماماً، لا يَحْيُونَ إلا فى مناخ الاضطراب وفى أجواء الاهتمام بهم، فلنحرمهم جميعاً من هذه الأمانة العزيزة على قلوبهم. وقد ظهر من الكثير من مداخلاتكم الثرية فى الصفحة أن للكثيرين منكم تجاربهم مع هذه الفئة، هذه التجارب التى أكدت لكم (كما ذكرت على الصفحة) نفس ما ذهبْتُ إليه.

قناعتى التى استقرت فى داخلى الليلة، أن علينا العودة إلى أهدافنا

الحقيقية، وهى الارتقاء بالعقل المسلم، وألا نسمح لفئةٍ معتلةٍ نفسياً بأن تشغلنا عما صار فرض عين على كل منا.

والله من وراء القصد»..

ثم أضفت قائلاً للنفس اللوامة:

طرحت عليك أيتها اللوامة بعض سمات الفكر الأصولي الديني من خلال معاركى مع أحد عناصره، ولا شك أن موقف هذا الاتجاه قد أفاد الملاحظة إلى حد بعيد، وذلك لسببين؛ الأول أن الكثيرين من الملاحظة وجدوا فيه غناء عن تفنيد ما نطرح عليهم من أدلة الوجود الإلهي، واكتفوا بأن يعلنوا أن عمرو شريف يحاول بطرحه العلمى واستدلالاته على الألوهية أن يُجمل صورة الإسلام، أما الإسلام في حقيقته فليس بهذه العقلانية، وقد استشهدوا على ادعائهم برفض الأصوليين لطرحي. والسبب الثانى؛ هو أن بعض الشباب المسلم وجد في الطرح الأصولي ما نفّرهم من الدين، فألحد بعضهم وتشكك آخرون.

بذلك صار هؤلاء الأصوليين كالدبة التى قتلت صاحبها بدلاً من أن تهش عنه الذباب.

الأصولية الدينية والتطور البيولوجي

قالت نفسى اللوامة: وعدت رفاق رحلة عقل في إحدى رسائلك على الفيسبوك بأن تغلق ملف الأصولية الدينية لتتفرغ لمشروعك الفكرى، وإذا بك بعد بداية هذا العام (2016) بقليل تعود إلى الاشتباك مع الأصوليين في حوارات ساخنة. فماذا كان الداعى لذلك؟

أجبت اللوامة قائلاً: علمتُ بعد بداية معرض الكتاب الدولي بالقاهرة في النصف الثاني من شهر يناير أن أحد المعارضين للتطور البيولوجي ومن أعمدة الخلقويين في مصر، وهو د. هشام عزمي، قد أصدر كتاباً يعترض به على مفهوم التطور، وأسماه «التطور الموجه بين العلم والدين»، وأنه يقوم بحملة مكثفة للترويج للكتاب ولهذا الفكر.

ود. هشام طبيب فاضل محترم، تعرفت إليه عندما دعاه أحد أصدقائنا المشتركين لحضور الصالون الثقافي الذي كنت أعقده في بيتي. وكانت تدور بيننا في الصالون مناقشات ودية حول التطور البيولوجي.

عندما علمت بكتاب د. هشام الجديد وحملته المكثفة للترويج ضد التطور البيولوجي، وجدت لزاماً عليّ أن أعيد نشر رسالتين كنت قد نشرتهما من قبل على صفحتنا في الفيسبوك، حتى أُبين لقرائي (في الرسالة الأولى) مفهوم التطور البيولوجي، وبالتحديد التطور الموجه (التطوير الإلهي) الذي أتبناه، وأبين في الرسالة الثانية قبول مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف لمنهج تفسير آيات خلق القرآن الكريم في ضوء مفهوم التطور البيولوجي.

وقد دفعني الإجماع العلمي حول التطور البيولوجي، مع اقتناعي بالأدلة العلمية التي ساقتها علوم كثيرة على صحة التطور والتي فصلتها في كتابي «كيف بدأ الخلق»، إلى الإقرار بحدوث التطور؛ مع رفضي أن يكون عشوائياً، بل لا يمكن أن يكون التطور قد حدث إلا بتوجيه خالق ذكي قادر، وهو المفهوم المعروف بالتطور الموجه أو التطوير الإلهي. وقد شرحت في كتبي وعلى صفحة رفاق رحلة عقل لماذا أقبل التطور وأرفض العشوائية؛ وبينت كيف أن ذلك يتوافق مع كلمة العلم.

وأضفت: وأحب - أيتها اللوامة - قبل عرض رسائل وحواري مع الأصوليين حول التطور البيولوجي والذي جرى على صفحتنا في الفيسبوك، أن أذكركِ بسمات الفكر الأصولي، حتى تستحضرها في أثناء متابعتك لرسائلي، هذه السمات الثلاث هي: إطلاق النسبي، وإرادة الهيمنة، وأن الغاية تبرر الوسيلة.

والآن إلى الرسالة الأولى التي شرحت فيها مفهوم التطور الموجه:

(1) التطور البيولوجي: 2016/1/22⁽¹⁾

«رفاق رحلة عقل...»

أطرح عليكم موقفي تجاه التطور البيولوجي من خلال عدة نقاط:

(1) تتبنى نظرية التطور لدارون أن الكائنات الحية كلها قد نشأت من سلف مشترك واحد، وهو الخلية البكتيرية، أو بضعة أسلاف قليلة، تطورت منها الكائنات الحية ببطء شديد حتى وصلت إلى الإنسان. وتقوم أدلة النظرية على أربع مجموعات من العلوم، وهي: الحفريات، الأجنة، التشريح المقارن بين الكائنات، وأخيراً البيولوجيا الجزيئية (علوم الوراثة أو الجينات). وتتغير حُججة هذه العلوم من وقت لآخر تبعاً للاكتشافات العلمية، وقد أصبحت أدلة البيولوجيا الجزيئية ذات الحُججة الأكبر حالياً.

(2) تتكون نظرية التطور (النظرية الداروينية) من شقين رئيسين:

الأول: حدوث التطور - **والثاني:** أن التطور كان عشوائياً.

(1) ترجع هذه الرسالة والرسالة التالية إلى تاريخين سابقين، وقد أعدت نشرهما بهذا التاريخ تمهيداً للرسائل التالية.

بالنسبة للشق الأول، فهناك إجماع علمي (أكثر من 99 % من علماء العالم)⁽¹⁾ على حدوث التطور. وقد أصدر الاتحاد الأمريكي لتقدم العلوم AAAS، أكبر جهة علمية في العالم (150.000 عالم من أنحاء العالم) عام 2006 بياناً يعتبر فيه التطور الحقيقة المحورية في علم البيولوجيا، مثلما أن دوران الأرض حول الشمس هي الحقيقة المحورية في علوم الكونيات.

أما الشق الثاني، فقد أثبت العلم يقيناً استحالة أن تكون العشوائية هي قائدة قطار التطور، وذلك انطلاقاً من مجموعتين رئيسيتين من العلوم:

أ. نظرية الشواش Chaos Theory: والتي أثبتت أن أى حدث يقع في الكون تتحكم فيه قوانين دقيقة، نعجز الآن عن معرفتها. ويعني ذلك انهيار مفهوم العشوائية تماماً!!

ب. نظرية المعلومات Information Theory: والتي تؤكد أن ظاهرة الحياة وأيضاً التطور من كائن لآخر تحتاج إلى كم هائل من المعلومات، يستحيل أن يتوافر إلا من مصدر ذكي قادر.

(3) من الشقين السابقين، يتأكد علمياً حدوث التطور مع استحالة عشوائيته، ويتأكد احتياجه إلى الحكمة والذكاء، وهو ما جعل الكثيرين يطرحون (كبديل) مفهوم «التطور الموجه» أو «التطوير الإلهي».

(1) من أهم مصادر هذه المعلومة مؤسسة ديسكفري الأمريكية، وهي أكبر مُعارض للتطور في الولايات المتحدة!! إذ أنشأت موقعاً على النت ورَوَّجَت له بشكل مكثف، ليضع فيه كل عالم معارض للتطور اسمه، ويمكن أن يستخدم اسماً مستعاراً. لير جمع الموقع إلا بضع مئات من المعارضين للتطور، وهي تمثل أقل من 1 % من مئات الآلاف من العلماء عبر العالم.

والذى يعنى قيام الإله الخالق عَزَّجَلَّ بتنويع الكائنات عن طريق آلية التطور.

لذلك فأنا أرفض النظرية الداروينية (تطور + عشوائية) وأقبل التطور الموجه.

ومعنى ذلك، أنه سواء خَلَقَ الإله الكائنات والإنسان خلقًا خاصًا مباشرًا أو خلقًا تطوريًا، فهو الخالق فى الحالين. وبذلك يتهاوى تمامًا استدلال الملاحدة بالتطور لنفى وجود الإله الخالق.

(4) لا تصل أدلة التطور به إلى مصاف الحقائق العلمية، فما زال هناك معارِضات للنظرية. لذلك يعتبر العلماء المنصفون أن القول بالتطور هو «لجوء إلى أفضل التفسيرات Inference to the best explanation» لما لدينا من معلومات قدّمتها العلوم المختلفة.

والفرق بين الحقيقة العلمية وأفضل التفسيرات؛ أن الأولى غير قابلة للتبدل، بينما الثانى قابل للتبدل مع المزيد من أدلة العلم.

(5) عندما نقول بالتطور، فنحن نتحدث عن جسد الإنسان، أما عقله فقد أثبت العلم استحالة نشأته تطوريًا، بل أرجعه الماديون إلى ما أسَموه «الانبثاق» الذى هو قريبٌ جدًّا من الخلق، كما قال فيلسوف العلوم الأكبر كارل بوبر. لذلك فنحن نتبنى الآن أن جسد الإنسان قد خُلِقَ طورًا، أما الإنسان ككل (جسد وعقل) فهو خلقٌ خاص.

(6) لا شك أن الفكر المادى كان فى شَبَقٍ لدليل علمى على أن الحياة والكائنات الحية منظومة مادية، لذلك تلقفوا نظرية التطور بشغفٍ كبير ليستدلوا بها على ذلك، مما أدى إلى تعصُّب شديد تجاهها من قِبَل

الماديين لا يقبله العلم. لكن لا ينبغي أن يُتَّخَذَ هذا التعصب دليلاً على زيف النظرية، بعد أن دعمتها أدلة لا تُدَحَّض.

(7) يرجع ما يثيره البعض من هجوم ومحاولات لنفى نظرية التطور إلى خطأين منهجين:

الخطأ الأول، عدم فهم المنهج العلمى الذى يتبنى أن لكل نظرية مؤيدات ومعارضات، وأن كبار المتخصصين هم الذين يقومون بوزن حُجَّة هذه الأدلة وقبول أو رفض النظرية..، لذلك ما أن وجد المعارضون بعضَ المعارضات للنظرية، فرحوا بها واعتبروها دليلاً على كذب النظرية، بل لم يكلفوا خاطرهم بالنظر في تفنيد التطوريين لهذه المعارضات! والمثال المهم على ذلك هو الانفجار الكبيرى، الذى يُضعف من أدلة علوم الحفريات لكنه لا يَقْوُض النظرية في وجود أدلة أخرى حاسمة، خاصة وقد قدم التطوريون تفسيرات لحدوثه.

الخطأ المنهجى الثانى: هو تحكيم البعض للفهم التراثى لآيات خلق الإنسان فى القرآن الكريم على المفاهيم العلمية، وهذا خطأ فادح يخالف المنهج العلمى وأيضاً المنهج الدينى!

كذلك فإن هذه الآيات الكريمة من المتشابهات التى تحتتمل أكثر من تفسير كما هو واضح فى كتب التفسير التراثية، كما أن العلم فى قضايا الخلق يتغير ويتطور، أى أن كلاً من الطرح الدينى والطرح العلمى بخصوص خلق الإنسان غير جازمين، فكيف نضرب أحدهما بالآخر.

وليع الجميع أن الخاسر من مصادمة العلم بالقرآن هو الدين، وبالفعل خرج الكثيرون من شبابنا من الدين وتبنوا الإلحاد بسبب إصرار البعض على الاستهزاء بالعلم انطلاقاً من فهمهم الدينى.

(8) إذا افترضنا جدلاً أن العلم قد توصل إلى أدلة قوية تنفي حدوث التطور، فلا يعنى معنى ذلك الإقرار تلقائياً بمفهوم الخلق الخاص كما يعتقد الخلقويون، بل سيكون عليهم تقديم الأدلة العلمية المؤيدة لمفهومهم، وإذا حدث ذلك، ستكون كلمة العلم أننا لم نتوصل بعد لآلية تنوع الكائنات، وسيظل مفهوم الخلق الخاص مفهوماً دينياً نؤمن به تبعاً لفهمنا لآيات الخلق في نصوصنا المقدسة.

(9) إن قضية نشأة الإنسان قضية علمية بأمر القرآن الكريم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: 20]، أما كل ما يخص نبي الله «آدم» عَلَيْهِ السَّلَامُ فليس للعلم كلمة فيه، ومن ثم فهي قضية إيمانية نأخذها من القرآن الكريم كلٌّ منا حسب فهمه.

في ظل هذا المنهج، يستنكر البعض أن نحيا بقناعتين، إحداها علمية والأخرى دينية، لذلك نقلت المشكلة لأستاذنا في الطب النفسى د. أحمد عكاشة، فقال: إن النفس البشرية مُطالبة بقبول قدرٍ من عدم التجانس بين مفاهيمها وأيضاً قدر من عدم اليقين Tolerance of uncertainty، ويُعتبر هذا القبول من علامات الصحة النفسية، كما أن عدم القدرة على قبول ذلك دليلٌ على عدم الثبات النفسى. وأضاف د. عكاشة: ليس هناك يقين فى أى شىء فى حياتنا إلا فى الموت».

(2) رأى الأزهر الشريف وتقييم ردود الضلع: 2016/1/19

«رفاق رحلة عقل...»

كما توقع بعض رفاق رحلة عقل، أحدثت رسالة «التطور البيولوجى» زوبعة في محيط الخلقويين. وكما ظهر من مداخلاتهم فهم

للأسف لا يدركون أبعاد الاختلاف ولا يدركون خطورة منهجهم، كما أظهرت هذه المداخلات أن إمامهم بنظرية التطور وبالمنهج العلمي ضئيل للغاية!!

والمؤسف أن كل ما طرحوه من تساؤلات تمت الإجابة عنه في الرسالة التي يُعلّقون عليها!! وذلك يؤكد أمرًا أدركناه عنهم من قبل، وهو أنهم لا يقرأون ما يعارضونه، وإن قرأوا فهم لا يفهمونه جيدًا!! وتتركز أخطاءهم المنهجية؛ كما ظهر من مداخلاتهم، في ثلاث نقاط ناقشناها من قبل ولا بأس من أن نزيدها توضيحًا:

أولاً: لا يأخذون في الاعتبار الإجماع العلمي حول مفهوم التطور، بل ويُنبِّهون أنفسهم (على قلة بضاعتهم) حَكَمًا على الإجماع العلمي، ويقولون لا نجد دليلًا واحدًا على التطور!!، ويطالبوننا بعدم الأخذ بالإجماع العلمي وأن ندعهم يحكمون بأنفسهم على الأدلة. وهؤلاء يخلطون بين إجماع العوام في مجالات السياسة وكرة القدم وغيرهما، والذي يتأثر بالإعلام وبالعاطفة، والذي ينبغي عدم الانقياد له، وبين الإجماع العلمي الذي يقوم على دراسة مئات الآلاف من العلماء للأدلة دراسة علمية رصينة، ومن ثم يجب الامتنثال له.

والمخزى أن هؤلاء يصفون جميع علماء العالم بأنهم إما جهلة أو مخدوعون أو متآمرون!!!! ويندهشون بعد ذلك، لماذا يؤثر الكثيرون العلم ويفرون من دين الله أفواجًا، ويتبنون الإلحاد!!! لذلك، كان بديهيًّا ألا تدخل الصفحة في مناظرات مع من هذا نصيبه من العلم ومن المنهج العلمي، بل وأن نحو خرافاته من الصفحة.

ثانيًا: بعد أن أوصدنا الباب أمام محاولات الخلقين للانتقاص من

منزلة الإجماع العلمى، ترك هؤلاء مهاجمة النظرية ولجأوا إلى مهاجمة من يتبنى النظرية، وذلك من خلال ثلاثة مواقف:

(1) ما شاب موقف بعض الدراونة من تزييفات وأدلجة: لا شك أن نظرية التطور هى أكثر نظريات العلم الحديث تأثراً بالفكر المادى، لكن أن هذا لا يمنع أن أدلتها القوية وقد فرّصتها على الساحة العلمية حتى حازت الإجماع العلمى. بل إن التزوير الذى قام به علماء تطوريون (مثل حفريّة إنسان بلتداون) قد كشفه علماء تطوريون آخرون، مما يجعل هذا الموقف وساماً على صدر العلم وليس ضده.

وعلىنا أن نتعلم عند تقييم النظريات العلمية ألا نبادر إلى رفض الأدلة العلمية لمجرد أن الملاحظة يمكن أن يستفيدوا أيديولوجياً من النظرية، بل دور الحكماء منا أن يقبلوا الإجماع العلمى، وفي الوقت نفسه أن يثبتوا خطأ ما ذهب إليه الملاحظة، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال مفهوم التطور الموجه.

(2) تراجعى عن اعتبار التطور حقيقة علمية: إن اعتبار التطور بمثابة الحقيقة العلمية هو الرأى الأكثر قبولاً فى الساحة العلمية، لذلك تبنيت هذا المفهوم فى كتابي «كيف بدأ الخلق».

وبعد ما ازدّدت تعمقاً فى دراسة «فلسفة العلم»، وجدت أن اصطلاح «الحقيقة العلمية» لم يعد مُستخدماً فى عصرنا الحالى، بل أصبح فلاسفة العلم يُصنّفون النظريات تبعاً لقدرتها على تفسير ما يُعرض عليها من شواهد، وأطلقوا على ذلك اصطلاح «القدرة التفسيرية للنظرية». ومن ثم، فهناك النظرية ذات القدرة التفسيرية الكاملة، كنظرية الجاذبية، وهذه ما زال العلماء غير المتخصصين فى فلسفة العلم يعتبرونها «حقيقة

علمية»، وهناك نظريات ذات قدرة تفسيرية عالية، تفسر معظم الشواهد وتعجز عن تفسير البعض، كنظرية التطور، لذلك فإن القول بالتطور هو «أفضل التفسيرات لما جمعه العلم من شواهد حول تعدد الكائنات». ثم هناك النظريات ذات القدرة التفسيرية الضعيفة.

ومن ثم فإن تراجعى عن اعتبار التطور حقيقة علمية إنما هو استخدام للتعبير الأدق، فلا ينتقص من منزلة وحجية التطور.

(3) فيلم «المطرودون Expelled»: لقد أساء الخلقويون فهم هذا الفيلم الذى أعده وقدمه مجموعة من الخلقويين المسيحيين الراضين للتطور، والذى يدور حول مجموعة من أساتذة الجامعات فى الولايات المتحدة الذين نُقلوا من عملهم التدريس إلى مهام إدارية بسبب تبنيهم مفهوم الخلق الخاص.

حقيقة الأمر، أن الخلقويين خسروا عددًا من القضايا التى رفعوها فى محاكم عدد من الولايات الأمريكية، للسماح بتدريس الخلق المباشر فى المدارس والجامعات جنبًا إلى جنب مع نظرية التطور باعتباره طرحًا علميًا، وقد حَكَمَ القضاة بعد سؤاَلهم العلماء المتخصصين برفض هذا المفهوم.

وبالرغم من أنى فى كتابى خرافة الإلحاد قد بينت عَوَارِ الاستدلال العلمى على هذه الأحكام، فماذا ننتظر من إحدى الجامعات التى صمم بعضُ أساتذتها على تدريس مفهوم الخلق المباشر كمفهوم علمى بالرغم من رأى القضاة الذى انطلق من الآراء العلمية بخطأ ذلك؟ هل تركهم الجامعة يُدرِّسون لطلبتهم! مفهومًا مرفوضًا علميًا وقضائيًا؟!

لقد قامت الجامعة بنقل هؤلاء الأساتذة إلى وظائف إدارية. وحتى لو فرضنا أن سلوك هذه الجامعة اتبع أسلوب إرهاب الخلقويين، فهل سلوك جامعة واحدة كاف لتجاوز الإجماع العلمي العالمي، والاحتجاج به على خطأ النظرية!!!!

ثالثًا: يعتبر الخلقويون الأصوليون أن آيات الخلق في القرآن الكريم من الآيات المُحكِّمات وثابتة الدلالة على الخلق الخاص، وأن من خالف فهمهم لهذه الآيات قد خالف ثوابت العقيدة، بل ووصفه بعض الحمقى منهم بالكفر. ويتجاوز هؤلاء الأمر، ويضربون العلم بالدين، ويُصِّبُون من أفهامهم الدينية النسبية حُكَّامًا يقضون بخطاء الإجماع العلمي!!!!

وحتى لا ندخل في مهاترات حول قطعية دلالة آيات الخلق في القرآن الكريم، فلنتأمل موقف مؤسسة الأزهر الشريف، أعلى جهة علمية دينية في العالم الإسلامي، وسيكون ذلك من خلال أربعة مواقف مُشرِّفة لأزهرنا العريق:

1) في العام 1998، أصدر د. عبد الصبور شاهين، أستاذ ورئيس قسم علوم اللغة العربية بكلية دار العلوم، رحمه الله، كتابه: «أبي آدم، قصة الخليفة بين الأسطورة والحقيقة». وطرح فيه طرحًا جديدًا تمامًا عن خلق الإنسان، كما فهمه كمتخصص في اللغة العربية والدين من آيات الخلق في القرآن الكريم.

كانت رؤية د. عبد الصبور شاهين تحمل معاني التطور!؛ فخلقنا بدأ من طين ﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: 7]، ثم استخرج الله عَرَقَ جَلٍّ من هذا المخلوق نسلًا ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: 8].. وخلال أجيال عديدة من التناسل تمت تسويته، ثم نفخ

الله عَزَّوَجَلَّ في أحد أفراده الروح، فصار إنساناً ﴿تُسَوِّدُهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ...﴾ [السجدة: 9]. إنها رؤية تطورية استمدتها عِلْمٌ من أعلام الإسلام واللغة العربية من آيات القرآن الكريم، دون أن تكون له دراية بالتطور البيولوجي.

قامت الدنيا، ورفع الموتورون على د. عبد الصبور أربع قضايا تكفير!!! طلبت المحكمة رأى مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف، فجاء التقرير يحتوي على ما يلي: «قام المؤلفُ بجتهاد لفهم النصوص القرآنية، أصاب في بعضه وأخطأ في بعضه، ولا ترى اللجنة أن المؤلف قد تجاوز الحد في تأويلاته للنصوص القرآنية». وحث التقرير العلماء المسلمين على متابعة الاجتهاد لمواكبة التطورات العلمية الهائلة.... يا الله.

حصل د. عبد الصبور على البراءة في القضايا الأربع، وغرمت المحكمة من رَفَع القضايا الرسوم.

تعرفتُ على د. عبد الصبور، وقرأت عليه كتابي «أبي آدم من الطين إلى الإنسان» على مدى خمسة عشر لقاء، وكتب له المقدمة.

قصة لا ينبغي أن ندعها تُنسى في المستقبل، حافلة بالدروس والعبر: أعلى هيئة علمية في الأزهر، قبلت الاجتهاد وإن اختلفت مع بعض أجزاءه، وهو اجتهاد يطرح فكراً تطورياً في خلق الإنسان، فكراً مستمداً من علوم اللغة، مما يُجزم بأن آيات الخلق في القرآن الكريم من المتشابهات التي تحمل عدة تأويلات...

(2) في العام 1999، كتب د. حسن حامد عطية، أستاذ البيولوجيا

بجامعة القاهرة، رحمه الله، كتابه «قضية الخلق»، أيد فيه بشدة مفهوم التطور الموجه، واجتهد في تأويل آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم في ضوء مفهوم التطور، وقد كتب مقدمة الكتاب فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور عبد المعطى بيومى (رحمه الله)، عميد كلية أصول الدين الأسبق بجامعة الأزهر.

يا الله... كتابٌ كله اجتهادات في تفسير آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم في ضوء تطور الإنسان، يقدم له عميد كلية أصول الدين!! ويكتب قائلاً: «للمؤلف أجران فيما أصاب فيه من اجتهاد، وله أجر فيما أخطأ فيه»... يا الله..... لم يُكفر ولم يُخطئ عالمُ الدين الكبير المؤلف.

(3) منذ عامين، اتصل بي فضيلة الشيخ الدكتور محمد عمار، المفكر الإسلامى الكبير، ورئيس تحرير مجلة الأزهر وقتها، وطلب منى أن أكتب كتاباً لتفنيد الإلحاد، ليصدر كهدية مع أحد أعداد المجلة.

قلت لعالمنا الكبير: إنى أطرح مفهوم التطور الموجه كاحتمال علمى لنشأة الإنسان، فهل ستقبل مجلة الأزهر أن أشير إلى ذلك. أجابنى ببساطة شديدة: إذا كان هذا هو رأى العلم فالإسلام يحترم العلم...

كتبْتُ الكتاب، وقدم له د. عمار في خمس عشرة صفحة، وصدر الكتاب باسم «وهم الإلحاد» كهدية مع عدد المحرم عام 1436 هـ (2014م).

سبحان الله، كتاب يطرح خلق الإنسان بآلية التطور البيولوجى كاحتمال غالب، يرحب به الأزهر هذا الترحيب!!

(4) للإمام الأكبر د. أحمد الطيب شيخ الجامع الأزهر برنامج أسبوعي على القناة الأولى في التلفزيون المصري. ومنذ عام تقريباً عرض الإمام الأكبر في برنامجه كتابي «خرافة الإلحاد» وتحدث عنه وعن مؤلفه، باعتباره أفضل ما كُتب في تفنيد الإلحاد المعاصر.

هذا بالرغم من أن في الكتاب فصلين كاملين عن التطور!!

أسعدني كثيراً أن يكون بالأزهر هذه العقول المستنيرة: الإمام الأكبر، مجمع البحوث الإسلامية، عميد كلية أصول الدين، الأستاذ الكبير بكلية دار العلوم، المفكر الإسلامي الكبير ورئيس تحرير مجلة الأزهر... رجال قد لا يعرفون الكثير عن التطور البيولوجي، لكنهم لا شك يعرفون الكثير عن الإسلام وعن القرآن الكريم.

هذا هو الإسلام الذي نعرفه، والذي تربينا عليه، وليس إسلام من يجعلون من أنفسهم حُكَّاماً على الإجماع العلمي وعلى عقائد الآخرين وعلى أكبر مؤسسة إسلامية في العالم..

ثم قلت للنفس اللوامة: وقرب نهاية أيام معرض الكتاب الدولي بالقاهرة، أهداني د. هشام عزمي كتابه «التطور الموجه بين العلم والدين»، كما سألتني العديد من القراء عن رأيي في الكتاب، فوجدت لِرَإْمًا عَلَيَّ أن أقرأ الكتاب وأن أُعَلِّق عليه على صفحتنا في الفيسبوك، فكانت الرسالة التالية:

(3) تحليل كتاب د. هشام عزمي: 2016/2/12

«رفاق رحلة عقل...»

جمعة زهراء مباركة علينا وعلى المسلمين وعلى الإنسانية جمعاء...

سألني بعض الأصدقاء والقراء عن رأيي في كتاب «التطور الموجه بين العلم والدين» تأليف أخى الفاضل د. هشام عزمى...

لقد أسعدنى أن قام د. هشام بإهداء نسخة من الكتاب لى، وأسعدنى أن يفتح تمهيداً للكتاب بذكريات جميلة، أيام كنا نلتقى فى الصالون الثقافى فى بيتى مع ثلَّةٍ من شباب مصر المفكرين، كما أسعدنى أن ذكرنى بأيام الاختلاف المحترم بيننا حول التطور، هذا الاختلاف الذى لا يصدر إلا عن عقول لا تبغى إلا الحق.

قرأت الكتاب فى الأيام الماضية، ووجدت د. هشام يذكرنى ويشير إلى كتبى عشرات المرات، مما يبين - كما صرح - أن فكرى هو المقصود بهذا الكتاب. خرجتُ من الكتاب برأى لا يختلف عن ذلك الذى كونه عبر سنوات عن فكر المدرسة التى ينتمى إليها الدكتور هشام عزمى. لقد سقط الكتاب (الذى يقع فى 246 صفحة فى باين) فى عدة خطايا علمية وعقلية ومنهجية كبيرة، لا يتسع المجال لاستعراضها جميعاً، لذلك سنركز على أهمها :

أولاً: أبدأ تحليل ونقدى، بأن بنية الكتاب كافية لإسقاط حجتيه فى الموضوع الذى يتصدى له!! فعنوان الكتاب هو «التطور الموجه بين العلم والدين»، بينما جاء فى (ص 14) أن الكتاب يدور حول «النظرية الداروينية الحديثة، وعلاقتها بما ورد فى نصوص الوحي فى الكتاب والسنة»، إذاً فموضوع الكتاب يختلف تماماً عن عنوانه!! وبالفعل، وجَّه الكتابُ سهامه تجاه التطور الداروينى العشوائى، ولر يفرد للحديث عن التطور الموجه إلا صفحات قليلة!! وقد جاء معظم الباب الأول من الكتاب (80 صفحة) للحديث عن الفرق بين التطور الكبير والتطور

الدقيق، وهذه بديهية لا يختلف حولها التطوريون ولا الخلقويون، ومن ثم لا يحتاج لإنفاق ثلث الكتاب في إثباتها، وليس لها علاقة بعنوان الكتاب.

ثانيًا: يدور الباب الثاني من الكتاب (حوالي ثلثيه) حول الخطيئة العلمية والعقلية والدينية الكبيرة التي طالما حَذَرنا منها، وهي الانطلاق في الحكم على النظريات العلمية القابلة للتبدل والتطور من أفهام دينية تختلف من شخص لآخر، أى أن الطرفين ليس لدهما كلمة نهائية في الموضوع!! لا شك أن من حق أى مؤلف أن يتناول أى مفهوم علمي من وجهة نظر الدين، لكن لا ينبغي أن ينطلق من هذا التناول لرفض النظرية العلمية!!

ثالثًا: جاء في (ص 15)، إن الغرض من الكتاب هو إظهار تهافت النظرية في باب العلم الحديث!!! للأسف تُصر المدرسة التي ينتمى إليها د. هشام عزمى على أن العلم يرفض مفهوم التطور!!! بالرغم من الإجماع العلمى بنسبة تتجاوز 99% على صحته!! وللخروج من هذا المأذق يقع الكتاب في خطيئتين علميتين وعقليتين، إذ:

(1) يُسَوِّق الكتابُ نصوصاً رافضة للتطور من عدة كتب، كلها ينتمى للواحد في المائة الرافض للتطور، ويعتبر ما يطرحه في هذا الانتقاء حجة ضد النظرية!!

(2) يتبنى الكتابُ مقولةً باطلة يُراد بها باطل!! فيتبنى أنه «لا ينبغي أن نتخذ من الإجماع العلمى حُجة على صحة النظرية!! وأن صحة النظريات العلمية ينبغي أن تنطلق من الأدلة العلمية!!!». ولقد خلط هؤلاء بين الإجماع العلمى الذى ينبغي احترامه، وبين إجماع العوام في

مجالات السياسة وكرة القدم وغيرهما، والذي يتأثر بالإعلام وبالأهواء، ومن ثم ينبغي عدم الاكتراث به.

ونحن نتساءل، من أين جاء الإجماع العلمى لأكبر علماء العالم؟ ألم يأتٍ منطقاً من الأدلة العلمية التى يُدرك هؤلاء الكبار المتخصصين كيف يُقيّمونها، حتى فى وجود بعض المعارضات العلمية للنظرية والتى يستند إليها بعض غير المتخصصين لرفض النظرية !!! ينبغي أن يعرف من لا يعرفون، أن الإجماع العلمى (الذى يرفضونه) من أهم شروط المنهج العلمى للاعتراف بصحة النظريات العلمية.

وعندما يتصدى الخلقويون الهواة للأدلة العلمية على التطور ويتوصلون إلى خطئها!!! فمن نصدق؟ أنصدقهم أم نصدق إجماع كبار علماء العالم المتخصصين؟!

رابعاً: من سقطات الكتاب الكبيرة، أنه تبنى وجهة نظر الملاحظة فى النظر إلى مفهوم التطور الموجه!!!

فالكتاب يعتبر أن التطور الموجه هو إمساك بالعصا من المنتصف فى محاولة للربط بين العلم والدين، وهذا ما يتبناه الملاحظة لإسقاط حُجّة التطور الموجه كمفهوم يعجزون عن تفنيده. وفى الحقيقة، إن القول بالتطور الموجه هو قولٌ علمى تماماً، يقوم على أدلة إيجابية، وليس إمساكاً بالعصا من المنتصف كما يتبنى الملاحظة وكما تبنى كتاب د. هشام عزمى⁽¹⁾.

(1) ذكرنا الأدلة العلمية على ذلك فى الرسالة بعنوان: «التطور البيولوجى»، ولا نرى داعياً لتكرارها هنا.

هذه وقفات منهجية محورية حول كتاب «التطور الموجه بين العلم والدين»، والذي اختلف معه منهجاً ومحتوى، مع احترامى الكامل للجهد الكبير الذى بذله د. هشام عزمى فى تأليف الكتاب».

ثم أضفت قائلاً لنفسى اللوامة:

جاءنى العديد من التعليقات على رسالتى التى حَلَلْتُ فيها الكتاب، من بينها تعليق أرسله د. هشام عزمى مؤلف الكتاب، فقمتم بالرد عليه بهذه الرسالة⁽¹⁾:

(4) الرد على رسالتى د. هشام عزمى: 2016/2/14

«رفاق رحلة عقل...»

أرسل لى د. هشام عزمى رسالة يعلق فيها على تحليلى لكتابه «التطور الموجه بين العلم والدين»، والذي يتناول فيه رأى حول نظرية التطور، وهذا هو ردى على رسالة د. هشام:

أخى الفاضل د. هشام:

راجعت رسالتك والرباط المُلحق بها، وتأكد لى عدم فهمك لمنهجى الفكرى وآرائى بشأن نظرية التطور، لذلك أحب أن أبينهما لك كما أطرّحهما منذ أعوام:

أولاً: ذكرت فى كتابك وفى ردك على رسالتى أننى احتج بالإجماع العلمى على صحة نظرية التطور، دون طرح الأدلة العلمية على حدوث التطور على قرائى.

(1) قمت فى ثنائى رسالتى بطرح النقاط التى عرضها د. هشام عزمى فى تعليقه، مما أغنى عن الاحتياج لطرح تعليقه كاملاً.

وهذا الرأى منافع للحقيقة، ودليل على ذلك الفصول العديدة التى
شرحت فيها لقرائ أدلة التطور فى جميع كتبى، خاصة كتاب « كيف بدأ
الخلق»، والذى اطلعت أنت عليه بالفعل!!

ثانيًا: اختلف معك ومع الشيخ حسين الجسر (الذى استشهدت برأيه)
فى اعتبار أن الإجماع العلمى حُجة ضعيفة نظرًا لطبيعة العلم المتغيرة،
وإذا كان للشيخ الجسر عذره فى ذلك لأنه ليس عالمًا طبيعيًا، فلا أرى لك
عذرًا باعتبارك رجل علم.

إن الإجماع العلمى شرطٌ أساسى فى المنهج العلمى لقبول صحة أى
نظرية، وهو يندرج تحت ما يسمونه «تحكيم الأقران والنظر». وفى
نفس الوقت فإن قابلية العلم للتطور لا تلغى أهمية الإجماع العلمى، إذ
سيكون دليلنا على المفهوم الجديد هو الإجماع العلمى أيضًا، هكذا يقوم
العلم ويتقدم. لذلك علينا أن نتبنى «علميًا» رؤية الإجماع العلمى حتى
يتم تغييرها. لذلك يدهشنى أن تُطالب بالبراهين على النظرية وتتكر
للإجماع العلمى!!! وهل أقام كبار علماء العالم إجماعهم إلا على البراهين
العلمية⁽¹⁾؟؟؟!!!

والمدهش إنك تنتمى إلى مدرسة تقدر الإجماع الدينى، بل ترفض أن
يناقش سوى علماء الدين البراهين والأدلة على الحكم الدينى، بدعوى
أن الدين علم متخصص، ومن ثم لا يجوز لغير أهل التخصص مناقشة
أدلتهم!!! سبحان ربى، تُقدِّسون الإجماع الدينى (الذى لا وجود له)
وتستخفون بالإجماع العلمى الحقيقى!!!!

(1) ذكرت بالتفصيل أسباب ضرورة الالتزام بالإجماع العلمى فى الرسالة الثالثة التى حلت
فيها كتاب د. هشام عزمى، البند ثالثًا.

إن هذه إحدى العلل العظيمة وراء تدهور مجتمعاتنا، أن صار غير المتخصصين أو أنصافهم أو أعشارهم يُفتون في أخطر وأدق القضايا العلمية. لذلك، فأنا لا أدخل في صفحتي في حوار مع كل من يُشكك من منطلق أيديولوجي في هذه الأدلة.

ثالثاً: ترى في مداخلتك أني أقع في تناقض معرفي! إذ أقبل التطور وأرفض العشوائية، ذلك بالرغم من إثباتي في رسالتي السابقة وفي جميع كتبي التي قرأتها أنت أن اعتراضى على عشوائية الطفرات لا يخالف الإجماع العلمى، ومن ثم لا يضغنى ذلك فى موقف متناقض!! بل يؤكد ما أقوله من أن مدرستكم تعترض دون أن تستوعب ما تعترض عليه!!

إن الإجماع العلمى يَنْصَبُّ على حدوث التطور بألية الانتخاب الطبيعى، أما الطفرات فلا يستطيع أحد أن يقدم دليلاً واحداً على عشوائيتها. ومن ثم فإن مخالفتها هو فهم فلسفى وليس خروجاً على الإجماع العلمى.

رابعاً: لا شك أن ليس لدينا دافع نفسى أو أيديولوجى للقول بالتطور الموجه، إذ إن الله عَزَّجَلَّ هو الخالق، تماماً مثلما تطرحون فى مفهوم الخلق الخاص. ومن ثم فإن قبولنا لمفهوم التطور لا يقف وراءه إلا القناعة العلمية.

خامساً: ألفت نظرك إلى أنك شخصياً، فى تعليمك الطبى وما بعده، وأيضاً فى معالجة مرضاك، لا تتبع «البرهان العلمى»، ولا تقوم بتمحيص الأدلة على كل مفهوم تتعلمه وتستخدمه، بل كنت تتبع «الإجماع العلمى»، إذ كنت تنقل بثقة عن العلماء علمهم، فلم تضرب فى منهجية أنت مُتبعها أصلاً!!!

أخي الفاضل: أتمنى أن يكون منهجى قد اتضح لك الآن، بالرغم من وضوحه في كتاباتى التى رجعت إليها فى كتابك، وبالرغم من وضوحه فى رسالتى التى نتناقش حولها.

تحياتى ودعواتى... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

قالت النفس اللوامة:

بصراحة عدّاك العيب، أوجزت فأنجزت، لقد أوفيت الموضوع حقه، وأحسب أن د. هشام وتلاميذه من الخلقويين قد تواصلوا معك ليخبروك باقتناعهم بما طرحت من أدلة حول حجية الإجماع العلمى على صحة نظرية التطور، فهذا بلا شك ما ينبغى أن يكون عليه موقف كل منصف باحث عن الحقيقة.

أثار تعليق نفسى اللوامة فى أعماقى الأسى، وقلت لها: ليس الأمر كما تتصورين، ولو كان الأمر كذلك لما وصفت هؤلاء بالأصوليين، ولما كان لحوارنا الآن لزوم، بل العكس هو الذى حدث!!

فما أن أغلقت أبواب العلم والمنطق فى وجه د. هشام، حتى سقط عنه قناع الحوار العلمى والمنطقى، وظهر لنا بوجهه الأصولى الجامد المرفوض. لقد أرسل لى د. هشام «رسالة كارثة»، جعلتني (حقيقة) أضرب كفًا بكف، وأقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

اندَهَشَت اللوامة وقالت: ولِمَ كل هذا الضيق؟ ماذا كان فحوى الرسالة؟

قلت للوامة: سأقرأ عليك رسالة د. هشام وردى عليها:

«رفاق رحلة عقل...»

جاءت للصفحة هذه الرسالة من د. هشام عزمى، والرسالة شديدة الخطورة، لذلك رأيت أهمية أن أرفعها إلى صدر الصفحة مع تعليقي عليها...

دكتور عمرو شريف أستاذى المحترم:

بالعكس، أنا لا أنفى حُجية الإجماع العلمى، إن صح في حالة الداروينية أصلاً، بل أزيدك يا دكتور عمرو أنى قد أخذ بما هو أقل من الإجماع العلمى كقول أغلب العلماء أو جمهورهم، بل ربما أخذ بقول مدرسة معينة داخل التخصص العلمى دون غيرها من المدارس، فالحجة العلمية في نفسها مقبولة بلا شك، وكذلك الإجماع العلمى.

لكن الإجماع العلمى مهما بلغت قُوته ومصدقيته يظل أمراً متغيراً غير ثابت ولا يبلغ اليقين ولا القطعية والإحكام، فلا يجوز أن نرفعه فوق قدره ولا نعطيه أكبر من حجمه، فلا يصح أن نجعل الإجماع العلمى المتغير غير الثابت البعيد عن اليقين حاكماً على النصوص المُحكّمة في القرآن والسنة بما يُلجئنا لتأويلها تحاشياً لمعارضة الإجماع العلمى، مع أن الإجماع العلمى قابل للتخطئة بينما نصوص الكتاب والسنة لا يمكن تخطئها، فلا يصح في هذا المقام أن يكون الإجماع العلمى هو المُحكّم بينما نصوص الوحي هى الشبهة التى تتطلب أن نتأول لها ونتكلف، فهذا لا يجوز عقلاً فضلاً عن بطلانه شرعاً.

أضف إلى هذا وجود الإجماع الشرعى المطلق على خلق آدم بدون أب

وأم على مدار عصور الإسلام قبل داروين، وهذا الإجماع الشرعى أقوى
بمراحل من الإجماع العلمى نظرًا لأنه يستند إلى أدلة ثابتة غير متغيرة،
كما أنه معصوم بنص الحديث الشريف «لا تجتمع أمتى على ضلالة»،
بينما فى المقابل فإن الإجماع العلمى متغير بتغير المعطيات العلمى وتغير
الفلسفة العلمى بل وتغير الحكومات نفسها.

ومن الملاحظات الجميلة بخصوص الإجماع الشرعى ما ذكر الغزالى
فى المستصفى عند بحثه فيما يسميه الأصوليون الإجماع السكوتى،
فقال: «إن الحاكم إذا كان هو القائل بالقول الذى سكتَ عليه لم
يُعتبر ذلك الإجماع، لوجود تأثير خارجى»، وهذه اللفتة البارعة يمكن
أن تُستخدم هنا مع المقصلة الداروينية المعروفة التى يتجاهلها بعض
الناس.

فالحقيقة أن مشكلتنا ليست مع وجود نظرية ذات أدلة قوية أو
ضعيفة فقط، بل مشكلتنا الأكبر أننا نتعامل مع الغرب كما ينبغى أن
نتعامل مع الأنبياء أو الصحابة، فما دام الرجل الأبيض قد قال كلمته،
وقرر أن هذه المسألة حقٌّ مقطوعٌ محسومٌ، وأن «التطور» (هكذا)
حقيقة مثلها أن المجاذبية حقيقة، لم يعد لأحد من البشر أن يعترض أصلاً،
وإلا اتَّهمنا الرجلُ الأبيض بالتخلف والانحطاط، وإذن لفسد علينا ديننا
ودنيانا، وصرنا نحن والقردة والخنازير سواء!!

وهذا ردى على رسالة د. هشام عزمى...

أخى الفاضل د. هشام عزمى:

أدهشتنى رسالتك الأخيرة كثيراً، كثيراً، كثيراً!!!

ولا شك أنك ستدرك سبب الدهشة بعد أن تقرأ ردى على رسالتك، والذي سيكون موجزاً في نقاط هذه المرة، ذلك أن كل ما سأقوله هنا سبق أن قلته في رسائل الأخيرة حول التطور في الصفحة، والتي لا أتصور أنك لم تقرأها قبل أن تدخل معى في حوار. وكل ما سأذكر نقاطاً منهجية أعتبرها شديدة الخطأ والخطورة في رسالتك هذه...

أولاً: أنا لم أجعل من الإجماع العلمى حكماً على النصوص الدينية، بل ذكرتُ في كتبي ورسائل بوضوح عدة مرات أنه ينبغى أن يكون لفهمنا الدينى موضعه، وفهمنا العلمى موضعه، دون أن نضرب أحدهما بالآخر أو أن نؤول أحدهما لصالح الآخر... ولكنك في رسالتك تجاهلت هذا الطرح الذى تعرفه عنى!!

ثانياً: لا شك أن نصوص الكتاب والأحاديث الصحيحة لا يجوز تخطئتها، بل إن من يقول بذلك فقد كفر (والله أعلم). لكن ما يمكن أن يُخطأ هو أفهام البشر المتباينة لهذه النصوص، ومن ثم فهى نصوص قطعية الثبوت ظنية الدلالة كما بينت لنا فتوى مجمع البحوث الإسلامية التى نقلتها فى الرسالة التى نتحاور حولها، لكنك تجاهلت هذه الفتوى التى ذكرتها فى ردى عليك!!

ثالثاً: استشهادك بالحديث النبوى «لا تجتمع أمتى على ضلالة» هو استشهاد فى غير موضعه! فالحديث يتناول المفاهيم الدينية لا المفاهيم العلمية! فكم اجتمعت الأمة على مفاهيم علمية (مثل مركزية الأرض)، ثم أثبت العلم خطأ هذه المفاهيم.

رابعاً: ذكرتُ مراراً أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء شخصيات دينية، ليس للعلم أن يقول فيهما كلمة، وعلى كل مسلم أن يؤمن فى حقهما بقدر سعة

فهمه، وليس للعلم أن يعترض على ذلك بكلمة واحدة... لكنك تجاهلت ذلك أيضًا!!

خامسًا: ذكرت أن الإجماع الشرعى فى هذه القضية أقوى بمراحل من الإجماع العلمى، وأنت بذلك تخالف أمرًا بديهيًا!! وهو أن الإجماع الشرعى أقوى فى المفاهيم الدينية، وأن الإجماع العلمى أقوى فى المفاهيم العلمية.

سادسًا: وهو بلا شك أخطر ما جاء فى رسالتك:

حديثك عن الرجل الأبيض والغرب؛ وأن من يقتنع بالتطور يُنزلها منزلة الأنبياء والصحابة!! وأن الموافقين على التطور لا يبالون بخسارة الدين والدنيا، ولا يبالون بأن يصيروا قردة أو خنازير، ذلك كله خشية أن يصفهم الرجل الأبيض بالتخلف والانحطاط!! أدهشنى قولك إلى أقصى حد!!! ولو جاء هذا القول من غيرك لمحت المداخلة وما أوليتها اعتبارًا.

لقد وصمت نفسك يا هشام تمامًا وإلى غير رجعة بعدم الموضوعية!!!

إنك بذلك تكشف لنا بشكل سافر عن بُعد أيديولوجى خطير، وهو تأثير موقفك الرافض الكاره للحضارة الغربية على حيادك العلمى وعلى قبولك لنظرية علمية تحظى بالإجماع العلمى!!

لا شك أننى أشاركك الرأى العاتب على هذه الحضارة وأصحابها، وربما إلى مدى أبعد كثيرًا منك، لكنى لم أكن لأسمح أن يؤثر موقفى هذا فى آرائى العلمية ولا الدينية...

المفروض أن تكون كتاباتك، سواء في الكتب أو الرسائل، وحواراتك مع مريدك وتلاميذك، حوارات موضوعية تطرح دينًا وعلمًا...
أصدقك القول، ما أشد حزني الآن بعد أن كشفت لنا عن افتقارك لأبسط درجات الموضوعية !!!

وإذا كنتُ في كتابي الأخير «الإلحاد مشكلة نفسية» قد فضحت فرويد لأنه اعتبر أن «الإيمان مشكلة نفسية»، فيبدو أنني كنت مخطئًا وأن فرويد كان على صواب، على الأقل في بعض الحالات...
لذلك أرجو أن تراجع نفسك في أساسيات منهجك، وأن تصحح الكثير منها، قبل أن تفقد تلاميذك وقبل أن تفقد المختلفين معك....
أخى الفاضل...

أتمنى أن تكون رسائلك القادمة لي أكثر موضوعية..
ولك مني كل تحية».

قالت نفسى اللوامة: يا الله... إنها فعلاً رسالة كارثة، فما كنت أظن أن الأصوليين الدينيين يمكن أن يسقطوا في التعصب ضد العلم إلى هذا الحد. وماذا كان رد د. هشام عزمى على تفنيديك لرسالته؟
أجبت اللوامة: لم أتلق من د. هشام أى رد، ومن يومها لم أتلق منه أية رسالة، ولا أظن أن لديه ما يقوله بعد هذه الكارثة.
وأضفت: لكنى تلقيت عددًا من الرسائل العاتبة من تلاميذ د. هشام فقمتم بالرد عليها بهذه الرسالة:

«رفاق رحلة عقل...»

تواصل معى خلال الأيام الثلاثة الماضية عددً من تلاميذ أخى الفاضل د. هشام عزمى... وعَبَّرُوا لى عن استيائهم؛ لأننى عتبت على د. هشام تخليه عند إبداء الرأى فى النظريات العلمية عن أهم شرط فى الممارسة العلمية، وهو «الموضوعية»... لذلك أكتب رسالتى هذه لهؤلاء الشباب، بعد أن تيقنتُ بالخطر الجسيم الذى يهددهم، إذ اختلطت فى عقولهم الأوراق، فتبنوا منهجاً شديداً الخطورة على مستقبلهم العلمى وقناعاتهم الدينية على السواء، بل وعلى إيمان الآخرين:

الإخوة والأبناء الأفاضل...

لقد احتوت رسالة د. هشام على قدرٍ كبير من الإساءة الشخصية، عندما وصف من يتبنون التطور (وأنا منهم) بأنهم لا يتبعون فى موقفهم قوة الأدلة، لكنهم:

(1) يتعاملون مع رجال الغرب باعتبارهم كالأنبياء والصحابة !!

(2) ينساقون وراء الرجل الأبيض طالما قال كلمته !!

(3) الخوف من وصفنا بالتخلف والانحطاط !!

(4) عدم المبالاة بإفساد ديننا ودياننا، أو أن نكون كالقردة والخنازير !!

بالرغم من هذه الإساءات، فلم أُلح إلى هذا القذف الشخصى فى رسالتى السابقة، بل تجاوزت وعفوت كأستاذٍ يُدرك مسؤولياته تجاه الآخرين. وانتقلتُ مباشرة للحديث مع د. هشام عن خطورة موقفه.

إن موقف مدرستكم خطيرٌ للغاية على العلم والدين، فهو يخالف تمامًا العقل والمنهج العلمي، مما ترتب عليه فرار عشرات الآلاف من ديننا إلى الإلحاد، وليتكم تزورون مواقعهم لتدركوا إلى أى مدى كان موقفكم وراء إلحادهم.

وتتلخص خطورة موقفكم في ثلاث نقاط تتصاعد في الخطورة:

(1) الإصرار على تحكيم أفهام دينية - تختلف من مفسر لآخر - في مفاهيم علمية قابلة للتطور والتغير، أى أننا نربط بين مفهومين قابلين للتغير!!! وقد نبهنا مرارًا إلى أن أية مصادمة بين العلم والدين يكون الدين هو الخاسر دائماً، كما نخبرنا التاريخ.

ترى مدرستكم أن آيات الخلق في القرآن الكريم من المُحَكَّمات، وإن قبلنا حريتكُم في تبني هذا الرأي الذى نختلف معه ويختلف معه الأزهر الشريف، عندها يُصبح الأمر قضية خلافية، لا يجوز لطرف أن ينهى فيها الطرف الآخر - كما تعلمون - بل هناك إباحة في تبني أى الرايين.

(2) عدم المبالاة بالإجماع العلمى، واعتبار أن كبار علماء العالم إما جهلة أو حاقدين أو متأمرين على الدين!! وأهمية هذا الإجماع ليست خلافية في الأوساط العلمية، ولم ينتج عن الانتقاص من قيمته إلا المزيد من إلحاد شبابنا.

(3) كنت أظن أن النقطتين السابقتين هما محور الخلاف مع مدرستكم، حتى أرسل د. هشام رسالته الأخيرة، التى أخبرنا فيها بأن السبب الرئيس (كما ذكر د. هشام) وراء رفضه لمفهوم التطور هو سبب مُغرِق في التعصب والتطرف وعدم الموضوعية، وهو الحرص على عدم الاتصاف

بالسوءات الأربع التي ذكرتها في أول الرسالة!!! والتي نسبها د. هشام إلى من يقبل بمفهوم التطور.

أُصدقكم القول، لقد وَصَمَت رسالة د. هشام مدرستكم بوصمة مُخجلة ستلازمها دوماً، وهي أنكم تتحدثون باسم العلم وتُصدِّرون الكتب العلمية، بينما أفكاركم تعصف بها الذاتية والتعصب وعدم المنهجية. يا شباب..

عندما يذهب بعضُكم إلى المراكز البحثية العالمية (إن شاء الله)، سيقوم بإجراء أبحاثه ونشر نتائجها (عن مرض الإيدز مثلاً) بنفس منهج وأسلوب زميله الهندوسي أو الملحد، دون أن ينتقص ذلك من دينه وإيمانه، وسيدرك كم كان مخجلاً أن يقع فريسة للأوهام الثلاثة السابقة، ولكن ليس كلُّ منكم ستتاح له فرصة تصحيح المسار.

وأصدقكم القول أني أعرف بعض الملاحدة الذين كانوا ينتمون إلى الفكر السلفي، وقد تبنوا الإلحاد بعد أن اطلعوا على مواقع الملاحدة وهم بين ظهرانينا، إذ عجز فكركم عن الإجابة على ما طالعوه من شبهات، فانهارت ثقتهم في الدين كله، ولا شك أنكم تعرفون من هؤلاء عدداً أكبر مني بكثير.

لا شك عندي، أن د. هشام إذا وقف مع نفسه وفكَّر «بموضوعية» فيما كتبت، فإنه سيعود إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلم القدوة الذي نحتاج إليه في عصرنا هذا. وأتمنى أيضاً أن تنتبهوا إلى خطورة ما تُروِّجون من مفاهيم على شباب تبني الإلحاد بسبب هذه الأفكار...

اللهم ها قد بلغت، اللهم فاشهد...

مدرسة الأصوليين الخلقويين

قالت النفس اللوامة: لقد فهمت من رسالتيك الأخيرتين للدكتور هشام عزمي وتلاميذه أن منهج الأصوليين الخلقويين شديد الخطورة. وقبل أن أستوضح هذه النقطة، أسالك: أعلم أنك تحترم المدارس السلفية، فلماذا اعتبرت مدرسة السلفيين الخلقويين مدرسة أصولية؟

أجبت النفس اللوامة: ذكرت لك أن الفكر الأصولي يتسم بسمات ثلاث، ولا شك أنها جميعاً متوافرة في فكر هذه المدرسة. فإذا جئنا إلى السمة الأولى وهي «إطلاق النسبى»، وجدنا أنهم يرفضون أى فهم لآيات الخلق في نصوصنا المقدسة يخالف فهمهم، حتى ما قبله مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف! ولم يكتفوا بذلك بل امتد رفضهم ليشمل أية نظريات علمية تخالف أفهامهم الدينية!!

وبالنسبة للسمة الثانية، وهي «إرادة الهيمنة»، نجدهم يبذلون الجهد الكبير في نشر الفكر المعادى للعلم. ويظهر ذلك في عشرات الكتب الفاخرة التي يصدرونها والتي تغمر الأسواق العربية. وقد امتد رفضهم إلى المنهج العلمى ذاته!! فنجدهم يطبقون منهج تعاملهم مع العلوم النقليية الدينية - وهو المنهج الاستنباطى - على العلوم الطبيعية والتطبيقية!! والمدهش أن الأصوليين الخلقويين لا يفرضون أفهامهم على النظريات العلمية والمنهج العلمى وحسب، بل ويفرضون أفهامهم على سائر المدارس الدينية وأيضاً السلفية!!

والسمة الثالثة، وهي أن «الغاية تبرر الوسيلة»، فتظهر في قيامهم بترويج الأكاذيب في العالم الإسلامى عن أن العلم قد صار يرفض

نظرية التطور!!!. وبلغت الوقاحة ببعضهم إلى تزوير الفتاوى الدينية التى يُكفِّرون بها من يقفون فى جانب العلم!!

وبالإضافة إلى هذه السمات الثلاث للفكر الأصولى، تظهر سمة رابعة فى هؤلاء، فهم «يُصمُّون آذانهم» تجاه ما يُطرح عليهم من حُجج، فهم لا يقرأون فكر المعارضين ولا يقرأون إجاباتهم عن تساؤلاتهم، وإذا قرأوا فهم يُحرِّفون ما يكتبه الآخر من أجل أن يُدينوه بما يكتب! وهم لا يكتفون بذلك، بل تجدينهم يُصدرون الكتب ويرفعون المنشورات فى منتدياتهم مرددين نفس التساؤلات التى ردنا عليها فى كتبنا وعلى صفحاتنا!! ويدَّعون كذباً أننا لا نستطيع أن نجيب عليهم!!.. وهم بلا شك يفعلون ذلك لعدم قدرتهم على تفنيد منهجنا وأدلتنا، وحتى يخدعون تلاميذهم وأتباعهم بأن حججهم لا تُدحض وأن الآخرين على خطأ. ولا شك أن هذا الأسلوب من وسائل سِمَتِهِم «الغاية تبرر الوسيلة».

مصائب الأصوليين الخلقويين

قالت النفس اللوامة: ذكرت أن منهج الأصوليين الخلقويين شديدُ الخطورة، فما مصدر خطورته؟

أجبت اللوامة قائلاً: لا شك أن الأصوليين الخلقويين هم أخطر المدارس الدينية الأصولية وأشدّها ضرراً.

اندهشت اللوامة وقالت: كيف؟

قلت: إن مدارس الأصولية الدينية التى ترفض تفسيرات وفتاوى المدارس الدينية الأخرى يقف ضررها عند المستوى الدينى، فموقفها

لا يعدو إلا أن يكون خلافاً دينياً لا يخرج عن دائرة علماء الدين المتخصصين. كذلك فإن مدارس الأصولية الدينية التى تهتم بقضيتى خلق الكون وعلم الأجنة (مثل مدرسة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم) كانت محظوظة!! إذ وافق فهمها الدينى فى كثير من الأحيان كلمة العلم، فلم يظهر صدام.

من هنا جاءت خطورة الأصوليين الخلقويين؛ فلا هم حصروا خلافهم مع الآخرين داخل إطار المؤسسة الدينية، ولا هم يتوافقون بشكل عام مع كلمة العلم كمدرسة الإعجاز العلمى، بل تبغى هؤلاء صداماً مباشراً مع الإجماع العلمى والمنهج العلمى، فصاروا مثاراً للسخرية فى المجتمعات العلمية.

ولعل أوضح مثال فى العالم الإسلامى لهذا التوجه هو مدرسة «هارون يحيى» التى تنفق عشرات الملايين من الدولارات للترويج لفكر الخلقويين، وقد ثبت تزوير هارون يحيى لصور الحفريات ولحقائق العلم من أجل أن يضعها داخل منظومة الفهم الدينى التراثى، وقد صار هارون يحيى بالفعل مثلاً يُتَنَدَّر به فى الأوساط العلمية، ويُستشهد به على تحايل المسلمين وتخلفهم.

علقت نفسى اللوامة قائلة: حسناً، عرفتُ الآن «سبب» اعتبارك أن مدرسة الأصوليين الخلقويين هم الأشدُّ خطورة بين الأصوليين الدينيين، لكن ما «مصدر» هذه الخطورة؟

أجبتها: مصدر الخطورة الأول، هو الصدام مع العلم. فالأصوليون الخلقويون يعادون العلم تماماً مثلما عادته الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى، وكما تشابهت المقدمات فقد تشابهت النتائج، فقد

ظهر في بلادنا في السنوات الأخيرة مدًا إلحاديًا بين شبابنا. فهاذا تنتظر من شباب يسمع أصوات الأصوليين الخلقويين المرتفعة تُصرّح بأن الدين يرفض الإجماع العلمي ويرفض المنهج العلمي!! وبأن كل علماء العالم إما جهلاء أو مزورون أو مخادعون!! ماذا تنتظر من هؤلاء الشباب إلا الإلحاد، الذى لا ينجو منه إلا من عصم ربي.

وأضفت قائلاً للوامة: أما الأخطر من ذلك، فهو الهيئة التى يُقدّم بها هذا التيار الإسلام للعالم. إنهم يقدمون دينًا لا يحترم العلم ولا الإجماع العلمى ولا المنهج العلمى. وكم نبهنا هؤلاء إلى أن بابا الفاتيكان قد أصدر فى تسعينيات القرن العشرين بيانًا يؤكد فيه إيمان الكنيسة بالتطوير البيولوجى، ونبهناهم كذلك إلى أن شُراح «سفر التكوين» من اليهود قد أصبحوا يشرحون هذا السفر فى ضوء التطور الموجه، إن هؤلاء وهؤلاء يفعلون ذلك لاقتناعهم بكلمة العلم أولاً، وحتى لا يُعرّضوا شبابهم لفتنة الصراع بين العلم والدين. وأنتِ تعلمين أن مفسرنا التراثين لآيات خلق الإنسان قد استمدوا شروحهم لآيات الخلق من سفر التكوين، أى أن الأصوليين الخلقويين المعاصرين قد أصبحوا ملكيين أكثر من الملك؛ يتمسكون بالشروح القديمة لهذا السفر فى الوقت الذى هجرها فيه أصحابها من اليهود والنصارى!!

وكلما خاطبنا الأصوليين الخلقويين بذلك، أجابونا: «لا يعنينا» أن تنفض جميع الديانات عن مفهوم الخلق الخاص، طالما نحن على الحق!! أى حقّ هذا؟! لمر يقل بذلك العلم ولا العقل ولا المدارس الدينية الأخرى.

وكيف لا يعينكم؟! أأستم مكلّفين بالدعوة للإسلام فى العالم أجمع؟ لقد جعلتم من الدين الذى أنزله الله عزّ وجلّ رحمة للعالمين وصالح لكل زمان

ومكان، جعلتموه لا يصلح إلا لأهل بادية العرب منذ أربعة عشر قرناً. وبدلاً من أن يرتقى الدين بالبشرية إلى المستوى الأخلاقي والحضارى اللائق بالقرن الحادى والعشرين، رَوَّجتم أن سعادة البشرية تكمن فى العيش فى ذلك المكان والزمان البعيدين، وسعيتم حثيثاً إلى جَرِّ البشرية إلى هناك.

أما الأثر الأشد خطورة لهذه المدرسة فهو تأثيرها على تقدم مجتمعاتنا الإسلامية وموقعها فى الركب الحضارى.

لا تحسبى أن خطورة الفكر الأصولى الدينى هى وليدة العصر الحديث، بل إنها ترجع إلى أكثر من ألف عام عندما اصطدم هذا الاتجاه بالتيار العقلانى فى الفكر الإسلامى، وكان الصراع بينهما جولات، يوم لهذا ويوم لهذا، وانتهت الحرب بانتصار التيار الأصولى وما أعقبه من إغلاق باب الاجتهاد فى القضايا الدينية والحياتية، وما صاحبه من فتور ثم توقُّف البحث العلمى.

وكم كان شيخنا الإمام محمد الغزالى مُدهشاً حين وصف ما أصابنا من تدهور جرَّاء انهزام التيار العقلانى فى مواجهة التيار الأصولى، حين قال: «إن أمة ألغت العقل لأكثر من ألف عام، كان حَرِيّاً بها الآن أن تمشى على أربع، لولا لطف الله عزَّ وجلَّ».

وبعد أن بدأت قبضة هذا الفكر تخف عن عنق الأمة فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وبدأت الأمة فى التقاط أنفاسها ومحاولة اللحاق بركب الحضارة، إذا بتلك القبضة تحاول أن تتدارك سطوتها وسيطرتها مرة أخرى.

اللهم سَلِّمْ... سَلِّمْ.

الأصولية الدينية وعلم النفس

قالت نفسى اللوامة: ما كنت أدرك أن الأمر بهذه الخطورة؛ ولكن قل لى: لقد تعرضت بشكل عابر فى رسائلك عن الأصولى «ص» وعن الأصوليين الخلقويين لأسباب تبنى الأصوليين الدينيين لهذا التوجه. فهلا بَلَّوْرَتْ لى هذه الأسباب.

أجبت النفس اللوامة: أكرر ما ذكرته أكثر من مرة، أن ليس كل فكر سلفى هو فكر أصولى، فيجب الانتباه لذلك.

فالفكر السلفى هو نمط موجود فى كل الديانات وكل الحضارات وكل المجالات عبر التاريخ، وهو نتيجة طبيعية لاختلاف توجهاتنا العقلية. فمن البشر من يميل للأخذ بالجديد ويسعى للتقدم والتغيير، ومنهم من يجد أمانه وطمأنينته فى الركون إلى الماضى وإلى ما ورثه عن الأجداد. وليس فى هذا التباين ضرر، فلكل منا أن يتبنى ما يقتنع به وما يجد فيه غايته وأنسه. وقد قدم الفكر السلفى للأمة وللدين خدماتٍ جلية لا تُنكر، لعل أهمها الحفاظ على نصوصنا المقدسة وفهم السابقين لها.

أما ما نعارضه بشدة فهو الفكر الأصولى الدينى، وقد تناقشت كثيرًا مع أستاذنا حجة الطب النفسى د. أحمد عكاشة حول أسباب تبنى فريق من السلفيين التوجهات الأصولية. وألخُص ما اتفقنا عليه فى ثلاثة أسباب رئيسة:

السبب الأول: ما يعاينه البعض من تَوَرُّمٍ للذات يؤدى إلى حب الظهور والتميز، الذى يصل فى بعض الحالات إلى جنون العظمة، فيفرضوا أفكارهم باعتبار أنها مُراد الحق عَزَّوَجَلَّ وأنهم هم الفاهمون عنه والمتحدثون باسمه،

وأَنهم المُكَلَّفون بنقل علمهم للبشرية، هذا العلم الذى يَدَّعون أَنه يُعطى احتياجات الإنسان كلها فى كل مجالات الدنيا والدين.

والسبب الثانى: ما يعانى به البعض من شعور بالعجز والإحباط، إما لقصور فى القدرات أو لعدم التوفيق لظروف خارجة عن إرادته، فيجد هؤلاء الدعمَ والأنسَ بملازمة الفريق الأول، الذى ينقل إليهم الشعور بالتميز والتفوق فيعوضه ما يشعر به من عجز وإحباط.

وهناك عامل ثالث مشترك بين الفريقين (سَنُفَصِّلُه بعد قليل) وهو عدم القدرة على قبول التعارض الظاهر فى المفاهيم التى يعتنقونها. فيصعب على الأصوليين الخلقويين مثلاً الجمع بين مفهوم التطور البيولوجى الذى حاز على الإجماع العلمى العالمى وبين ما فهموه من النصوص المقدسة عن خلق الإنسان خلقاً خاصاً؛ فكيف يسلك الأصولى الخلقوى فى مواجهة هذا التعارض؟

إما أن يقتنع هذا الشخص بالإجماع العلمى ويرفض كلمة الدين؛ وهذا بديل غير مطروح عند الأصولى الدينى. وإما أن يقتنع بالإجماع العلمى ويراجع فهمه للنصوص المقدسة حول خلق الإنسان؛ وهذا لا يتماشى مع توجهاته السلفية التى تجدد الأمن والأمان فى الطرح التراثى للأجداد. ولا يجد الأصولى مفرّاً من الطرح الثالث، وهو رفض الإجماع العلمى ليحافظ على أمانه النفسى، ولا يبالى بما يجره هذا الاختيار من كوارث على دينه ومجتمعه وأبنائه وإخوته.

هذه هى الخلفيات التى يطرحها علم النفس وراء الفكر الأصولى الدينى، خاصة مدرسة الأصوليين الخلقويين.

التقطت أنفاسي، وختمت حديثي عن الأصولية الدينية قائلاً:

هذه أيتها اللوامة الأشكال الثلاثة من الأصولية (الملحدة، المستعلمة، الدينية) التي تعاملت معها في مشروعى الفكرى، ولا يمنع ذلك أننا نتعامل مع أنماط أخرى من الأصولية في حياتنا اليومية، ولعل أهمها هي الأصولية السياسية والإسلام السياسي.

ولا أخفى عليك أيتها اللوامة، أن المعركة مع الأصولية قد فرضت نفسها فرضاً على مشروعى الفكرى في الفترة الأخيرة. بل وفرضت على أن يكون كتابي القادم (إن شاء الله) عن التفكير العلمى والمنهج العلمى وتطبيقاته في حياتنا، وذلك بعد أن لمست القصور الشديد في هذا الجانب عند الأصوليين بل وعند الكثيرين من شبابنا.

عامل أصولى مشترك...

قالت اللوامة: لقد استمتعتُ باستعراضك لأنواع الأصولية الثلاثة التى صارعتها أثناء إبحارك بمشروعك الفكرى، وقد فهمتُ منك أن أسبابها المباشرة تختلف من نوع لآخر. فدوافعها في الأصولية الدينية فهم قاصر للدين مع شعور بالأمان في دائرة الفهم التراثى له. ودوافعها في الإلحاد الأصولى رفض نفسى للدين والرغبة في التمتع بالحياة في إطار المنظور المادى للوجود. ودافعها في الأصولية المستعلمة الفلسفة المادية واحدية النظرة، التى تعجز عن الجمع بين العلم والدين.

حسناً، مع اختلاف دوافع الفكر الأصولى تبعاً لمجالاته وميدانه، ألا تجد عاملاً مشتركاً يجمع بينها؟

قلت للوامة: لما أصبح «الصراع ضد الأصولية» هو جوهر معركتى

لتجديد الفكر الديني وتجديد الفكر العلمى، فقد شغلتنى الأصولية إلى حد بعيد. وانطلاقاً من قاعدة «اعرف عدوك» حملت هذا السؤال إلى حجة النفس الإنسانية الدكتور أحمد عكاشة، وسألته: سيدى، ما هو الدافع النفسى الخفى وراء الفكر الأصولى بأنواعه؟
أجابنى د. عكاشة:

يعتبر الطب النفسانى أن القدرة على تحمل عدم اليقين Tolerance of Uncertainty دليلٌ على الصحة النفسية، ولا يكون العالمُ عالماً دون هذه القدرة. فكل ما فى الوجود حولنا يقع فى دائرة عدم اليقين، حتى العلم؛ فما يقدمه العلم اليوم كيقين يتبدل فى الغد، ويحتاج تبدله إلى ثورة علميةٍ يتزعمها واسعو الصدور والعقول من العلماء، ومن ثم فمن أهم سمات العلم قدرته على التطور والترقى. فالحتمية الفيزيائية لنيوتن ولا بلاس مثلاً كانت مسيطرة، ثم جاءت لا حتمية فيزياء الكوانتم، وأصبح على العالم أن يتقبل الخضوع للفيزياء الحتمية فى العالم الكبير Macro، وأن يتقبل الخضوع للاحتمية الكوانتم فى العالم الصغير Micro.

وقد عَبَّرَت الحكمة العربية عن ضرورة تحمل عدم اليقين بقولها «أحب حبيبك هوناً ما فعسى يصير عدوك يوماً ما، وابغض عدوك هوناً ما عسى يصير صديقك يوماً ما». وهو ما عبر عنه الإمام الشافعى حين قال: «رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب».

لذلك فإنى أرى أن الفكر الأصولى يرجع إلى افتقاد هذه القدرة، أى يرجع إلى العجز عن تحمل عدم اليقين Intolereuce of Uncertainty وهو ما يفرض على الأصوليين تبني الرؤية الواحدية التى يجدون فيها السكينة والطمأنينة النفسية.

شكرت أستاذي كثيراً، أن وضع يدي على علة عدوى الأول، وهو الفكر الأصولي بأشكاله الثلاثة، وهمت بالانصراف، فناداني أستاذي وقال لي: يا عمرو، ليس في الحياة يقين إلا في الموت.

طموحاتي...

قالت اللوامة: والآن مع آخر تساؤل لي حول مشروعك الفكري، ما طموحاتك تجاه هذا المشروع؟

قلت للوامة: كأى صاحب مشروع أتمنى لمشروعي النجاح. وأرى النجاح في أن يُعم هذا الفكر وينتشر، وأن يشارك في تجديد الفكر الديني وتجديد الفكر العلمي، وأن يبقى كـ «علمٍ يُنتفعُ به» دائم العطاء بعد وفاتي.

قالت اللوامة: وماذا لو وجدت أن قليلين، أو لا أحد، قد استفادوا من مشروعك الفكري، فماذا أنت فاعل؟

قلت للوامة: يأتي الأنبياء يومَ القيامة ومعهم أتباعهم، فهذا يأتي ومعه أُمَّةٌ كبيرة، وهذا يأتي ومعه جمعٌ غفير، وثالثٌ يأتي ومعه رهط، ورابعٌ يأتي ومعه تابع واحد، ويأتي أحدهم وليس معه تابع، وبالرغم من ذلك يُحْشَر مع الأنبياء دون اعتبار لذلك، لقد بذل الجهد وأخلص النية. وإن لم أُحْصَل أَجْرِي المصيب في الاجتهاد، فلأحصل - بإذن ربى - أَجْر المجتهد المخطئ.

لذلك فقناعتى التى أحيا عليها، أن الإنسان يُحاسبُ على إخلاصه فى العمل وإتقانه. وأحسب إنى قضيت عمري أُعَرِّفُ الناسُ برهم، وأقرهم منه وأحبهم فيه، هذا هو زادى فى رحلة أقف الآن فى خاتمتها بباب ربى.

وكما حاولتُ أن يُحِبَّ الناسُ ربِّي، فلا شك أننى أحبه. فبالحب خُلِقْتُ،
وبالحب عِشْتُ، وبالحب ألقى ربِّي الودود.

قالت اللوامة: هل ورطُك في الحديث عن إنجازاتك وعطاءاتك، على
مستوى الأسرة والتعليم والطب والعبادة وعالم الفكر؟ وهل نَشْرُكُ لثمار
مسيرتك يُعْتَبَرُ نوعًا من المُرْءاة التي يمكن أن تُحِبَطَ عَمْلُك؟

قلت للوامتي: يعرف الله عَزَّجَلَّ - العليم بقلوب عباده - أننى لمر أُقْدِمُ
على عرض ثمار مسيرتى طلبًا لشهرة ولا مُرْءاة، وهل يُرَأَى أَحَدٌ بعمل
غيره؟! أليس الله عَزَّجَلَّ هو المَوْفَّق.

إنى لمر أعرض سيرتى إلا دفعًا لهمة شبابنا للأمام، وتبصيرًا لهم بكيف
يُرْتَبُّ الإنسانُ أولوياته، ولأثبت لهم أن الإنسان إذا اشترى الآخرة بالدنيا
فقد فاز (إن شاء الله وبتوقيقه) بكليهما.

لقد أقدمتُ على هذه المخاطرة بعد أن اشتدت الظلمة حول أبنائنا،
وصاروا كلما تلفتوا يفتقدون القدوة التى تبشرهم بخيرى الدنيا
والآخرة.

أسأل الله عَزَّجَلَّ أن أكون صادقًا فيما أقول...

واسأله أن تجد ثمراتُ بستانى فى الآخرة سُوقًا أكثر رواجًا منها فى الدنيا...
واسأله ألا أجد ما أحسبه ثمارًا شهية وقد انقلب حُسْرُمًا، أذوق
مرارته.

واسأله - باسمه الغفور الغفار - أن يتجاوز عن ذنوب هذه المسيرة،
واسأله - باسمه الرحمن الرحيم - أن يجعلنا - بكرمه ووده - ممن يُبَدِّلُ
سيئاتهم حسنات.

في نهاية حوارى، شكرتُ نفسى اللوامة، أن فَتَحَتْ معى ملفات كنت أظنها قد أُغْلِقْتُ، وحاسبتنى قبل أن أُحاسب، عسى أن يكون هناك مجال لإصلاح شيء قد أَفْسَدْتُهُ، وإن لم يكن من سبيل لإصلاح. فالحمد لله أن عشتُ حتى أستغفر وأتوب.

في حوارى معكِ أيتها اللوامة، كنت صادقًا ما وسعنى الصدق، لم أحاول أن أتجمل أو أترفع، وإذا حدث شيء من هذا فذلك خارج طاقتى، وتسرّب إلى الأوراق بإيعاز حظى من النفس الأمارة بالسوء التى لم نقهرها بعدُ تمامًا.

والله على ما أقول شهيد.

حصاد الرحلة..

أنا...

القارئ الكريم...

في عام 2013 أصدرت كتابي «أنا تتحدث عن نفسها»، تناولت فيه رؤية العلوم الإنسانية والطبيعية والدينية للذات الإنسانية، أي أن الكتاب تناول «أنا» الخاصة

بكل البشر في منظور كل من هذه العلوم.

وفي هذا الحصاد، أتناول «أنا - عمرو شريف» بالتحديد، كما فهمت أبعادها من هذه الرحلة التي بين يديك.

أُصدقك القول؛ عندما راجعت البروفة الأخيرة لطباعة هذه الرحلة، انتابني الدهشة والحيرة، هل أنا هو هذا الشخص الذي أقرأ عنه؟!!!

لقد سَمَحَت لي معاشة وتدوين هذه الرحلة عبر شهور، باستحضار وتأمل العديد من جوانب حياتي في مختلف مراحلها، فتعرفت على جوانب كثيرة غامضة في شخصيتي. لقد كانت المجادلة بين نفسي وعقلي، وبين العقل والقلم والأوراق، بمنزلة عالم النفس الذي ألقى الضوء على جوانب شخصيتي المختلفة.

باختصار، إذا كنت أقصد من تدوين هذه السيرة الذاتية أن أطلعك على شخصية المفكر الذي تطالع فكرة في كتاباته المختلفة، كما أقصد أن

أترك لشبابنا وللأجيال القادمة مسيرة فكرية يستفيدون منها الدروس، فإنني قد استفدت من تدوين هذه السيرة على المستوى الشخصي فائدة كبيرة؛ فقد تعرفت على عمرو شريف بشكل أفضل، كما تأملت سيرته لأراجع ما فيها من أخطاء.

وسأَتَّبِع في استعراض حصاد الرحلة أسلوبَ تلخيص سمات شخصيتي والعوامل التي ساعدت في تشكيلها وأهم قناعاتي الفكرية من خلال نقاط متتالية:

الطفل الصلصال...

(1) نشأ الصبي «نشأة سوية» في جو من الحب والاحترام بين والديه وجدوده وأخواله وأعمامه وعماته، كانت نشأته خالية (والحمد لله) من المصائب والصدمات. كما شارك في هذه النشأة روافد ثلاثة: الكوزموبوليتانية والقرمذنية والقاهرية. ولا شك أن هذه النشأة قد أفرزت سماحة نفس وسعة صدر وتقبلاً للآخر وتواضعاً، كما تؤكد نظريات علم النفس الحديثة.

كذلك أفرزت هذه النشأة تعلقاً سويّاً بالأب والأم، كرمزين للسلطة والحنان، فكان طبيعياً أن تكون علاقته بالإله الخالق، الملك القدوس، والرحمن الرحيم، علاقة تَعَلُّقٍ سَوِيٍّ واعتزاز وحب.

كذلك أيضاً نشأ صبيُّنا كشخصية عاطفية رومانسية متوازنة، شخصية تحترم النظام والطقوس والحق والعدل، وتحب الفن والموسيقى والجمال والإنسان، وتحب القراءة وتُحسِّن تدبير الوقت.

وقد كان طفلنا الصلصال في أيدي أمينة؛ أسرة وعائلة وبيئة أحسنوا تشكيله، وأحسنوا انتقاء بذور الرجولة وغرسها في أرض صالحة.

(2) لقد أعطيت «عقلاً تحليلياً متأملاً»، جعلنى أهوى مراقبة السماء بالليل، وأهوى مراقبة الطبيعة بأزهارها وفراشاتها بالنهار، وأيضاً جمع هذه البدائع والاحتفاظ بها. وبالإضافة لتلك الميول كنت أهوى «التجريب واستقراء نتائجها». وقد نمت تنشئى هذه الهبات وجعلتنى أقبل على عالم الفكر وأتعلق بالدراسات الإنسانية والفكرية.

(3) نشأت «كشخصية وسواسية»، أتمتع بمميزات - وأيضاً عيوب - هذا النمط من الشخصية. فمن صغرى وأنا أسعى إلى الإتقان والاكتمال والانضباط فى كل عمل أقوم به، وألتزم بنظام العمل وقواعده وألتزم بمواعيدى، وأحترم الطقوس والأعراف الاجتماعية.

وقد أعانتنى هذه السمات على التفوق الدراسى وخدّمت مرضاى إلى حد بعيد. وفى المقابل فإن هذه السمة تُجهد صاحبها كثيراً، خاصة فى مجتمع متسبب غير منضبط، وتسبب له القلق والتوتر طوال حياته.

وإذا كانت سمات الشخصية تتبع إلى حد بعيد العوامل الوراثية (الجينات) فقد ساعد على ظهور هذا النمط من الشخصية أسلوب تربيته فى أسرة منضبطة تحترم النظام والأعراف والتقاليد والطقوس.

(4) أفرزت ميولى الإنسانية والتحليلية المتأملة والتجريبية والانضباطية منظومة فكرية ثلاثية؛ تدور حول احترام الإنسان، وحب المواد العلمية والطبيعة، والعروج من الإنسان والطبيعة إلى التعرف على الله عزَّ وجلَّ.

لذلك لم يكن غريباً أن أختار دراسة الطب التى تُشبع هذه التوجهات، وأن ينادينى والدائى من أول أيام دراسة الطب بلقب «حكيم».

صناعة جراح...

(5) ثلاثم طبعى الشخسىة التخصصاأ الطبىة الباطنىة التى تتسم ممارستها بالهدوء؛ حىأ أمىل للنشاطاأ العقلىة؁ كما أنى شخسىة مآافظة مسأمة لأأب السلوك العدوانى؁ وأىضأ باعأبارى شخسىة وسواسة أآهدنى التصرفاأ الجأدرىة وأأمل هم عواقبها.

ولعلاج ما فى هذه السمأا الشخسىة من جوانب قصور (بالإضافة إلى أفوقى فى مادة الجراحة) أآأرت التخصص فى مهنة الجراحة!! وذلك من أأل أن أأآسب سلوكىاأ أأأر جراً ومبادء؁ ولكى أأأاد القلق والتوتر فلا أبألى بهما؁ وذلك بالإضافة إلى ممارسة مهاراأى الیدوىة التى كانت مىولى العقلىة أآبأها.

وقد دأعأأأأأ لهذا القرار العالآى الحاسم! أن عأأأ حىاأى أكلها على شاطى القلق والتوتر؁ أأفع إلى أعماقه كل حىن وأأر.

(6) كان بعض أساأأنى مىألون القدوة والمأأل الأعلى للطبىب الناشئ؁ فآعلمأ منهم أآأرام المرىض وأآأرام النفس وأآأرام المهنة. كما علمونا أآمل المسؤلىة وأن الأساأذىة وأآباأ قبل أن أكون أقوقاً.

وقد آعلمأ أن بناء الجراح الماهر (أو أية مهنة أخرى) ىأألب الممارسة والتأرب؁ كما ىأألب الصأق والأمانة. وإذا كان للقدوة دورها فى هذه المنظومة فالقدوة لا أمارس دورها إلا على أرضىة من التأربة المأآرمة.

(7) أأببأ الطب؁ فأأقق لى الأفوق الأراسى وأحرىة أأأار الأآصص؁ وأعطانى لذة مساعدة الأأرىن وأآأرام النفس والمأآمع.

وقد خَدَمْتُ دراستى للطب ثم تخصصى فى الجراحة مشروعى الفكرى؛ فقد جعلتنى أقرب من إدراك حقيقة الإنسان بعد أن تعاملتُ معه فى مختلف حالاته النفسية والجسدية؛ بين يأس وأمل، وقوة وضعف، وحياة وموت، سواء مع المرضى أو ذويهم، أى صرتُ أتعامل مع الإنسان فى أضعف حالاته، وبذلك إرتقت معرفتى بالموت من مستوى علم اليقين إلى مقام عين اليقين. وقد أطلعتنى مهنتى على قدر هائل من إبداع الله عَزَّجَلَّ فى مخلوقاته، وما يكفله لنا من توازن دقيق للغاية فى نشاطات الجسم المختلفة.

كذلك كفلت لى مهنتى دخلاً يَسَّرَ لى الحياة فى هدوء وعدم انشغال بهموم الرزق، كما مكنتى من الإنفاق على مشروعى الفكرى.

وأخيراً أعطانى تخصصى وأستاذيتى فى الجامعة المصدقية لدى قُرَّائى.

(8) لما كنت من المعجبين بالفن والجمال، كنت أتمنى أن يهينى الله عَزَّجَلَّ موهبة فنية كالنحت أو الرسم أو عزف الموسيقى، ولكن الخالق الوهاب قدر لى مهنةً تجمع بين القدرة العقلية والمهارة اليدوية، فصارت الجراحة قَدْرِي ومهنتى وهوايتى وفى الذى أمارسه.

تحت جبال الهندكوش..

(9) حَصَلْتُ من سفرى إلى مدينة بيشاور بباكستان لخدمة القضية الأفغانية عدة فوائد شخصية، لئلا تكن اكتساباً لقدرات نفسية جديدة بقدر ما كانت إظهاراً لهذه الملكات الكامنة وتنميتها. ولعل أول هذه الملكات كانت قدرتى على اتخاذ القرار تبعاً لأولوياتى ثم السلوك تبعاً لما أؤمن به، وذلك عندما قررت استبدال وجهتى من إنجلترا للتدرب على

جراحة المناظير إلى باكستان للمشاركة في علاج مرضى ومصابي الحرب الأفغانية. وأتت بعد ذلك ملكات الثقة بالنفس والاعتماد على الذات والقدرة على بناء منظومات جديدة متكاملة.

(10) سمح لي عملي ببيشاور بالاحتكاك المباشر بعدد من التيارات الإسلامية المُسيَّسة (أهمها الإخوان المسلمون والسلفيون والجهاديون) فأدركتُ القصور الشديد في رؤيتهم الدينية والفكرية والسياسية والحضارية، ولعل أخطر جوانب هذا القصور عدم احترام العقل وإهمال الأخذ بالأسباب، والانقياد الأعمى وراء القيادات، ومعادة الأوطان باسم الدين.

وقد فَضَّحت تجربة القضية الأفغانية عجز وعوار رؤية تيارات الإسلام السياسي بخصوص المجتمع المسلم. ففي بيشاور تمكن هؤلاء من إقامة مجتمع مسلم تَبَعًا لتصوراتهم، فدبت الخلافات بل والاقتتال بين مختلف التيارات! لقد كان الكثيرون من هؤلاء أكثر استقرارًا وأمانًا في بلادهم تحت حكم الطواغيت!! وللأسف لمر تدفع هذه التجربة الفاشلة هذه التيارات لمراجعة أهدافها وآلياتها.

لييك ربي...

(11) عندما أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يخاطب أحد مخلوقاته، وأن يكلفه، وأن يحاسبه اختار العقل ووهبه للإنسان.

ولعل أوضح دليل على «شدة تقديري للعقل» ما تصفني به زوجتي من أني «أحب بعقلي»!! وما يصفني به بعض أصدقائي من أنني من رواد «التصوف العقلاني» بالرغم من أنها صفة متضاربة في ذاتها؛ كيف يكون المتصوفُ عقلانيًّا؟!

ومع ذلك لم يقع صاحبنا أسير «عقله» يُقدس قراراته ويرى فيها وحدها الصواب، بل كانت لديه القابلية الكاملة لتَقَبُّل النقد وتَقَبُّل الآخر، خاصة بعد أن أدرك سعة الإسلام، وأدرك أن الطريق واحد والدواب كَثُرُ في إطار الثواب الدينية، فعاش في مظلة القاعدة الذهبية؛ أن «رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب».

12) يبدو أن صاحبنا يتمتع بقدر لا بأس به من «الاستقلالية» وأيضاً «المرونة الفكرية»، وقد ظهر ذلك بوضوح في تجربته الدينية. فقد كان ينتقل بسهولة من توجه فكرى دينى إلى توجه آخر؛ من اللاتحديد إلى الميول السلفية، ثم إلى الصوفية السنية ومنها إلى التصوف الفلسفى ثم التصوف العقلانى، حتى استقر به المقام على شاطئ «التعقل». وانطلاقاً من هاتين السمتين (الاستقلالية والمرونة) يرفض صاحبنا أن يكون بين يدي شيخه في التصوف كالميت بين يدي الغاسل. ومن نفس المنطلق يعتب صاحبنا بشدة على كوادر الإسلام السياسى لانقيادهم الأعمى وراء قياداتهم. لذلك، عشت تحت مظلة القاعدة أن «الحكمة ضالة المؤمن» وأن «أتبع الدليل إلى حيث يقودنى».

13) يُعتبر «الغوص وراء الجوهر» سمة مميزة لصاحبنا، انعكست في رفضه للكثير من سلبيات التصوف والتركيز على جوهره الذى هو «مقام الإحسان». وتنعكس هذه السمة أيضاً في فهمه آيات القرآن الكريم؛ فتراه يتوجه مباشرة إلى لب القصة من القصص الدينى وإلى المراد من رموز القرآن الكريم وإشاراتِهِ. ويستتبع ذلك - بلا شك - عدم الانقياد للأسماء الكبيرة (كالشيخ الأكبر ابن عربى!!)، ولا للشعارات الرنانة التى يرفعها رموز الإسلام السياسى.

14) يعيش صاحبنا تبعاً لما يؤمن به، فيُقبل عليه بإخلاص ومثابرة. لذلك لم يكن غريباً، أن يستمر انعقاد صالون «مجلس الأحد» الصوفي في بيتى قرابة العشرين عاماً. وليس غريباً أن يتخلص صاحبنا من مكتبته الروائية ومكتبته الغنائية بعد عودته من العمل في الباحة في السعودية بعد أن ظن أنه قد صار سلفياً!!

ولا شك أن سِمَتِي الإخلاص والمثابرة قد انعكستا على أدائه الجراحي، فكان يُقبل على إجراء العمليات الجراحية التي تحتاج لساعات طويلة، ويتابع مرضاه عن قرب لسنوات عديدة.

15) احتاج الأمر من صاحبنا وقتاً وتدريباً ليتخلص من «فخ القولية» الذى كاد أن يعثر فيه في مختلف مراحل حياته. فعندما تعاملت سنوات الدراسة الجامعية مع الإخوان ظننت أنى قد صرت منهم!! وعندما تعاملت مع الصوفية ومارست طقوسها اعتبرت نفسى صوفياً!! وعندما تتبعت خطوات العقل فرحت أن اعتبرنى البعض معتزلياً!!

لقد حاولت نفسى والآخرين صكى في قوالب معينة. ومع المزيد من الحكمة أدركتُ عبثَ ذلك، وأدركت - كما ينبغي أن يكون كل إنسان - أهمية أن أكون شخصية متفردة.

16) لعلك - قارئى الكريم - من كثرة ما ورد في مسيرتى من أغنيات وقصائد شعرية أدركت ما أتمتع به من «أذن موسيقية»، بل ومن حب للفن بجميع أشكاله.

وإذا كان السماع هو أحد مداخلى الرئيسة إلى الصوفية وإلى تذوق القرآن الكريم، فإن الإعجاب بالفن والجمال هو أحد أهم مصادر المتعة

في حياتي، وأيضاً أحد حججى الرئيسة في الاستدلال على الإله الواحد
الجميل المحب للجمال.

(17) أدركتُ في السنوات الأخيرة، أن ما يحققه العقل من يقين
إيماني غير كافٍ لأن تُبحر سفينة المؤمن في توازن وطمأنينة قلبية.
لقد شعرت وأنا غارق في التفكير العقلاني في أدلة الألوهية والتوحيد
بجفوة في القلب! وافتقدت سعادة ولذة طالما استشعرتها في رحلتى
الصوفية.

عندها أدركتُ أن «غذاء العقل لا يُعَدَّى إلا العقل»، وأن في ذروة
هذا الانشغال جَاعَ منى الروح والنفس والقلب. عندها، هرعت إلى
الغذاء المتوازن حتى لا تُبحر سفينتى فيما تبقى من الرحلة وقد مالت
على جانبها، هرعتُ إلى القرآن الكريم (تلاوةً واستماعاً) وإلى الأذكار
والأوراد والتسبيح، وإلى سماع القصائد الدينية، وإلى مجالسة الصالحين.
ولم ينصلح حال قلبي إلا بعد أن أديت مناسك العمرة والزيارة، أسأل
الله عَزَّجَلَّ القبول والدوام.

مصر التى فى خاطرى...

(18) إن حبى لمصر ليس حباً أعمى، لكنه «حب الابن لأمه»، لا ينتقص
منه أن تكون الأم فقيرة أو متخلفة أو غير متعلمة أو في محنة؟! إن حب
الوطن فطرة؛ فالانتماء من أشواق النفس البديية، غذتها تنشئة سوية
استشعرتها في سلوك وكلام والدينا وأهلينا، لذلك أشمئز من تنكّر البعض
لقوميتهم أو لانتسابهم الوطنى بدعوى الدين أو بدعوى أنه لم يجد الأمان
أو المستقبل المُرَضَى في وطنه، أو بسبب عدم رضاه عن نظام الحكم!!

لقد فات هؤلاء أنهم ما أصبحوا رجالاً ونساءً إلا بعباء الوطن وأنه قد
آن الأوان للوفاء بالديون.

لقد انغمس هؤلاء في مستنقع الخيانة دون أن يدروا، لقد فاتهم إدراك
خطورة ما يُروَّج له أعداؤنا تحت أسماء النظام العالمى الجديد والشرق
الأوسط الجديد وما بعد الحداثة. لا يدري هؤلاء أن طمس الهوية هو
أول خطوات الضياع.

وتزداد أبعاد المؤامرة التى ينبغى ألا نغفل عنها؛ لقد انقاد بعض هؤلاء
المغفلين لمحاولات الوقعة بين الشعب وبين الجيش والشرطة، فصرنا نقرأ
كل يوم العديد من الدعوات الهدامة التى لن تؤدى إلا لتفتيت مصر،
حاشا لله.

إنها صرخة تحذير، لن نكف عن إطلاقها ما بقى فينا قلبٌ ينبض.
(19) إن حبى لتاريخ وطنى ليس حنيناً للماضى لتعويض عجز الحاضر،
وليس مباهاة عمية، إنه فى المقام الأول حب؛ حب لوطنى وحب
لتاريخى.

وفى المقام الثانى هو إدراك لأهمية تاريخ الأمة، ليس فقط للمحافظة
على هويتها بل وللمحافظة على بقائها. لذلك أول ما يحرص عليه النظام
العالم الجديد هو التعتيم على تاريخ الأمم.

وفى المقام الثالث، هو الرغبة من أن أُبين لشبابنا أن الشعب الذى
استطاع أن يبنى الحضارة المصرية القديمة قادر على أن يعيد مصر
مجدها.

أنا والمرأة والحب...

(20) لا شك أن نظرتي للمرأة وللحب نظرة مثالية رومانسية، أسهم فيها -بالإضافة إلى طبيعتي الشخصية- أنى قد أخطت في صغرى بنهاج فاضلة من النساء وأيضا أنى وفقتُ في زواجى ووجدت فيه كل مبتغى وغيتى.

(21) أرى أن الحب هو تلك الطاقة الهائلة التى تجعلك تعمل من أجل الآخرين وتوجب عنك نفسك، وهو تعريف عام يشمل الحب للوجود كله؛ الإله والبشر والكون والأهل والأصدقاء والمرأة.

والحب عطاء إلهى، به خلقتُ وبه أعيش وعليه ألقى ربى.

ولا شك أن معظم شباب هذه الأيام لا يعرف الحب كما عهدناه، ولا ينظر إلى الجنس الآخر نظرة الاحترام والتقدير التى كانت تسود علاقاتنا، وذلك بعد أن سادت بينه المفاهيم المادية وأصاب عقله الخواء والتصحّر، كما أصاب قيمه الجفاف والضلالات المتسلقة. ولا شك أن هؤلاء ضحية لعوامل متعددة على المستوى العالمى والحضارى والتربوى.

إن علينا أن نتعامل مع هذه المتغيرات بواقعية، فهى تغيرات جذرية وليست عارضة مؤقتة. ومن ثم علينا إعادة بناء منظومتنا الأخلاقية والقيمية والعاطفية فى ضوء الظروف الجديدة. ولا شك أن المنظومة الدينية هى خير عون فى ذلك، بشرط ألا نستسهل النقل عن قرون مضت، بل يحتاج الأمر لأن نعيد بناء منظومتنا الدينية فى مناخ القرن الحادى والعشرين، لا أن نجذب الأمة إلى مجتمع البداوة فى القرن السادس الميلادى.

(22) إذا كان الرجل يمثل القوة والسلطة والمسئولية الحاكمة، وجميعها من تجليات صفات الجلال الإلهى، فأرى أن المرأة تمثل تجليات صفات

الجمال الإلهى بما فيها من رحمة وود وعطاء وتسامح، وتظهر هذه الصفات جليلة فى الأمومة، التى هى تاج على رأس الوجود كله وليس الإنسانية فحسب.

وإذ كنا قد أكثرنا العتب على المرأة، ووصفها بصفات الخداع والمكر والخيانة وربما العُهر، وأنها وراء كل مصائب المجتمع والدنيا (فتش عن المرأة)، فربما تكون سوءات الرجل أكبر! فهى لمر تقف عند الكيد للآخرين والتسلى على أكتافهم، بل كلفت الدنيا مئات الملايين من القتلى منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل.

فيا من لا تروا فى المرأة إلا سلبياتها، تذكروا دائماً أن «الفجر متبادل».

23) صرت أوقن أن النظر للحب باعتباره «كيميا» أو «انجذاب» هو خداع، فهذا إعجاب وليس حباً، ونحن لا نتنكر للإعجاب، لكن ينبغى إدراك أن الكيمياء والانجذاب وحدهما لا يُقيمان أسرة ناجحة.

كذلك فإن البحث عن الحب من أجل الاستمتاع بلذة الحب، ليس حباً حقيقياً، إنه ضد الحب، إذ يسعى فقط إلى إمتاع الذات.

إن ما يقيم الأسر هو الحب الحقيقى والنضج النفسى. الحب الحقيقى الذى هو مسئولية وعطاء وإيثار، والنضج النفسى الذى هو إدراك ما ينتظرنى من هذه العلاقة وألا أعيش فى الأوهام وألا اكتفى بالأحلام الوردية. يبدو أنها عمليات نادرة، لذلك ليس غريباً أن بلغت نسبة الطلاق فى بلادنا حالة من كل حالتين خلال السنوات الثلاث الأولى من الزواج.

أنا... والآخر...

(24) لما كنت شخصية انطوائية وسواسية، فأنا قليل الاصطدام بالآخرين، وأحافظ في تعاملاتي على مسافة بيني وبينهم. وقد سمح لي ذلك بالانشغال بالوجود كله وعلى رأسه الله عزَّوجلَّ.

وقد جعلتني تجربتي الصوفية أنظر إلى البشر وإلى الطبيعة باعتبارها تجليات للأسماء والصفات الإلهية، جماها وجلالها. فأرى في جمال الطبيعة والبراح ومعاملة البشر الودودة رسالة إلهية بالقبول والرضا، وأرى في القبح والضييق والجفاء عتاباً إلهياً، وأرى في مرور الزمن بُشرى بقرب اللقاء أو إنذاراً بقرب الحساب.

ومن ذلك تكونت قناعتى بأن الله عزَّوجلَّ كما يخاطبنا بكتابة المسطور (القرآن الكريم) فإنه يخاطبنا بكتاب الوجود المنظور. وأتمنى أن تتحول هذه القناعة العقلية إلى استشعار نفسى وعقلى.

(25) الزمن هو أنا؛ فالزمن هو الماضى وهو الحاضر وهو المستقبل، وهو أحلامى لى ولغيرى. لذلك فكل دقيقة تضيع من وقتى هى جزء منى بترته وألقيته إلى الضياع.

الزمن هو مُعلِّمى؛ وهو ليس ككل مُعلم؛ القاعدة أن تتعلم الدرس ثم تخوض الامتحان، أما معلمنا الزمن فله أسلوب آخر؛ فمعه نخوض الامتحان أولاً ثم نتعلم الدرس.

وتختلف نظرتى للعمر كثيراً عن النظرة التقليدية؛ فأنا أبنى أن للإنسان خمسة أعمار؛ الأول «عمر الميلاد» كما يحدده تاريخ ميلاد الإنسان. والثانى «عمر الجسم» تبعاً للحالة الصحية لأعضائه. والعمر

الثالث هو «عُمر العقل» ويحدده ما اكتسبه الإنسان من خبرة ومعرفة وحكمة في حياته. ثم «عمر القلب»، ويتوقف على إقبال الشخص على الحياة وما يعتمل في قلبه من مشاعر.

وأخيرًا يأتي «عُمر الروح» الذي لا يتقدم بتقدم الأعمار السابقة، فالروح خالدة لا يؤثر فيها مرورُ السنين، بل قد تزداد تألقًا بمرور الوقت

(26) يحكم علاقتي بالآخر تحمل المسؤولية تجاهه، قبل أن يحكمها تحصيل حقوقى منه. لذلك يدهشنى كثيرًا إصرار البعض على إدخال جميع غير المسلمين النار!!

وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ سيحاسب أمير المؤمنين عُمَرَ لِمَ لَمْ يمهّد الطريق للدابة إذا عَثُرَتْ، فإنه ولا شك محاسب المسلمين لِمَ لَمْ يمهّدوا طريق الإسلام للعالمين، ألسنا رسل رسول الله ﷺ إلى البشر جميعًا.

ليتنا وقفنا عند التقصير في مسئولياتنا، بل لقد ملأنا طريق هؤلاء إلى الإسلام بالحُفَر والأحجار والألغام.

(27) أحمل أماكنى العزيزة في قلبى، لذلك لا أعانى الحنين إلى الوطن Home Sickness عند السفر، فمصر فى قلبى، وهى ليست مصر الواقع أو نهر النيل الواقع أو فارسكور الواقع، لكنها الأماكن التى فى خيالى وفكرى.

(28) أعشق الجمال، كل الجمال، أراه فى كل شيء؛ صغُر أو كَبُر. يأسرنى السلوك الراقى وخُلُق التعاطف والإيثار والرقّة غير المصطنعة. جمال المرأة ظاهرة مركبة؛ يجمع روحانية الإنسان وسموه مع حيوانية الغرائز، لذلك كانت المرأة لغزًا بحق...

والجمال مهما تنوعت تجلياته، هو بصمة الجمال الإلهي، سبحانه
ربي؛ الجميل الذي يحب الجمال.

(29) **أُشفق على أجيال لم تولد بعد.** فإذا كان جيلنا والأجيال السابقة
قد يسرت للقادمين الحياة السهلة الرغدة، فإننا في نفس الوقت حفرنا
لهم قبورًا! لقد استهلكنا معظم موارد كوكبهم الأرض، وَلَوَّثناه، وأفسدنا
الكثير من توازناته البيئية.

ليت الأمر وقف عند هذا الحد، لقد صَيَّعنا الكثير من قيم أجدادنا
الأخلاقية والدينية، التي كان ينبغي أن نمررها لأولادنا وأحفادنا، أي أن
التجريف والتصحّر لم يُصيبا الطبيعة فحسب، بل امتدا إلى الإنسان ذاته...
المسيخ الدجال..

(30) **تربينا على مفاهيم إنسانية راقية، رأيناها تنهار لصالح مادية**
الإنسان وعلى حساب إنسانيته.

تربينا على أن الشعوب يجمعها العرق والتاريخ واللغة والدين، فإذا
بالتجربة الأمريكية تُعطينا مثلاً بأن الأمة يمكن أن توحدّها المصلحة
وإن اختلف أفرادها في كل المقومات السابقة، وقد أعطت هذه التجربة
لمعاصريها درسًا في أهمية الطموح والجدية في بناء المجتمعات.

تربينا على حجية الحق والحق التاريخي، فإذا بالحضارة المادية الحديثة
تهز في نفوسنا هذا الصرح؛ بعد أن قام النموذج الأوروبي على الاستعمار،
وقام النموذج الأمريكي على إبادة الهنود الحمر والاسترقاق، وقامت
الصهيونية على اغتصاب الأرض وتشريد الشعب. إنها بحق حضارة
حفرت للإنسانية قبرًا يدفن حاضرها ومستقبلها.

تربينا على المُثل والقيم العليا ومرجعيات الثوابت والأعراف ودفع
الأسرة، فإذا بنا نحيا حيث سادت الفهلوة والاستعباط والطناش، فعلى
أى التوجهين، نربي أبناءنا؟!

صرت أحياء وجيلي معركة مصيرية في تاريخ البشرية، هل تنتصر
قيمنا التى ورثناها وتربينا عليها أم تسود الدوجماطيقية (الأمر الواقع)
ويصبح جيلنا هو الساموراي الأخير؟!!

(31) كنا في بدايات الشباب نتعامل مع مفهوم «العلمانية» باستنكار
ورفض، فقد تربينا على أنها تعنى فصل الدين عن الدولة. وكيف نقبل
ذلك؛ أليس الإسلام منهج حياة وحكم ومنهج لكل شيء، أليس الإسلام
هو الحل؟! لم تكن العلمانية تُرضينا، بالرغم من أنها تركت لكل إنسان
أن يُحكّم الدينَ في حياته وفي بيته.

وامتد بنا العمر، ووجدنا أنفسنا نحيا في زمان فُصل فيه الدين عن
الحياة كلها بل وعن الإنسان الذى أُرسلت الديانات لتكون له منارات
هداية، لقد أصبحنا نحيا في ظل العلمانية الشاملة، وهو زمان أطلقوا عليه
«عصر الحداثة». عندها أدركنا أن علاقة الدين بالسياسة هى أن يُلزَمها
بالخطوط العريضة وبالمفاهيم الإنسانية العامة، لا أن يدخل في تفاصيل
الممارسة السياسية، التى ينبغى أن تخضع لظروف كل عصر وكل مكان.
ثم امتد العمر، ليدرك جيلنا الأزمة التى أوقعتنا فيها الحداثة، وكرد فعل
مفاهيم «ما بعد الحداثة» التى تتمحور حول «عدم اليقين»، وانعدمت
الثقة فى العقلانية، وانهار كل نظام أخلاقى يدور حول أى مركز ثابت
مثل الضمير أو الله أو الواجب.

وبعد أن كنا نتنكر للعلمانية، فقد عشنا حتى صرنا نتمناها! ثم أصبحنا نتحسر عليها وندعو إليها بشغف باسم الأديان!!!

32) فقدت ثقتي تمامًا بالإعلام، إنه غول، قبيحه أكثر كثيرًا من حسنه. ليته يكتفى بأن يجعلنا نحيا في وهم، لكنه يشكل لنا دوافعنا وأحلامنا ومستقبلنا، حتى صار هو الذى يربي أبناءنا ولسنا نحن. لا يقف تأثير الإعلام عند غسيل الدماغ، ليت الأمر كان كذلك، لكنه يعيد برجة آدمغتنا.

زاد الطينة بلّة، أن سمحت الفضائيات ثم وسائل التواصل الاجتماعى فى السنوات الأخيرة بأن تكون للأقزام منابر يصرخون ويتصايحون من فوقها، وينثرون قاذوراتهم هنا وهناك.

إن غول الإعلام ليس هو المرض، إنه عَرَضٌ للحضارة المادية الحديثة، وتلك الحضارة (المسيخ الدجال) ليست المرض، إنها عَرَضٌ لطينة الإنسان وماديته.

يا ترى أيهما الأصل وأيهما الفرع؛ الشيطان أم طينة الإنسان!!؟
جعلوني مفكرًا...

33) إذا كانت طبيعة شخصيتى تلائم كثيرًا شخصية المفكر، فقد أعانت ظروف نشأتى كثيرًا على صياغة هذه الشخصية.

وبديهى أن كان لوالدَيّ الدور التربوى الأكبر، فقد كانا مثلاً أعلى للاستقامة وتحرى الصدق والحق والحكمة والتنظيم، فكان بيتنا هو تربة الفضيلة الخصبه التى بُدِرت فيها بذور الفكر السامى. فكفلت هذه البيئة للطفل ثم الصبى احتضان مقدمات المعرفة المتنوعة، كما شجعت

فيه علو المهمة وحرية التفكير واحترام الفكر واحترام الآخر. ثم جاءت مصادر المعرفة المختلفة المتمثلة في المكتبات وأكشاك الصحف والمجلات والكتب وسور الأذبكية، والإذاعة والتليفزيون بما يقدمانه من برامج وأغنيات.

ولا شك أن القدوة والمناخ الفكرى اللذين وجدتهما في بيت خالى عبد الوهاب وفي صحبة خالى سامى (رحمهما الله) كان لهما الأثر الكبير في صياغة هذا المفكر.

ثم جاء دور رفيقة العمر - في مختلف مراحل علاقتنا - فكان ولا يزال دوراً محورياً في مشوارى الفكرى؛ فهى المشجعة والناقدة ومهيئة الظروف المناسبة، والحريصة على أن أكون مثلاً أعلى لأبنائنا.

محاولات أدبية مبكرة...

34) بالإضافة إلى اهتمامى بعالم الفكر، المتمثل في العلاقة بين العلم والدين والفلسفة، فصاحبنا يتمتع بموهبة أدبية عبرت عن نفسها منذ قُرابة النصف قرن. وقد تنوعت موضوعات إنتاجى الأدبى تبعاً للمرحلة العمرية والدراسية والفكرية. ففى مراهقتى، شغلنى ما يشغل الشباب من موضوعات عاطفية في المقام الأول، وعندما بدأت دراسة الطب ثم التخصص في الجراحة شغلتنى المفاهيم الإنسانية والطبية. بعد ذلك وجدت هذه الموهبة متنفساً في خطاباتى لزوجتى حول أمور تشغل كلانا.

مشروعى الفكرى...

35) لا تقف ثمار مسيرتى عند إنتاجى الفكرى، بل تشمل ما هو أهم من الأفكار، وهو «الإنسان». فلى أسرة أحسبها موفقة؛ يقوم كل فرد فيها

بواجهه قبل البحث عن حقوقه، ولا شك أنه كان لزوجتي الدور الرئيس في نضج هذه الثمرة. ولى عشرات الآلاف من التلاميذ على مدى أربعين عامًا، صار مئات منهم أساتذة في الجامعة عَلمُوا مئات الآلاف من الأطباء، كما عالج هؤلاء وهؤلاء ملايين المرضى في مصر والدول العربية والعالم.

(36) أربي طلبتي على أن إتقان دراسة الطب فرض عين، وألا يتراخوا في رعاية المريض في نهارهم وليلهم، وبذلك يُحَصِّل الطيبُ المخلص الصادق أجرَ فارس مجاهد بالنهار وراهب عابد بالليل. كما أربي جراحى المستقبل على أن الجراح هو يد الله التى يُزيل بها الأنسجة المعطوبة ويصلح بها ما وهن من أجساد المرضى.

هذه ليست فلسفة ولا ادعاء، لكنه ما استشعره وأمارسه.

(37) أشبّه نفسى بشغالة النحل، التى قضت معظم عمرها في جمع الرحيق، بل وكادت أن تنهى حياتها متنقلة بين الأزهار في بساتين الفكر، ثم غلب قدرُ الله عَزَّجَلَّ - عندما جاوزتُ الخامسة والخمسين من عمرى - أن يتخيرنى ويكلفنى بأن أنقل للآخرين فكرًا، وأن أشارك في مشروع تجديديّ للفكر الإسلامى والفكر العلمى.

عندها بدأت النحلة في إفراز العسل، فأخرجت العديد من الكتب والمقالات والبرامج، وما أصدرتُ من كتاب إلا وكانت هناك حاجة ماسة إليه في المكتبة العربية.

ومن ثمَّ، كما اختارنى الله عَزَّجَلَّ لأكون يدًا تُسهم في علاج المرضى، فقد اختارنى لأكون قلمًا ولسانًا يشارك في إصلاح ما فسد من أمر دين الله عَزَّجَلَّ الذى أرسله إلى البشر.

(38) يدور مشروعى الفكرى حول العلاقة بين العلم والفلسفة والدين، وكيف تصل هذه الثلاثية بالإنسان إلى خالقه عزَّجَلَّ، ومن ثم فالعلاقة بين هذه الثلاث علاقة تكاملية وليست تعارضية ولا حتى جدلية.

كذلك، إذا كان القرآن الكريم هو «كتاب الله المسطور»، فالوجود هو «كتاب الله المنظور»، وعلينا أن نتعلم قراءته لنذكر من خلاله أدلة الوجود الإلهى، والوحدانية، وما يَسِّرَ الله عزَّجَلَّ لنا أن نطلع عليه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

ولهذا المشروع هدف رئيس، وهو تجديد الفكر الدينى، بعد أن أصبح عاجزاً عن ملاحقة العصر، كما يهدف إلى تجديد الفكر العلمى.

ونهدف من تجديد الفكر الدينى إلى طرح خطاب دينى يمثل عامل جذب بعد أن أصبح الخطاب السائد عامل طرد من دائرة الإيمان. وذلك امتثالاً لحديث رسوله الكريم ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها (أمر) دينها».

أما تجديد الفكر العلمى فيهدف إلى أن يدرك العلماء أن ليس بين العلم والدين تعارض، بل هناك توافق عميق بينهما، مصدره أن جذور العلم الحديث مستمدة من الدين. وأن يدرك العلماء أن التوصل لآليات الظواهر العلمية لا يتعارض مع وجود غائية وراءها. وبذلك يُسلمنا العلم فى آخر المطاف إلى القول بالوجود الإلهى الخالق لهذا الوجود ومُدَبِّرُه وحافظه.

ويتفاعل هذان المشروعان التجديديان ليُحققا المنهج الإسلامى الأصيل فى الدعوة الذى يتماشى مع هذا العصر ويتجاوب مع وعد الله عزَّجَلَّ:

﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴾
[فصلت: 53].

وفي إطار هذا المشروع الفكري، احتلت «قضية الإلحاد» موضعاً مهماً، باعتبارها خصوصية داخل المنظومة العامة، خاصة في السنوات الأخيرة. كذلك أقحم التصدى للفكر الديني الأصولي الجامد المتشدد نفسه على المشروع في الفترة الأخيرة.

(39) من العلامات البارزة في مشروعى الفكرى الترويج لمفهوم «التطور الموجه» أو «التطوير الإلهي»، والذي يتبنى الإقرار بالتطور البيولوجي كآلية لتنوع الكائنات، وفي الوقت نفسه يرفض اعتماد «العشوائية» كآلية للتطور، وذلك بعد أن أثبت العلم خطأ مفهوم العشوائية بصفة عامة، كما أثبت احتياج التطور البيولوجي لمُكوّن معلوماتي هائل لا يوفره إلا مصمم ذكى.

ونرى أن الإقرار بالتطور الموجه مع اعتباره آلية استعملها الإله الخالق في تنويع الكائنات يحل الكثير من الصدام الظاهري بين العلم والدين في هذه القضية.

(40) يخاطب هذا المشروع ست فئات من القراء:

1- متدين يريد أن يرقى بإيمانه، من إيمان الميلاد إلى إيمان اليقين، حتى يمتلئ قلبه بالشعور بأن الله حق.

2- متدين غابت عنه حقيقة الإنسان، كموجود متكامل من جسد وذات غير مادية (روح/ نفس/ قلب/ عقل). ومن ثمّ نظر إلى الإنسان نظرة عوراء، لا ترى فيه إلا مادية متدنية أو روحانية منفصلة عن الواقع.

3- متدين يظن أن فهمه للدين الذى تربى عليه «تمام التهام»! فلم يُنزل العقل والعلم منزلتهما فى منظومة الإيمان، فغاب عنه أكثر مما حَصَلَ.

4- متدين يبهره ما يردده الملاحدة من (كلام كبير) حول مساهمة العلم فى تأكيد المفاهيم الإلحادية، فيغمره شعور بالنقص لانتماؤه لهذه الطائفة المتخلفة (المتدينين!)، بدلاً من أن يغمره الشعور بالزهو.

5- من ينتمون إلى التيار الأصولى الدينى الجامد، عسى أن يتخلصوا من جمودهم ويدركوا خطورة توجهاتهم، ويراجعوا فهمهم الدينى شديد القصور.

6- ملحد أو متشكك، اتَّشَحَّ بالعلم، عن كبر أو عن جهل، ورأى فيه برهان الإلحاد بدلاً من أن يرى فيه أدلة الإيمان، فَتَوَجَّسَّ أن نوضح له الحقيقة حتى نُنقِذَه من نفسه.

معاركى ضد الأصولية..

41) لم يكن التصدى للفكر الأصولى الدينى أحد مكونات مشروعى الفكرى، لكن هذا الفكر فرض نفسه عَلَى فرضنا. وذلك من خلال هجوم الأصوليين الدينيين على العلم (من خلال مهاجمة كتاباتى العلمية) هجوماً شديداً، وصل إلى إنكار الإجماع العلمى حول المفاهيم العلمية، كدوران الأرض حول الشمس والتطور البيولوجى، بل وتكفير من يقول بهما!!

وقام الأصوليون الخلقويون بحملات شرسة لمهاجمة كتاباتى العلمية، عن طريق الكتب والندوات ووسائل التواصل الاجتماعى. وقد تطلب ذلك أن أقوم بتفنيد ادعاءاتهم وأخطائهم، وبدأ السجال، واستمر، حتى كادوا فى أوقات كثيرة أن يشغلونى عن واجبى تجاه تفنيد الفكر الإلحادى!!

وقد كان هذا التطور في مشروعى الفكرى لازماً، بعد أن تأكد لى أن هذا الفكر هو أحد الدوافع الرئيسة لشبابنا للنفور من الدين وتبنى الإلحاد. ومن ثم لم يكن تعاملى مع الإلحاد ولم يكن سعى لتجديد الفكر الدينى والفكر العلمى ليكملوا دون تنفيذ المفاهيم الأصولية الدينية.

(42) يتسم الفكر الأصولى Fundamentalism (على اختلاف توجهاته) بسمات ثلاث؛ إطلاق فهمهم النسبى وإرادة الهيمنة وأن الغاية تبرر الوسيلة.

وقد تعاملت خلال مشروعى الفكرى مع ثلاثة أنواع من هذا الفكر؛ أولها هو «الفكر الأصولى الإلحادى»، الذى لا يحترم أخلاقيات الاختلاف مع المندىنين، ثم «الفكر الأصولى المُستَعْلَم»، الذى يتبنى أن الألوهية والمفاهيم الدينية لا تستقيم مع العلم، وأخيراً «الفكر الأصولى الدينى». وبعد تعاملى مع هذه التوجهات الأصولية الثلاثة، ظهرت لى سمة رابعة فى منهجهم، وهى أنهم لا يقرأون جيداً - وإن قرأوا لا يفهمون - حول المفاهيم التى ينكرونها (جهل)، كما لا يقرأون ما يطرحه معارضوهم عند تنفيذ أطروحاتهم (عناد)، وإن قرأوا فإنهم يحرفون تلك الردود عند مقاصدها (تزوير)، ولا شك أن هذا التزوير هو أبسط الأساليب فى منهج «الغاية تبرر الوسيلة» الذى يتبعونه.

(43) كَشَفَتْ لى قراءتى ومناظراتى العديدة والعميقة لفكر الأصوليين الدينيين الخلقويين (الذين يرفضون مفهوم التطور البيولوجى ويتبنون بدلاً منه مفهوم الخلق الخاص) عن عدة جوانب قصور منهجية شديدة الخطورة، لعل أهمها:

- يُحَكِّمُونَ فهمهم التراثي للنصوص الدينية حول خلق الإنسان في «المفاهيم العلمية»!!

- يرفضون ويُسَفِّهون بعلمهم القاصر للغاية من «الإجماع العلمي» لكبار علماء العالم حول قبول مفهوم التطور البيولوجي!!

- عدم فهمهم لأساسيات «المنهج العلمي» وكيفية إقراره بصحة النظريات العلمية!!

- اكتفى الخلقويون بمهاجمة الإجماع العلمي على حدوث التطور، ولم يقدموا دليلاً علمياً واحداً على «الخلق الخاص»!! ولن يجدوا.

- أما المصيبة الكبرى، فإقرارهم صراحة بأنهم لا يبالون بقوة أو ضعف الأدلة العلمية على التطور، لكنهم يرفضون النظرية حتى لا يخضعوا لما يطرحه «الرجل الأبيض» (يقصدون الحضارة الغربية) من نظريات!! ويعتبرون أن قبولهم لهذه النظريات يجعلهم عبيداً للغرب كما يجعلهم كالقردة والخنزير!! ففقدوا بذلك أدنى درجات «الموضوعية العلمية».

وقد أدى أسلوب الأصوليين الدينيين في ضرب العلم بالدين إلى أن فقد الكثيرون من شبابنا الثقة في الدين الذي يخالف العلم بل ويزدرية ويُسَفِّه منه فصرنا نرى شبابنا يخرجون من دين الله أفواجا.

44) لقد أصبحت على يقين من صحة قول الشيخ محمد الغزالي «رحمه الله»، معلقاً على ما آل إليه حال الإسلام والمسلمين، وذلك في قوله:

«إن أمة ألغت عقولها لألف عام كان حرياً بها الآن أن تمشى على أربع كالذباب، لولا لطف الله عزَّ وجلَّ».

كما أصبحت على يقين من قوله؛ «إن أكثر من نصف وزر إلحاد الملاحدة يقع على أكتاف رجال بَغَضُوا الله عَزَّوَجَلَّ إلى خلقه، بسوء أفعالهم وسوء كلامهم».

ولا شك عندى أن أخطر من قصدهم شيخنا الغزالي عبر التاريخ الإسلامى هم الأصوليون الإسلاميون، الذين يصرون المعاصرون منهم على رفض الإقرار بدوران الأرض حول الشمس ورفض مفهوم التطور البيولوجى بل وتكفير من يقول بهما من أهل القبلة! إن هؤلاء بلا شك مثال سيئ للإسلام أمام أبنائنا وأمام العالم الذى أُمِرنا بدعوته للدين الخاتم، ذلك بالإضافة إلى ما تسببه معاداة العلم من تخلف الدول الإسلامية.

(45) تقف وراء الفكر الأصولى بأنواعه المختلفة عدة عوامل نفسية، لعل أهمها حب الظهور الذى قد يصل إلى جنون العظمة. وأيضاً النقيض من ذلك؛ وهو الفشل والشعور بالإحباط ومحاولة تعويض ذلك بارتداء عباءة الدفاع عن الدين أو العلم أو حرية الفكر. ويجمع هذين الفريقين من الأصوليين عامل نفسى مشترك؛ وهو عدم القدرة على تحمُّل التعارض الظاهر بين مفهومين، وهو ما يسميه أطباء النفس «عدم القدرة على تحمل عدم اليقين»، ويعتبرونها من دلائل عدم الثبات النفسى.

(46) كأى صاحب مشروع أتمنى لمشروعى النجاح.

وأرى النجاح فى أن يُعْم هذا الفكر وينتشر، وأن يشارك فى تجديد الفكر الدينى وتجديد الفكر العلمى، وأن يبقى كـ «علمٍ يُنتَفَعُ به» دائم العطاء بعد وفاتى.

حصاد الحصاد...

(47) أفتتح حصاد الحصاد لرحلتى مع ذاتى ومع فكرى بقصيدتين؛
لشاعرين أحسنا الظن بطبى وبفكرى، ومن ثم فهما يعبران عن رؤية
الآخرين لـ «أنا - عمرو شريف».

القصيدة الأولى للشاعرة الشريفة السيدة صافيناز مشهور، التى
أجريت لها جراحة كبيرة. وهى قصيدة كتبها تعبر بها عن امتنانها وتثنى
على جراحها.

قدمت الشاعرة لقصيدتها بقولها:

إلى السيد الأستاذ الدكتور الشريف عمرو عبد المنعم شريف، عَلم
الجراحة فى مصر، والحسيب النسيب الممدود الوصل بسيد الخلق ﷺ،
فبإذن من العلى القدير يُجرى الشفاء على يديه لمرضاه.

أتقدم - وزوجى - بأسمى آيات الشكر لسيادته على العناية الفائقة
والجهد الصادق الذى بذله فى العملية الجراحية الناجحة التى أجراها لى
بالتوفيق من الله عَزَّجَلَّ يوم 2001/2/28.

ونسأل الله عَزَّجَلَّ أن يُسبغ فضله ويُديم مدده على عبده المؤمن
الشكور د. عمرو شريف أستاذ الجراحة بجامعة عين شمس:

قصيدة عمرو الخير..

إلى عَلمِ الجراحةِ والعلوم
إلى الخليفةِ المعقود له لواء
إلى عمرو شريف محمود السجايا
حباكَ اللهُ من علمٍ وخلقٍ
وليس هذا بالكثيرِ على ولى
فيا سَعْدَ الذى يلقى خُطاك
فنشكر الرحمن أن أعطاك عِلْمًا
فصرتَ مقصدًا لمن يبغي شفاءً
فَتَعْمِدُ السَّن فى الداءِ العُضالِ
فما خُلِقَ البرايا بغير كَبَدٍ
فخير الخلق أكثرهم بلاء
فزد يا رب عطاياك لعمرو الخير
ومن يعمل لوجه الله خيرًا

إلى رفيعِ القدر ذى القلبِ الرءوم
شفاءِ النفسِ من كل السُّقوم
إلى النطاسى المُبرِّء للسموم
فصرتَ عظيمَ الشأن مبروكَ القدوم
سلسيلِ حَسْبُه يعلو النجوم
فقد طابت نفسه عَنَتَ الهموم
عميمَ النفع ذا الخير المروم
ومَرَجَى الخَلْقِ فى اليومِ الحسوم
وتنزعُ خُبْنَه فتنتشعُ الغيوم
ليسموا الصابرون على السُّوم
ليجُزى العابدون ذوو الحُلوم
لينتقص البلاء ولا يسوم
يعلو ذكرُه بلا انقطاع بل يدوم

والله نسأل العفو والعافية...

والقصيدة الثانية، للشاعر عزت عبد الله (عضو رابطة الأدب
الإسلامى العالمية وعضو اتحاد كتاب مصر) رحمه الله.

وقد قدم لقصيدته قائلًا:

إلى العالمِ العارف، معالى الأستاذ الدكتور عمرو شريف، أستاذ

ورئيس أقسام الجراحة بكلية طب عين شمس، والمفكر الإسلامى العلمى.. من وحي قلمكم

أنتم القصيدة..

يا عَمْرُو ماذا يستطيع لسانى
قلمى يَعِزُّ عليه ما فى جُعبَتى
إِنِّى لأَعْجُزُ فى مَقامِ مَدِيحِكُمْ
يا عالمَ العصر الحديثِ وفارسًا
أَعْمَلْتَ عَقْلَكَ فى بَدَائِعِ خَلْقِهِ
فَغَنِمْتَ مِنْ عِلْمِ الحَقِيقَةِ مَغْنَمًا
تَابَعَتْهَا فَتَهَجَّتْ مِنْهَجَ عَارِفٍ
أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ بالكتابِ وَهَدِيهِ
وَعَلِمْتَ أَنَّ الكَوْنَ فىكَ مُصَغَّرٌ
بالْعِلْمِ حَقَّقْتَ الوجودَ لِقُدْرَةِ
لا لِلطَّبِيعَةِ مَثَلًا زَعَمُوا لها
خَابَ الملاحِدَةُ الذينَ تَمَرَّدُوا
سير «أنتونى فلو» كان أَشْرَسُهُمْ فَمَا
لِلَّهِ خَالِقُهُمْ وَخالِقِ عِلْمِهِمْ
فلقد تَأَخَّرَ فى الوصولِ إلى الذى

إِنْ شِئْتُ تَغْيِرًا عَنِ الْوَجْدَانِ؟
وَتُثْوِهُ مِنِّى فِكْرَتى وَجَنَانِ!
ماذا يُضَيِّفُ مِنَ المَدِيحِ بَيَانِ؟
مُتَفَرِّسًا فى قُدْرَةِ الدِّيانِ
مِنْ غَيْرِ ما شَطَطَ ولا اسْتَهْجَانِ
الْهُدَى فيه لِسُنَّةِ العَدْنَانِ
وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الْجَدِّ وَالْهُدَيَانِ
فَنَهَلْتَ مِنْهُ مَعَارِفًا وَمَعَانِ
فَقَدَرْتَ حَقًّا قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ
لَيْسَتْ لِغَيْرِ الْوَاحِدِ الدِّيانِ
بِتَطَوُّرٍ وَتَعَاظُمٍ وَتَدَانِ
وَاسْتَنْكَرُوا جَهْلًا بَغَيْرِ بَيَانِ
ذا بَعْدَ رَحْلَتِهِ سِوَى الإِدْعَانِ؟⁽¹⁾
وَمُضِلُّهُمْ قَبْلَ الْهُدَى بِأَوَانِ
أَحْيَاهُمْ بِالرُّوحِ فى الْأَبْدَانِ

(1) سير «أنتونى فلو»: أستاذ الفلسفة البريطانية، كان أشرس ملاحدة زمانه ولد فى لندن فى 11 / 2 / 1932. (د. عمرو شريف عن كتابه رحلة عقل).

بعد الثمانين استبانَ يَقِينَهُ
 فأقرَّ للُسُبحِ وُحدانيَّةَ
 مَنْ باعدَ الأفلاكَ عَبرَ بَحْرَةٍ
 هو مارِجُ البَحْرَيْنِ رَغَمَ تَعَارُضِ
 والآيةِ الكُبرى إقامةَ بَرزَخِ
 أوْلَيْسَ فيما شاءَ مِنْ إِبْداعِهِ
 أوْلُسْتُمْ باللهِ مِنْ إِبْداعِهِ
 قولوا بلى يا أيها الجُهاالُ ما
 حتى إذا ما شاءَ أَفْنَى خَلْقَهُ
 للبعثِ مِنْ بعدِ الفناءِ إعادةً
 فوقَ الصُّراطِ البَعْضُ يَمْضِي مُسرِعاً
 والبَعْضُ يَغْثُرُ كَلِّما مَثَلْتُ لَهُ
 من قبلهم «إِخْناَت» دُونَ رِسالةِ
 مَدَدُ أَتاهُ مِنَ السَّماءِ العُلَى
 فأدانَ بِالتَّوْحِيدِ لا بِتَعَدُّدِ
 إلا الَّذي أَهداكُ مِنْ نورانِهِ
 يا عمرو إنَّ أَرْجوكَ لى شَيْخاً فلى
 فالمدَّعونَ ضَلالُهُمْ يَسْعَى بِهِمْ

أَنَّ الوجودَ لواحِدٍ لا ثانٍ!
 فى الخلقِ لِلْكَوْنِ العَظِيمِ الشَّانِ!
 تَجْرى بِقُدْرَتِهِ على الأَزمانِ
 عَذْبٌ ومِلْحٌ كيف يَلْتَقِيانِ؟!
 لا يَنْغِيانِ إِذاً فيخْتَلِطانِ
 لَدلائِلِ تَدْعُو إلى الإِيمانِ؟!
 وإِليه مَرْجِعُكم بلا اسْتِثْذانِ؟!
 مِنْ خالِقِ النِّعَمِ سِوَى الرَّحْمَنِ
 يَوْمَ القِيامَةِ دُونَما إِعلانِ
 لِلْخَلْقِ يُنْصَبُ مُحْكَمُ المِيزانِ
 بالنورِ يَعْصِمُهُ مِنَ النِّيرانِ
 أَعْمالُهُ مِنْ سابِقِ العِضيانِ
 بالْبَعْثِ آمَنَ مِنْ سَحيقِ زَمانٍ!⁽¹⁾
 وأَحَسَّهُ بالقلبِ والوِجْدانِ
 مَنْ ذا الَّذي أَهداهُ لِلْفُرْقانِ؟!
 فى السُّنَّةِ السَّمْحاءِ وَالْقُرْآنِ
 فى صُحْبَتى لَكَ عَزِّقْ وأمانى
 حَتِّماً إلى سَقَرٍ مِنَ النِّيرانِ

(1) «إِخْناَت»: عاشر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة وثانى أبناء أبيه، أمنتب الثالث، وأول من نادى بوحداية الله، يراه بقرص الشمس ولا يشرك به أحد. (الموسوعة العربية الميسرة).

وَالْعَالَمُونَ الْعَارِفُونَ بِرَبِّهِمْ وَالْمُفَرِّدُونَ لَهُمْ حُصُونُ أَمَانٍ
 أَنْتُمْ قَصِيدَةُ شَاعِرٍ مُتَأَمِّلٍ فِيهَا أَجَادَ اللَّهُ مِنْ بُيَانٍ
 أَنْتُمْ قَصِيدَةُ شَاعِرٍ أَهْدَاكَ لِي رَبِّي لِأَعْرِفَ قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ
 أَنْتُمْ قَصِيدَةُ شَاعِرٍ أَثْبَتَهَا مَدَدُ مِنَ الْعِرْقَانِ بِالْإِحْسَانِ

عزت عبد الله: طنطا: 11/10/2011

(48) يعطينا د. عبد الوهاب المسيري درسًا في أن المفكر لا ينبغي أن يحيا في برج عاجي، وألا ينشغل بعالم الفكر عن هموم وطنه وأهله، وذلك من خلال اشتغاله بالسياسة في سنوات عمره الأخيرة بالرغم من مرضه بالسرطان، وقد تحمل في سبيل مصر الاضطهاد النفسي والفكري والأذى البدني.

يجول بخاطري طيفُ د. المسيري كلما عتبَ علَيَّ بعضُ القراء أني أوجه رسائل تدعو لوحدة الكلمة والحفاظ على تآزر الشعب والجيش والشرطة، والإخلاص للوطن؛ حيث إن البديل هو دمار مصر ونفقتها وتشرد وجوع شعبها.

يقول لي الأمناء من هؤلاء؛ نحن نُقَدِّركَ ونُجَلِّكَ كمفكر يهتم بثلاثية العلم والدين والفلسفة، ولا نود أن تنشغل بمستنقع السياسة الذي يُدَنِّس كل من يخوض فيه. أما أصحاب الأهواء، فيقولون لي: إذا تحدث المرء في غير تخصصه أتى بالعجائب!! يقصدون أنني لو خرجت عن كتاباتي الفكرية ودعوتُ لتحاشي الصدام بين الشعب وبين الجيش والشرطة فقد أخطأت أخطاءً كثيرة!!.

للفريق الأول أقول؛ سبحانه الله، هل الاهتمام بوحدة الوطن

وسلامته خوض في مستنقع السياسة. ولل فريق الثاني قلت: أنتم يا تلاميذ تلاميذى!! أصحاب التخصص الذين توجهوني لما ينبغي وما لا ينبغي أن أكتب!! قناعتي أن هؤلاء من الحريصين على خراب مصر!! ويؤرقهم أن أشارك بفكرى في إحباط مؤامراتهم.

(49) تصف حالى إلى مدى بعيد مقولة د. أحمد مستجير (رحمه الله)، يصف فيها موقفه بين عالم الفكر - الذى يشير إليه بـ «الفن» - وبين تخصصه الرفيع فى علم البيولوجيا الجزيئية، يقول:

«أنا فى الحقيقة مُوزَّعٌ بين شاطئين؛ كليهما خصب ثرى، أجلس على شاطئ واستعذب التأمل فى الآخر، وأعرف أن الفن أنا والعلم نحن. ذُبْتُ فى النحن وأُحِنُّ إلى الأنا، وأعرف أن الفن هو القلق وأن العلم هو الطمأنينة، فأنا مطمئن أرنو إلى القلق».

هل أنا مثل د. مستجير، أقف على شاطئ وأحن إلى الآخر؟

أم أننى واقف بقدم على شاطئ الجراحة وبالقدم الأخرى على شاطئ الفكر المقابل؟

(50) أَحْمَدُ الله عَزَّجَلَّ أن جعلنى ممن يَرْضُون بقضائه وَقَدَره، بالرغم من أننى آخذ بالأسباب المادية إلى أقصاها، ولكن إذا وقع الأمر حمدت الله عَزَّجَلَّ عليه ونظرت إلى نصف الكوب المלא، أعنى ما فيه من إيجابيات، وطبقت القاعدة: لو أطلعتم الغيب لاخترتم الواقع.

وتحضرنى فى نهاية هذا العرض لـ «أنا..» قصة قصيرة نشرها الروائى يحيى حقى (رحمه الله) عام 1944، تحت عنوان «كُنْ كان» ويقصد بها نوعاً من ألعاب الورق يُستخدم فى الرهان، وهذا تلخيص للقصة:

« كان حُسين فرغلي غير راضٍ عن قراراته خلال السنوات العشر الأخيرة، ومنها اختياره لزوجته، وما ترتب عليه من أن صار يحيا حياة تعسة. تمنى حسين بصدق لو يعود عُمرُه إلى الوراء عشر سنوات، حتى يراجع اختياراته، مقابل أن تُنتقص من عمره هذه السنوات العشر.

فوجئ حُسين بملاكٍ من السماء يخبره بأن أمنيته قد تحققت، وبالفعل وجد أن أحداث عمره تعود عشر سنوات للوراء، ووجد نفسه لم يتزوج بعد.

سَعَدَ حسين بذلك كثيراً، ولكن قبل أن ينقضى اليوم الأول؛ جاء الملك يخبره بأن عمره قد انقضى، فالسنوات العشر التي اشترى بها الرجوع للوراء كانت كل ما تبقى من عمره».

تذكرت هذه القصة وأنا أواجه محنة شديدة قد يحتاج اجتيازها إلى عام كامل. خطر ببالي لو دعوت أن أشتري هذا العام بعام من حياتي، بمعنى أن يجعلني الله عَزَّجَلَّ أتجاوز المحنة فوراً دون مرارتها مقابل أن ينتقص عاماً من عمري.

لم أجروء على ذلك الطلب، ليس خوفاً من أن يكون هذا العام هو الأخير من عمري، بل حياةً من ربي، فهذا سوء أدب في حق الله، كأنه عَزَّجَلَّ لا يمكن أن يُفَرَّجَ همي إلا إذا دفعت الثمن. وكان أن أنجز الله عَزَّجَلَّ الأمر وتمرر البلاء بعد أن ألهمني الصبر، دون أن يتقاضى الثمن.

الحمد لله الذي زادني يقيناً بأني:

« لو اطلعت الغيب لاخترت الواقع».